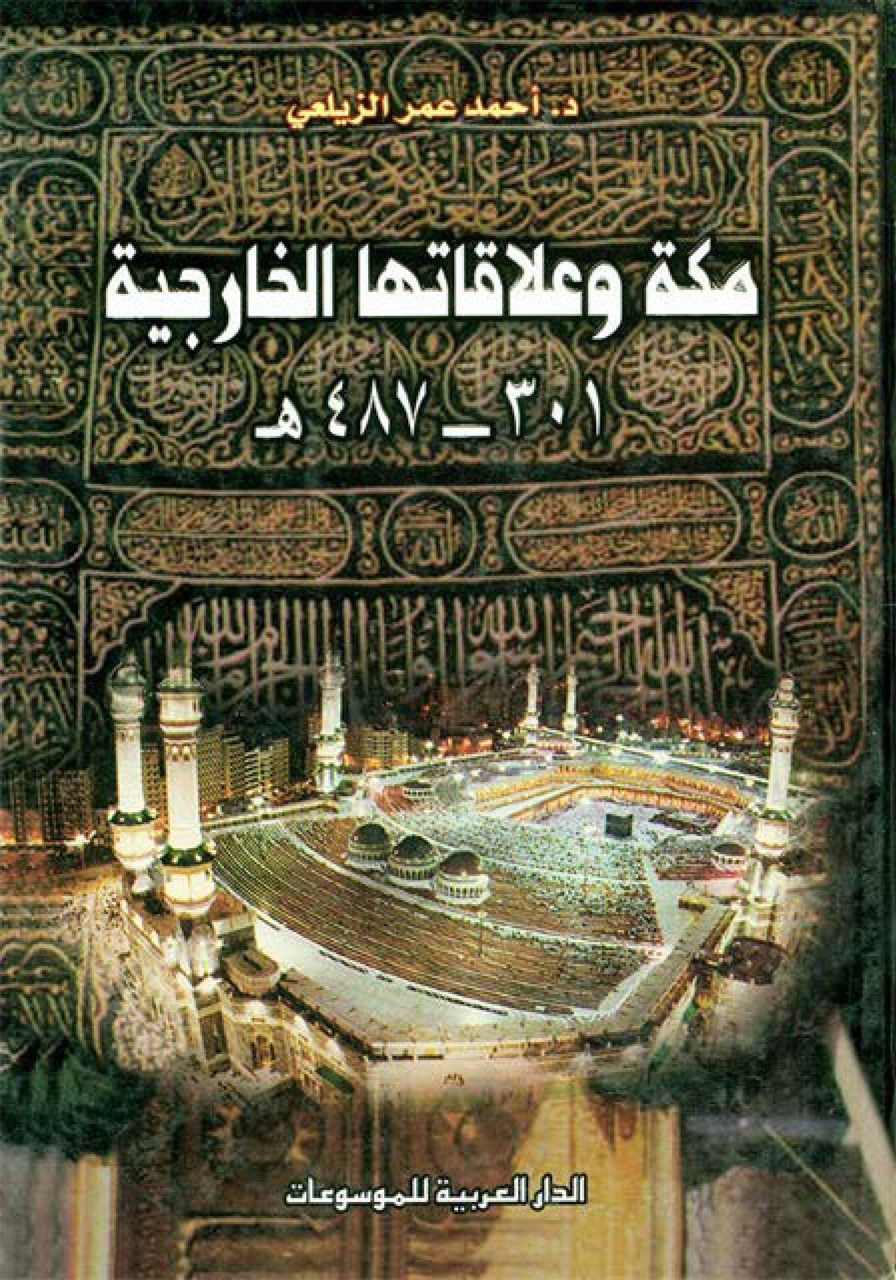


د. أحمد عمر الزيلعي

مكة وعلاقاتها الخارجية

٣٠١ـ ٤٨٧هـ

الدار العربية للموسوعات

مكة وعلاقاتها الخارجية

٣٠١ ـ ٤٨٧ هـ



مكة وعلاقاتها الخارجية

٣٠١ ـ ٤٨٧ هـ

د. أحمد عمر الزيلعي

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى: ١٩٨١ م - ١٤٠١ هـ

الطبعة الثانية: ٢٠٠٥ م - ١٤٢٥ هـ

الدار العربية للموسوعات



الحازمية - ص.ب: ٥١١ - هاتف: ٩٥٢٥٩٤/٠٠٩٦١٥ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢/٠٠٩٦١٥

هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣/٠٠٩٦١٣ - ٥٢٥٠٦٦/٠٠٩٦١٣ - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com

البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

شكر وتقدير

ارى من الواجب عليّ بعد أن انتهيت من اعداد هذه الدراسة أن أتقدم بالشكر الجزيل الى أستاذي الدكتور عبد الله عقيل عنقاوي ، فهو الذي شجعني على المضي في هذا الموضوع ورعاه حق الرعاية ، ولم يبخل عليّ بغزير علمه وتوجيهاته القيمة حرصا منه على أن يكون هذا البحث أقرب الى الكمال ٠

ولا يفوتني هنا أن أذكر لأهل الفضل فضلهم ، ومنهم أستاذي الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري ، فهو الذي زكاني ورشحني للعمل معيدا بقسم التاريخ ، وله الفضل في تحبيب البحث التاريخي الى نفسي ، وفي السير في هذا الطريق ٠

ويطيب لي أن أتقدم بالشكر الجزيل والاعتراف بالجميل لعميد الكلية الدكتور عزت عبد المجيد خطاب وللمسئولين في جامعة الرياض وعلى راسهم معالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور عبد العزيز الفدا على اتاحتهم الفرصة لي للقيام برحلات علمية داخل المملكة وخارجها ، وعلى تسخيرهم الامكانيات المادية والمعنوية للخروج بهذا البحث الى حيز الوجود ٠ واسأل الله العلي القدير أن يحفظهم ويرعاهم بعنايته ويأخذ بأيديهم لخدمة العلم وطلابه ٠

كما لا يسعني الا أن أتقدم بالشكر الجزيل الى المسئولين في مكتبات ومخطوطات جامعة الرياض والمكتبات الأخرى التي زرتها داخل المملكة وخارجها ٠

كما أشكر أعضاء مجلس كلية الآداب وأعضاء مجلس قسم التاريخ ، فهم أساتذتي وبفضلهم جميعا وتعاونهم استطاع هذا البحث أن يخرج الى حيز الوجود ، فلهم مني جزيل الشكر ولكل من مدّ لي يد العون والمساعدة ٠

وأخيرا لا يسعني الا أن أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل لأستاذيّ الدكتورين ابراهيم أحمد طرخان وحسن أحمد محمود على ملاحظاتهما القيمة أثناء مناقشة هذه الرسالة وعلى توصيتهم بطباعتها على نفقة الجامعة ٠

كما أشكر المجلس العلمي وعلى راسه سعادة الأستاذ الدكتور وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي على اجازة هذا العمل للنشر ٠

ويطيب لي أن أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ الدكتور سعد عبد العزيز الراشد على اشرافه على طبع هذا الكتاب وعلى تزويده ببعض الأصول المفقودة ٠ وكذلك أشكر أستاذي الدكتور حامد غنيم أبو سعيد على اعارتي مخطوطة كتاب تاريخ مصر للمسبحي ٠

كما أشكر زميلي وصديقي الحميم الأستاذ عوض حمد القوزي على كل ما قدمه لي من عون ومساعدة أثناء اعداد هذا البحث ٠

ولا يفوتني أخيرا أن أشكر المسئولين في مطابع جامعة الرياض وفي قسم النشر العلمي ومنهم الأستاذ مفرح فهيم سليمان الذي أعد أصول هذا الكتاب للطباعة ٠ وكذلك كل من ساهم في اخراج هذا العمل الى حيز الوجود ٠

والله ولي التوفيق ،،،



المحتويات

صفحة

الباب الثاني

صفحة

العلاقــات الدينية (الحج)

الباب الثالث

العلاقات التجارية

صفحة

مصادر البحث

الخرائط والصور

اسقاط عرش كسرى واستولت على جميع أراضي الدولة الساسانية وعلى الجزء الأعظم من الامبراطورية البيزنطية في بلاد الشام وافريقيا ٠

الا أن الدولة العربية الاسلامية لم تلبث أن أصيبت بهزة عنيفة على أثر الفتنة التي أودت بحياة الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه وتمرد الأمصار التي أصبحت مركز الثقل ـ على الخليفة الجديدة علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي لم يجد بدا من الخروج الى العراق ليتمكن من مناجزة الخارجين على سياسته عن قرب وليستفيد من مقومات ذلك القطر وما يكتنزه من مال وسلاح وكراع ٠

وكان خروج الامام علي هذا الى العراق بداية النهاية للمركز السياسي الذي كان يتمتع به الحجاز بصفة عامة والجزيرة العربية بصفة خاصة ، ولم يكن ذلك خافيا على الحجازيين منذ تلك اللحظة فقد أدركوا أن خروج علي من المدينة قد ينقل عنها سلطان الدولة ويذهب مكانتها السياسية ، وكان أول من نبه الى ذلك عبد الله بن سلام اذ تعلق بعنان علي عند خروجه ، وقال : « يا أمير المؤمنين لا تخرج منها ، فوالله لئن خرجت منها لا ترجع اليها ، ولا يعود اليها سلطان المسلمين أبدا [١] » ، كما اجتمع أشراف الأنصار وأقبلوا الى علي يحاولون ابقاءه في المدينة وأن يوجه الحرب منها ، وطلبوا منه أن يفعل مثل عمر من قبل « فقد أقام عمر ، وكفاه سعد زحف القادسية وأبو موسى زحف الأهواز ، وليس من هؤلاء رجل الا ومثله معك والرجال أشباه والأيام دول [٢] » ٠ ولكن فاتهم أن المدينة والأمصار كانت تتجه يدا واحدة في عهد عمر لحرب عدوهم ، أما اليوم فقد أصبحت الأمصار تتحفز لحرب المدينة وعلى رأسهم كبار المهاجرين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

ولم يكن يدور بخلد الامام على أنه يغادر مثوى الرسول صلى الله عليه وسلم الى الأبد ، فقد كان يعتقد أن مهمته لا تتعدى رحلة قصيرة يقضي خلالها على عناصر الشغب ثم يعود الى المدينة ، ولذلك رد على كبار الصحابة الذين أشفقوا من خروج الخلافة من المدينة بقوله « ان الأموال والرجال بالعراق ، ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريبا منها [٣] » ولم يجد الحجازيون سبيلا أمام الحجة المقنعة الا أن يسيروا تحت لواء علي للقضاء على الخارجين عليه وحسم الفتنة ٠

وهكذا انتقل مركز الخلافة الى العراق ثم الى الشام ثم الى العراق مرة أخرى ففقد الحجاز مركزه السياسي وانفلتت منه زعامة العالم الاسلامي ، وانتقل من قاعدة للخلافة الاسلامية الى ولاية تابعة للخلافة الأموية في دمشق ثم العباسية في بغداد ٠

غير أن الحجاز عامة ومكة بصورة خاصة لم تقبل نهائيا بالأوضاع الجديدة التي فرضت عليها ، فقد شهدت ساحتها ثورات عدة كان أقواها وأخطرها ثورة عبد الله ابن الزبير ، والتي كادت أن تعيد الى الحجاز مكانته السياسية كمركز للخلافة الاسلامية الا أن حنكة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ومقدرة الحجاج بن يوسف الثقفي وحسن قيادته مقابل ضعف سياسة ابن الزبير كانت من العوامل التي أدت الى فشل تلك الثورة واجهاضها وبالتالي القضاء على زعمائها ٠

وكانت هذه الثورة الى جانب ثورة محمد النفس الزكية ــ التي سيأتي الحديث عنها ــ آخر المحاولات التي بذلها الحجاز على مدى أربعة قرون لاسترداد نفوذه السياسي على بقية الأمصار ٠ غير أن هذه التطورات وان تركت آثارها على مركز الحجاز من الناحية السياسية ، فانها لم تؤثر على مركزه من الناحية الدينية والثقافية فقد ظلت مكة تضم الكعبة

---

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، طباعة دار القاموس ، بيروت ، جـ٥ ، ص ٧ ٠
(٢) الدينوري ، أحمد بن داود ، الأخبار الطوال ، ط(١) القاهرة (١٩٦٠م) ، ص ١٤٣ ٠
(٣) نفس المكان ٠

المشرفة قبلة المسلمين والمسجد الحرام الذي تشدّ اليـه الرحال من مختلف بقاع المعمورة ، كمـا تضم داخل حدودها وفي أطرافها مشاعر الحج وهو الركن الخامس من أركـان الاسلام ، الذي يجذب اليها آلاف المسلمين في كل سنة فيأتونها رجالا وعلى كل ضامر .

أما من الناحية الاقتصاديـة فلا ريب أن الحجاز قد تأثر كثيرا بانتقال الخلافة فقد حرم من موارد الفتـوح وعائدات الخراج والجزيـة . ولكنه من ناحية أخرى سرعان ما وجد المورد الذي يعوضه عن هذا الضعف ، فقد درج الخلفاء منذعهد بني أميـة على سياسة اغـداق الأموال على الحجاز في صورة صدقات وأعطيات حتى يشغلوا أبناءه عن التفكير في القضايا السياسية والمطالبة بالخلافة ، فعم الرخاء وتكدست ثرواتهم دون جهود تبذل . ونتيجة لذلك فقد أحس الشباب فـي مكة بفراغ كبير ، فاتجه فريق منهم الى العناية بالدرس الديني في المساجد وفريق آخر الى قرض الشعر والاشتغال بالأدب ، وثالث اتجه الى الحياة اللاهية والاستمتاع بمباهج الدنيا ومتعتها ، فقامت لذلك مدارس في الدين والأدب والغناء .

ولكن هذا الرخاء في مكة لم يعمر طويلا فقد أخذ في التضاؤل منـذ أواخر العصر العبـاسي الأول ، وذلك بسبب ضعف الخلفاء العباسيين ، وانصرافهم الى الحياة اللاهية ، هذا الى جانب تدخل الأتراك في شئون الخلافة الداخلية ، وما ترتب على ذلك من اضعاف سلطة الخلفاء فحـال دون وفائهم بالتزاماتهم تجاه الأماكن المقدسة في مكة المكرمـة .

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية نلاحظ أن جميع مصادر التاريخ الاسلامي كانت حريصة على الاسهاب في تاريخ الحجاز منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وحتى منتصف القرن الثاني الهجري ، ثم بدأ هذا الحرص يتضاءل منذ مطلع القرن الثالث الهجـري فلم تمدنـا المصادر الا بالنزر اليسير عن تاريخ مكة الديني كاقامة الحج للناس ونحو ذلـك وقلمـا تشير الـى الحيـاة السياسية والاقتصادية والحضارية لهذا البلد المقدس .

غير أن هذه المعلومات القليلة مع ما كتبه مؤرخا مكـة الأزرقي والفاكهـي في القرن الثالث يمكن أن تعطي الباحث معلومات قيمة عن تاريخ هذا البلد المقدس طوال القرون الثلاثة الأول ، وبموت هذين المؤرخين الأزرقي سنة ٢٥٠هـ والفاكهي سنة ٢٨٠هـ دخل تاريخ مكـة في غياهب النسيان وشمله غموض تـام استمر على مدى خمسة قرون ، الى أن جاء الفاسي في القرن الثامن الهجري ، ومن تلاه من مؤرخي مكة أمثال ابن ظهيرة وابن فهـد والطبرى وغيرهم ، ورغم مـا بذلوه من جهد لسد هذه الفجوة من تاريخ مكة ، الا أن الباحث لا يزال يواجه كثيرا من الجوانب الغامضة في تاريخ المدينة المقدسة ، ولا سيما في القرنين الرابع والخامس الهجريين (٤) ، وهذا الفراغ هو الذي دفعني لاختيار هذا الموضوع والكتابة فيـه لعلي أسهم بجهدي المتواضع في سد هذه الفجوة الكبيرة من تاريخ مكة المكرمة .

ولم يكن يخطر ببالي عند اختيار هذا الموضوع أنهـا مغامرة أقدمت عليها ، ولا ريب فـي ذلك فمعظم المصادر التاريخية المألوفة تحجم عن ذكر كثير من الوقائع المتعلقة بمكة المكرمة ، وان تناولت بعضها فانها لا تشير اليها الا لماما ، وهذه الاشارات الموجزة لا تخلو من تأثير العاطفة أو الانتماء السياسي والمذهبي لهذا المؤرخ أو ذاك ، هذا الى جانب اهتمـام المؤرخين في تلك الفترة وانشغالهم بتدوين أخبار العاصمة وما يدور في بلاط الخلافة ، وكذلك الاشارة الى بعض الحوادث الهامة التي يكون الخليفة طرفا فيها ، تاركين الولايـات البعيدة ــ ولا سيما في الجزيرة العربية ــ وما يدور على ساحتها في أدراج النسيان ، ولم يتصدّ أحد من أبناء مكة بعد الأزرقي والفاكهي لتدوين تاريخ هذا البلد المقدس .

(٤) منتاوى ، عبد الله ، المؤرخ تقي الدين الفاسي وكتابه شفاء الغرام ، بحث القـي فـي النـدوة العالميـة الأولى للدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، كلية الآداب ، جامعة الرياض ، ص ٥ .

وهكذا نال تاريخ مكة نصيبة في هذه الفترة من الغموض والاهمال ، ولم نعد نعرف شيئا عما يدور على أرضها سوى النزر اليسير من الحوادث الدينية التي تدور في الحـج والتي يحملهـا الحجاج الى بغداد • وقد أدرك هذا الغموض من سبقنا من المؤرخين فنجد أن الفاسي ، وهو أول من أرخ لمكة بعد الأزرقي والفاكهي يعجب من عدم تصدى أحد من المكيين لتاريخ مكة طوال خمسة قرون فيقول « واني لأعجب من اهمال فضلاء مكة بعد الأزرقي للتاليف على منوال تاريخه ، ومن تركهم تاليفا لتاريخ مكة يحتوى على معرفة أعيانها من أهلها وغيرهم من ولاتها وائمتها وقضاتها وخطبائها وعلمائها ورواتها كما صنع فضلاء غيرها من البـلاد لبلادهم كتاريـخ بغداد للخطيب البغدادي ، ومن بعده تاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ مصر للقطب الحلبي ، وغير ذلك من تواريخ البلاد [٥] » •

وقد بذل الفاسي قصارى جهده فقدم لنا معلومات قيمة في تاريخ مكة المكرمة ولكنـه كان في كثير من الأحوال يتجاوز الفترة التي أعقبت وفاة الأزرقي والفاكهي مشيرا الى ذلك بقوله « وقد خفي علينا من المعنى الذي ذكرناه ••• كثير لعدم تدوين من قبلنا له [٦] » •

وهكذا فقد توافرت عوامل عدة كـان من الممكن أن تدفعنـي الى الخـوف والاحجـام عـن الشروع في هذه الدراسة ، ولكن الخطوات التي خطاها من سبقني من الباحثين والصعوبات التي تجشموها في هذا الميدان ، والجهود المضنية التي بذلوهـا في سبيل البحث جعلتنـي أتخذ منهـم مثالا يحتذى وحافزا حملني على عدم التخلي عن تحقيق هذه الفكرة افادة للمشتغلين بالدراسات التاريخية ، ودفعا لحركة البحث خطوة الى الامام •

حزمت أمرى وطفقت أتلمس المعلومات المتناثرة في بطون الكتب ، ولم أقتصر في قراءاتي على كتب التاريخ فحسب بل أخذت أتصفح ما تقع عليه يدى من كتب الجغرافية العربية والرحلات والتراجم ومؤلفات الصوفية ، وكتب الحديث والفقه ودواوين الشعر والأدب ، ومؤلفـات علماء الدعوة الاسماعيلية وغير ذلك ، ومما سهل علي الاطلاع على هذا الحشد الهائل من المصادر الهامة هو ما أتاحته لى جامعة الرياض مـن القيام بزيارة بعض المكتبات الكبرى في عدد من الدول العربية والأجنبية ، فانتهلت مما حوته تلك المكتبات من موارد العلم المختلفة ، وخرجت منها بحصيلـة طيبة مكنتني من الاقدام على الكتابة في هذا الموضوع • وكان التصور الـذي خرجت به لهـذه الدراسة من الاشارات الغامضة في المصادر التي اطلعت عليها يكمن وراء التساؤلات الآتية :

- ما هو دور الحجاز في الحياة السياسية العامة للعالم الاسلامي في هذه الفترة ؟
- وما هو موقف الخلافة العباسية التي كانت تعمل منفردة في مكة حتى مطلع القرن الرابع، وذلك بعد أن اصبح لها منافس جديد يتمثل في الخلافـة الفاطمية التـي أخذت تسعى للحصول على موضع قدم لها في المنطقة ؟ وما هي الأساليب والتدابير التي اتخذتها كل من الخلافتين العباسية والفاطمية لتعزيز نفوذها وسيطرتها على البلاد المقدسة ؟ والى أى مدى كان يتعامل المكيون مع القوى المتهافتة على بلدهم ؟ •
- وما هي المكانة التي أعطت لمكة مثل هذه الأهميـة في نظر القـوى المتصارعـة عليهـا ، والميادين السياسية والدينية التي وجدت فيها هذه القوى مجالا رحبا لتنافسها ؟
- ثم ما هو النمط الاقتصادى الذي كان يعيشه المكيون في تلك الفترة ، ومـا هـو الدور الذي لعبوه في التجارة الدولية حينذاك ؟

---

(٥) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٤ •
(٦) نفس المصدر ، ص ١٠٢ •

وقبل الاجابة على هذه التساؤلات يحسن بنا أن نشير الى نقطة هامة ، وهـي أن الزعامـة المحلية للحجاز كانت منذ قيام الدولة العباسية في يد الأشراف العلويين ، وكانت علاقـة هؤلاء الأشراف مع العباسيين تقوم على العداء السافر ٠

وهذا أمر طبيعي ، فالعلويون كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا بحقهم في خلافـة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وأن هـذا الحق قـد اغتصبه منهم الأمويون ، فقاموا لذلك بثورات عدة للقضاء على الحكم الأموي واسترداد حقهم المسلوب ، ولكن هذه المحاولات كان نصيبها الفشل ، ولقى كثير من العلويين مصارعهم في ساحة القتال ضد أعدائهم الأمويين (٧) ٠

اما العباسيون فلم يحفظ لهم التاريخ أنهم شاركوا بشكل ايجابي ونضـال بنـي عمومتهم العلويين في النضال ضد الأمويين ، ومع هذا فقد استطاعوا بذكائهم أن يستغلوا النضال العلوى ، وأن يوجهوه لتحقيق مقاصدهم السياسية وأطماعهم في الخلافـة ٠ كمـا استطاعـوا أن يكسبوا القاعدة الجماهيرية التـي تدين بالولاء والطاعة للعلويين ، وذلك بأن جعلوا شعارهم هو الدفاع عن أهل البيت واسترداد حقهم المغتصب (٨) ٠

وعندما نجح العباسيون في اعلان خلافتهم شعر العلويون بخيبة أمل مريرة ، فقد اتضح لهم أن العباسيين قد اغتصبوا حقهم في الخلافـة ، وهم في هذا لا يختلفون عن الأمويين في نظرهم بل أشد جرما لأنهم اتبعوا معهم سياسة تقوم على الخداع والتضليل ٠ فناصبوهم العداء منذ الوهلة الأولى وتجسد هذا العداء في اشعالهم ثورات عديدة بالحجاز استطـاع بعضها أن يزلزل كيـان الدولة العباسية ، الا أن العباسيين تصدوا لهذه الثورات وضربوا بعنف على يد الثوار العلويين كمـا سيأتـي ورغم نجاحهم في ذلك الا أنهم لم يستطيعوا أن يخففـوا من حـدة بغض العلويين وعداوتهم للعباسيين (٩) ٠

استكان العلويون في مكة برهة من الزمن يرقبـون الأوضاع المتطـورة المحيطـة بالدولـة العباسية وأقاليمها المختلفة حتى سنحت لهم الفرصة في مطلـع القرن الرابـع حينمـا أعلن أحـد زعمائهم استقلاله عن الخلافة العباسية بمكـة المكرمة ، وكانت هذه الحركة ايذانا بتطلع زعماء الدولة الفاطمية الفتية التي قامت بالمغرب الى مد سيطرتهم على مكـة ، فطلبوا من زعيـم الثورة الجديدة التدخل لحمايته ، ولكنه رفض ذلك وبقي متمسكا باستقلاله ٠
كانت مبادرة الزعماء الفاطميين هذه ايذانا ببـدء سلسلـة من الصراع بـين العبـاسيين والفاطميين أو بين الخلافـة السنية والخلافـة الشيعية من أجل السيطرة وبسط السيادة والنفوذ على مكة المكرمة لما للسيطرة عليهـا من أهمية بالغة في نظر النظامين العباسي والفاطمي ٠

وعلينا هنا أن نتساءل عن المكانة التـي تحتلها مكة والتي خولت لها مثل هذه الأهمية في نظر الدولتين المتنافستين وجعلتها ميدانا لصراعاتهما ، وهل تعود هذه المكانة الى أهميتها كناحية خراجية ، وماتدره تلك الناحية من موارد مالية لخزينة الدولتين المتعاصرتين ، والاجابة على ذلك بداهة بالنفي ، لأن مكة بلد غير ذي زرع ، أو لعل ذلك يعود الى أهميتهـا الاستراتيجيـة كموقـع يوفر لأى من الخلافتين حماية لحدودها واستقرارا لأمنهـا ٠ وهذا بالطبع لا ، لأن مكـة تقع في قلب العالم الاسلامي ولا تجاور أيا من بلاد الحرب كتلك التي تقع على مشارف الشام وأواسط

(٧) عن ثورات العلويين في العهد الأموي ، انظر : أبو حنيفة النعمان ، شرح الأخبار الطوال ، مخطوطة بمدرسة الدراسات الشرقية رقم ٢٥٧٣٢ (لندن) ورقة ٣٧ ، ٥١ ، ٥٣ ٠

(٨) أبو سعيد ، حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ط(١) ، القاهرة (١٩٧١م) ، ص ١٠ ـ ١١ ٠

(٩) أبو سعيد ، العلاقات العربية ، ص ١١ ٠

آسيا واوروبا ، او هل يعود ذلك الى ما فيها من رجال وعتاد تسخره الخلافة المسيطرة عليها في تعزيز فتوحاتها في الجهات غير الاسلامية ؟ • وهذا ما ننفيه أيضا ، لأن مكة خاصة والحجـاز بصورة عامة فقدت ثقلها في هذه الناحية منذ أن فتحت الأمصار الاسلامية ، وتحولت زعامة العالم الاسلامي الى المواصم الأخرى في الشام والعراق ومصر كما أشرنا الى ذلك ، هذا الى أن العرب أنفسهم فقدوا هذه الميزة منذ أن أسقطوا من دواوين الجند واستعيض عنهم بقـوات أخرى مـن الترك والديلم وغيرهم ، بل ان حركة الفتوحات قد خمدت في هذه الفترة بسبب ما اعترى الخلافة العباسية من ضعف وتدهور ، وانكماش الخلافة الفاطمية على نفسها في بلاد الشام وشمال أفريقيا•

اذآ ، فما هي الأهمية التي جعلت مكة هدفا لتنافس الخلافتين العباسية والفاطمية ؟ وما هو المغزى الذي يقف خلف هذه الأهمية ويدفع بحركة التنافس الى ما وصلت اليه من القـوة والوضوح ؟ والاجابة على هذين السؤالين تكمن في الناحية الدينية وهـذه الناحية فيهـا تعميم وتخصيص فلو كانت مكة بلدا اسلاميا وحسب ، تؤمن بالله وتؤدي شعائـر الاسلام من صلاة وزكاة وصوم وغيرها ، وتنتحل أيا من المذاهب الاسلامية التي كانت سائدة آنئذاك ، لكانت مكة كغيرها من بلاد العالم الاسلامي ولجاءت في آخر القائمة من حيث الأهمية والمكانة في نظر الخلافتين العباسية والفاطمية •

ولكن موقعها الديني ، وما فيهـا من الاماكن المقدسة التـي يجتمع فيهـا حشد هائل مـن المسلمين ـ على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم ـ يأتون اليها من أقطـار شتى لتاديـة فريضة الحـج الدينية هو الذي أكسبها هذه المكانة الهامة في نظر الخلافتين المتعاصرتين • ذلك لأن الخلافة التي تتم تحت رعايتها شعائر الحج هي الخلافة الشرعية في نظر المسلمين عامة ـ كما سيأتي تفصيله ـ ومن هنا كانت المحاولات الجادة من جانب الخلافتين العباسية والفاطمية للفوز بقدر من النفوذ في مكة يكفل لهـا استغلال مواسم الحج كميدان للدعاية لنفسها بما تقدمه من رعاية للحجاج ، وما تعرضه من شعارات تكسب من ورائهـا تأييـد المسلمـين أجمـع ومناصرتهـم لقضاياهـا المصيرية •

وهكذا نجد أن شعيرة الحج الى مكة المكرمة هي الركيزة التي كانت تدور حولها العلاقـات الدينية والسياسية لهذا البلد المقدس • فقد وجد خلفاء هذه الفترة عباسيين كانوا أم فاطميين في هذه الشعيرة مجالا خصبا لاظهار تنافسهم في رعاية الحجاج وما ينتج عن هذه الرعاية من كسب رضا المسلمين والفوز بتأييدهم وقد شمل هذا التنافس ميـادين متعددة فظهر في صورة زعامـة سياسية ودينية تولت قيادة الحجاج واقامـة الحج لهم • وظهر أيضا في صورة أعمـال خيريـة انسانية تجسدت في حماية الحجاج في الطرق وتحمل الأتاوات عنهم ، وتوفير مياه الشرب لهم في هذه الطرق وفي مكة نفسها ، كما تجسد في أوجه الاصلاحات المختلفـة في مكة المكرمـة ، تلك الاصلاحات التي يراها الحجاج رأى العين شاهدين على أنفسهم بما لهذه الخلافة أو تلك عليهم من جميل وفضل جزيل •

في ضوء الحقائق السابقة سأحاول الاجابة على علامات الاستفهام التـي تدور حول علاقات مكة السياسية والدينية في هـذه الفترة الهامة من تاريخها الاسلامي • ثم ننتقل الى ناحية هامة من تاريخ مكة في هذه الفترة تلكم هي الناحية الاقتصادية ، واستجلاء هذا الموضوع لا يقل أهمية عن الموضوعين السـابقين ان لم يكن أهمها جميعا ،ذلك أن مكة بتاريخها الاقتصادىالعريق وامساكها بزمام التجارة الدولية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب منذ العصر الجاهلي تجعلنا نتساءل عن الحالة التي كانت عليها مكة في هذه الفترة ، وهـل بقيت محتفظـة بمكانتها التجـاريـة أو أصابها ما أصاب مركزها السياسي من التزعزع والركود ؟•

واذا كان المؤرخون القدامى والحديثون استطاعوا أن يعطوا ومضات طفيفة عن حياة مكة السياسية والدينية ، فان الحياة الاقتصادية لمكةلم تسترع انتباههم • وكم هو معلوم لنا في هذا العصر مدى أهمية التاريخ الاقتصادى ودراسة المستويـات المعيشية لأى مجتمـع من المجتمعـات البشرية ، بل ان دراسة الحالة الاقتصادية لأى أمة من الأمم تشكل جانبا عظيم الأهمية في دراسة التاريخ في وقتنا الحاضر •

ونظرة سريعة الى مكة المكرمـة في هذه الفترة نجد أنها بحدودها الجغرافية ومخاليفهـا المختلفة ، وما تنتجه هذه المخاليف من ثروات زراعية وحيوانية وما يتوفر في سوق مكة التي تزدهر في أيام المواسم والزيارة من سلع الشرق والغرب نجد أنها تشكل تكاملا اقتصاديا لا مثيل له في أى زاوية من زوايا العالم الاسلامي حينذاك فموقع مكـة الفريد على طرق القوافل التجاريـة ، ووجود الأماكن المقدسة بهـا ، وعشرات الآلاف الذين يفدون اليها سنويـا حجاجا ومتاجرين من مختلف أنحاء المعمورة ونشاط سوقها في هذه المواسم يجعل مكة تحتفظ بمكانتها التجارية على مر العصور • ثم امتلاكها أعظم ميناء على ساحل البحر الأحمر وهو ميناء جدة (١٠) ، ذلك الميناء الذي كان نافذتها على العالم ، وعن طريقه استطاعت مكة أن تسهم بقدر كبير في التجارة الدولية ، وأن تتعامل تجاريا مع مختلف بقاع العالم المعروفة آنذاك ، ولهذا كان لا بد أن تشكل جدة جزء هاما في أى دراسة اقتصادية لامارة مكة ، فعن طريق جده كانت تصل بضائـع الشرق والغرب الى مكة المكرمة ، ومنها كانت الصادرات المكيـة تجد طريقها الى مختلف بقاع العالم ، فلا عجب اذا وصفت جدة بأنها عتبة مكة على ساحل البحر البحر الأحمر كما سيأتي •

وهكذا في ضوء هذه الخطوط العريضة لعلاقات مكة التجارية ، وكذلك الوقائـع السياسية والدينية التي سبق أن ألمحنا عنهـا ، فان هذه الدراسة التي أقدمها للمناقشة ، تعتبر محاولـة متواضعة لاستجلاء ما خفي من تاريخ هذه البلدة المقدسة طوال حقبة من الزمن ، وذلك بتقديم اجابات تعتمد على الوقائع التاريخية عن النقاط التي أثيرت حولها علامات الاستفهام السابقة •

أما عنوان هذه الدراسة فهو « مكة وعلاقاتهـا الخارجيـة (٣٠١ ـ ٤٨٧هـ) » • وهـي تستغرق مائة وسبعة وثمانين سنة تغطـي في معظمها الفترة التي شهدت سلسلة من الصراعات العباسية والفاطمية في مكة المكرمـة • وتبدأ هذه الدراسة بثورة علوية تختلف عن بقية الثورات التي قامت في مكة في ناحية هامة ، وهي أن الخلافة العباسية لم تقم بأى اجراء لاخمادها ، هذا الى أنها فتحت الباب لقيام أسر علوية فازت باعتراف المعسكرين العباسي والفاطمي ، وقد استطاعت هذه الأسر أن تتعاقب على عرش مكة حتى العصور الحديثة • أما نهاية هذه الدراسة فهي تصادف وفاة أربعة من الزعماء الأقوياء الذين لعبوا دورا بارزا في علاقات مكة الخارجية ودخلت الأقطار التي يحكمونها بعد وفاتهم في طور من الضعف يختلف عمـا كانت عليه أثنـاء حياتهـم وهؤلاء الزعماء هم : الخليفة المقتدى بأمر الله العباسي سنة ٤٨٧هـ ، والخليفـة المستنصـر باللـه الفاطمي سنة ٤٨٧هـ ، والأمير محمد بن جعفر بن أبـي هاشم سنة ٤٨٧هـ • وقبل ذلك بقليل توفي السلطان ملكشاه السلجوقـي في أواخر سنة ٤٨٥هـ •

أما موضوع هذه الدراسة فهو كمـا يتبين من العنوان يهتم بالجانب الداخلي لمكة المكرمة وكذلك بالجانب الخارجـي ، وهذا الجانب الأخير يتمثل في علاقاتها الخارجية ، وقد راعيت هذا الاختيار بسبب العلاقة الوثيقة بين الجانبين الداخلـي والخارجـي لأى نظـام من الأنظمـة السياسية والدينية والاقتصادية ، لأنه من الضروري أن نلـم بالشئون الداخليـة لهـذا البلد

(١٠) Al-Wahaibi, Abdullah, The Northen Hijas in the Writing of the Arab Geographers, Beirut (1973) pp. 91-102.

المقدس حتى نستطيع أن نلقي في هذه الدراسة مزيدا من الأضواء على علاقاتها الخارجية • وهذا هو المنهج الذي اتبعته في هذا البحث حتى يكفل لنا تقديم دراسة متكاملة تشمل تاريخ مكة وعلاقاتها الخارجية في هذه الفترة من التاريخ الاسلامي •

وطبيعي بعد هذه اللمحة السريعة عن طبيعة الدراسة التي أقدمها للمناقشة ، أن أشير الى المصادر التي اعتمدت عليها في تجميع المادة الأولية لهذا البحث - وقبل الحديث عن هذه المصادر أود أن أذكر ما سبق أن أشار اليه الدارسون من أن النقوش الأثرية والوثائق الرسمية وما تركه الانسان من أبنية ونقود وغير ذلك ، تحتل من حيث الثقة بها والاعتماد عليها مكانة لا ترقى اليها غيرها من المصادر التي تستخدم في الدراسة العلمية ، الا أن هذا النوع من المصادر يعتبر قليلا بالنسبة لتاريخ مكة المكرمة وذلك لما تعرض له من وسائل الخراب والدمار على مر العصور ، فقد كانت النقوش التي اعتمدت عليها من القلة والندرة بحيث لا تستحق التنويه بها في هذه المقدمة ، أما الوثائق الرسمية التي حفظتها لنا المصادر التاريخية فقد استفدت منها الى حد ما •

ثم تأتي المصادر الكتابية في المرحلة الثانية من حيث الأهمية ، وهذا النوع من المصادر هو الذي اعتمدت عليه اعتمادا كليا في تجميع مادتي الأولية • ويحسن بي في البداية أن أشير الى ما تقدم ذكره من أن هذه المصادر كثيرة ومتنوعة ، ولكن يمكن تقسيمها الى عدد من المجموعات الرئيسية •

واولى هذه المجموعات كتب التاريخ العام مثل **تاريخ الأمم والملوك** لابن جرير الطبرى ، **والكامل في التاريخ** لابن الأثير ، **والمنتظم** لابن الجوزى ، **والمختصر في أخبار البشر** لعماد الدين صاحب حماه ، **والعبر** لابن خلدون وغيرها • وكان مؤرخو هذا النوع من المصادر قد تناولوا الوقائع التاريخية بصورة شاملة من حيث الشكل العام ولكنهم لم يلجأوا الى التفصيل وتناول الجزئيات•

أما المجموعة الثانية فهي الكتب الموسوعية ، وهي التي أخذت من كل فن بطرف ومنها على سبيل المثال ، **نهاية الأرب** للنويرى ، **ومسالك الأبصار** للعمرى ، **وصبح الأعشى** للقلقشندى • وتتميز كتابات هؤلاء الى جانب شمولها باعطائها كثيرا من التفصيلات ، هذا الى جانب ما حفظته لنا من الوثائق الرسمية الهامة ، ولا سيما ما جاء منها في صبح الأعشى •

ثم تلي هذه المجموعة مجموعة ثالثة ونقصد بها كتب التراجم ، ومن هذه الكتب **وفيات الأعيان** لابن خلكان ، **فوات الوفيات** للكتبى ، **والسلوك** للجندى وغيرها • وهذه الكتب اهتمت في الدرجة الأولى بالترجمة لمشاهير العالم الاسلامى ، غير أن الدارس يجد في هذه التراجم كثيرا من المعلومات التاريخية فيما يتعلق بالدور الذى لعبه صاحب الترجمة في حياته سواء كان هذا الدور سياسيا أو دينيا أو اقتصاديا ، وقد انتفعت بهذا النوع من المصادر في كثير من المجالات التي تناولتها هذه الدراسة •

ويلحق بهذه المجموعة كتب الطبقات مثل **طبقات الشافعية** للسبكى **وطبقات الصوفية** للسلمى ، **وطبقات القراء** للجزرى ، **وارشاد الأريب** لياقوت وغير ذلك ، والفرق بين هاتين المجموعتين من كتب التراجم أن الأولى تناولت المشاهير بصورة عامة ، أما الثانية فقد تخصصت في ذكر أولئك الذين ينتمون الى مذهب معين أو يشتغلون بأحد فنون المعرفة المختلفة •

أما المجموعة الرابعة فهي كتب البلدان ، أو ما كتبه الجغرافيون المسلمون ، ومنها على سبيل المثال **مروج الذهب** للمسعودى ، **وأحسن التقاسيم** للمقدسي ، **وصورة الأرض** لابن حوقل ،

والمسالك والممالك للبكري . **ونزهة المشتاق** للادريسي وغيرها • ويعاب على بعض هـذا النوع من الكتب أن مؤلفيها اعتمدوا على السماع في كتاباتهم فجاءت بعيدة عن الواقع في حين أن بعضهم قدموا معلومات دقيقـة اعتمدوا فيهـا على المشاهـدة بأنفسهم أو باستقصاء الحقائق فيما وصل اليهم •

ويلحق أيضا بهذه المجموعة كتب الرحلات مثل **رحلة ناصر خسرو** ، **ورحلة ابن جبير** ، **ورحلة ابن بطوطة** ، **ومستفاد الرحلة والاغتراب** للسبتي ، **وتاريخ المستبصر** لابن المجاور وغيرها • وقد استفدت من هذه المجموعة ومن سابقتها في معرفة طرق الحج وتحديد بعض الأماكن ، كما قدم لي بعضها كثيرا من المعلومات الاقتصادية الهامة •

أما المجموعة الخامسة ، فهي تلك الكتب التي تتنـاول تاريخ مدينة معينة ، ونذكر منهـا **اخبار مكـة** للأزرقـي ، **وتاريخ بغداد** للخطيب البغدادى ، **والنجوم الزاهرة** لابن تغرى بردى ، **وشفاء الغرام والعقد الثمـين** للفاسي ، **وبغيـة المستفيد** لابن الديبع الشيباني ، **وتاريخ ثغر عدن** لبامخرمة وغيرها ، وميزة هذه الكتب أنها تعطينا معلومات مفصلة للمدينة التي تكتب عنها سواء فيما يتعلق بوصفها وخططها وحياة الناس فيها ، أو ما يتعلق بالترجمة لمشاهـير الشخصيات التي عاشت أو ماتت على أرضها •

ويلحق بها أيضا الكتب المتخصصة ، وهي تلك الكتب التي تخصصت في تاريـخ قطر أو دولة أو طائفة مثل **اتعاظ الحنفا والخطط** للمقريزى ، **وغاية الأماني** لابن القاسم ، **وقرة العيون** لابن الديبع الشيباني ، **وكشف المحجوب** للهجويرى ، **والرسالة القشيرية** للقشيرى ، **وتاريـخ اخبار القرامطة** لثابت بن سنان ، **وكشف أسرار الباطنية** للحمادى • وميزة هذا الكتاب الأخير أنه يقدم معلومات مفصلة عن تنظيمات القرامطة في اليمن لأنه اعتنق مذهبهم وعاش بينهم [١١] ، فلما رجع الى مذهبه كتب هذا الكتاب عن علم ودراية بما يدور داخل الخلايا القرمطية •

ومما لا شك فيه أن الباحث باعتماده على هـذا القـدر من المؤلفـات التـي عالجت هـذه الموضوعات مع تلك التي تخصصت في تاريخ مكة ، يستطيع أن يقدم صورة واضحة عن الأوضاع الداخلية لمكة المكرمة ، وعن علاقاتها مع هذه الأقطار والدول والطوائف •

أما المجموعة الأخيرة فهي كتب الدعـاة الاسماعيلية ، ومنها على سبيل المثال: **افتتاح الدعوة وابتداء الدولة** للقاضي النعمان ، **وسيرة جعفر** لليماني ، وسيرة **المؤيد في الديـن داعـي الدعـاة** للشيرازى ، **وسيرة الأستاذ جوذر** لأبي علي الجوذرى وغير ذلك • ومما يزيد من قيمة هذه الكتب معاصرتها للفترة التي تتناولها هذه الدراسة وايرادها معلومات مفصلة عن الأئمة الفاطميين ، لأن مؤلفيها كانـوا على اتصال مباشر بالدوائر الفاطمية فهيأ ذلك الاتصال لهم أن يستمدوا معظم معلوماتهم من مصادر رسمية ، ولكن يعيب عليها في نفس الوقت أنها تعكس وجهة النظر الفاطمية، وخاصة فيما يتصل بصراعهم مع العباسيين • ومع هذا يجد الدارس فيهـا معلومات قيمة فيمـا يتعلق بتاريخ الفاطميين السياسي والمذهبـي والحضارى •

وبهذه المناسبة فقد اعترضتني منذ البداية مصاعب كثيرة في معرفـة الاتجاهـات المختلفـة للمؤرخين اذ أن معظم المصادر التي وصلت اليها يدى كانت ــ فيمـا عدا القليل منهـا ــ تعكس واحدة من وجهتي النظر العباسية أو الفاطمية ، وكان عليّ في هذه الحالة أن أتعرف على الاتجـاه السياسي والمذهبي الذي كان يسيطر على تفكير هؤلاء المؤرخين ، فقـد بذلت قصارى جهـدى وخاصة فيما يتعلق بالصراع العباسي الفاطمي لتجنب الوقوع ضحية لاتجاه هذا المؤرخ أو ذاك ،

(١١) السيد ، أيمن فؤاد ، ايضاحات جديدة حول مصادر جنوب الجزيرة العربية، بحث القي في **الندوة الأولى للدراسات تاريخ شبه الجزيرة العربية** ، ص ٣ •

فعمدت الى المقارنة بين ما جاء في هـذه المصادر بعضها ببعض وبينها وبين المصادر المحايدة ، هذا الى جانب ما لجأت اليه من قراءة ما بين السطور واستخلاص ما يتفق مع العقل والمنطق بحثا عن الحقيقة ، وخوفا من الوقوع في مواطن الزلل ٠

وبعد هذه الالمامة السريعة بنماذج مختلفـة لعدد لا بأس به من المصادر التي اعتمدت عليها والتي ساورد قائمة باسمائها في نهاية هذا البحث ، يحسن بي أن أكرر ما سبق أن أشرت اليه من أن هذه الدراسة تتناول في جانبهـا الموضـوعي مكـة وعلاقتهـا الخارجيـة في الفترة التـي سبقت الاشارة اليها ٠ أما في الجانب الشكلي فقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة والميادين التـي تتناولها أن نقسمها الى ثلاثـة أبواب وكل باب يحتوى على عدد من الفصول بحسب الموضوعات التي تشملها ٠

فالباب الأول يختص بدراسة العلاقـات السياسية ، ويضم فصولا أربعة ، جـاء الفصل الأول منها بعنوان « دراسات تمهيدية » وهـي تشتمل على عدد من النقاط رأينا ايرادها مراعاة لتسلسل المعلومات ولكي يتهيأ ذهن القارىء للدخول في الموضوع الأساسي لهذه الدراسة ٠ وهذه النقاط تتناول بصورة مختصرة قيام الدولة العباسية وعلاقاتها بالعلويين المطالبين بحقهم الشرعي في الخلافة ثم مناوأتهم للعباسيين المتمثلة في ثوراتهم المتكررة في الحجاز عامة ومكة بصورة خاصة مع تناول علاقات الدولة العباسية بمكة في عصرها الذهبي ٠ ثم ننتقل بعد ذلك الى نقطة هامة ، وهي تدهور الخلافة العباسية نتيجة تدخل الأتراك في شئونها الداخلية وما ترتب على ذلك من انفصال أقاليمها المختلفة وانحسار سلطتها عن الجزيرة العربيـة ، وتطلع عبيد اللـه المهـدي الخليفة الفاطمي الى بسط نفوذه على مكة ، ثم ظهور النزعة الاستقلالية التي كانت تداعب مخيلة المكيين منذ ثورة عبد الله بن الزبير ٠

اما الفصل الثاني فيلقي الضوء على أوضاع مكـة السياسية في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى حيث نعرض فيه علاقـة القرامطة بالفاطميين وأنهم جميعـا ينتمون الى الدعـوة الاسماعيلية وقد أدى هذا التقارب الى التنسيق بين القوتين لانهاك الدولة العباسية ، وبالتالـي بسط النفوذ الفاطمي على مكة المكرمـة ثم اختلاف الاسلوب في التطبيق بين الحليفين عند احتلال مكة سنة ٣١٧هـ ٠

يلي ذلك قيام الأخشيديين في مصر وتطلعهم الى مكة المكرمة لما للسيطرة عليهـا من المكانـة الأدبية التي ترفع من مكانتهم في أعين المسلمين ثـم سيطرة البويهيين على الخلافـة العباسية في بغداد ومنافستهم للأخشيديين في ذكر أسمائهم في الخطبة بمكة بعد الخليفة ، وما ترتب على ذلك من الدخول في حروب سافرة بين المصريين والعراقيين ٠

وفي الفصل الثالث نتحـدث عن قيـام الأسرة الموسوية ومسارعة زعيمهم جعفر بن محمد بالخطبة للمعز الفاطمي الذي مد سيطرته على مصر سنة ٣٥٨هـ ، مـع الاشارة الى الأسباب التـي دعته الى هذا الاتجاه وردود الفعل المختلفة في بغداد ثـم يأتـي الحديث بعـد ذلـك عن الأساليب المختلفة التي مارستها كل من الدولتين العباسية والفاطمية لتعزيز نفوذها في مكة ، وكسب ولاء الأسرة الموسوية ٠ ثم دراسة المراحل المختلفة لعلاقات أبي الفتوح مع الفاطميين منذ بدء حكمه الى ادعائه الخلافة وفشله ٠ هذا الى جانب الحديث عن اختلاف الجبهة الداخلية في عهد خليفته شكر ، وذلك بين مؤيد للخلافة العباسية وبين مناوىء لها ويرى الابقاء على علاقات مكـة الحسنة مـع الفاطميين ، وما ترتب على هـذا الاختلاف من نتائج ٠

أما الفصل الرابع فيلقى الضوء على الظروف والملابسات التي أعقبت وفـاة شكر بن أبي الفتوح سنة ٤٥٣هـ ، والتي مهدت للنفوذ اليمني في مكة على يد علي بن محمد الصليحي ، وبالتالى

وصول طبقة الهواشم الى الحكم بتعيين زعيمها محمد بن جعفر بن أبـي هاشم من قبل علي بن محمد الصليحي أميرا على مكة ، وما تلى ذلك من تارجح علاقـات الهاشميين بكـل من الفاطميـين والعباسيين بين الولاء وعدمه في الشطر الأول من حيـاة زعيمهـم محمد بن جعفر ، وذلك تبعـا للحالة الاقتصادية في العراق ومصر · ثـم يلي ذلك تسليط الأضواء على الظروف التي جدت على الخلافتين الفاطمية والعباسية ، والانتكاسة التي أصابت الأولى نتيجـة لظروف الشدة العظمى وثورة ابـن حمدان وانتعاش الخلافـة العباسية نتيجة لسيطرة السلاجقة عليها واقصاء كابوس الأتراك والديالمة عنها ، وما ترتب على ذلـك من تغيير مسار علاقات مكـة الموالية للفاطميين الى العباسيين حيث صفى لهم الجو في مكة حتى وفـاة محمد بن جعفر سنة ٤٨٧هـ ·

هذا عن الباب الأول أما الباب الثاني فتهدف الدراسة فيه الى توضيح أهمية شعيرة الحـج الى مكـة المكرمة ، ومكانتهـا الدينية في قلوب المسلمين ، وكذلك الميادين التي وجد فيها زعماء المسلمين آنذاك مجالا فسيحا للتسابق في اظهار وسائل الاصلاح المختلفة في طرق الحج الى مكة وفي مكة نفسها ، لكي يحققوا من وراء ذلك بعض المكاسب السياسيـة المتمثلـة في تاييـد الجماهـير الاسلامية لهؤلاء الزعماء الذين لهم اليد الطولى على تسهيـل أداء فريضة الحـج · وسيتضح مـن الحديث في هذا الباب أن فريضة الحج ووسائل العناية والاهتمام التي فازت بهـا حينذاك كانت نموذجا حيا لعلاقات مكة الدينية في تلك الفترة ·

ويضم هذا الباب أيضا فصولا أربعـة ، يختص الفصل الأول منها بدراسة امرة الحج منذ نشأتها وحتى بداية هذه الفترة ، كما يدرس أيضا أثر الأوضاع السياسية حينـذاك على امـرة الحج ودور أمير الحج الذي كان يعين مراعاة لهذه الأوضاع وتبعا لحالة القبائل الرابضة على طول طريق الحج ومراعاة لاتجاهاتهم المختلفة · ثم ينتقل الحديث الى الهدايـا التـي كانت تصحب قوافل الحج من العواصم الاسلامية ومناقشة مغزى هذه الهدايا ثم تفنيد الآراء المختلفة حول هدية الشمسة وتصحيح اللبس الذي دار حولها ·

أما الفصل الثاني ، فقد اتجهت الدراسة فيه الى تنـاول طرق الحج القادمـة من العواصم الاسلامية مع ذكر مراحلها ومحطاتها وأوضاع المياه فيها ، وكذلك الصعوبات التي كانت تعترض الحجاج في هذه الطرق سواء كانت هذه الصعوبات مما تسببه القبائل البدوية المتربصة بالحجاج على طول الطرق ، أو ما تسببه العوامل الطبيعية كهبوب الرياح العاتيـة والسيول الجارفـة أو جفاف الموارد المائية ونضوبها ، وما ترتب على هذه الصعوبات من نتائج تركت آثارها واضحة على فريضة الحج في تلك الفترة · كما تتناول الدراسة أيضا اصلاحـات طرق الحج عن طريق حفر الآبـار واستنباط العيون وبناء البرك والأحـواض ، وتنافس زعماء المسلمين في دفـع الأتاوات لقبائل البدو سعيا وراء راحة الحجاج وتأمينـا لحياتهم ·

وفي الفصل الثالث تتناول الدراسة عمارة المسجد الحرام والكعبة المشرفة ، وما طرأ عليهما من اصلاحات وترميم طوال الفترة التي ندرسها ثم ارسال كسوة الكعبة سنويا الى مكة المكرمة مع ذكر الجهات التـي تصنعها وتنفق عليها ، والتنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية ومن يسير في ركبهما للفوز بهذه المأثرة ·

أما في الفصل الرابع فتعالـج الدراسة موضوعا لـه صلة كبيرة بالحج وهو مترتب عليـه وناشيء عنه ، ونعني به موضوع المجاورة بمكة المكرمة ثم نشأتها وآراء العلماء فيها ، كما عالجت الدراسة أيضا تأثير المجاورين في حياة مكة من النواحـي الدينيـة والسياسيـة والاقتصاديـة والاجتماعية ·

أما الباب الثالث والأخير فتهدف الدراسة فيه الى ابراز ناحية هامة من تاريخ مكة في تلك الفترة ، هي الناحية الاقتصادية ، وهذا الباب يضم فصلين اثنين ، يتناول أولهمـا الحاصلات الزراعية والتسويق الزراعي ، وكذلك المعاملات التجارية وتشمل وحدات الكيل والوزن والقياس فضلا عن النقود التي يتم بها التعامل وعلاقة هذه النقود بالنقد العباسي والفاطمي • كما يتناول سوق مكة في مواسم الحج والزيارة وما كان يتم فيها من بيع وشراء وما يجلب اليها من سلع مختلفة من جميع أنحاء العالم الاسلامي حينذاك •

أما الفصل الثاني فيلقي الضوء على موضوعين رئيسيين همـا التجارة البحريـة والتجـارة البرية ، ففي التجارة البحرية اتجهت الدراسة الى الحديث عن واجهـة مكة البحريـة ثم الأهمية العالمية لميناء جدة على ساحل البحر الأحمر وعلاقاته مع الموانىء الأخرى في أوروبا وشمال أفريقيا وجنوب شرق آسيا • هذا الى جانب الحديث عن تجـارة مكـة في وثائق الجنيزا اذ تشير هـذه الوثائق الى اسهام مكة وميناتها جدة في التجـارة الدولية حينذاك ، ثم نصيب هاتين المدينتين من التجارة الكارمية • وكذلك دور ميناء السرّين في تجارة مكة الداخلية والخارجية •

أما الموضوع الثاني فيتناول الطرق البرية وأهم المراكز التي كانت تتاجر معها مكة المكرمة في الشام والعراق واليمن وعمـان واليمامة وغيرها مع ايراد أمثلة لأنواع السلع التي كانت رائجة وقتذاك • كما يشمل الحديث في هذا الموضوع صناعة الجلود وتجارتها ودور مكـة في استيراد وتصدير هذه السلعة الرائجة •

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في دراستي هذه الى الاسهـام في تمهيد الطريق لسد هذه الفجوة من تاريخ مكة المكرمـة ، وأحسب أنني حين التزمت بهذه الدراسة قد بذلت مـا في وسعي من طاقة وأعطيتها ما يتناسب مع أهميتها من جهد ووقت ، ولا أدعي لنفسي أنني جئت فيها بالقول الفصل ولكنها محاولـة متواضعة آمل أن تفتح بابا لدراسة هذه الفترة من تاريخ المدينة المقدسة •

والله ولي التوفيق ،،،

الباب الأول

العلاقات السياسية

١ ـ دراسات تمهيدية.

٢ ـ أوضاع مكة السياسية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

٣ ـ قيام الأسرة الموسوية.

٤ ـ طبقة الهواشم.



الفصل الأول

دراسات تمهيدية

- قيام الدولة العباسية وعلاقاتها بمكة في عصرها الذهبي
- تدهور الخلافة العباسية وأثر ذلك على الحجاز ·

قيام الدولة العباسية وعلاقاتها بمكة في عصرها الذهبي

لم يتطلع العباسيون الى الخلافة في بداية أمرهم ، ولم يزاحموا بني عمهم العلويين في هذا الحق ، بل ان العباس بن عبد المطلب أقبل على علي بن أبي طالب بعد وفاة النبي (ص) وهو يقول : « ابسط يدك ولنبايعك [١] » · ولم يطالب أحد من العباسيين بالخلافة في صدر دولة بني أمية ، بل ظلوا متعاونين مع آل علي ، وتقوم العلاقة فيما بينهم على الود والصفاء ، وكانوا يدا واحدة ضد العدو المشترك من بني أمية [٢] الى ان انتقل حق الامامة من العلويين الى العباسيين بتنازل أبي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس [٣] عن هذا الحق وذلك عندما أحس بقرب وفاته سنة ٩٨هـ [٤] ·

بدأ العباسيون دعوتهم في حيطة وحذر من بني عمهم العلويين ، ورفعوا شعارهم « للرضاء من آل محمد [٥] » ، وهذا الشعار يشمل العلويين والعباسيين دون تعيين ، ومع هذا فقد أوجس العلويون خيفة من بني عمهم العباسيين حتى تم ائتلاف الحزبين (العلوي والعباسي) في حزب واحد هو حزب بني هاشم في أواخر الدولة الأموية ، وقد تمخض عن ذلك مبايعة محمد النفس الزكية في مكة بالامامه [٦] ·

---

(١) المقريزى ، احمد بن على ، النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم ، ليدن (١٨٨٨م) ، ص ٦ ·
(٢) حسن ، الدكتور حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام السياسي ، ط٧ ، القاهرة (١٩٦٤م) جـ٢ ، ص ١١ ·
(٣) ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ، بيروت (١٩٦٦م) ص ١٤٣ ·
(٤) سرور ، محمد جمال الدين ، الحياة السياسية في الدولة العربية ، ط٣ ، القاهرة ، (١٩٦٦م) ص ١٣٢ ·
(٥) حسن ابراهيم حسن ، المصدر السابق ، ص ١٣ ·
(٦) ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ ــ ١٦٥ ·
جاء في هذه الرواية أن بني هاشم من علويين وعباسيين اجتمعوا في اواخر دولة بني امية وبايعوا محمد النفس الزكية بالامامة ، ونحن لا نستطيع قبول هذه الرواية لأسباب نذكر منها :
- أن ابن طباطبا الذي ينفرد بايرادها كان معروفا بتشيعه لآل علي بن ابي طالب ·
- لم يكن محمد النفس الزكية حينذاك من الشخصيات العلوية البارزة ولو كان كذلك لراسله ابو سلمة الخلال مع من راسلهم من العلويين ، فقد ذكر ان ابا سلمة ارسل قبيل قيام الخلافة العباسية كتبا لكل من عبدالله المحض وجعفر الصادق وعمر الأشرف يدعوهم لتسلم الخلافة ·
- تذكر الرواية أن ابا جعفر المنصور حضر الاجتماع المشار اليه وبايع لمحمد النفس الزكية مع من بايعوه من بني هاشم ولو صحت هذه البيعة لذكرها الاخير في مراسلاته مع أبي جعفر المنصور ، ولكانت من اعظم الأسانيد التي يحتج بها في تبرير خروجه عليه ، ولطالبه بحق البيعة التي في عنقه ·

نشط العباسيون في دعوتهم التي كانت غاية في الدقة والتنظيم واكتساب الأنصار والمؤيدين حتى نجحوا في نهاية الأمر وقضوا على الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ [٧] فتولى أبو العباس السفاح [٨] (١٣٢ ـ ١٣٦هـ / ٧٥٠ ـ ٧٥٤م) الخلافة معلنا بذلك قيام حكومة عباسية وراثية ، تستند الى دعاوى [٩] تؤيد أحقيتهم في الخلافة دون آل علي ، وهنا أسقط في يد العلويين ، وأدركوا أن العباسيين خدعوهم ، واستأثروا بهذا الأمر دونهم رغم أحقيتهم بذلك فناصبوهم العداء ، ونظروا اليهم على أنهم مغتصبون [١٠] شأنهم في ذلك شأن الأمويين من قبلهم ٠ وأخذوا يناضلون ويكافحون في سبيل الوصول الى حقهم المسلوب يساندهم في ذلك عنصران هما شيعة آل علي وأهل الحجاز الذين كانوا يرومون من تلك المؤازرة استرداد الحجاز لمكانته السياسية كعاصمة للدولة الاسلامية ، الا أن العباسيين أعدوا للأمر عدته منذ الوهلة الأولى فقضوا على رؤوس الشيعة أمثال وزير آل محمد أبي سلمة الخلال [١١] ٠ وكان عليهم أن يحددوا موقفهم من الحجاز فأسندوا ولاية مكة الى حاكم قوى من البيت العباسي هو داود بن علي بن عبد الله بن العباس [١٢] في سنة ١٣٢هـ ، وأضافوا اليه ولاية الطائف والمدينة واليمن واليمامة [١٣] ٠ كما نشط أبو جعفر المنصور رجل الدولة العباسية الثاني في أخذ البيعة لأخيه السفاح مستعملا كل وسائل الترغيب والترهيب حتى بايع الحجازيون مكرهين [١٤] ٠

لقيت أهداف العلويين في المطالبة بحقوقهم المسلوبة استجابة من الحجازيين الذين كانوا يطمحون الى اعادة تزعم الحجاز للعالم الاسلامي كما كان عليه الحال في عهد الخلفاء الراشدين وشطرا من ثورة ابن الزبير فاحتضنوا عدة ثورات علوية ناوأت الخلافة العباسية طوال القرنين الثاني والثالث الهجريين ٠

ولا عجب من تزعم العلويين للحجازيين في سبيل تحقيق تلك الغايات لأن العلويين في الحجاز كانوا يمثلون الصفوة والزعامة الحجازية فضلا عن مكانتهم السياسية والدينية وقرابتهم للرسول (ص) ٠

كانت أولى الثورات العلوية الحجازية ثورة محمد بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب [١٥] رضى الله عنهم ٠ وكان محمد معروفا بورعه وزهده وسمو فكره علاوة على شرفه وعلمه ولذلك لقب بالنفس الزكية [١٦] ، وقد شجعه على الثورة البيعة التي أخذت له في مكة في أواخر دولة بني أمية [١٧] ٠

اتخذت هذه الثورة شكلا سلبيا في عهد أبي العباس السفاح تمثل في رفض الاعتراف به

---

(٧) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٣٧٠ ٠
(٨) نفس المكان ٠
(٩) ابن بدران ، عبد القادر بن احمد ، تهذيب تاريخ دمشق ، جـ٧ ، ص ٢٤٢ وما بعدها ٠
(١٠) الخضري ، محمد ، الدولة الاموية ، جـ١ ، ص١٢٩ ٠
(١١) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ٠
(١٢) بن ظهيرة ، الجامع اللطيف ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ٠
(١٣) نفس المكان ٠
(١٤) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ط (٢) ، بيروت ، جـ٥ ، ص ٣ ٠
(١٥) ابن عنبة ، عمدة الطالب في نسب ابي طالب ، مخطوط مكتبة الحرم المكى برقم ٤/١٢ (سيرة) ٠ عقب عبدالله المحض ٠
(١٦) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص ٣٠٦ ٠
(١٧) ابن طباطبا ، الفخري ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ٠ ناقشنا هذه الرواية في الصفحة ٢ ، ٣ من هذا البحث ٠

والامتناع عن مبايعته فخرج الثائر من مكة [١٨] سنة ١٣٢هـ وتوارى عن أعين العباسيين وانصارهم · ولم يكن في وسع السفاح مطاردته والقضاء عليه اذ أن ذلك سيشغله عن المهام الأولى لتأسيس الدولة · فمضى العباسيون في تدعيم سياستهم في الحجاز متغافلين عن المتنمين والمتخفين من أنصار محمد النفس الزكية ، حتى اذا قضوا على الخلايا الأموية واستتب لهم الأمر في الحجاز وآلت الخلافة الى أبي جعفر المنصور [١٩] (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/٧٥٤ ـ ٧٧٥م) وهو المعروف بحزمه وقوة شكيمته رأى ألا يتهاون في شان محمد النفس الزكية خصوصا وقد وصلته أخبار استئناف نشاطه ، فاستعمل وسائل القوة والدهاء معه ومع أسرته حتى أجبره على الخروج [٢٠] سنة ١٤٥هـ ·

أخذ ابو جعفر المنصور للاجهاز على الثورة قبل استفحالها فدخل مع الثائر في مراسلات سياسية ، وكتب كل واحد لصاحبه كتابا نادرا معدودا من محاسن الكتب [٢١] · وأمر المنصور بردم خليج أمير المؤمنين في مصر [٢٢] متذرعا في عمله ذلك برغبته في تجويع الحجازيين ليقضي بذلك على ثورتهم [٢٣] ·

ولما لم تجد هذه ولا تلك أرسل جيشا بقيادة ولي عهده عيسى بن موسى [٢٤] ضم خيرة القواد العباسيين [٢٥] فتمكن بذلك من قتل محمد في منتصف رمضان من السنة نفسها واستولى على المدينة ، ثم مضى الى مكة ففر حاكمها الحسن بن معاوية الى البصرة للالتحاق بابراهيم بن عبد الله [٢٦]·

وبعد أن تم للمنصور تصفية هذه الثورة نشط في التنكيل بالعلويين وأنصارهم واسند ولاية مكة الى عمه عبد الصمد بن علي [٢٧] ، فأخذ على عاتقه محاربة الفكرة العلوية الحجازية بمكة وأسرف في ذلك مما أثار حفيظة المكيين الذين استنكروا أفعال عبد الصمد حتى هجاه الشاعر المكي سديف بن ميمون [٢٨] بقوله :

أَسرفتَ في قتلِ الرَّعيةِ ظَالمًا   واكفُفْ يَدَيْكَ أخالُها مَهديُّها
فَلَتَأتينَّكَ رايةٌ حَسَنيَّةٌ   جرَّارةٌ يَقتادُها حَسَنيُّهَا [٢٩]

ازداد العباسيون تشددا في محاربة تلك الفكرة وأمر المنصور بدفن سديف حيا [٣٠][٣١][٣٢]

هدأت أحوال مكة بعض الوقت وتوالى ولاتها من بيت بني العباس الذين حكموها حكما مركزيا مباشرا وفق سياسة مستوحاة من العاصمة بغداد في كل ما يتعلق بأمورها الداخلية ،

---

(١٨) السباعي ، احمد ، تاريخ مكة ، ط٣ ، مكة المكرمة (١٣٨٧هـ) ، جـ١ ، ص ١٣٢ ·
(١٩) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، جـ٤، ص ٨ ·
(٢٠) اليعقوبي ، أحمد بن ابي يعقوب ، التاريخ ، مطبعة النجف (١٣٥٨هـ) جـ٢ ، ص ١١٠ ·
(٢١) المبرد، الكامل في اللغة والآداب ، طبعة (١٣٨٦هـ) ، جـ١، ص٣١٣ وما بعدها، عمر فاروق، الرسائل المتبادلة بين المنصور وذى النفس الزكية ، مجلة العرب ، م(٥) جـ١ ، (رجب ١٣٩٠هـ) ص ٣٢ وما بعدها · حلمي ، محمد ، الخلافة والدولة ، ط٧ ، القاهرة (١٩٥٩م) ، ص ٤٦ وما بعدها ·
(٢٢) البراوي ، راشد ، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، القاهرة (١٩٤٨م) ، ص ٢٢٨ ·
(٢٣) نفس المكان ·
(٢٤) الأصفهاني ، ابو الفرج ، مقاتل الطالبيين ، القاهرة (١٩٤٦م) ص ٢٦٧ ·
(٢٥) نفس المكان ·
(٢٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ط١ ، بيروت (١٩٦٦م) جـ١٠ ، ص ٩٠ ·
(٢٧) ابن ظهيرة ، الجامع اللطيف ، ص ١٨١ ·
(٢٨) السباعي ، تاريخ مكة ، جـ١ ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ·
(٢٩) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، القاهرة (١٩٦٥م) ، جـ٥ ، ص ٨٨ ·
(٣٠) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، طبعة دار المعارف بمصر (١٩٦٧م) ، جـ٢ ، ص ٧٦١ ·
(٣١) ابن عبد ربه ، المصدر السابق ، ص ٨٨ ·
(٣٢) السباعي ، المصدر السابق ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ·

حتى اذا كان عهد الخليفة الهادى [٣٣] (١٦٩ ـ ١٧٠/٧٨٥ ـ ٧٨٦م) قامت ثورة علوية ثانية تولى زعامتها الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب [٣٤] ، فاستولى على المدينة بعد أن طرد حاكمها [٣٥] • فبايعه أنصاره ودعا الى تحرير العبيد بحجة أن رقهم لم يثبت شرعا وكان مناديه ينادي « أيما عبد أتانا فهو حر [٣٦] » • ولعله بذلك اراد أن يكسب تأييدهم ويضمهم الى جانبه • وبعد اقامة قصيرة بالمدينة المنورة ، توجه الى مكة [٣٧] حيث تصدى لـه جيش عباسي قبل دخولها ، فقتل الحسين [٣٨] ومائة من أصحابه بفخ [٣٩] في نهاية سنة ١٦٩هـ • وكانت هذه الوقعة من الشدّة بحيث قيل لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ [٤٠] •

عاد الحجاز الى السيطرة العباسية المباشرة ، وسادت ساحته السكينة والاستقرار وتحسنت علاقاته بالدولة العباسية ، ونعم بعطف الخلفاء العباسيين واهتمامهم في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون • ولكن لم تلبث أن تفجرت فيه ثورة علوية جديدة لم تكن مكة مصدرها هذه المرة ولكنها لم تلبث أن احتضنتها فقد خرج السرّي بن منصور الشيباني [٤١] داعية العلويين على المأمون وتغلب على بعض البلاد العراقية [٤٢] • فأرسل الى مكة جيشا في عام ١٩٩هـ بقيادة الحسين الأفطس [٤٣] فطرد عامل العباسيين داود بن عيسى ودخل مكة يوم التروية [٤٤] من نفس السنة ، وبعد أن أتم الحج توجه الى جدة ونهب أموالها [٤٥] • ثم عاد الى مكة حيث بلغه مقتل السرّي في العام التالي، فعمد الى محمد بن جعفر الصادق وكان فاضلا من فضلاء الطالبيين ، وكان يلقب بالديباجة [٤٦] لجمال وجهه ، وبايعه في ربيع الأول سنة ٢٠٠هـ [٤٧] • وبذلك استقلت مكة ببقية الثورة [٤٨] •

استبد بهذه الثورة الحسين الأفطس وعلي بن محمد الديباجـة [٤٩] ، فساما الناس سوء العذاب الى أن انتدب لهمـا المأمون جيشا أجلاهما عن مكة في جمادى الآخرة سنة ٢٠٠هـ [٥٠] • ففر الديباجة الى قبائل جهينه [٥١] ثم عاد الى مكة وطلب الأمان [٥٢] •

---

(٣٣) ابن قتيبة ، المعارف ، ط٢ ، بيروت (١٩٧٠م) ، ص ١٦٦ •
(٣٤) ابن عنبة ، عمدة الطالب ـ عقب عبد الله المحض •
(٣٥) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ١٩٠ •
(٣٦) الفاسى ، تقي الدين محمد بن احمد ، شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٧٩ •
(٣٧) ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ •
(٣٨) ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ •
(٣٩) العصامى ، عبد الملك بن حسين ، سمط النجوم العوالى ، المطبعة السلفية ، جـ٤ ، ص ١٦٥ •
(٤٠) السباعى ، تاريخ مكة ، جـ١ ، ص ١٢٦ • لمزيد من المعلومات انظر المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص ١٣٦ وما بعدها •
(٤١) الفاسى ، المصدر السابق ، ص ١٨١ •
(٤٢) ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ •
(٤٣) الفاسى ، المصدر السابق ، ص ١٨١ •
(٤٤) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٢٧ •
(٤٥) السباعى ، تاريخ مكة ، جـ١ ، ص ١٢٨ •
(٤٦) ابن ظهيرة ، الجامع اللطيف ، ص ١٨٣ •
(٤٧) العصامى ، سمط النجوم ، جـ٤ ، ص ١٨٩ •
(٤٨) السباعى ، المصدر السابق ، ص ١٢٨ •
(٤٩) ابن ظهيرة ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ •
(٥٠) الفاسى ، شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٨٢ •
(٥١) نفس المكان •
(٥٢) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ٢٢٠ •

ولم تكد هـذه الثورة تخمد حتى تعرضت مكة سنة ٢٠٢هـ لثورة جديدة جاءت من اليمن بقيادة ابراهيم بن موسى الكاظم [٥٣] ، فاحتل مكـة وقتـل عاملهـا العباسي ونكـل بانصار العباسيين فيها [٥٤] . الا أن المأمون أسند ولايتها الى عبيـد اللـه بـن الحسن وهـو مـن العلويين [٥٥] . ولا نعرف الأسباب التي دعت المأمون الى اسناد ولاية مكة لحاكم علوي . ولعل ذلك تم في نطاق سياسته الرامية الى التقرب للعلويين ، أو لعلـه من العلويين المعتدلين أو المناوئين للخارجين على سياسة العباسيين في مكة فأراد بتوليته اسكات الحسنيين الذين كثر تواجدهم في مكة حينذاك ، وبالتالي ارضاء المتشيعين لآل علي . ومهمـا تكن الأسباب فقد هدأت الأحوال في مكة في عهد الوالي الجديد الذي بقي في الولاية حتى سنـة ٢٠٩ على رأي [٥٦] ، والى أن توفـى المأمون سنة ٢١٨ على رأي آخر [٥٧] .

ولا بد لنا بعد هذه اللمحة الموجزة عن علاقة مكة بالعباسيين في عصرهم الذهبـي أن نذكر للعباسيين فضلهم المتمثل في عطفهم ورعايتهم لأهل مكـة بالرغم من ثوراتهم المتكررة عليهـم . ولعلهم كانوا يفرقون بين عامة أهل مكة وبين رجال السياسة من علويين وغيرهم ، أو أنهم كانوا يريدون مداراة الجميع فيها بما يبذلونه من عطف ورعاية الى جانب الضربات التي كانوا يكيلونها لهم [٥٨] اذا جنحوا للثورة والعصيان ، فقد تقاطر الخلفاء العباسيون في عهد أبي جعفر المنصور والمهدي (١٥٨ ـ ١٦٩) والرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣) حاجين الى مكة المكرمـة حيث قدمـوا لهـا ولأهلها الكثير من ضروب البـر والاحسان . وقد بلغت نفقـات المهدي في سنة ١٦٠هـ ثلاثـين مليون درهم وصل بها معه من العراق [٥٩] ، وثلاثمائة الف دينار وصلته من مصر [٦٠] ، ومائتي الف دينار وصلته من اليمن [٦١] فضلا عن مائة وخمسين الف ثوب [٦٢] . أما هارون الرشيد فقد بلغ عطاؤه في مكـة في احدى سنوات حجـه مليونـاً ونصف مليون دينـار [٦٣] وفوق هذا فقـد عني باحياء العيون التي طمرت بعد عهد معاوية ، فأحياها وصرف مياهها في عين واحدة يقال لها الرشا [٦٤] ، وعمل لها البرك في أعلا مكة وأسفلها لسقيا الناس . ولما لم تف تلك العيون بالغرض المطلوب عملت السيدة زبيدة زوجته على تسيير العين التي عرفت باسمها وساقتها اثنى عشر ميلا الى مكة [٦٥] . وانفقت عليها مليون وسبعمائة الف دينار [٦٦] ، ثم اتخذت المصانع والسقايات ، والمتوضآت حول المسجد الحرام . ووقفت على ذلك ضياعا غلتها ثلاثون الف دينار في السنة [٦٧] . كما أقام الرشيد المنائر على رؤوس الجبال [٦٨] ، ليسمع الناس الأذان في جميع فجاج مكـة ولا

---

(٥٣) العصامي ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ .
(٥٤) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
(٥٥) عهد المأمون الى علي الرضا بولاية العهد ، وغير شعار الدولة الى الخضرة ، وزوج ابنته أم الفضل من محمد بن علي الرضا . انظر المسعودي ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .
(٥٦) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
(٥٧) دحلان ، أحمد زيني ، خلاصة الكلام ، المطبعة الخيرية بمصر (١٣٠٥هـ) ، ص ١٠ وما بعدها .
(٥٨) السباعي ، تاريخ مكة ، جـ٢ ، ص ١٢٤ .
(٥٩) النهروالي ، قطب الدين ، كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، طبعة اوربا ، ص ٩٩ .
(٦٠) الفاسي ، تقي الدين محمد بن احمد ، العقد الثمين ، القاهرة (١٩٦٢م) جـ٢ ، ص ٧٧ .
(٦١) النهروالي ، المصدر السابق ، ص ٩٩ .
(٦٢) نفس المكان .
(٦٣) السباعي ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٢٥ .
(٦٤) الأزرقي ، اخبار مكة ، ط٢ ، مكة المكرمة (١٩٦٥) ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ .
(٦٥) اليعقوبي ، احمد بن اسحاق ، مشاكلة الناس لزمانهم ، بيروت (١٩٦٢م) ، ص ٢٦ .
(٦٦) المغربي ، الأستاذ ، من آثار السيدة زبيدة ، مجلة الرسالة ، السنة العشرون ، العدد ٩٩٥ (يوليه١٩٥٢م) ص٨٦١ وما بعدها .
(٦٧) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ٢٦ .
(٦٨) الفاسي ، شفاء الغرام، جـ٢ ، ص ١٤١ وما بعدها .

سيما وقت السحر [٦٩] ٠ هذا الى جانب التوسعات التي أجراها المنصور ومن بعده المهدي في الحرم المكـي [٧٠] ٠

وقد خص هارون الرشيد الكعبة بايداعها ميثاق ولاية العهد لأولاده من بعده [٧١] ولما نقض الأمين عهد والده تجاوبت مكة مع الأحداث التي تـدور على السـاحـة العباسية ، وحرصت على صيانة ميثاق الرشيد الذي تحتضنه ، فغضب أهلها لنقض الأمين عهد والده ، والتفوا حول واليها داود بن عيسى ، فنادى بخلع الأمين وبايعوه للمأمون [٧٢] ٠

ولما علم المأمون بذلك سر سرورا كثيرا ، وعندمـا انتصر على الأمـين وتـولى الخلافـة [٧٣] (١٩٨ ــ ٢١٨هـ/٨١٣ ــ ٨٣٣م) أقر داود على امارة مكة ٠ فمكث فيها حتى سنة ١٩٩هـ [٧٤] ٠

تدهور الخلافة العباسية وأثر ذلك على الحجاز

تعرضت الدولة العباسية في عهد المعتصم [٧٥] (٢١٨ ــ ٢٢٧هـ/٨٣٣ ــ ٨٤٢م) لتجربـة جديدة كانت بعيدة الأثر في زعزعة أركانها وبالتالي انقسامها الى دولة صغرى وكبرى أصبحت خطرا عليها فيما بعد ٠ ذلك أن المعتصم أهمل العنصر العربي والفارسي وأدخل عنصرا جديدا في جيشه هم الأتراك [٧٦] الذين استكثر من شرائهم من سمرقند وفرغانة [٧٧] وغيرهما من النواحي ٠ وكون منهم جيشـا كبيرا أربى على خمسين الفا [٧٨] ، وقلدهم المناصب الكبرى في الدولة ٠ وسرعان ما أصبحوا خطرا حتى على المعتصم نفسه في أواخر أيامه [٧٩] ٠ ثم لم يلبث أن تفاقم أمرهم في عهد خلفائه حتى أصبح بأيديهم تولية الخلفاء وعزلهم [٨٠] ، بل تطرفوا في استغلال نفوذهم حتى أدى بهم الأمر الى قتل بعض الخلفاء [٨١] وسمل البعض الآخر [٨٢] ٠

وقد أخذ الخلفاء العباسيون في هذه الفترة يمنحون الأتراك المتنفذين في البـلاط العباسي اقطاعات كبرى في البلاد الاسلامية مقابل خراج معين يؤدونه لخزينة دار الخلافة ٠ ولم يكن من السهل على هؤلاء القادة الكبار ترك بغداد أو سامراء وما فيهما من نعيم وترف وكذلك خوفهم من الابتعاد عن مسرح الخلافة خشية أن تحاك المؤامرات ضدهم لتؤدي الى عزلهم أو اقصائهم لذلك أنابوا عنهم ولاة يحكمونها [٨٣] لم يلبث هؤلاء أن استقلوا بشؤون تلك الولايـات وانفصلوا عـن جسم الدولة العباسية [٨٤] وكونوا دولا خاصة بهم تتفاوت في ولائها للدولة العباسية من اقليم الى آخر ٠

---

(٦٩) نفس المكان ٠
(٧٠) النهروالي ، الاعلام ، ص ٨٩ــ١٠٨ ٠
(٧١) الأزرقي ، أخبار مكة ، جـ١ ، ص ٢٢٢ وما بعدها ٠
(٧٢) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ١٨١ ٠
(٧٣) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ١٦٩ ٠
(٧٤) ابن ظهيرة ، الجامع اللطيف ، ص ١٨٣ ٠
(٧٥) الديار بكرى ، حسين بن محمد ، تاريخ الخميس ، طبعة بيروت ، جـ٢ ، ص ٣٣٦ ــ ٣٣٧ ٠
(٧٦) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، جـ٢ ، ص ١٩٢ ٠
(٧٧) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٥ ، ص ١٩٣ ٠
(٧٨) Gibon, Edward. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Ed. by B.B. Bury, vol. IV, p. 47.
(٧٩) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ ٠
(٨٠) نفسه ، في أماكن متفرقة ٠
(٨١) ، (٨٢) الديار بكرى ، المصدر السابق ، ص ٣٣٩ وما بعدها ٠
(٨٣) حسن ابراهيم حسن ، المصدر السابق ، ص ١٩٤ ٠
(٨٤) أبو سعيد ، حامد غنيم ، عصر الدول الاقليمية ، القاهرة (١٩٧٤م) ص ١٩٣ وما بعدها ٠

فقد فرض الطولونيون (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/٨٦٨ ـ ٩٠٥م) سيادتهم على مصر[٨٥] ، وقامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ ـ ٢٥٩هـ/٨٢٠ ـ ٨٧٢م) في خراسان[٨٦] ، ومنها انتقلت السيادة الى الدولة الصفارية[٨٧] (٢٥٤ ـ ٢٩٠/٧٦٨ ـ ٩٠٣) ، كما قامت الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر وايران (٢٦٦ ـ ٣٨٩هـ/٨٧٤ ـ ٩٩٩م) [٨٨] .

وكانت قبل ذلك قد انسلخت عن الدولة العباسية بلاد الأندلس وافريقية[٨٩] ، بل ان الخلافة العباسية بلغ بها التدهور في بعض مراحل حياتها بحيث أصبحت سيادة الخلفاء فيها لا تتجاوز حدود عاصمتهم[٩٠] .

ولم تكن حال العباسيين في الجزيرة العربية باحسن منها في غيرها من اقاليم دولتهم فقد انحسرت سيطرتهم عن أجزاء واسعة من الجزيرة العربية ، استقلت بعض أقاليمها بشؤونها الداخلية ، ففي اليمن استقل الزياديون (٢٠٥ ـ ٤٠٢هـ/٨٢١ ـ ١٠١٢م) [٩١] عن الدولة العباسية منذ مطلع القرن الثالث الهجري ، وبلغت أقصى اتساعها في عهد مؤسسها محمد بن زياد السفياني[٩٢] ، واحتفظت للعباسيين فقط بالخطبة ، ولم يتغير ذلك الرسم الا في عهد أبي الجيش[٩٣] حيث خطب لصاحب أفريقية الفاطمي[٩٤] . كما أسس بنو يعفر الحواليون (٢٢٥ ـ ٣٩٣هـ/٨٤٠ ـ ١٠٠٣م)[٩٥] دويلة خاصة بهم في صنعاء والجند[٩٦] لا تربطهم بالدولة العباسية سوى الخطبة[٩٧] . وقام الداعية أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب ، وزميله علي بن الفضل الجدني[٩٨] بتأسيس دولة اسماعيلية في عدن لاعة وبلاد يافع الجبلية[٩٩] تبشر بالمهدى الفاطمي وتدعو له[١٠٠]. أما شمال اليمن وشرقه فقد خضع لدولة بني الرسي[١٠١] الزيديين الذين أسسوا فيها دولتهم ابتداء من سنة ٢٨٤هـ[١٠٢] . وهي لا تمت الى العباسيين بأدنى صلة وبذلك انسلخ اليمن عن الدولة العباسية .

---

(٨٥) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، طبعة جامعة فؤاد الأول ، جـ١ ، ص ٧٦ وما بعدها .
(٨٦) لينبول ، ستانلي ، الدول الاسلامية ، ترجمة محمد صبحي فرزات ، ص ٢٦٠ .
(٨٧) بروكلمان ، كارل ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ط٤ ، بيروت (١٩٦٥م) ص ٢١٧ .
(٨٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص ١٩٦ وما بعدها .
(٨٩) بروكلمان ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ .
(٩٠) لمزيد من المعلومات عن ضعف الخلفاء انظر الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٦٤ وما بعدها .
(٩١) عمارة ، اليمني ، تاريخ اليمن ، تحقيق حسن سليمان محمود ، القاهرة (١٩٥٧م) ص ٣٥ وما بعدها .
(٩٢) نسبة الى زياد بن أبيه الذي استلحقه معاوية بن أبي سفيان بنسبته الى أبيه سفيان بن حرب .
(٩٣) احد ملوك الأسرة الزيادية حكم من (٢٩١ـ٣٧١هـ) ، انظر الشجرى ، ابن حسان ، الوسيط في تاريخ اليمن ، مخطوط مكتبة جامعة اكسفورد الرقم ورقة ٤٤ . محمود حسن سليمان : تاريخ اليمن السياسي ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .
(٩٤) ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، مكتبة دار الحياة ، بيروت ، ص ٢٢ .
(٩٥) الهمداني ، الحسن بن أحمد ، الاكليل ، نشر انستاس الكرملي جـ٨ ، ص ١٠٥ . محمود حسن سليمان ، المصدر السابق ، ص ١٢٥ وما بعدها .
(٩٦) الجند : بليدة تبعد من تعز بحوالى ٣٥ كيلومترا الى الشمال الشرقي . بها جامع الجند المشهور الذي ينسب بناؤه الى الصحابي الجليل معاذ بن جبل الهمداني ، صفة جزيرة العرب . منشورات اليمامة (١٩٧٤م) ص ٧٨ .
(٩٧) محمود ، حسن سليمان ، تاريخ اليمن ، ص ١٢٥ .
(٩٨) القاضي ، النعمان ، كتاب افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحات الدشراوى ، طبع تونس (١٩٧٥م) ، ص ٢ وما بعدها . الشجري ، الوسيط ، ورقة ٣٤ .
(٩٩) الجندى ، بهاء الدين ، القرامطة من كتاب السلوك للمذكور . نشره حسين سليمان محمود ، القاهرة (١٩٥٧م) ص ١٦٥ وما بعدها .

Hamdani, Abbas: Evalution of the organisational structure of the Fatimi Da'wah (The Yemeni and Persian contribution) Arabian studies. London (vol. III. p. 86.

(١٠٠) اليماني ، محمد ، سيرة جعفر ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، م٤ ، جـ٢ ، (ديسمبر ١٩٣٦م) ، ص ١١٥ .
(١٠١) ابن القاسم ، يحى بن محمد ، غاية الأماني ، القاهرة (١٩٦٨م) جـ١ ، ص ١٦٧ .
(١٠٢) نفسه ص ٦٧ ـ ١٦٨ ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ص ٢٢٧ .

أما في وسط الجزيرة العربية وغربها فقد تعرضت مكة سنة ٢٥١هـ لثورة علوية تزعمها رجل حسني يدعى اسماعيل بن يوسف[١٠٣]، فاستولى عليها وطرد واليها جعفر بن الفضل العباسي[١٠٤]، ونهب ما في خزائن الكعبة من الأموال[١٠٥]. كما استولى على المدينة وجدة[١٠٦]. فتحرك المعتز[١٠٧] (٢٥٢ - ٢٥٥هـ/٨٦٦ - ٨٦٩م) ببطء وبعث اليه محمد بن عيسى بن المنصور وعيسى بن محمد المخزومي[١٠٨] فحارباه بعرفة، والظاهر أنهما لم يقدرا عليه، ثم توجه الى جدة واستباحها[١٠٩]، وبعد ذلك عاد الى مكة حيث لقي حتفه بالجدري في آخر سنة ٢٥٢[١١٠]. فخلفه أخوه محمد الاخيضر [١١١]، ولكن يبدو أن الحجاز رفضه لسوء سيرة أخيه وانحراف ثورتهما عن المبادىء الحجازية الى تكوين المغانم الذاتية فاتجه الى اليمامة حيث أسس دولة بني الأخيضر [١١٢] متخذا من الخضرمة [١١٣] قاعدة له ·

وفي جنوب العراق قامت ثورة صاحب الزنج [١١٤] (٢٥٥-٢٧٠هـ) وانتشرت دعوته في بعض نواحي العراق والبحرين وغيرها[١١٥]، فهدد الخلافة العباسية في عقر دارها واستولى على مكة فأصابتها لذلك ضائقة شديدة[١١٦]، ولولا جهود أبي أحمد الموفق في القضاء على تلك الثورة لتغير وجه التاريخ العباسي ·

ولم يكد الموفق يفرغ من أخماد ثورة صاحب الزنج حتي تعرضت مكة لأول تدخل مصري في الحجاز في التاريخ الاسلامي وكان ذلك التدخل من منافسه أحمد بن طولون[١١٧] الذي أسس لنفسه دولة مستقلة في مصر (٢٥٤ - ٢٩٢هـ/٨٦٨ - ٩٠٥م) حيث أرسل قوة تمكنت من احتلال مكة سنة ٢٦٩ [١١٨]، وقسم الأموال في أهلها[١١٩]. وكان يلي مكة من قبل العباسيين هارون بن محمد بن اسحاق الهاشمي[١٢٠] الذي تلقى مددا من الموفق بقيادة جعفر بن الباغمردى[١٢١] فتمكن من هزيمة جيش ابن طولون وأجلاه عن مكة في آخر سنة ٢٦٩ [١٢٢]. وكانت هذه البادرة من ابن طولون بعيدة المدى في تاريخ الحجاز اذ نلاحظ أن جميع الحكومات التي تعاقبت على حكم مصر كانت حريصة على الاستيلاء على الحجاز كما أن الحجاز نفسه بدا وكأنه في حاجة الى موالاة مصر

(١٠٣) الطبرى ، **تاريخ الأمم** ، جـ١١ ، ص ١٣٦ ·
(١٠٤) نفس المكان ·
(١٠٥) ابن الأثير ، **الكامل** ، جـ٥ ، ص ٣٣٠ ·
(١٠٦) نفس المكان ·
(١٠٧) تولى الخلافة بعد خلع المستعين · انظر ابن حبيب ، **المحبر** ، بيروت ، ص ٤٤ ·
(١٠٨) الطبرى ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ ·
(١٠٩) الفاسى ، **شفاء الغرام** ، جـ٢ ، ص ١٨٦ ·
(١١٠) ابن خلدون ، **العبر** ، طبعة بولاق ، جـ٤ ، ص ٩٨ ·
(١١١) المسعودى ، **مروج الذهب** ، جـ٤ ، ص ١٨٠ ·
(١١٢) المسعودى ، **مروج الذهب** ، جـ٤ ، ص ١٨٠ ·
يوسف الشبل ، الدولة الأخيضرية ، **مجلة كلية اللغة العربية** ، العدد السادس (١٩٧٦م) ، ص ٤٦٠ وما بعدها · ابن حزم ، **الجمهرة** ، ص ٤٦ ·
(١١٣) الخضرمة : بلد بارض اليمامة لربيعة ، وتقع في جو وهي قصبة اليمامة · ياقوت ، **معجم البلدان** ، طبع بيروت ، جـ٢ ، ص ٣٧٧ · الشبل ، المصدر السابق ، ص ٤٦١ ·
(١١٤) انظر الطبرى ، **التاريخ** ، جـ١١ ، ص ١٨٧ وما بعدها ·
Mansfield, Peter, The Arabs, Landon (1977), pp. 58-59.
(١١٥) آل عبد القادر ، محمد بن عبد الله ، **تحفة المستفيد** ، ط١ ، الرياض (١٩٦٠م) ص ٨٢ ·
(١١٦) الفاسى ، **شفاء الغرام** ، جـ٢ ، ص ١٩٠ ·
(١١٧) انظر ترجمته ، ابن خلكان ، **وفيات الأعيان** ، جـ١ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ ·
(١١٨) الفاسى ، المصدر السابق ، ص ١٨٨-١٨٩ ·
(١١٩) نفس المكان ·
(١٢٠) ابن ظهيرة ، **الجامع اللطيف** ، ص ١٨٧ ·
(١٢١) في ابن ظهيرة ، الباغمرون ، ص ١٨٧ ·
(١٢٢) النهروالى ، **الإعلام** ، ص ١٩٩ ·

لاعتماده عليها من الوجهة الاقتصادية ، وهذا ما سنعرض له مبسوطا في الفصول التالية ·

أمـا في شرق الجزيرة العربية فقد أسس الجنابيون[١٢٣] دولتهم في الاحساء وامتد نفوذهـم حتى شمل هجر واليمامة وجنوب العراق[١٢٤]، وشنوا غـارات متتاليـة على الدولـة العبـاسيـة فاستنزفوا قواتها وضيقوا عليها الخناق حوالي نصف قرن من الزمان ·

وهكذا تنحسر السيادة العباسية عن الجزيرة العربية وتخرج من قبضتها ، وليس أدل على خروج الجزيرة العربية من سيطرة العباسيين في أواخر القرن الثالث من اعتراف الخليفة العباسي المعتضد[١٢٥] (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/٨٩٢ ـ ٩٠٢م) عندما بلغته رسالة أبي سعيد الجنابي مع أبـي العباس بن عمر الغنوي[١٢٦] بقوله « ما أخذ والله شيئا كان بايدينا » [١٢٧] ·

كان من الطبيعي بعد ضعف الدولة العباسية وانقسامها وانحسار سلطتهـا عن الجزيرة العربية واستقلال بعض أقاليمها أن ينزع الحجاز الى تكوين شخصيته المستقلـة عن الدولـة العباسية · صحيح أن الحجاز كان كما أسلفنا يطمع في استرداد مكانتـه السياسية في زعامـة العالم الاسلامي ، فاحتضن ثورة ابن الزبير وناصرها بل نجد أن الرأى العام الحجازي يرفض العرض الذي قدمه الحصين بن نمير لابن الزبير وكان يقضي بضمان المبايعة له ، ان ذهب معه الى الشام[١٢٨]· وفي الوقت نفسه عارض فكرة خروج محمد النفس الزكية الى مصر[١٢٩] عندما طلب ذلك منه ، كما كان الحجاز في كل الثورات السابقة حريصا على بسط نفوذه على أقاليم أخرى يكون الحجاز مركزا لها ·

أما وقد استفحلت الاقليمية وانتشرت الحركات الاستقلالية فيبدو أن الحجاز قنع بالانفصال عن الدولة العباسية وتكوين حكومة مستقلة · ولا يعني هذا أن العباسيين أهملوا شؤون مكـة كغيرها من أقاليم الجزيرة العربية بل كانت لمكانتها الدينية تحظى بعناية خاصة من الخلفاء فقد أمدتنا المصادر التاريخيـة بذكر عدد من الولاة تقلبـوا على امارتهـا في عهـد المعتضد والمكتفي والمقتدر[١٣٠]، ولكن يبدو أن ضعف هؤلاء الخلفاء وانشغالهم بمجابهة الفتن الداخلية أنعكس على مركز والي مكة فاستغل فترة الضعف تلك بعض زعماء العلويين من بنـي سليمـان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[١٣١]، وعملوا على الاستقلال بامارتها ، وسرعان ما تغلبوا عليها وأسسوا بها دولة مستقلة ، وخلع أميرهم ويدعي محمد بن سليمـان[١٣٢] طاعة بنـي العباس وخطب لنفسه بالامامة في موسم سنة ٣٠١هـ[١٣٣] وقال « الحمد لله الذي أعاد الحق الى نظامه ، وأبرز زهر الايمان من أكمامه ، وكمل دعوة خير الرسل باسباطه لا ببنى أعمامه صلى الله عليـه وعلى آله الطاهرين وكف عنهم ببركته اساءة المعتدين · وجعلهـا كلمـة باقيـة في عقبـه الى يـوم الدين » [١٣٤] ·

---

(١٢٣) الجنابيون : نسبة الى جنابه وهي بلدة صغيرة على الخليج العربي بينها وبـين سيراف ٤٥ فرسخـا ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ١٦٥ـ١٦٦ ·
(١٢٤) ال عبد القادر ، تحفة المستفيد ، ص ٨٤ وما بعدها·
(١٢٥) بويع بالخلافة بعد وفاة المعتمد · انظر : ابو الفداء ، المختصر ، نشر دار المعرفة ، بيروت ، جـ٢ ، ص ٥٦ ·
(١٢٦) ال عبد القادر ، المصدر السابق ، ص ٨٥ ·
(١٢٧) المقريزي ، أحمد بن علي ، اتعاظ الحنفا ، تحقيق الشيال ، القاهرة (١٩٦٧م) جـ١ ، ص ١٦٣ ·
(١٢٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص ٢١٩ ·
(١٢٩) الطبرى ، التاريخ ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٩ ·
(١٣٠) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٩١ ·
(١٣١) سرور ، محمد جمال الدين ، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، ص ١٠ـ١١ ·
(١٣٢) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٩٩ ·
(١٣٣) العصامي ، سمط النجوم العوالي ، جـ٤ ، ص ١٩٢ ·
(١٣٤) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٩٩ ·

لم تشر المصادر التي بين أيدينا من قريب أو بعيد عما آلت اليه تلك الحركة وهل قدر لها البقاء فترة في مكة أم قضى عليها ، ولكن يبدو أن تلك الحركة لم تكن من القوة والوضوح بحيث تستقطب أنظار المؤرخين مما كان سببا في سكوت المصادر عنها ، ومهما يكن من أمر تلك المحاولة فانها على الرغم من عدم وضوحها كانت ذات دلالة كبيرة بأن المكيين « كانوا يتطلعون الى اليوم الذي يحققون فيه الشخصية المستقلة لمدينتهم ، وذلك بخروجها عن نطاق السيطرة العباسية المباشرة وخضوعها بدلا من ذلك لحكم أسرة محلية[١٣٥]» . كما كانت ذات مغزى سياسي بعيد المدى في تاريخ العلاقات العباسية الفاطمية لفتت نظر أبي القاسم ولي العهد الفاطمي الذي كان مقيما بالفيوم[١٣٦]في محاولته الثانية[١٣٧]للاستيلاء على مصر سنة ٣٠٧هـ[١٣٨] وشجعته على الكتابة لأهل مكة يدعوهم للدخول في طاعته والاعتراف بالخلافة الفاطمية[١٣٩]. الا ان أهل مكة لم يستجيبوا لطلب أبي القاسم وهذا الرفض يؤكد النزعة الاستقلالية التي كانت تحرك زعماء المدينة المقدسة تلك النزعة التي تضمنتها اجابتهم في الرد على أبي القاسم بقولهم « ان لهذا البيت ربا يدافع عنه »[١٤٠].

(١٣٥) أبو سعيد ، حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص ٣٢٦ .
(١٣٦) القرطبي ، عريب بن سعيد ، صلة الطبري ، المطبعة الحسينية المصرية (١٣٢٣هـ) ص ٤٣ .
(١٣٧) كان الفاطميون قد قاموا بمحاولة اولى لغزو مصر سنة ٣٠١هـ ، أنظر ابن الأثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ١٤٧ .
(١٣٨) نفس المصدر ، جـ٥ ، ص ١٦١ .
(١٣٩) ابو سعيد ، المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .
(١٤٠) القرطبي ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .

الفصل الثاني

أوضاع مكة السياسية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري

● النفوذ القرمطي ● الأخشيديون وعلاقتهم بمكة

النفوذ القرمطي

يسود الغموض تاريخ مكة في الثلث الأول من القرن الرابع الهجري فالمصادر التي تؤرخ لحركة محمد بن سليمان لم تذكر ما آلت اليه تلك الحركة من النجاح ، والفشل ، وفي نفس الوقت تشير بأن ركب حاج العراق أخذ يتعاهد مكة حتى سنة ٣١٧هـ [١] والظاهر أن تلك الحركة بقيت حتى قضى عليها القرامطة في السنة المذكورة وقد ذهب الى ذلك الدكتور محمد جمال‌الدين سرور حين يقول بأن «دولة بني سليمان بمكة لم تكن من القوة بحيث تستطيع حماية الحجاج وصد المغيرين عليها ، فقد هددها القرامطة واستولوا عليها سنة٣١٧هـ [٢] • كما يذكر زامباور [٣] بان حاكم مكة في سنة ٣٠٦هـ هو الشريف محمد بن موسى ، وهذا الاسم لم يرد في قوائم ولاة مكة من العباسيين في هذا التاريخ ، ولعله من الحسنيين الذين حكموا مكة في ظل ثورة سليمان بن داود ، بالاضافة الى أن حاكمها في سنة ٣١٧هـ هو محمد بن اسماعيل بن مجلب [٤] اذ يذكر ابن الأثير [٥] أن ابن مجلب أمير مكة خرج الى القرامطة في جماعة من الأشراف فسألوه أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم اجمعين ، ولعل حكم ابن مجلب هذا كان امتدادا لسلطان دولة بني سليمان الأولى في مكة لأن كلمة الأشراف كما هو معروف تطلق على الحسنيين الذين ينتسبون الى الحسن بن علي بن أبي طالب [٦] هذا الى جانب أن اسم محمد بن اسماعيل ليس غريبا على الأسماء العلوية آنذاك • ومن هنا نستطيع القول بأن حركة سليمان استمرت تحكم مكة سبعة عشر عاما حتى قضى عليها القرامطة أثناء هجومهم على مكة •

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٩٩ •
(٢) سرور ، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، ص ١١ •
(٣) زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، نقله الى العربية د• زكي محمد حسن ، حسن أحمد محمود ، طبع القاهرة (١٩٥١م) ، جـ٢ ، ص ١٩٢ •
(٤) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٩٢ •
(٥) الكامل في التاريخ ، جـ ٥، ص ٢٠٤ •
(٦) Snouck, C.: Mekka in the latter part of the 19th Century. Leiden (1970), p. 9.

ولا يتعارض حكم الأشراف في هذه الفترة مع ما ذكره المؤرخون من توارد الركب العراقي الى مكة وارسال أمراء للحج مع هذا الركب لأن دراستنا لهذه الفترة لم تثبت أن أمراء مكة عارضوا ركب الحج أو حجوا بالناس الا في السنوات التي لم ترسل فيها بغداد آنذاك أو القاهرة فيما بعد أميراً للحج • ولا غرابة في ذلك خاصة اذا علمنا أن الحج يشكل اعظم مورد اقتصادى لمكة وان قافلة الحج العراقي أو المصرى هما من أهم الركائز التي يقوم عليها اقتصاد مكة •

ومهما تكن السيادة على مكة للأشراف أو للعباسيين فان آبا القاسم ولي العهد الفاطمي ساءه أن لا يستجيب المكيون لطلبه ويذعنوا بالولاء للخلافة الفاطمية فليس من المستبعد والحالة هذه أن يكون هو الذي أوعز الى قرامطة البحرين (الجنابيين) باحتلال مكة واقامة الخطبة بها لوالده عبيد الله المهدي [٧] (٢٩٧ – ٣٢٢هـ/٩٠٩ – ٩٣٤م) • فمن هم هؤلاء القرامطة ، وما علاقتهم بالفاطميين ؟

والقرامطة اصطلاح أو تسمية أطلقت على طائفة أتخذت من الدعوة الى امامة اسماعيل بن جعفر الصادق [٨] وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية ، وقد عرفت بهذا الاسم نسبة الى أحد دعاتها وهو حمدان بن الاشعث الملقب بقرمط ، ويقال انه سمي بذلك لقصر قامته ورجليه • وقيل : ان كلمة قرامطة تطلق في جنوب على الفلاح ، وأن حمدان عرف بهذا الاسم وسمي أتباعه باسمه [٩] •

أما منشأ دعوتهم فترجع الى نشاط الدعاة الاسماعيلية في دور الستر [١٠] في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عندما بث رئيس الدعوة الاسماعيلية في سلمية هؤلاء الدعاة في فارس والعراق واليمن [١١] وغيرها • وكان داعيتهم في سواد الكوفة الحسين الأهوازى قد لقي استجابة من حمدان بن الأشعث الذي أخذ على عاتقه – مستعيناً بصهره عبدان – بثها بين قبائل العرب ، وصادقت على يد عبدان كثيرا من النجاح ، حتى أن الحسن بن بهرام [١٢] (ت ٣٠١) مؤسس دولة القرامطة في البحرين والذي عرف فيما بعد باسم أبي سعيد الجنابى ، قد أخذ الدعوة عنه وتولى بثها في الجنوب بحيث لم يحل عام ٢٨٦ حتى استولى على جزء كبير من البحرين ومد سيطرته على مدينة القطيف [١٣] ، واتخذ الأحساء عاصمة له [١٤] •

وكان من الطبيعي أن يتخذ العباسيون موقفا صارما تجاه الامارة الناشئة فقد سجلت سنة ٢٨٩ أن جيشا عباسيا بقيادة واحد من أمهر القادة العباسيين هو العباس بن عمر الغنوى [١٥] زحف على البحرين للقضاء على أبي سعيد الجنابى ، ولكنه مني بهزيمة ساحقة [١٦] • وقد شجع

---

(٧) اول الخلفاء الفاطميين ، انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ٦٥ – ٦٦ •

(٨) مختلف في امامته لوفاته في حياة والده ، انظر صبحي ، أحمد محمود ، نظرية الامامة لدى الشيعة ، دار المعارف بمصر (١٩٦٩م) ، ص ٣٨٠ وما بعدها •

(٩) سرور ، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، ص ٢١ • ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، القاهرة (١٣٥٠هـ) جـ٣ ، ص ٥٥ •
Ivanov, The Rise of the Fatimides, p. 69.

(١٠) انظر : النيسابورى احمد ، استتار الامام ، نشر ايفانوف ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، م٤ ، جـ٢ (ديسمبر ١٩٣٦م) ، ص ٩٣ وما بعدها •

(١١) محمود ، حسن سليمان ، تاريخ اليمن ، ص ١٣٣ • لويس، برنارد، الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، ص ٤٣–٤٤ • السيد ، أيمن فؤاد ، ايضاحات جديدة ، ص ١ •

(١٢) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، جـ٣ ، ص ١٧٦ – ١٩٧ •

(١٣) ابن سنان ، ثابت ، وابن العديم ، تاريخ أخبار القرامطة ، بيروت (١٩٧١م) ص ١٢ •

(١٤) Rushbrooke, E.G.N. , Western Arabia and the Red Sea, June 1964, p. 244.
ابن الجوزى ، عبد الرحمن، القرامطة ، تحقيق محمد الصباغ ، ط٢ ، بيروت (١٩٧٠م) ، ص ١٥ •

(١٥) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٦٢ •

(١٦) ابن الجوزى ، القرامطة ، ص ١٦ •

هذا الانتصار أبا سعيد في توسيع رقعته اذ لم تمض سنتـان حتى بسط سيادتـه على سائـر البحرين واليمامة وهدد عمان[١٧]، بل ان نفوذه وصل الى مدينة الطائف بالحجاز[١٨] ٠

أما علاقة الجنابيين بالفاطميـين فهـي تقوم على أسس روحية تنبع من العقيدة الاسماعيلية التي يدين بها الفريقان ويدعوان لها ٠ وأن الفتور الذي شاب علاقة أبي سعيد الجنابي بالدولـة الفاطمية سببه الخروج على مبدأ الستر[١٩] الذي كـان محور الدعـوة الاسماعيلية عندمـا أعلن دعاتها ظهور عبيد الله المهدي بافريقية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٣م ، هذا بالاضافـة الى محاولات وزير المقتـدر علـي بن عيسى[٢٠] احتـواء الحركـةالقرمطية في أواخر عهد أبي سعيد الذي اتسم بالاعتدال واظهر مرونة تجاه العباسيين الا أنه مالبث أن أغتيل سنة ٣٠١ [٢١]٠

بيد أن العلاقات القرمطية الفاطمية لم تلبث أن ازدهرت في عهد خلفه أبي طاهر سليمان بن سعيد (ت ٣٣١) الذي تلقى كتابا بتقليده زمام الحكم في دولة القرامطة من عبيد الله المهـدي الفاطمي[٢٢] مما يثبت ولاء القرامطة في بلاد البحرين للخلافة الفاطمية ببلاد المغرب ذلك الولاء الذي تحكمه المصالح المشتركة للجانبين تجاه عدوهما اللدود الدولة العباسية ، والعمل معـا على سلخ ولاياتها وبالتالي القضاء عليها ، فابن خلدون[٢٣] يذكر لنا أن أبا القاسم ولي العهد الفاطمي قد استعان بأبي طاهر القرمطي في حملته على مصر سنة (٣٠٦ ـ ٣٠٨هـ) ليقاتل معه العباسيين هناك ، غير أن ولي العهد الفاطمي مني بالهزيمة[٢٤] قبل أن يهرع القرمطي لمساعدته وفوق ذلك فقد شهد مطلع القرن الرابع سلسلة من الحملات التي شنها أبو طاهر[٢٥] على حدود الدولـة العباسية المجاورة بحيث استنزفت قواتها وساعدت في النهاية على انتصار الفاطميين على العباسيين باقتطاعهم أغنى ولاياتها في مصر والشام ٠ فليس من المستبعد والحالة هذه أن يوعز الفاطميون الى أبي طاهر باحتلال مكة والخطبة لهم فيها ، وهذا ما يؤكده اوليري[٢٦] الذي يرى أن أبـا طاهر كان مدفوعا من الخليفة الفاطمي وأنه تلقى تعاليم سرية أرسلت اليه من القيروان الغاية منهـا الانتقام من اهل مكة لأنهم لم يخطبوا لعبيد الله المهدى ٠

وقد كانت الخطبة والسيطرة على الأماكن المقدسة امرا حيويـا بالنسبة لعبيد الله المهـدى لأن امتلاكها أصبح لـه شأن أكبر من ذي قبل فلم تكن توجد مناسبة من قبل للبحث في علاقـة تميز الخليفة الشرعي ، أما الآن وقد أصبح العالم الاسلامي تتنازعه أكثر من خلافـة فقد ظهرت من ثنايا النزاع حول هذا المنصب نظرية جديدة ، وهي أن أمير المؤمنين الشرعي من كان ملكا على الحرمين الشريفين [٢٧] ٠

---

(١٧) نفس المكان ٠ Rushbrooke: op. cit. p. 244.

(١٨) ابن سنان ، المصدر السابق ، ص ٣٧ ٠

(١٩) الستر تطبيق عملي لمبدأ التقية ، ويقال ان اول من قال بالتقية هو الامام علي زين العابدين ، لذلك اثر عن عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية انه قال : « التقية ديني ودين ابائي » وقـد انتهـت مرحلـة الستر بظهور عبيد الله المهدى سنة ٢٩٧ ٠ انظر : الهمداني ، حسين فيض الله ، في نسب الخلفاء الفاطميين ، القاهرة (١٩٥٨م) ص ٩ ٠

(٢٠) مسكوية ، أبو علي احمد ، تجارب الأمم ، مصر (١٩١٤م) ، جـ١ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ٠

(٢١) ابن الجوزى ، القرامطة ، ص ١٥ ٠

(٢٢) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٨٨ـ٨٩ ٠

(٢٣) نفس المصدر ، ص ٨٩ ٠

(٢٤) نفس المكان ٠

(٢٥) ابن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص ٣٧ وما بعدها ٠

(٢٦) A Short History of the Fatimid Khalifate. London (1923). p. 86.

(٢٧) Metz. Adam: Die Renaissance des islams

نقله الى العربية محمد عبد الهادي ابو ريدة بعنوان الحضارة الاسلاميـة فـي القرن الرابـع الهجرى ، ط٤ ، بيروت (١٩٦٧م) ، م١ ، ص ٢٣ـ٢٤ ٠

لذلك حرص الفاطميون على تسخير أنصارهم القرامطة للاستيلاء على مكة والخطبة لهم بها ولو أن الدكتور محمد جمال الدين سرور [٢٨] ينفي ما ذهب اليه أوليرى ودليله على ذلك أن اهتمام الخليفة الفاطمي باقامة الخطبة له لم يتضح الا بعد أن فتح أبو طاهر مكة كما سيأتي ٠ الا انني أميل الى الأخذ برأي أوليرى لأن الخطبة للامام معروفة في التاريخ الاسلامي منذ فجر عصوره[٢٩] ، أما امتلاك مكة والخطبة فيها وما يترتب على ذلك من استجلاب رضى المسلمين وتاييدهم لمكانتها الدينية فيبدو لي أنه من بنات أفكار الفاطميين وذلك لما عرفوا بـه من أفانين الدعاية وأساليبها المختلفة التي صاحبت دعوتهم في جميع مراحلها ، وقد لا أكون مخطئا في هذا الاجتهاد ٠ خاصة اذا علمنا بأن الخلافة الفاطمية خلافة ناشئة وأن عليها أن تعمل ما تستطيع به منافسة الخلافة العباسية التي رسخت في أذهان المسلمين منذ حوالي قرنين من الزمان ، وأنها أي الخلافة الفاطمية لا زالت تعتبر خارجة عن الاجماع في عرف الكثير من المسلمين ، لهذا فلا غرابة اذا وجد الخليفة الجديد وسيلة للضرب على أوتار قلوب مئات الألوف من المسلمين بالدعوة لخليفة هو حفيد بنت رسول الله ٠ وحامي حمى بيت الله ٠

ومهما يكن من أمر فقد استهدفت استراتيجية القرامطة شن حرب اقتصادية ونفسية على مكة المكرمة، بقصد اضعافها وايجاد بلبلة في صفوف الدولة العباسية التي من المحتمل أنها ستهرع لساعدة مكة اذا قاموا باحتلالها من الوهلة الأولى والدعوة فيها لصاحبهم ، لذلك أخذوا يقطعون طرق الحج ، وهذه الخطوة لها أثرها الكبير على مكة من الوجهة الاقتصادية خاصة اذا علمنا أن الحاج هو عصب الاقتصاد المكي ــ اذا جاز هذا التعبير ــ ، فقد شهدت الفترة [٣٠] من ٣١١ ــ ٣١٤هـ تصاعد الغارات الجنابية على طرق الحج وأطراف الدولة العباسية ، فقد حفظت لنا المصادر التاريخية أن أهالي مكة بلغ بهم الهلع من الغارات الجنابية أنهم نزحوا عنها الى الطائف[٣١] في سنة ٣١٤هـ بجميع أسرهم وممتلكاتهم [٣٢] ، تحسبا لهجوم مفاجيء يشنه الجنابيون على مدينتهم ٠ هذا ولم يكن الرعب الذي أصاب مكة من الغارات القرمطية بأقل مما أصاب بغداد ذاتها ، فقد اضطرب سكانها اضطرابا شديدا ونزحوا من الجانب الغربي الى الجانب الشرقي للمدينة [٣٣] ٠

غير أن تلك الغارات وصلت ذروتها في سنة ٣١٧هـ عندما هاجم أبو طاهر مكة في موسم الحج وقتل الناس في مكة وفجاجها [٣٤]، وفي المسجد الحرام قتلا ذريعا [٣٥] وطرح القتلى في بئر زمزم [٣٦]، واقتلع باب البيت الحرام وكان مصفحا بالذهب [٣٧] ، وأخذ جميع ما كان في البيت من محاريب ومعاليق وما تزين به الكعبة من مناطق ذهب وفضة [٣٨]وقلع الحجر الأسود وجرد

(٢٨) سرور ، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، ص ٣٦ ٠

(٢٩) قيل بان اول من دعا للخليفة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عندما تولى امارة البصرة في خلافة علي بن ابي طالب رضي الله عنه انظر : ماهر ، سعاد ، شارات الخلافة في الفن الاسلامي ، مجلة الدارة ، العدد الثالث السنة الثالثة (شوال ١٣٩٧هـ) ، ص ٥٥ ــ ٥٦ ٠

(٣٠) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ١٧٥ــ١٩١ ٠

(٣١) ابن القاسم ، غاية الأماني ، قسم ١ ، ص ٢١٣ ٠

(٣٢) ابن الجوزى ، عبد الرحمن ، المنتظم ، حيدر اباد (١٣٥٧هـ) ، جـ٦ ، ص ٢٠١ ٠

(٣٣) نفس المصدر ، ص ١٩٦ ٠

(٣٤) القلقشندى ، مآثر الانافة ، تحقيق عبد الستار ، الكويت (١٩٦٤م) جـ١ ، ص ٢٧٩ ٠

(٣٥) مسكوية ، تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢٠١ ٠

Esin, Emel: Mecca the Blessed Madinah the Radiant. Italy (1974). p. 169.

(٣٦) البسطامي ، عبد الرحمن ، كتاب الفوايح المسكية ، مخطوط بالمكتبة السعودية بالرياض ٢٤٢/٨٣ ، ورقة ٦٣ ٠

(٣٧) القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧٩ ٠

(٣٨) البسطامي ، المصدر السابق ، ورقة ٦٣ ٠

البيت مما كان عليه من الكسوة وقسمها بين أصحابه [٣٩] ، وبقي في مكة حوالي ثمانية أيام [٤٠] ينهب الأموال ويسفك دماء الأبرياء [٤١]، فأحدث مأساة دامية تفننت كتب التاريخ في ايراد أرقـام خيالية للضحايا [٤٢]، لا يمكن للعقل أن يقبلها ، ولكنها تعطي دليلا بان القرامطة أحدثوا مجزرة رهيبة خاصة اذا علمنا أن القتل استهدف الحجاج والأهالي رجالا ونساء دون تمييز [٤٣].

ومهما يكن أمر تلك المجزرة فان أبا طاهر خطب في موسم ذلـك العام لـمولاه عبيد اللـه المهدى الخليفة الفاطمي [٤٤] في مكة ، ثم عاد الى الاحساء [٤٥] مثقـلا بالغنائـم بمـا في ذلك الحجر الأسود [٤٦]. ظانا أنه بهذا العمل قدم للخليفة الفاطمي جليل المساعدات [٤٧].

غير أن الأمور سارت على غير ما يهوى أبو طاهر ، اذ ما كادت تصل أخبـار ما فعلـه الى عبيد الله المهدى حتى أظهر استياءه وأنكر فعله ، وكتب اليه ما نصه « ان أعجب العجب ارسالك بكتبك الينا ممتنا بما ارتكبت في بلد الله الأمين من انتهاكك حرمة بيت اللـه الحرام الذي لـم يزل محترما في الجاهلية والاسلام وسفكت فيه دمـاء المسلمين وفتكت بالحجـاج والمعتمرين ثـم تعديت وتجرأت على بيت الله تعالى وقلعت الحجر الأسود الذي هو يمين الله في الأرض يصافح به عباده وحملته الى أرضك ورجوت أن أشكرك على ذلك فلعنك الله ثم لعنك » [٤٨]. ولم يكتف بلعنه بل هدده قائلا : « وان لم ترد على أهل مكة والحجاج ما نهبته منهم وتـرد الحجر الأسود الى موضعه وترد كسوة الكعبة كما كانت والا أتيت اليك بجنود لا قبل لك بها وأنا بريء منك كما برئت من الشيطان الرجيم في الدنيا والآخرة وأعوذ بالله من فعالك السوء ، وان لم تفعل مـا آمرك لا يكون بيني وبينك الا السيف والبراءة منك يا عدو الله والناس أجمعين » [٤٩].

وهنا يجدر بنا أن نناقش مستقبل العلاقات الفاطمية الجنابية في مكة بعد تهديد عبيد الله لأبي طاهر ، ثم ما حقيقة هذا التهديد ، وهل كان صادقا فيما ادعاه في رسالته ؟

يذكر المرحوم أحمد أمـين [٥٠] بعد أن يورد حادثـة القرامطة بأن أبـا طاهر غنم ملايـين الدنانير اذ ذاك فأرسل جزء منها الى الامام الشيعي ، فاذا سلمنا بمـا أورده الأستاذ أحمد أمـين فمعنى ذلك أن المهدي لم يكن صادقا في تهديده وأن ما فعله مع أبي طاهر لم يعدو في كونه سياسة أراد من ورائها « أن ينفي ـ على حد قول أوليرى [٥١] ـ عن نفسه أية مسئولية من جراء استحواذ

---

(٣٩) أبو البقاء ، احوال مكة المشرفة والمسجد الشريف ، مخطوطة مصورة ، جامعة الرياض برقم ٢٢٦ تاريخ ، ورقة ٨٩ .

(٤٠) المسعودى ، التنبيه والأشراف ، ص ٣٣٤ .

(٤١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ٢٠٣ وما بعدها .

(٤٢) وقد اختلف في عدد القتلى فمنهم من قال ثلاثين الفا ومنهم من قال دون ذلك او أكثر . المسعودى ، التنبيـه والاشراف ، ص ٣٣٤ .

(٤٣) الطبرى ، عبد القادر ، الأرج المسكي ، مخطوطة مصورة ، جامعة الريـاض برقـم ٢٢٢ (تاريـخ) ، ورقـة ٢٥ . الذهبي ، دول الاسلام ، حيدر أباد (١٣٣٧هـ)، جـ١،ص ١٥١ .

(٤٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، طبعة المطابع الأميرية ، جـ٤ ، ص ٢٦٨ . ابن خلدون ، العبر ، جـ١ ، ص ١٠٠ .

(٤٥) الحمادى ، كشف أسرار الباطنية ، مطبعة الأنوار (١٣٥٧هـ) ، ص ٢٠ .

(٤٦) الأسدى ، أخبار الكرام ، مخطوط ، المكتبة الظاهرية برقم ٤٧٥٩ ، ورقة ١١ .
Rushbrooke: Western Arabia and the Red Sea. p. 244.

(٤٧) أبو سعيد ، العلاقات العربية ، ص ٣٢٧ .

(٤٨) النهروالي ، الاعلام ، ص ١٦٥ .

(٤٩) ابن سنان ، تاريخ اخبار القرامطة ، ص ٥٥ .
العيني ، بدر الدين ، عقد الجمان ، المكتبة السليمانية برقم ١٢١٧ ، اسطانبول ، جـ١١ ، ورقة ١٩٢ .

(٥٠) ظهر الاسلام ، طبعة بيروت ، جـ٤ ، ص ١٢٥ .

(٥١) A Short History of the Fatimid Khalifate. p. 25.

القرامطة على الحجر الأسود ، وليظهر بمظهر المدافع عن شعائر الاسلام حتي يكسب تقدير العالم الاسلامي » ونحن لا نستطيع قبول هذا الراي لأنـه يعوزه الدليل الحاسم ، وفي الوقت ذاتـه لا يمكن التسليم بما جاء في بعض المصادر (٥٢) بأن أبا طاهر لما تلقى رسالة عبيد الله وفهم ما جـاء فيها انحرف عن طاعته ، لأن المصادر تشير بأنه (أى الزعيم القرمطي) بقى مواليا للفاطميين حتى وفاته سنة ٣٣١هـ (٥٣) .

والدراسة الموضوعية لتلك الفترة تجعلنا نحس بأن أفعال أبي طاهر في مكـة جعلت عبيد الله المهدى في موقف حرج أمام العالم الاسلامي . فامر الاستيـلاء على مكـة والخطبة بهـا يثبتـه استقراء الحوادث ، الا أن الأفعال التي ارتكبها أبو طاهر جـاءت مغايـرة لأهـداف عبيد اللـه ومرامية ، وكان عليه هنا أن يجعل أهدافه ومكانته بين المسلمين فوق ولاء الزعيم الجنابي له ، فكتب اليه مستنكرا ومهددا ، لذلك نرى أبا طاهر ينصاع للتهديد فاستعاد ما أمكنه من أموال مكة ورده (٥٤) اليهم ، وكتب الى عبيد الله يعتذر بان الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحاج ولا أقدر على ردها منهم (٥٥) . وكذلك اعتذر عن رد الحجر الأسود متعللا بموقف اتباعـه الذيـن أصروا على الاحتفاظ به ووعد برده في مناسبة ثانية (٥٦) .

ويبدو أن عبيد الله المهـدي قبل اعتذار أبـي طـاهر ، وبقـي الأخير على ولائـه فالمصادر التاريخية تتحفنا بقصيدة (٥٧) لأبي طاهر بعد هذه الواقعة تثبت ولاءه لعبيد الله المهدي ومباينته للعباسيين .

استمرت سيطرة أبي طاهر على مكة فقام بفرض حصار اقتصادى على طريق الحج العراقي ورفض عرضا عباسيا في سنة ٣٢٢هـ يقره على ما بيده من البلاد ، ويقلده بعد ذلك ما شاء من البلدان ، ويطلق له الميرة من البصرة على ألا يعترض الحاج ويرد الحجر الأسود الى مكانه ويخطب باسم الخليفة (٥٨) . ورغم أن أبا طاهر رفض هذا العرض السخى الا أنه سمح للحجاج بالذهاب الى مكة مقابل أتاوة يؤدونها اليه لقاء حمايتهم والمحافظة على أرواحهم (٥٩) .

وهكذا نرى أن حماية الحجاج انتقلت الى القرامطة بعد أن أصبحت الخلافة العباسية عاجزة عن حماية رعاياها من المسلمين وتامين طريقهم الى بلاد الحجاز ولا شك أن ظهورها بهذا المظهر يضعف هيبتها امام العالم الاسلامي وهو ما كان يرجوه أبو طاهر ويعمل من أجلـه ، لكـي يمهد

---

(٥٢) النهروالى ، **الاعلام** ، ص ١٦٥ .
(٥٣) ابن خلدون ، **العبر** ، جـ٤ ، ص ٨٩ .
(٥٤) العيني ، بدر الدين ، **عقد الجمان** ، جـ١١ ، ورقة ١٩٢ .
(٥٥) ابن سنان ، **تاريخ اخبار القرامطة** ، ص ٥٥ .
(٥٦) أبو سعيد ، **العلاقات العربية السياسية**، ص ٢٢٨ .
(٥٧) قال أبو طاهر :

اغركـم مني رجوعـي الى هجر ... فعما قليـل سوف يأتيكم الخبر
اذا طلـع المريخ من أرض بابـل ... وقـارنـه كيوان فالحـذر الحـذر
فمن مبلـغ أهل العراق رسالة ... بأني أنا المرهوب في البدو والحضر

فيـا ويلهم من وقعة بعـد وقعـة ... يساقون سوق الشاء للذبـح والبقر
أكيلهـم بالسيف حتـى ابيدهـم ... فلا ابقـى منهم نسل أنثـى ولا ذكر
أنـا الداع للمهدى لاشك غيره ... أنا الصارم الضرغام والفارس الذكر

انظر : ابن تغرى بردى ، **النجوم الزاهرة** ، مطابع كوستاتسوماس بالقاهرة ، جـ٣ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
(٥٨) ابن الأثير ، **الكامل** ، جـ٦ ، ص ٢٤٢ .
(٥٩) المقريزى ، **اتعاظ الحنفا** ، جـ١ ، ص ١٨٣ـ١٨٤ .

بذلك السبيل أمام انصاره الفاطميين [٦٠] للوصول بطريقة أو بأخرى الى مكة وبسط نفوذهم عليها، أما العباسيون فكانوا يؤملون من وراء ذلك الحصول على سمعة طيبة أمام العالم الاسلامي ، لأن تلك الاتفاقية تمت بجهود عباسية بحتة رغم ما فيها من اجحاف على الحجاج · كما أن تلك المفاوضات فتحت بابا جديدا للتنافس بـين الخليفتين العباسي والفاطمي فيما يتعلق باعادة الحجر الأسود الى مكانه ، وما يترتب على النجاح في هذا العمل من نتائج ستؤدي بصاحبهـا الى احتـلال مكانـة مرموقة بين المسلمين · وبالتالي ستكون ذات أثر فعال في كسب رضى العالم الاسلامي والفوز بتأييدهم · ومن هنـا نرى أن العباسيين في عرضهم السابق لاعادة الحجر الأسود الى مكانه ، وتقديمهم تنازلات كبيرة للزعيم الجنابي في هذا الصدد ، ليضعون في اعتبارهـم مصلحـة العالـم الاسلامـي باسره حتى يستطيعوا كسب مساندته لهم في حقوقهم العادلـة التـي يناضلون من أجلهـا ·

ولم يقف نشاط العباسيين عند هذا الحد بعد أن أدركوا ضعف الاتفاقية السابقـة ، فقد أبرموا اتفاقا مع الزعيم الجنابي سنة ٣٢٧ [٦١] بفضل جهـود الزعيم العلوي عمر بـن يحيـى الفاطمي وتاثيره الروحي [٦٢] على القرامطة تدفع الدولة العباسية بمقتضى هذا الاتفاق مبلغا من المال للجنابيين [٦٣] مقابل عدم تعرضهم للحجاج ، وانفساح السبيل أمامهـم لتأديـة مناسكهـم ، وهكذا نرى أن الدولة العباسية عندما تبرم هذا الاتفاق مع الزعيم الجنابي بهدف تسهيل السبل للحجاج انما تقوم بذلك انطلاقا من مسئولياتها تجـاه المسلمين بتمكينهـم من تاديـة شعيرتهـم الدينية ·

ولم يقف نشاط العباسيين في هذا المجال عند هذا الحد ، بل لم يلبثوا أن انتهزوا مناسبة أخرى تستهدف ارجـاع الحجر الأسود الى مكانه مقابل ثلاثين ألف دينار في بعض الأقوال [٦٤] وخمسين الف دينار في أقوال أخرى [٦٥] · بيد أن الفاطميين لـم يتركوا الميدان مفتوحـا أمـام خصومهم العباسيين للانفراد بهذه المأثرة ، فلم يلبثوا أن أدلوا بدلوهم في هذا الميدان وطلبوا من القرامطة ، اعادة الحجر الأسود مقابل عرض مالي بلغت قيمته خمسين ألف دينار من الذهب [٦٦] الا أن القرامطة رفضوا جميع العروض ، ولكنهم لم يلبثوا أن أعادوا الحجر الى مكانـه في سنة ٣٣٩ [٦٧] ·

وهنا يجد الباحث نفسه أمام احدى القضايا التي برزت حولها حدة الخلاف بين المؤرخين ذوي الميول العباسيـة ، وأولئـك الذيـن كانوا يتعاطفون مع الفاطميـين فالأولون يستهدفون أن ينسبوا فضل اعادة الحجر الأسود الى الخليفة العباسي بينما يرى الأخيرون أن الخليفة الفاطمي هو الذي فاز بهذه المأثرة [٦٨] ·

والواقع أن رد الحجر الأسود الى مكانه يعود فضله الى العباسيين وحدهـم ولكن ليس عن

(٦٠) سرور ، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، ص ٣٧ ·
(٦١) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠٠ ·
(٦٢) نفس المكان ·
(٦٣) تم الاتفاق بين القرمطي وعمر بن يحي العلوى على ان يطلق الأول طريق الحاج ويعطيه الأخير عن كل جمل خمسة دنانير · (ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٢٦٤) ·
(٦٤) الأسدى ، اخبار الكرام ، ورقة ١٢ ·
(٦٥) الذهبي ، دول الاسلام ، جـ١ ، ص ١٦٥ ·
(٦٦) النهروالي ، الاعلام ، ص ١٦٦ ·
(٦٧) الطبرى ، الأرج المسكي ، ورقة ٢٥ ·
(٦٨) غنيم ، العلاقات العربية السياسية ، ص ٣٢٩ · لمعرفة المزيد من المعلومات عن المصادر التي تمثل وجهات النظر العباسية او الفاطمية ، انظر نفس المرجع ص ١٩ـ٢٩ ·

طريق الشراء كما يعتقد بعض المؤرخين [٦٩] . فالدارس المحقق لطبيعة العلاقات السياسية الجنابية العباسية يدرك أن الجنابيين أدخروا الحجر الأسود حتى تلوح فرصة يستطيعون المساومة عليها بالحجر الأسود ، وقد جاءت هذه المرة حيث يذكر المقريزى [٧٠] أن الجنابيين بعثوا سرية في البحر في حوالي أربعين مركبا فوضعوا السيف في أهل ساحل خليج البصرة ، الا أن هؤلاء لم يلبثوا أن تحاملوا على السرية الغازية وقتلوا أكثرهم وأسروا الباقين وحملوهم الى بغداد، ولم يأت خلاص هؤلاء الأسرى الا بعد مكاتبة جرت بين العباسيين والجنابيين بالمهادنة ، على أن يردوا الحجر الأسود ، ويطلقوا الأسرى ، ولا يعترضوا الحاج . فجرى الأمر على ذلك [٧١] .

ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن رد الحجر الأسود كان نتيجة لتلك الحادثة وبجهود عباسية بحتة واضعين في اعتبارهم ارضاء جمهور المسلمين في أنحاء العالم الاسلامي عامة وأهل مكة خاصة حتى يحافظوا على مركزهم السياسي فيها .

الأخشيديون وعلاقتهم بمكة

ينتسب الأخشيديون [٧٢] الى أبي بكر محمد بن طغج بن جف ، وهو من أحفاد الأتراك الذين استقدمهم المعتصم [٧٣] في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وقد خدم الأخشيد العباسيين، وتقلب في عدة مناصب في بلاد الشام ومصر ، واشترك في حروب الدولة العباسية مع الفاطميين ، وأبلى فيها بلاء حسنا [٧٤] .

ثم لم يلبث أن ولاه الخليفة الراضي [٧٥] (٣٢٢ ــ ٣٢٩هـ/٩٢٤ ــ ٩٤٠م) مصر سنة ٣٢٣هـ [٧٦] ، ثم أطلق عليه لقب الأخشيد سنة ٣٢٧ [٧٧] تقديرا له عندما نجح في صد حملة فاطمية على مصر سنة ٣٢٤ [٧٨] ، وارسل له الخلع وثبته في ولاية مصر ودعي له على منابرها [٧٩] وقد ساد الوفاق العلاقة العباسية الأخشيدية ، الا أنها لم تلبث أن ساءت بسبب الحرب التي قامت بينه وبين ابن رائق الذي سار الى الشام سنة ٣٢٨هـ يريد ولاية مصر بتفويض من الخلافة العباسية، الا أن ابن رائق لم يلبث أن هزم فجرى الصلح بينهما على أن يدفع ابن طغج سنويا مبلغ ١٤٠ر٠٠٠ دينار لدار الخلافة مقابل ولايته على مصر والشام [٨٠] .

وفي سنة ٣٣٢ أقره الخليفة العباسي المتقى [٨١] (٣٢٩ ــ ٣٣٣هـ/٩٤٠ ــ ٩٤٤م) على ولاية مصر والشام [٨٢] ، وأضاف له الحرمين الشريفين [٨٣] ، وعقد له على ذلك من بعده لولديه أبي

(٦٩) الأسدى ، المصدر السابق ، ورقة ١٢ .
(٧٠) اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٨٣ .
(٧١) نفس المكان .
(٧٢) ابن سعيد ، المغرب ، جـ١ ، ص ١٤٨ .
(٧٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٥٦ .
(٧٤) ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص ١٥٢ .
(٧٥) لينبول ، الدول الاسلامية ، ص ٣٢ .
(٧٦) ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٥٨ .
(٧٧) نفس المكان ، ومعنى الأخشيد : ملك الملوك .
(٧٨) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، جـ٣ ، ص ١٣٧ .
(٧٩) نفس المكان .
(٨٠) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ٢٧٤ .
(٨١) لينبول ، المصدر السابق ، ص ٣٢ .
(٨٢) متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ١ ، ص ٧١ .
(٨٣) الصباغ ، محمد المكي ، تحصيل المرام ، مخطوطة مصورة ، جامعة الرياض ، رقم ٢٢٣ (تاريخ) ، ص ٢١٤ .
متز ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٧١ .

القاسم أنوجور وأبي الحسن علي على أن يكفلهما كافور الخصي[٨٤] .

غير أنه من الواضح أن الأخشيد تولى مكة قبل هذا التاريخ وأن ذلك تم قبل ولايته الثانية لمصر ، وهـذا اجتهاد له ما يدعمـه فقد ذكر الأخشيد في كتابـه الى أرمانوس امبراطور الدولـة البيزنطية ما نصه « هذا الى ما نتقلده من أمر مكة المحفوظة بالآيات الباهرة والدلالات الظاهرة فانا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها وعظيم قدرها ، وما حوت من الفضل توفى على كل مملكة ، لأنها محج آدم ومحج ابراهيم وارثه ومهاجره ، ومحج سائر الأنبياء وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام ... وهو البيت العتيق المحترم المحجوج اليه من كل فج عميق الذي يعترف بفضله وقدمه أهل الشرف ومن مضى ومن خلف ، وهو البيت المعمور وله الفضل المشهور »[٨٥] .

وكان الأخشيد قد بعث بهذا الكتاب الى أرمانوس سنة ٣٢٥ [٨٦] ، وهذا يعني أن مكة دخلت تحت نفوذ الأخشيد قبل سنة ٣٣٢ ، وأن ما أشارت اليه المصادر من تولية المتقي للأخشيد في هذا التاريخ ما هو الا اقرار له بالولاية على مكة خاصة وأنها تأثرت بفتنة ابن رائق [٨٧] وربمـا خرجت عن سيادته · هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان ذكر مكـة في هذا التاريخ سببه ما تضمنه التفويض بولاية العهد لابنـي محمد الأخشيد أنوجور وعلي ، ووصاية كافور عليهما[٨٨] فحفظته المصادر على أنه بداية لاضافة الحرمين الى مملكة الأخشيد · كما أن اعادة تفويض محمد الأخشيد ولاية مكة في هذا التاريخ (سنة ٣٣٢)له دلالة سياسية تعني انحسار نفوذ القرامطة عن مكة بعد وفاة أبي طاهر ووقوع الخلاف بين أبنائه فاضافتها الى ابن طغـج الـذي أبدى شجاعة فائقة في صد الفاطميين أنصار القرامطة عن مصر يعني أنه سيوفر لمكة الحماية الكافية في حالـة تعرضها لغارات قرمطية أخرى ·

ومهما تكن بداية تولية محمد بن طغج الأخشيدى على مكة ، فقد كانت هذه الولاية كمـا تشير المصادر[٨٩] بالعقد دون المباشرة ، وكـان عليه أن يولي مكـة ولاة يحكمونهـا من قبلـه ويخطبوا فيها باسمه الى جانب الخليفة العباسي ، فقد حفظت لنا المصادر ان واليها للأخشيد في سنة ٣٣٣ هو محمد بن الحسن بن عبد العزيز العباسي[٩٠] .

الا أن سيادة الأخشيد على مكة لم تدم طويلا فقد استولى البويهيون على بغداد سنة ٣٣٤[٩١] فشاركوه هـذه السيادة ، حيث أقيمت الخطبة بمكة للخليفة المطيع العباسي مع معز الدولة بن بويـه [٩٢] .

ولكن يبدو أن البويهيين لم يغيروا شيئا من وضع مكـة بل اكتفوا بالحصول على الخطبـة وابقوا محمد بن الحسن في ولايتها فباشرهـا لأبي القاسم انوجور [٩٣] الذي خلف أباه في ولاية مصر والشام والحرمين تحت وصايـة كافور الأخشيدي[٩٤] · هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد أقر معز الدولة البويهي ولاية الأخشيديين في مكة ، ولكنها لم تكن عن طيب خاطر بل « كان

(٨٤) ابن سعيد ، المغرب ، جـ١ ، ص ١٧٢ ·
(٨٥) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٧ ، ص ١٠ـ١٨ ·
(٨٦) كاشف ، سيدة اسماعيل ، مصر في عهد الطولونيين والاخشيديين ، ص ١٥٣ ·
(٨٧) السباعي ، تاريخ مكة ، جـ١ ، ص ١٥٨ ·
(٨٨) ابن ظهيرة ، الجامع اللطيف ، ص ١٨٨ ·
(٨٩) ابن ظهيرة ، الجامع اللطيف ، ص ١٨٩ ·
(٩٠) الصباغ ، تحصيل المرام ، ورقة ٢١٥ ·
(٩١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ٣١٤ ·
(٩٢) القلقشندى ، مآثر الانافة ، جـ١ ، ص ٣٠٩ ·
(٩٣) الصباغ ، المصدر السابق ، ورقة ٢١٥ ·
(٩٤) ابن ظهيرة ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ ·
كان الأخشيد قد توفي سنة ٣٣٤هـ · انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٥٩ ·

الزعيم البويهي ـ كما تقول الدكتوره سيدة اسماعيل كاشف[٩٥] ـ مضطرا الى قبول مالا يستطيع رفضه أو تغييره لبعد الشقة ... ولاشتغاله بتذليل العقبات التي كانت تعترضه لتوطيد سلطانه والقضاء على البقية الباقية من سلطان الخليفة ، حتى اذا استتب الأمر لمعز الدولة البويهي في بغداد أخذت علاقاته مع الاخشيديين في التدهور[٩٦] . وقد ظهر هذا واضحا في حرصه على حذف اسم الأمير الأخشيدي من الخطبة على منابر الحجاز[٩٧] ، حيث يذكر ابن الأثير[٩٨] أن حربا وقعت بمكة في سنة ٣٤٣هـ بين أصحاب المعز البويهي وأصحاب بن طغج من المصريين فكانت الغلبة لأصحاب معز الدولة فخطب في مكة لمعز الدولة وركن الدولة وولد معز الدولة بختيار ، الا أن الأخشيديين لم يخسروا المعركة نهائيا فقد خطب لهم في نفس السنة بالموسم بعد بختيار بن معز الدولة[٩٩] .

ولم تكن هذه أول حرب تجرى بين المصريين والعراقيين في موسم الحج بسبب الخطبة فقد شهدت سنة ٣٤١ حربا بين الطرفين في مكة ولكنه كان سجالا فقد أسفر عن اتفاق يقضي بأن تكون الخطبة للمصريين قبل ظهر يوم عرفه وللعراقيين بعده[١٠٠] . ولا يعنى حرص البويهيين على الخطبة لهم بمكة أنهم كانوا ينازعون الأخشيديين السيادة الفعلية فيها . فلم تشر المصادر التي بين أيدينا عن ارسال أى حاكم الى مكة من قبل البويهيين . في حين أن جميع المراسيم التي صدرت عن دار الخلافة سواء في عهد محمد الأخشيد أو في عهد كافور وصيا كان أو حاكما فعليا[١٠١] تتضمن تفويض الأخشيد لحكم مكة ، ويقابل هذا من الناحية الأخرى أن الأخشيديين لم يحاولوا قط انتقاص شخصية الخليفة العباسي بعدم الخطبة له أو ذكر أسمائهم قبل اسمه . اما جوهر الخلاف بينهم وبين البويهيين في مكة فيتلخص في تعيين الشخص الذي ينال الخطوة ويحتل المرتبة الثانية بعد الخليفة وهذا ما كان يحرص عليه الجانبان وتسيل بسببه دماء الأبرياء في بيت الله الحرام وفي شهره الحرام .

ويبدو أن المكيين كانوا راضين عن التبعية المصرية لما يترتب على ذلك من الدعم الاقتصادي لمدينتهم ، فقد حفظ لنا التاريخ اعتماد الحجاز على مصر اقتصاديا في مختلف مراحل تاريخه كما سيأتي في حين أن المصريين كانوا حريصين على بسط نفوذهم على الأماكن المقدسة لما لذلك من الآثار المعنوية والأدبية والمكانة الدينية[١٠٢] في جميع أنحاء العالم الاسلامي هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان سيادتهم على الحجاز تؤمن لهم حماية طريق تجارة المرور في البحر الأحمر وهذه الحماية تكفلها لهم السيطرة على الجانب الشرقي للبحر الأحمر وهي البقعة التي تحتلها الحجاز .

استمرت السيادة الأخشيدية والخطبة في مكة حتى سنة ٣٤٨هـ حيث كان قدوم الحاج العراقي تحت امرة محمد بن عبيد الله العلوى[١٠٣] الذي تقابل مع الحاج المصري وأخذا يتناظران في من هو أحق بالخطبة بعد الخليفة الأمير الأخشيدي أم البويهي ؟ ولما لم يتوصلا الى نتيجة مقنعة تحسم الخلاف ، لجأ أمير العراق الى المكر والخديعة ، فعرض على الأمير المصري افراد الخليفة

(٩٥) مصر في عهد الاخشيديين ، ص ٩٦ .
(٩٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ص ٣٤٧ .
(٩٧) كاشف ، مصر في عصر الاخشيديين ، ص ٩٦ .
(٩٨) الكامل في التاريخ ، جـ٦ ، ص ٣٤٧ .
(٩٩) مسكوية ، تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٥٨ .
(١٠٠) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٦ ، ص ٣٧١ .
(١٠١) الكندى ، كتاب الولاة ، في أماكن متفرقة .
(١٠٢) يدل على ذلك خطاب محمد الأخشيد الى ارمانوس الذي يفخر فيه بتولية مكة . وقد سبق ايراد نبذة منه .
(١٠٣) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠٠ .

بالخطبة مع عدم ذكر أي من الأخشيديين أو البويهيين[١٠٤]، فتقدم الأمير العراقـي وصعد المنبـر فخطب للخليفة ولمعز الدولة « فوجم الآخر وتمت عليه الحيلة »[١٠٥]. ولما علم كافور بمـا جرى عاقب أمير حجه عقوبة قاسية[١٠٦].

أما أمير مكة من قبل الأخشيديين في تلك الفترة فكان أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبد العزيز العباسي ، « وهو (على حد قول الفاسي) باشر ولاية مكـة لعلي بن الأخشيد »[١٠٧]ويلوح لي أن اشارة الفاسي مؤرخ مكة بمباشرة الأخشيديين لولايتهـا في غمرة الصـراع بين البويهيـين والأخشيديين ينفي ما ذكرتـه الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف[١٠٨]بأن تقليد الأخشيد الحجاز كان أمرا صوريا ورمزيا ، وقد فات الدكتورة أن تقليـد الأخشيد امـارة مكـة ضرورة حتمتهـا الأوضاع السياسية للخلافة والحجاز . فوضع الحجاز في يد قوية كيد الأخشيد ، وهو المعروف بنجاحاتـه المتكررة في صد الفاطميين عن مصر ، تجعله يوفر الحماية الكافية للحجـاز ، ويقف ضد أطماع القرامطة والفاطميين في الأماكن المقدسة ، وبالتالي يوفر لها النفقات المالية التي كان من الواجب على الخلافة أن تدفعها سنويا لمكة وأهل مكة وقد كفاهم الأخشيديون هذا الالتزام بما كانوا ينفقونه سنويا على مكة من أموال طائلة[١٠٩]. هـذا من جهة ومن جهـة أخرى فـان تقسيم المملكة والتخفيف من حدة المركزية ليس غريبا على الخلافـة العباسية حتى وهـي في عنفـوان قوتها وربيع مجدها ، فقد قسم هارون الرشيد البلاد الاسلامية بين ابنيه محمد الأمين وولاه الجزء الغربي وعبد الله المأمون وأسند اليه ولاية القسم الشرقي[١١٠]. وكذلك الخليفة المعتمد[١١١]جعل بلاد الخلافة قسمين هما : القسم الشرقي ويضم الحجاز وجعله تابعا لأخيه أبي أحمد الموفق[١١٢]. وجعل على القسم الغربي ابنـه لتسهيل ادارة المملكة وحمايتها . بل ان الخليفة المتقي ومن جاء بعده من الخلفاء أحسنوا صنعا في جعل الحرمين تابعة للقسم الغربـي الذي كـان يتولاه آنذاك الأخشيديون ، لأن الحجاز يوالي مصر بطبيعته في ذلك الوقت لاعتماده عليه اقتصاديا ولقربه منه اذ لا تتجاوز المسافـة بين جدة وعيذاب يومـا وليله[١١٣]، وهذه الخطوة جعلت الحجاز تابعة لمصر فيما تلا ذلك من عصور ودول .

ولا بد أن الخلفاء العباسيين آنسوا من الأخشيديـين الى جانـب قوتهـم اخلاصا للخلافـة العباسية فأقروهم على الشطر الغربي من المملكة الاسلاميـة ، بل ان ثقـة الخلفـاء العباسيـين بالأخشيد بلغت أقصى درجاتهـا عندمـا طلب الخليفة المستكفي منه أن يأتـي الى العراق ويلـي بغداد[١١٤] عاصمة الخلافة العباسية .

وهذا يناقض ما ذكره الأستاذ أحمد السباعي[١١٥]من ان بغداد قامت بمحاولات عدة لاستعادة

---

(١٠٤) العصامي ، سمط النجوم العوالي ، جـ٤ ، ص ٩٤ .
(١٠٥) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ .
(١٠٦) العصامي ، المصدر السابق ، ص ٩٤ . قيل قتله . ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٠٠ .
(١٠٧) شفاء الغرام ، جـ٤ ، ص ١٩٣ .
(١٠٨) مصر في عصر الأخشيديين ، ص ٩٠ ــ ٩١ .
(١٠٩) القوصي ، عطية ، تجارة مصر في البحر الأحمر حتى سقوط الدولة العباسية . رسالة دكتوراه ، آداب القاهرة ، رقم ١١٤٩ ، ص ٧١ .
(١١٠) الأزرقي ، أخبار مكة ، جـ١ ، ص ٢٣٥ وما بعدها .
(١١١) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، جـ٣ ، ص ١٢ .
(١١٢) الموفق هو : أبو أحمد طلحة بن جعفر بن المعتصم العباسي ، اضطلع بأعباء الحكم والادارة في عهد أخيه المعتمد على الله ، وحجر عليه حتى كان المعتمد يتمنى الشيء اليسير فلا يحصل عليه ، وكان شجاعا موفقا في حروبه . توفي سنة ٢٧٨هـ . انظر الزركلي ، الأعلام ، جـ٣ ، ص ٣٣٠ .
(١١٣) شوكة ، ابراهيم ، ديار العرب من أنس المهج للادريسي ، مجلة المجمع العراقي ، م٢١ (١٩٧١م) ، ص ٦٠ .
(١١٤) كاشف ، مصر في عهد الأخشيديين ، ص ٨٩ ، عن الحضارة الاسلامية لآدم متز ، النسخة الألمانيـة ، ص ٦ ، هامش رقم ٧ .
(١١٥) السباعي ، تاريخ مكة ، جـ١ ، ص ١٥٨ .

مكة واقصاء النفوذ الأخشيدي عنها ، لأن الخلافة العباسية لو ارادت أن تقصى الحكام الأخشيديين عن بسط نفوذهم على الحجاز لما « جمعت لعلى بن الأخشيد ـ كما يقول ابن تغرى بردى ـ[١١٦] ما كان لأبيه وأخيه من أعمال الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفين » ولما أقرت كافور[١١٧] عليها بعد وفاة أبي الحسن على بن الأخشيد سنة ٣٥٥هـ[١١٨] واذا كان هناك من يحتج بقوة كافور الأخشيدي ، فلماذا دعى لأحمد بن على الأخشيدي بالحرمين[١١٩] بعد وفاة كافور سنة ٣٥٧هـ[١٢٠] • والواقع أن الذي شجع الخلافة العباسية على بقاء الحجاز تحت سيطرة الأخشيديين هو نجاحهم في ادارتها يشهد بذلك هدوء الحجاز وعدم قيامه بأي ثورة كما هو معهود عنه باستثناء بعض الحوادث الطفيفة التي كانت تحركها أيد فاطمية كما سيأتي ، ويبدو أن حكم الأخشيدي لمكة لم يكن تعسفيا بل أبقى على بعض الزعامات المحلية من شيوخ الأشراف المتنفذين في شبه استقلال داخلي تحت السيادة الأخشيدية[١٢١] •

ومهما يكن أسلوب الحكم الذي مارسه الأخشيديون في مكة ، فان سيادتهم ظلت قائمة عليها حتى تغلب عليها جعفر بن محمد العلوى في أواخر العهد الأخشيدى ، ثم لم يلبث أن خطب للمعز الفاطمي كما سنعرض لذلك مبسوطا عند الحديث عن قيام الأسرة الموسوية •

ولا يعنى ذكرنا لنجاح الادارة الأخشيدية في مكة ان الحكم الأخشيدي تمتع بالهدوء والاستقرار في كل سنيه ، بل ان السيادة الأخشيدية في مكة كانت تتعرض للاهتزاز والاضطراب في بعض الأحيان ، وذلك بسبب قيام بعض الحركات المناوئة لهم والتي كانت تتم بتدبير من أنصار الفاطميين • فقد حفظ لنا التاريخ أن بني الحسين أهل المدينة قاموا بهجوم على مكة بتحريض من الخليفة الفاطمي في أفريقية وذلك بهدف الاستيلاء على مكة واقامة الخطبة له فيها ، الا أن أهل مكة بزعامة بني الحسن تصدوا للحسينيين ومنعوهم من الاستيلاء على مكة[١٢٢] • وقد حفظ كافور الذي كان يقوم بالوصاية على العرش الأخشيدي[١٢٣] هذا الموقف النبيل لأهل مكة فأظهر عناية كبيرة بها وسارع الى برها بالصدقات[١٢٤] •

ولم يقتصر الأمر على اثارة الحسينيين الموالين للفاطميين ضد مكة وحكامها من قبل الأخشيديين بل تعدى ذلك الى اثارة القبائل الحجازية التي تسيطر على طريق الحاج المصري ، فقد ذكر الأنطاكي[١٢٥] « أن خارجيا خرج في برية الشراة من بني سليم يسمى محمد بن أحمد السلمي واجتمع اليه عدد كبير من العرب وغيرهم وقوى أمره وكثر جمعه • فبلغ كافور الأخشيدي صاحب مصر خبره وكان الشام يومئذ في يده فقلق لذلك وأنفذ عسكرا قوى به الشام خوفا من حادث يحدث بها وتقدم الى أصحابه الا يبتدروه بقتال ولا حرب أو يبتدرهم ، وطال مقامه وهو واياهم على تلك الحال فأسرى عليه في بعض الليالي رجل من العرب يعرف بشمال الخفاجي من بني عقيل ، وأخذه أسيرا وحمله الى مصر فشهر بها راكبا فيلا يوم السبت لخمس خلون من ذى القعدة سنة ٣٥١ واعتقل ثم عفى عنه وخلى سبيله » • وقريبا من هذا في

(١١٦) النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٢١٤ •
(١١٧) الكندى ، كتاب الولاة ، ص ٢١٤ •
(١١٨) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ص ٩ •
(١١٩) نفس المكان •
(١٢٠) الزركلي ، خير الدين ، الاعلام ، جـ٦ ، ص ٦٨ •
(١٢١) القوصى ، تجارة مصر ، ص ٧١ •
(١٢٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٦٩ •
(١٢٣) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٩٢ •
(١٢٤) السباعي ، تاريخ مكة ، جـ١ ، ص ١٥٩ •
(١٢٥) تاريخ الانطاكي (يحي بن سعيد) ، طبعة بيروت (١٩٠٥ـ١٩٠٩م) ، ص ٧٩٠ـ٧٩١ •

سنة ٣٥٥ اعترضت قبائل بني سليم الحجاج المصريين ونهبوا أموالهم وقتلوا أكثرهم بما في ذلك أمير الركب المصري[١٢٦]. ومعروف أن بني سليم وبني هلال كانوا من القبائل التي توالى الفاطميين[١٢٧] والقرامطة[١٢٨]، فليس من المستبعد أن يكون الفاطميون وراء تلك الحركات لا لشيء الا لتشتيت قوات الأخشيديين واستنزافها تمهيدا لغزو مصر والاستيلاء عليها .

والأخشيديون الذين كانوا على استعداد لقمع هذه الحركات بالقوة كانوا لا يدخرون وسعا في استخدام المال ما دام أن ذلك سيؤدي الى راحة الحجاج وافساح الطريق لهم لتادية مناسكهم الى جانب توفير الهدوء والاستقرار في الأماكن المقدسة . فقد كانوا يحملون الى القرامطة في كل سنة ثلاثمائة الف دينار[١٢٩]، هذا خلاف ما كان يصرف في مكة من صلات وصدقات، وما كان يصاحب ركب الشمسه من تفقات . فقدعمل كافور الأخشيدي شمسه لمولاه أنوجور بن الأخشيد » وكان يسير بها الى الحرم جعفر بن محمد الموسوي ثم ابنه الحسين ثم بعده ابنه مسلم، ثم أبو تراب بعد أخيه، الى أن أخذها القائد جوهر من أبي تراب[١٣٠].

وهذا ما سنأتي الى ذكره في باب الحج .

---

(١٢٦) الجزيرى ، شمس الدين ، درر الفوائد المنظمة ، المطبعة السلفية ، ص ٢٤٤ .

(١٢٧) زيدان محمد حسين ، العرب بين الأرهاص والمعجزة ، مجلة الدارة ، العدد الأول السنة الثانية ، (ربيع اول ١٣٩٧هـ) ، ص ١٧٠ .

(١٢٨) بنو سليم من مضر كانوا احياء ناجعة محلاتهم مما يلي المدينة . وربما كانوا يطوفون رحلة الشتاء والصيف أطراف العراق والشام فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة ويقطعون الطريق على الحاج أيام الموسم والزيارة، وما زالت البعوث تجهز والكتائب تكتب من باب الخلافة ببغداد للايقاع بهم وصون الحاج من مضرات هجومهم ثم تحيز بنو سليم الى القرامطة عند ظهورهم وصاروا جندا بالبحرين وعمان ، ثم لم يلبث بنو سليم وبنو هلال أن أجازهم المستنصر الى افريقية .
انظر ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ١١ ، ٨٨ .

(١٢٩) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٨٧ .

(١٣٠) نفس المصدر ، ص ١٤٢ .



الفصل الثالث

قيام الأسرة الموسوية

● احتلال الفاطميين لمصر وتأسيس مدينة القاهرة ● الموسويون والسيطرة الفاطمية المباشرة على مكة ● أبو الفتوح والولاء للفاطميين ● الاستقلال بالحجاز ودعوى الخلافة ● موقف الحاكم من دعوى أبي الفتوح ● العودة الى الولاء للفاطميين ● شكر بن أبي الفتوح وسقوط الأسرة الموسوية ٠

احتلال الفاطميين لمصر وتاسيس مدينة القاهرة

لم يكد عبيد الله المهدي يعلن قيام الدولة الفاطمية بالقيروان سنة ٢٩٧ (١) حتى أخذ الخلفاء الفاطميون يتطلعون الى فتح مصر والاستيلاء عليها ، فهي بيئة صالحة لاقامة دولة مستقلة تنافس العباسيين (٢) ، هذا الى جانب ما تتمتع به من الثروة والخصب فضلا عن استقرارها من الناحية السياسية بخلاف المغرب الذي تكثر فيه الثورات والقلاقل بالاضافة الى أهمية موقعها الجغرافي من الناحية الحربية ، ولقربها من بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت ــ فيما عدا الحجاز ــ تابعة لمصر في عهد الطولونيين (٣) ٠ وفوق ذلك فان نجاح الفاطميين في فتح مصر يسهل عليهم الاستيلاء على المراكز الاسلامية القديمة وهي مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وحتى بغداد حاضرة الخلافة العباسية (٤) ، لذلك بدأ الفاطميون محاولات جادة نحو تحقيق هذه الغاية ٠

وكانت أولى تلك المحاولات في عهد عبيد الله المهدى ، فقد أرسل في سنة ٣٠١هـ حملة بقيادة ابنه وولي عهده أبي القاسم وحباسة بن يوسف فاستوليا على برقة والاسكندرية (٥) وتوغلا في الوجه البحرى ، ولكن الخليفة المقتدر كان متيقظا فارسل جيشا كبيرا بقيادة مؤنس الخادم (٦) تمكن من انزال هزيمة بالمغربين بالقرب من الجيزة وعادت القوات الفاطمية الى المغرب مهزومة (٧) ٠

أما المحاولة الثانية فتأتي على يد عبيد الله نفسه فقد أرسل جيشا آخر بقيادة ابنه أبي القاسم في أواخر سنة ٣٠٦ (٨) نجح في الاستيلاء على الاسكندرية في مطلع سنة ٣٠٧هـ وتوغل في

---

(١) النعمان ، افتتاح الدعوة وابتداء الدولة ، ص ٢٩٩ Mansfield. The Arab. p. 59.
(٢) سرور ، محمد جمال الدين ، الدولة الفاطمية في مصر ، القاهرة (١٩٧٠م) ، ص ٦١ ٠
(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٦ وما بعدها ٠
(٤) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، جـ٣ ، ص ١٤٨ ٠
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ١٤٧ ٠
(٦) مسكويه ، تجارب الامم ، جـ١ ، ص ٣٩ ٠
(٧) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ ٠
(٨) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٨٩ ٠

الديار المصرية حتى وصل الأشمونين واستقر في الفيوم [٩] ، حيث كتب الى أهل مكة يدعوهم للدخول في طاعته [١٠] ، الا أن الخليفة المقتدر لم يلبث أن أرسل جيشا آخر بقيادة مؤنس الخادم تمكن من هزيمة الفاطميين واستولى على سفنهم وأحرقها [١١] . « وكان من عوامل اخفاقها – كما يقول الدكتور محمد جمال الدين سرور [١٢] – أن الخطة التي وضعها المهدى لغزو مصر لم تنفذ بدقة ، ذلك أن أبا طاهر أمير القرامطة ببلاد البحرين لم يتقدم بجيشه الى مصر ليعاون الفاطميين » .

وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه في موضع سابق من هذا البحث من وجود تنسيق بين الفاطميين والقرامطة يستهدف القضاء على الخلافة العباسية ، وأن الغارات التي كان يشنها الجنابيون على أطرافها تعني في حد ذاتها استنزاف قوة الدولة العباسية ومواردها وتوزيع جهودها بحيث تحارب في أكثر من جهة . على أن هذا لم يحل دون هزيمة الفاطميين للمرة الثانية وعودتهم الى بلادهم سنة ٣٠٩هـ [١٣] .

وعندما اضطربت أمور الخلافة العباسية بعد وفاة المقتدر سنة ٣٢٠هـ [١٤] بعث عبيد الله المهدى حملة الى مصر بقيادة حبشي بن أحمد المغربي يذكر الكندي أنها استمرت ثلاث سنوات (٣٢١ – ٣٢٤) تخللتها معاهدة صلح بين الفريقين أبرمت في سنة ٣٢٣هـ [١٥] . ثم قوى أمر تلك الحملة بانضمام بعض الزعماء المصريين [١٦] اليها مما يدل على تأثير الدعاية الفاطمية في تلك البلاد [١٧] . الا أن محمد بن طغج الأخشيد تصدى لتلك الحملة فبعث اليها جيشا كبيرا تمكن من هزيمة الفاطميين وأرغمهم على العودة الى بلادهم [١٨] .

توقف الغزو الفاطمي لمصر أكثر من ربع قرن في عهدي القائم والمنصور وشطرا من عهد المعز، ويبدو أن هذا يعود الى قيام دولة فتية في مصر وهي دولة الأخشيد ، وانشغال الفاطميين بقمع الثورات التي قامت في المغرب كثورة أبي يزيد [١٩] ، هذا بالاضافة الى أنهم أرادوا أن يمهدوا لأنفسهم بنشر المذهب الاسماعيلي في مصر حتى يكونوا لهم قاعدة جماهيرية تؤيدهم في مصر ذاتها ، ومع هذا فقد دخل الفاطميون في مراسلات سياسية مع الأخشيديين [٢٠] لم تؤد الى نتائج حاسمة .

وعندما تولى المعز الخلافة سنة ٣٤١ [٢١] وجه اهتمامه الى فتح المشرق وقد أفصح عن رغبته تلك في خطاب ألقاه على زعماء كتامه قال فيه « انكم اذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب » [٢٢] .

(٩) القرطبي ، صلة الطبرى ، ص ٤٣ .
(١٠) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ٧١ .
(١١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ١٦١ .
(١٢) الدولة الفاطمية ، ص ٦٢ .
(١٣) القرطبي ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .
(١٤) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ .
(١٥) كتاب الولاة ، ص ٢٨٣ وما بعدها .
(١٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٢٥٢ .
(١٧) سرور ، الدولة الفاطمية ، ص ١٣٦ .
(١٨) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٤٠ .
(١٩) نفس المكان . واسمه مخلد بن كيداد الخارجي . انظر المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ٧٥ .
(٢٠) سرور ، الدولة الفاطمية ، ص ٦٣ وما بعدها .
(٢١) النعمان ، كتاب افتتاح الدعوة ، ص ٢٣٥ .
(٢٢) المقريزى ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .

وتحتل مكة من بلاد المشرق بؤرة الاهتمام عند المعز بل ان الاستيلاء عليها يعد من أسمى غاياته فقد ذكر في خطبة أخرى بأنـه سيحج الى بيت الله الحرام ويقف براياته خفاقـة في تلك المشاهد العظيمة [٢٣] ٠

على أن المعز لم يبادر بغزو مصر قبل أن يبسط سلطانه على المغرب باجمعه ، وقد تم ذلك بفضل جهود قائده المظفر جوهر الصقلي [٢٤] ٠ ولم يعد أمامه الا غزو مصر، وقد ساعده على ذلك أن ظروف مصر أصبحت مناسبة للمعز ومشجعة له للقيام بغزوها أكثر من ذي قبل فقد ساءت أحوالها بسبب تفشى الفتن والمجاعة التي أعقبت وفاة كافور الأخشيدي سنة ٣٥٧هـ [٢٥] ٠ هـذا فضلا عن استفحال أنصار المذهب الشيعي بها حتى أنهم كاتبوا المعز يطلبون منه ارسال جيش لفتح البلاد المصرية [٢٦] ٠

استجاب المعز لهذا الطلب فارسل حملة الى مصر بقيادة جوهر الصقلي [٢٧] تمكنت مـن فتح الاسكندرية دون مقاومة ، ثم لم يلبث المصريون أن تفاوضوا مع جوهر الصقلي حول ابرام معاهدة صلح بينهما ٠ فتم ذلك بعد أن تعهد الأخير بأن يطلق لهم حرية العقيدة الدينيـة واقامـة شعائر الحج ، وأن يقوم بما تتطلبه البلاد من وجوه الاصلاح ، كما تعهد بنشر العدل والطمأنينـة فـي النفوس ، وذلك بحماية مصر من كل عدوان يقع عليها [٢٨] ٠ وبذلك دانت له البلاد وتحقق حلم الخلفاء الفاطميين في فتح مصر واتخاذها حاضرة لدولتهم ، ثم لم يلبثوا أن مدوا سيطرتهم على الشام واليمن والحجاز [٢٩] كما سيأتي ٠

وبعد أن تمت لجوهر السيطرة على مصر رأى أن يؤسس عاصمة جديدة جريا على عادة الخلفاء الفاطميين في تأسيس المدن ، فوضع أساس تلك المدينـة شمالى الفسطاط في ١٧ شعبـان سنـة ٣٥٨هـ [٣٠] ٠ كما وضع أساس القصر الكبير لمولاه المعز في الليلة التاليـة [٣١] ٠ ثـم قـام ببناء الجامع الأزهر بعد ذلك في ٤ رمضان سنة ٣٥٩هـ ، وذلك لنشر المذهب الشيعي ٠ وقد أطلق جوهر على المدينة الجديدة اسم المنصورية تيمنا بالمنصور بالله والد المعز [٣٢] ٠ وظلت تعرف بذلك حتى قدم المعز الى مصر بعد أربع سنوات فسماها القاهرة تفاؤلا بأنها ستقهر الدولة العباسية [٣٣] ٠

وهكذا أصبحت مصر مركزا لامبراطورية اسلامية شاسعة بعد أن كانت اقليمـا تابعا للخلافـة العباسية ، وكان فتح مصر وبناء القاهرة ، وانتقال الخلافة الفاطمية اليها ، نقطـة تحول في تاريخ العلاقات الحجازية العباسية ، وايذانا ببدء حلقة طويلة من حلقـات الصراع العباسى الفاطمـي على الخطبة والنفوذ في مكة ٠

---

(٢٣) الجوذرى ، ابو على منصور ، سيرة الاستاذ جوذر ، تحقيق محمد كامل حسين ، ص ٨٣ ٠
(٢٤) المقريزى ، المصدر السابق ، ص ٩٣ وما بعدها ٠
ابن عذارى ، البيان المغرب ، نشر ج٠ كولان وليفي بروفنسال ، ص ٢٢٢ ٠
(٢٥) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ١٨ ٠
(٢٦) نفس المصدر ، ص ٣٠ ٠
ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، مخطوط بمكتبة طوبقا بوسراى رقم ٣٠٢٥ ، اسطانبول ، ورقة ١٢٣ ٠
(٢٧) سرور ، الدولة الفاطمية ، ص ٦٧ ٠
(٢٨) ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، ورقة ١٢٤ ٠ برنارد ، الـدعوة الاسماعيليـة ، ص ٤٥
(٢٩) سرور ، المصدر السابق ، ص ٦٨ ٠
(٣٠) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١١١ ٠
(٣١) نفس المكان ٠
(٣٢) نفس المكان ٠
(٣٣) نفس المكان نقلا عن الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٠٤ ٠

الموسويون والسيطرة الفاطمية المباشرة على مكة

في الوقت الذي كان فيه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يعد العدة للاستيلاء على مصر كان هناك فريق من الحسنيين يخططون للاستيلاء على مكة ، وقد تم لهم ذلك في أواخر العهد الأخشيدي على يد زعيمهم [٣٤] جعفر بن محمد بن الحسن بن موسى بن عبد الله بـن موسى الجون [٣٥] . الا أن الثائر الجديد لم يعلن عن هويته حتـى فتح الفاطميون مصر على يد جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ . فسارع جعفر بالخطبة للمعز الفاطمي ، وأعلن تبعية مكة للخلافـة الفاطمية [٣٦] ، ودعـا للمعز الفاطمي في موسم هذا العام [٣٧] .

ولا نعرف الأسباب التي دعت ثائر مكة الجديد الى اعلان هذه التبعيـة للخليفة الفاطمـي بمثل هذه السرعة ، الا أن بعض المصادر تذكر وجود صلة بين الحسنيـين وبـين المعز منذ توليـه الخلافة فقد « بلغه وهو بالغرب ـ كما يقول المقريزي [٣٨] ـ أمر الحرب التي قامت بين بني حسن وبني جعفر بن أبي طالب بالحجاز ، وأنه قتل من بني الحسن أكثر ممن قتل بنو حسن مـن بنـي جعفر ، فأنفذ مالا ورجالا سرا سعوا بين الطائفتين حتى اصطلحوا وتحملوا الحمالات عنهما . وكان فاضل القتلى لبني حسن عند بني جعفر سبعين قتيلا ، فأدى القوم ذلك اليهم ، وعقدوا بينهم في المسجد الحرام صلحا وتحملوا دياتهم من مال المعز ، وذلك في سنة ٣٤٨هـ ، فصار ذلك جميلا عند بني حسن للمعز فلما دخل جوهر مصر بادر (جعفر بن محمد الحسنى) فملك مكة ودعا للمعز وكتب الى جوهر بذلك » وهناك من يرى أن انضمام جعفر للمعز كان خوفا من العباسيين [٣٩] لأنهم كانوا يتصدون لكل حركة علوية بكل ما يستطيعون من قوة، ويعملون على اجهاضها قبل أن يستفحل أمرها . ويبدو أن جعفر بن محمد رأى الانضمام الى الفاطميين لظروف اقتصادية وأخرى سياسية سيتحقق لمكة مـن ورائها الدعـم الاقتصادي والاستقلال الذاتي في ظل النظام الجديد في مصر . وهذا ما حدث بالفعل ، فما كاد المعز يعلم وهو في المغرب [٤٠] بهذا الموقف المؤيد له حتى أنفذ الى جعفر بتقليـده الحرم وأعماله [٤١] . وأرسل قائدا من جهته قام بتفريق أموال عظيمة [٤٢] في مكة قدرها المقريزي [٤٣] بعشرين حملا هـذا عدا ما حمل اليها من الأمتعة .

وبذلك تحققت السيطرة الفاطمية على الأماكن المقدسة ، ثم أخذوا يعملون وبسرعـة لوضع بلاد الشام [٤٤] تحت سيطرتهـم . ولا ريب أن فتح بلاد الشام يعتبر خطوة أمامية أمام الفاطميين في طريق الزحف الفاطمي تجاه بغداد عاصمة العباسيين . الا أنه يعتبر من ناحيـة أخرى الضمان الطبيعي لتأكيد السيطرة الفاطمية على طريق بري مباشر يربط القاهرة العاصمة الجديدة بالبلاد المقدسة في الحجـاز ، وبالتالي يسهل عليهم فرض سيطرتهم على تلك المنطقة الحيوية . وفوق هذا وذاك فقد مدوا سيطرتهم على تهامة اليمن فخطب لهـم ابن زيـاد [٤٥] صاحب زبيـد وابن

(٣٤) رفعت ، ابراهيم ، مرآة الحرمين ، ط١ . القاهرة (١٩٢٥م) . ص ٣٥٤ .
(٣٥) ابن حزم ، الجمهرة . ص ٤١ . الفاسى ، العقد الثمين ، جـ١ . ص ١٧٠ .
(٣٦) دحلان ، خلاصة الكلام ، ص ١٦ .
(٣٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ١ ، ص ٢٢١ .
(٣٨) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٠١ .
(٣٩) البتنونى ، محمد لبيب ، الرحلة الحجازية ، ط٢ ، ص ٧٤ .
(٤٠) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر والشام وبلاد العرب ، ص ٢٣٨ .
(٤١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٠١ .
(٤٢) الجزيرى ، درر الفوائد ، ص ٥٨٨ .
(٤٣) اتعاظ الحنفا ، جـ١ . ص ١٠١ .
(٤٤) ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، ورقة ١٢٣ .
(٤٥) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٣٢ . وأبو الجيش هو : اسحق بن ابراهيم تولى حكم زبيد سنة ٢٩١هـ وتوفي سنة ٣٧١هـ .

طرف [٤٦] صاحب المخلاف السليماني فضلا عن الحرامي صاحب حلي بن يعقوب [٤٧]. وبذلك أصبحت مكة والحجاز بين فكي كماشة وحيل بينها وبين العباسيين الذين أدركوا أبعاد المخطط الفاطمي فاستبسلوا لذلك في الدفاع عن سيادتهم على الأراضي المقدسة ، خاصة بعد أن عرفوا نوايا الفاطميين فأدى ذلك الى تصاعد درجة الصراع حتى وصل الى مستوى المواجهة السافرة بين أنصار النظامين [٤٨].

الا أن النظام الفاطمي في مكة لم يلبث أن أصيب بنكسة كبيرة ولما يمض عليه سنة ، ذلك أن القرامطة الحلفاء الطبيعين للفاطميين لم يلبثوا أن انقلبوا ضدهم . ويبدو أن من أهم الأسباب التي أدت الى هذا التحول في علاقات القرامطة تجاه الخلافتين العباسية والفاطمية هو امتناع الفاطميين من دفع الأتاوة التي كان يدفعها الأخشيديون [٤٩] لهم ، أو بسبب تأييد الخلافة العباسية لزعامة الحسن الأعصم [٥٠]، في حين أن الفاطميين كانوا يؤيدون منافسيه من أبناء أبي طاهر [٥١] . على أن من أهم الأسباب التي دعت القرامطة الى هذا التحول هي حالة الخلافتين المعاصرتين من حيث القوة والضعف وما يمكن تحقيقه من مكاسب في ظل أي من النظامين القائمين لذلك رأى القرامطة أن التعايش مع العباسيين والعمل تحت شعاراتهم رغم اختلاف العقيدة سيحقق لهم مكاسب سياسية واقتصادية أكثر مما سيحققونه في ظل الخلافة الفاطمية وهي الخلافة القوية الناشئة . ولعل تعايش البويهيين وهم شيعة مع العباسيين السنيين أقرب مثال لما عزم الحسن بن الأعصم ورجاله على انتهاجه حتى قالوا :

« لو فطنا لما فطن له ابن بويه الديلمي لاستقامت أمورنا وذلك أنه ترك المذاهب جانبا وطلب الغلبة والملك فأطاعه الناس [٥٢]» .

ومهما تكن الأسباب فقد خلع القرامطة طاعة الفاطميين ، ووالوا جانب العباسيين ورفعوا شعارهم وهو « السادة الراجعون الى الحق » وحاربوا جيوش المعز حربا سافرة في الشام [٥٣] ومصر . وكان العباسيون بحاجة الى هذا الانشقاق بل ان هناك من المؤرخين [٥٤] من يشير الى أنهم هم الذين خططوا له ، وقد أفادوا منه في محنتهم الجديدة أمام المد الفاطمي في الشام ، وفي استعادة نفوذهم في الحجاز فقد أشارت بعض المصادر الى نجاح القرامطة في اقامة الخطبة بمكة في موسم سنة ٣٥٩هـ للخليفة المطيع العباسي وحليفه الحسن الأعصم [٥٥]، وقد خلّد العباسيون هذا النجاح بتقديم هدية قيمة الى الكعبة ليثبتوا لجمهرة المسلمين سيادتهم الروحية والزمنية على مكة ، وقد وصف ابن الجوزي تلك الهدية وطريقة عرضها بقوله [٥٦]: « وورد كتاب أبي أحمد الحسين بن موسى نقيب الطالبيين من مكة بتمام الحج في سنة ٣٥٩هـ وانه لم يرد أحد من قبل المغربي وأن الخطبة أقيمت للمطيع لله وللهجريين من بعده وأنه علق القناديل التي حملها معه

(٤٦) نفس المكان . وسليمان بن طرف الحكمي : ينسب اليه المخلاف السليماني (مقاطعة جازان) انظر : العقيلي ، المخلاف السليماني ، ص ٣ ، ١٠٨–١٠٩ .
(٤٧) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٣٢ .
(٤٨) ضيم ، العلاقات العربية السياسية ، ص ٢٢٣ .
(٤٩) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٧٤ .
(٥٠) العصامي ، سمط النجوم العوالي ، جـ٤ ، ص ١٩٤ .
(٥١) نفس المصدر ، ص ١٥٩ .
(٥٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٦ ، ص ٢٢٥ .
De Goeje, M.J.: Mémoire sur les Carmathes du Bahrain. Leiden (1886). p. 220.
(٥٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٨٧ وما بعدها .
(٥٤) سرور ، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، ص ٤٠ .
(٥٥) الجزيري ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٤٥
(٥٦) المنتظم ، جـ٣ ، ص ٥٣ .

خارج البيت ، وكان واحد منها ذهبا وزنه ستمائة مثقال والباقي فضه مدة خمسة أيام حتى رآه الناس ثم أدخلت البيت ، وأنـه نصب الأعلام الجدد التي حملت معه وعليها اسم الخليفة » ٠

لم يتخاذل الفاطميون أمام هذا النصر الذي حققه العباسيون في مكة بل كان رد الفعل الفاطمي سريعا اذ لم يلبثوا أن دفعوا حلفاءهم الحسينيين حكام المدينة وامدوهم بقوة للاستيلاء على مكـة واقامة الخطبة لهم بها ٠ الا أن القرامطة لم يلبثوا أن انضموا الى أهل مكة (٥٧)فتمكنوا من هزيمة الحسينيين وحلفائهم سنة ٣٦٠هـ (٥٨) واجبروهم على العودة (٥٩).

غير أن الخليفة المعز لجأ الى سلاح أمضى مـن سلاح العباسيـين ، فقد سلـّط بنـي هلال وغيرهم من العرب على الركب العراقي فقتلوا منهم خلقا كثـيرا (٦٠) ، ونجح أنصار الفاطميـين في اقامة الخطبة للمعز الفاطمـي في سنـة ٣٦٣هـ وقطعها على بنـي العباس (٦١) ، وهكـذا نرى أن موازين القوى تحولت لصالح الفاطميين في تلك السنة ، وأن مكة أعلنت تبعيتهـا لهـم ، وبالتالى نبذت طاعتها السابقة للخلفاء العباسيين (٦٢) ٠

ولا غرو في حرص هؤلاء الخلفاء من فاطميين وعباسيين على أن تتم شعائر الحج في مكة التي يجتمع فيها حشد هائل من المسلمين من مختلف انحاء العالم الاسلامي تحت رعايتهـم ٠ فقد كـان الحج مناسبة يستغلها أنصار النظامين العباسى والفاطمي للدعاية للنظام الذي يناصرونه وقد كان هؤلاء الحجاج يؤخذون بالدعاية ويتجاوبون بوجدانهم مع الخليفة الذي تتم تحت رعايته وحمايتـه تاديتهم لمناسك شعيرتهم الدينية ٠ ومعلوم « أن التجاوب الوجدانـي هنـا هو التمهيـد الطبيعـي للانتماء السياسى (٦٣)» لأي من النظامين ٠

ولم يكتف المعز في هذه المرة بالحصول على ولاء مكة من خلال الخطبة التي كانت تقام باسمه في موسم الحج ، بل شدد قبضته على مكة واتخذ خطوات معينة تهدف الى نشر المذهب الاسماعيلي بهـا لأن اعتناق مذهب السلطة الحاكمة يخلق جوا من الترابط الروحي واذا توفر الترابط الروحي لأي من الأنظمة القائمة فانه يؤدي بدوره الى قوة التماسك السياسى ، وهذا ما لجأ اليه المعز الفاطمـي هذه المرة ، وعن نشر المذهب الاسماعيلي بمكة يحدثنا صاحب نزهة الناظرين بأسلوبـه (٦٤) فيقول « وفي سنة ٣٦٣هـ أقيمت الخطبة والدعوة بالحرمـين للمعز وعلا الرفض وزاد ٠٠٠ ونودي بقطع صلاة التراويح من جهة المعز ٠٠٠ » ٠ كما أسس المعز في سنة ٣٦٣هـ دويلـة صغيرة في المدينـة المنورة لبني المهنا الحسينيين (٦٥) تدين له بالولاء واتخذها نقطة لمراقبة الحسنيين في مكة لأنهم لم يكونوا صادقين في ولائهم للخلافة الفاطمية بالدرجة التي يتطلبها منهم النظـام الفاطمـي ، لذلـك نراهم طرفا في أي نزاع عباسى فاطمي يقوم بمكة ٠ ونتيجة لتلك الاجراءات التي اتخذها الخليفـة الفاطمي في مكة استمرت السيادة الفاطمية مدعمة فيها حتى وفاة الخليفـة المعز في شهر ربيع الأول سنة ٣٦٥هـ (٦٦) ٠ وبذلك حقق الفاطميون نصرا مؤزرا ضد خصومهم العباسيين في تلك الحقبة ٠

(٥٧) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٣٦٠هـ ٠
(٥٨) العصامى ، سمط النجوم العوالى ، جـ٤ ، ص ١٩٥ ٠
(٥٩) ابن فهد ، المصدر السابق ، حوادث سنة ٣٦٠هـ ٠
(٦٠) الحنبلى ، مرعى بن يوسف ، نزهة الناظرين ، مخطوط ، دار الكتب المصرية برقم ٢٣٦٩ (مجاميع) ، ورقة ٢٠٠ ٠
(٦١) ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٣ ، ص ٤٤ ٠
(٦٢) السيوطى ، جلال الدين ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة (١٣٥١هـ) ، ص ٢٦٩ ٠
(٦٣) غنيم ، العلاقات العربية السياسية ، ص ٣٣٢ ٠
(٦٤) الحنبلى ، ورقة ٢٠٠ ٠
(٦٥) ماجد ، محمد عبد المنعم ، الحاكم بامر الله الخليفة المفترى عليه ، القاهرة (١٩٥٩م) ص ١٥٠ ٠
(٦٦) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٣٨ ٠

الا أن العباسيين لم يستسلموا لهذا النصر الذي حققه الفاطميون ، وكان عليهم أن يواجهوا الأساليب المضادة التي اتخذها أعداؤهم ، لكي يستردوا سيادتهم وهيبتهم في مكة فأخذوا يعملون بسرعة نحو تحقيق هذه الغاية فتم لهم ذلك في عهد الخليفة الجديد اذ تذكر المصادر أن اسم الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ـ٣٨٦هـ) (٦٧) حذف من الخطبة (٦٨) في سنة ٣٦٥هـ وحل محله اسم الخليفة الطائع العباسي (٣٦٣ـ٣٨١هـ) (٦٩) ولم تشر هذه المصادر الى أن العباسيين قاموا بفعاليات معينة جعلتهم يحققون من ورائها كسبا سياسيا في مكة ، هذا الى جانب أن بغداد كانت مشغولة بفتنة عضد الدولة مع ابن أخيه عز الدولة بختيار (٧٠) • ولكن يبدو أن ولاء مكة للفاطميين انتهى بموت أميرها جعفر بن محمد الحسني الذي توفي قريبا من هذا التاريخ ، وعندما خلفه ابنه عيسى بن جعفر في امارة مكة خطب للطائع العباسي كما أسلفنا •

أما عن أسباب ذلك التحول في علاقات مكة تجاه العباسيين ، فاننا لا نعرف عنه شيئا على سبيل التحقيق • ولعل ذلك يعتبر خروجا على السياسة الدينية التي اتبعها الخليفة المعز الفاطمي في مكة ، وتشديد قبضته عليها من الوجهة السياسية لذلك رأى الأمير الجديد أنه بموالاته للجانب الضعيف (وأعني بذلك العباسيين) ربما سيحقق بعض المكاسب السياسية والاقتصادية في الدعم والاستقلال فضلا عن الحرية المذهبية •

الا أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله اتخذ موقفا حازما وقام باجراء عاجل وعنيف فقد بعث جيوشه الى الحجاز تحت قيادة أمير علوي (٧١) ، لم تشر المصادر التي بين أيدينا الى اسمه ففرض حصارا على مكة (٧٢) وضيق عليها الخناق حتى أجبرهم على الخطبة للعزيز بالله الفاطمي سنة ٣٦٦هـ (٧٣) • ويمكن اعتبار هذه الحادثة بداية التدخل الفاطمي المباشر اذ أن الفاطميين وهم يقومون بمثل هذا الاجراء العسكري الصارم ليثبتون لأهل مكة أنهم لن يتخلوا عن سيطرتهم عليها اذ أن تلك السيطرة تجعلهم يظهرون أمام العالم أجمع بأنهم حماة الأماكن المقدسة ، ولن يسمحوا لأي سلطة من الداخل أو الخارج أن تنتقص هذه الحماية •

غير أن العباسيين لم يتركوا العزيز ينعم بانتصاره ولما يمض عليه سنة ، فقد صفى عضد الدولة البويهي حسابه مع عز الدولة بختيار (٧٤) وقبض على زمام السلطة في بغداد سنة ٣٦٧هـ (٧٥) • وصمم على استعادة السيادة العراقية على مكة عن طريق استخدام القوة المسلحة ، فبعث جيشا الى مكن تمكن من تحقيق الغاية المنوطة به فقد أجبر مكة على اعلان تبعيتها للخلافة العباسية في سنة ٣٦٨هـ (٧٦) ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فان السلطان البويهي عضد الدولة لم يكتف بما حققه من النجاح في الميدان العسكري بل لجأ الى سلاح الاغراء المالي فقام رجاله بتوزيع مبالغ طائلة من الأموال أملا في أن يشكل هذا المال قنطرة تربط بينه وبين قلوب المواطنين هناك (٧٧) •

---

(٦٧) لينبول ، الدول الاسلامية ، ص ١٣٥ •
(٦٨) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٥١ •
(٦٩) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام ، جـ٤ ، ص ٩ •
(٧٠) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ٧٥ •
(٧١) الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٤٦ • ويبدو لي أن هذا الأمير من أمراء المدينة الحسينيين •
(٧٢) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٥١ •
(٧٣) حسن ابراهيم حسن ، المعز لدين الله الفاطمي (بالاشتراك مع طه محمد شرف) القاهرة (١٩٤٧م) ، ص١٦٥ •
(٧٤) ابو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١١٤ ، ١١٦ ـ ١١٧ •
(٧٥) نفس المصدر ، ص ١١٩ •
(٧٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٦٩ •
(٧٧) غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص ٢٣٦ •

ولكن تبعا لحركة التأرجح التي كانت تتحكم في مصاير العباسيين والفاطميين في مكة آنذاك ، وتلعب دورا بارزا في علاقاتهما في المنطقة واجه الفاطميون المد العباسي البويهي بحركة مماثلة وتمكنوا من فرض سيطرتهم السياسية على مكة في العام التالى [٧٨]

وبذلك تمكن الفاطميون من فرض سيادتهم على مكة فترة من الزمن بدا خلالها أن العباسيين غير قادرين على مواجهة الفاطميين في الميدان العسكري ، ولكنهم لم يسلموا لهم بالنجاح الذي حققوه في مكة والسيادة التي فرضوها على أوضاعها ، فأخذوا يعملون في الخفاء ، ولجأوا الى سلاح آخر لا يكلفهم خيلا ولا رجالا ذلك هو سلاح التحريض الذي يكمن في اثارة بعض القبائل الحجازية وحملها على شق عصا الطاعة ضد الفاطميين وقد نجحوا في ذلك فقد ذكرت بعض المصادر أن ابن حازم الذي كان يسيطر على حصن وادى القرى خلع طاعة الخليفة الفاطمي سنة ٣٧٧هـ [٧٩] ، وكان ذلك بتحريض من السلطات العباسية ، وتمكن من السيطرة على أجزاء واسعة من بلاد الحجاز وهدد سيادة الفاطميين [٨٠] فيها فصدرت الأوامر الى العساكر المصرية بالخروج في السنة نفسها [٨١] لوضع حد للثائر الجديد ، فتمكنت الجيوش المصرية من استعادة الحجاز الى السيطرة الفاطمية [٨٢] « وعاد الجيش في سنة ٣٧٨هـ ومعهم رأس ابن حازم » [٨٣] .

وكان تمرد ابن حازم هذا وخروجه على الطاعة الفاطمية آخر العقبات التي واجهت الخلافة الفاطمية في الحجاز عامة وفي مكة بصورة خاصة في عهد امارة الشريف عيسى بن جعفر الحسنى ، وبذلك استقرت سيادة الفاطميين على مكة ، وأصبحوا يسيطرون على معظم طرق الحج واستمرت الخطبة لهم بها [٨٤] ، وأصبح نتيجة لذلك كما يقول بعض الباحثين [٨٥] في متناول الفاطميين سلاح دعائي بالغ الخطورة ، سلاح طالما استخدم ضدهم في الفترة السابقة والسلاح الذي أعنيه (على حد قوله) هو تركيز الضوء على المسئولية التي كان يتحملها الفاطميون في حماية الحجيج أثناء تأديتهم لمناسك فريضة الحج ، ويضاف الى هذا تأمينهم لطرق الحج وقيامهم بالانفاق على الكثير من مواطني المدينة المقدسة .

ويبدو أن العباسيين في هذه الفترة كانوا غير مؤهلين لمنافسة الفاطميين ومقاسمتهم تلك المكانة الأدبية والسياسية التي أنفردوا بها آنذاك . غير أن كتب التاريخ تشير الى بعض المحاولات الجادة التي قام بها الخليفة القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ) [٨٦] فقد كتب الى ولي عهد مكة [٨٧] الحسن بن جعفر المعروف بأبي الفتوح ـ ويبدو أنه كان صاحب النفوذ في حكومة أخيه عيسى بن جعفر ـ كتب اليه سنة ٣٨١هـ يرغبه في طاعته والولاء له بدلا من الفاطميين ، ويعده بالاعتراف به وبأسرته واتصال الامارة في بيته [٨٨] . الا أن مراسلة القادر هذه لم تفده في شيء ، فقد أنفذ أبو الفتوح كتبه الى الخليفة العزيز بالله الفاطمى فترك ذلك أعظم الأثر في نفسه ، وحفظ هذا الموقف

(٧٨) نفس المكان ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ١٦٦ .
(٧٩) الأنطاكي ، تاريخ يحي بن سعيد ، ص ٢٢٤ .
(٨٠) نفس المكان .
(٨١) الدواداري ، الدرة المضيئة ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، القاهرة (١٩٦١م) ، جـ٦ ، ص ٢١٩ .
(٨٢) الأنطاكي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .
(٨٣) الدواداري ، المصدر السابق جـ٦ ، ص ٢١٩ .
(٨٤) الطويل ، محمد امين غالب ، تاريخ العلويين ، اللاذقية (١٩٢٤م) ص ٢١١ .
(٨٥) غنيم ، العلاقات العربية السياسية ، ص ٣٢٧ .
(٨٦) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، جـ٤ ، ص ٩ .
(٨٧) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٣٨١ .
(٨٨) العمرى ، ابن فضل الله ، مسالك الابصار ، المكتبة السليمانية برقم ٣٤٣٦ ايا صوفيا ، اسطانبول ، جـ٢٤ ، ورقة ١١ .

النبيل لأبي الفتوح فارسل له بمال وخلع قسمها في قومه من الأشراف [٨٩]، ووقع له بولاية مكة بعد أخيه وكسا الكعبة كسوة بيضاء [٩٠] فخطب عندما ألبس الكعبة الكسوة الجديدة في جمع من الشرفاء وقال : « الحمد لله يابني فاطمة الزهراء ، وأصحاب السنة الغراء على أن زين بيته بلبسة السرور بعد لبسة الحزن ، وجعل ملك الحرمين لبني بنت رسوله من بني الحسين والحسن » [٩١] .

غير أن فشل القادر في مراسلاته السياسية مع أبي الفتوح لم يثنه عن الاستمرار في محاولاته التي تهدف الى تحقيق بعض المكاسب في ميدان التنافس بين الفاطميين والعباسيين ، فقد حدث أن توصل الخليفة القادر بالله الى اتفاق مع الأصيفر التغلبي زعيم احدى القبائل البدوية سنة ٣٨٢هـ يتعين عليه بمقتضاه حماية الحجاج في رحلاتهم الى مكة ذهابا وايابا وذلك مقابل مبلغ من المال تقدمه له الخلافة العباسية . الا أن هذا الاتفاق لم يعمر طويلا فقد نقضه الزعيم البدوي قبل أن يمضي عليه عامان متعللا بأن المبالغ التي حملت اليه كانت مزيفة [٩٢] ، فاعترض الحجاج العراقيين لذلك وأجبرهم على العودة من الثعلبية [٩٣] .

والواقع أن هذا التعليل الذي يورده المؤرخون في ذلك العصر دون مناقشة لم يكن مطابقا لواقع الأحداث التي عاصرت تلك الفترة ، لأنه من المحتمل أن يكون الفاطميون هم الذين أفسدوا ذلك الاتفاق بدليل أن حجاج مصر والمغرب لم يمنعوا [٩٤] . هذا الى أننا سنرى أن قبائل البدو في ذلك الوقت كان معظمها ان لم تكن جميعها تعمل في اطار مخطط فاطمي بحت .

أبو الفتوح والولاء للفاطميين

لم يطل العهد بعد ذلك بامير مكة الحسني عيسى بن جعفر فقد توفي سنة ٣٨٤هـ [٩٥] فتولى الامارة بعده أخوه الحسن بن جعفر الذي يكنى بابى الفتوح [٩٦] ، وكان أبو الفتوح قد تلقى تفويضا بالامارة في عهد أخيه عيسى من العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٨١هـ [٩٧] . وبدأت بذلك صفحة جديدة في تاريخ العلاقات الفاطمية المكية سنسلط عليها الأضواء في الصفحات التالية :

كان أبو الفتوح كما وصفه العمرى [٩٨] « جميل الوفا جليل القدر في الرفاء » وكان شجاعا طموحا شاعرا رويت له بعض الأشعار [٩٩] ، وقدتمتع بنفوذ كبير في حياة أخيه عيسى وكان يساعده في تصريف أمور الامارة حتى جل قدره [١٠٠] ، وراسله الخليفتان العباسي والفاطمي [١٠١] .

(٨٩) نفس المكان ، ابن فهد ، اتحاف ، حوادث سنة ٣٨١ .
(٩٠) العمرى ، المصدر السابق ، جـ٢٤ ، ورقة ١١ .
(٩١) نفس المكان .
(٩٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٧ ، ص ١٦٥ .
(٩٣) نفس المكان .
(٩٤) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٨٤-٢٨٥ .
(٩٥) الفاسى ، شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٩٤ .
(٩٦) نفس المكان .
(٩٧) العمرى ، مسالك الابصار ، جـ٢٤ ، ورقة ١١ .
(٩٨) نفس المكان .
(٩٩) ترجم له صاحب دمية القصر مع شعراء الجزيرة واورد له هذين البيتين :

وصلتني الهموم وصل هواك ... وجفاني الرقاد مثل جفاك
وحكى لى الرسول أنك غضبى ... يا كفى الله شر ما هو حاك

الباخرزى : جـ١ ، ص ٣٠ .
(١٠٠) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٣٨١ .
(١٠١) العمرى ، المصدر السابق ، جـ٢٤ ، ورقة ١١ .

ويمكن دراسة عهد أبي الفتوح على ثلاث مراحل • فالمرحلة الأولى اتسمت بالولاء المطلق للفاطميين • أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الاستقلال وادعاء الخلافة ، ثم مرحلة ثالثة من حياة أبي الفتوح كانت غامضة ويمكن أن تصفها بأنها كانت مرحلة ولاءة للفاطميين مشوب بالحذر منهم•

ولعل ولاء أبي الفتوح للفاطميين في المرحلة الأولى لم يكن غاية في ذاته بل كان وسيلة لتحقيق أحلامه في الاستقلال في ظل نظامهم القائم ، سيما وأن الكثير من المسلمين يطعن في نسبهم ويذهبون في ذلك مذاهب شتى (١٠٢) في حين أن أبا الفتوح علوي خالص دون أدنى شك (١٠٣) ، وفوق ذلك فان تلك الأكثرية لا تعترف بخلافتهم بل تعتبرهم مغتصبين للخلافة ، وخارجين على الاجماع ، في حين أنه لا يستطيع تحقيق أطماعه في ظل النظام العباسي لو التمس جانبهم ومنحهم ولاءه في تلك المرحلة ، وذلك بسبب تراثهم العريق في أحقيتهم في الخلافة ذلك التراث الذي اكتسبوه في مدى ما يزيد على قرنين ونصف قرن من الزمان كما أسلفنا • هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فان مناواة أبي الفتوح للفاطميين في ذلك الوقت المبكر وفي عهد العزيز بالله وهو من أقوى الخلفاء الفاطميين يجعلهم يقضون على حركته في مهدها ، سيما وأن امارة بني المهنا لا زالت قائمة • وهي نقطة الارتكاز التي اتخذها الفاطميون كما أسلفنا للقضاء على أي عصيان في مكة يدبره بنو عمهم الحسنيون •

لذلك كان عليه التماس جانب الفاطميين وموالاتهم حتى لا يشغل نفسه عن المهام الأولى لتاسيس امارته وتنفيذ برنامجه في توحيد البلاد الحجازية ، وهو أمر ضروري لتحقيق أحلامه في الاستقلال • وهكذا كانت علاقته بالفاطميين يسودها الوفاق التام في تلك المرحلة ، فقد كان ينتهز كل فرصة تسنح للتعبير لهم عن ولائه واخلاصه •

فقد كتب اليه الخليفة القادر بالله العباسي سنة ٣٨٦هـ يطلب منه الاذن لحاج العراق بتأدية مناسكهم (١٠٤) • ولم يكن في وسع أبي الفتوح وهو العاقل الورع (١٠٥) منع المسلمين من تادية شعيرتهم الدينية • فسمح لهم بالحج (١٠٦) ، ولكنه لم يترك هذه الفرصة تمر دون أن يتخذ موقفا يظهر فيه صدق ولائه لصاحب نعمته خليفة مصر فاشترط على الخليفة العباسي الا يكون لحاج العراق أي صفة رسمية (١٠٧) ، وأن الخطبة يجب أن تقام للحاكم بأمر الله الفاطمي (١٠٨) • الا أن الحاكم رغم تلك الشروط المنصفة لم يعجبه السماح لحاج العراق فأوعز الى ابن الجراح أمير طيء (١٠٩) باعتراضهم ، ففعل ذلك ولكنه خلى سبيلهم بعد وساطة الشريف الرضي وأخيه المرتضى (١١٠) على ألا يعودوا (١١١) • وهذا يؤيد ما سبق اليه القول بأن أغلب القبائل البدوية كانت

---

(١٠٢) انظر ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ٢٢ـ٣٤ •
(١٠٣) ابن التلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٤ •
(١٠٤) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٣٨٦ •
(١٠٥) العمري ، مسالك الأبصار ، جـ٢٤ ، ص ١١ •
(١٠٦) ابن فهد ، المصدر السابق ، حوادث سنة ٣٨٦ •
(١٠٧) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠١ •
(١٠٨) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠١ •
(١٠٩) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٣٨٦ •
(١١٠) الرضي ، هو محمد بن الحسن بن موسى العلوي الحسيني الموسوي أشعر الطالبيين ، ولد ببغداد وانتهت اليه نقابة الأشراف فيها • ولي امارة الحج في بعض السنوات • توفي ببغداد سنة ٤٠٦هـ • الزركلي ، الأعلام ، جـ٦ ، ص ٢٩ـ٣٣٠ • والمرتضى : هو علي بن الحسن ـ أخو السابق ـ تولى نقابة الطالبيين ايضا ، وكان اماما في علم الكلام والأدب والشعر له تصانيف كثيرة في مقدمتها « الغرر والدرر » الذي يعرف بامالي المرتضى ، توفي ببغداد سنة ٤٣٦هـ • الزركلي ، نفس المصدر ، جـ٥ ، ص ٨٩ •
(١١١) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠١ •

تعمل في اطار مخطط فاطمي[١١٢] .

ظلت علاقات أبي الفتوح بالفاطميين يسودها الوفاق التام واستمرت الخطبة للحاكم في مكة[١١٣] . وشاع الوقوف له عند ذكر اسمه كما هي الحال في مصر وغيرها[١١٤] . وفي هذه الأثناء كان أبو الفتوح يتخذ خطوات جبارة في سبيل توطيد دعائم امارته واكتساب أراض جديدة . فمد سيطرته على مناطق تهامة الجنوبية حتى وصل حدود اليمن، واستولى على امارة حلي بن يعقوب[١١٥]، وبذلك سيطر على منطقة واسعة ولم يعد أمامه الا امارة بني المهنا بالمدينة الخصوم التقليديين لأمراء مكة من الحسنيين ورأى أنه لا يمكن تحقيق أطماعه الا بعد اسقاطها وضمها الى مكة وتكوين الحجاز الموحد ، الا أن الفرصة لم تلبث أن واتته وبأمر من الخليفة الحاكم نفسه. فقد ذكرت بعض المصادر أن الزنادقة أشاروا على الحاكم في سنة ٣٩٠هـ[١١٦] بنبش قبر النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، وحملهم الى مصر[١١٧] ، لتكون منقبة يعود جمالها على مصر وساكنيها فدخل ذلك عقل الحاكم وأرسل الى أبي الفتوح أمير مكة يأمره بذلك[١١٨].

ورغم أننا لا نستطيع نفي تلك المحاولة التي صدرت عن الحاكم ، الا أنني أنفي أن يكون أبو الفتوح قد ذهب الى المدينة بقصد نبش قبر الرسول (ص) وصاحبيه وحمل جثثهم الى مصر ، وليس ذلك من قبيل التخمين والا كيف يمكن أن نوفق بين زعم تلك المصادر باستعداد أبي الفتوح بتنفيذ رغبة الحاكم في نبش القبر الشريف وتلك التي تجعل السبب في خروج أبي الفتوح على طاعة الحاكم هو تلقيه سجلا من الأخير يأمره فيه بسب بعض الصحابة وزوجات النبي[١١٩] (ص) ، وأيهما يستحق الثورة والاحتجاج بنبش قبر النبي (ص) أو سب معاوية وعائشة وغيرهما من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

أما الرأى الذي نذهب اليه فهو أن أمر الحاكم هذا جاء محققا لرغبة أبي الفتوح في الاستيلاء على المدينة وضمها الى مكة تمهيدا لاستقلال الحجاز تحت زعامته . فاذا تم له هذا الاستيلاء فسيبحث عن العذر الذي يعفيه من نبش القبر الشريف ويحفظ ماء وجهه عند الحاكم ، وهذا ما حدث بالفعل فقد توجه أبو الفتوح الى المدينة ، واستولى عليها[١٢٠]وأزال امرة بني مهنا عنها[١٢١]، ولكنه لم يتعرض لقبر النبي وصاحبيه بسوء ، وقد وجد العذر الذي يمكن للحاكم أن يقبله ذلك أن رياحا عاتية هبت على المدينة المنورة كادت الأرض أن تتزلزل من تحتها حتى تدحرجت الابل بأقتابها والخيل بسروجها[١٢٢]. ولم يكن هبوب تلك الريح الا انتصارا لحرمة القبر الشريف .

ويبدو أن الحاكم قبل عذر أبي الفتوح بدليل أن المصادر لم تشر الى اتخاذه موقفا معينا تجاه أبي الفتوح . ويظهر أن السبب الحقيقي في ازالة امارة بني المهنا من المدينة على يد أبي الفتوح هو ما طرأ على علاقاتهم بخلفاء مصر من تدهور حتى أدى بهم الأمر الى القدح في أنساب

---

(١١٢) انظر ، ص ، من هذا البحث .
(١١٣) ابن فهد . اتحاف الورى ، حوادث سنة ٣٨٦هـ .
(١١٤) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٢١٤ .
(١١٥) ابن فهد ، المصدر السابق ، حوادث سنة ٤١٢هـ .
(١١٦) الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٤٨_٢٤٩ .
(١١٧) نفس المكان .
(١١٨) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٣٩٠ .
(١١٩) العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٢٤ ، ص ١١ .
(١٢٠) القلقشندى ، مآثر الإنافة ، جـ١ ، ص ٣٢٨ .
(١٢١) ابن فهد ، المصدر السابق ، حوادث سنة ٣٩٠ . القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٢٨ . السخاوى ، شمس الدين، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، القاهرة (١٩٥٧م) ، جـ١ ، ص ٤٦٨ .
(١٢٢) القلقشندى ، مآثر الإنافة ، جـ١ ، ص ٣٢٨ ، الجزيرى ، درر الفوائد ، ص ٢٤٨_٢٤٩ . السخاوى ، التحفة اللطيفة ، ص ٤٦٨ .

الفاطميين[١٢٣]، لذلك فمن المسلم به بداهة أن يوحي الحاكم الى أبي الفتوح بازالة تلك الامارة ، وهذا أقرب الى العقل والمنطق ، ولعل سوء العلاقة بين بني مهنا والحاكم وتبدلها جعلت أبا الفتوح وهو الخصم الثالث يأتي أخيرا فيفوز بالغنيمة ، وبذلك أصبح أميرا للحجاز الموحدة ، وصديقا حميما للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، وتربطه به علاقات بلغت الذروة من الرسوخ والاستقرار ٠

وكان أبو الفتوح – كما أسلفنا – لا يترك فرصة تمر دون أن يعبر فيها للحاكم عن مدى اخلاصه وولائه فقد ذكر المقريزي أن أبا الفتوح توجه الى مصر في شعبان سنة ٣٩٦هـ[١٢٤] لمقابلة الخليفة الحاكم بأمر الله ، وتقديم التهاني[١٢٥] له بنفسه بمناسبة انتصاره على أبي ركوة[١٢٦]، والقضاء على ثورته ٠ أما الحاكم فقد احتفى بضيفه احتفاء عظيما فأكرمه وأنزله بدار برجوان وخلع عليه[١٢٧]٠

الاستقلال بالحجاز ودعوى الخلافة

بيد أن هذا التحسن في العلاقات بين حاكم مكة أبي الفتوح والخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لم يستمر طويلا اذ لم تلبث أن تعرضت علاقاتهما للتصدع في مطلع القرن الخامس الهجري ٠ ذلك أن الحاكم أرسل سجلا الى عماله (ومنهم أبو الفتوح) بالبراءة ممن غصب وصي رسول الله (ص) ميراثه في الخلافة ومنع فاطمة الزهراء حقها في فدك[١٢٨] وكذلك بالبراءة من عمر رضي الله عنه[١٢٩]، فغضب أبو الفتوح وقال : في خطاب ألقاه في جمع من رؤوس العلويين « قوم قام بهم منار الاسلام بعد نبيه عليه السلام يذكرهم بما لا يجب » ٠ أهكذا فعلت النصارى بالحواريين بل جعلوا قبر كل واحد منهم مزارا لحج وعبادة والله لو أمرني أن ألعن قوما على غير الملة لما ارتضيت أن أكون لعانا ، ووالله ان من عقوق جدنا علي بن أبي طالب وصفه بالعجز[١٣٠]٠

وقد أثار خطاب أبي الفتوح حماس العلويين الذين تهيأوا للثورة والاستقلال بشؤونهم عن الحاكم الذي سئموا متناقضاته فقام رجل منهم وقال[١٣١] : « أيها الأمير هذا مقال من يجب عليه ألا يرجع عما قاله » فقال له أبو الفتوح[١٣٢]: « صدقت » ٠ وهكذا نرى أن أبا الفتوح نجح في

(١٢٣) الجزيري ، المصدر السابق ، ص ٢٤٩ ٠
(١٢٤) اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٦٦ ٠
(١٢٥) نفس المكان ٠
(١٢٦) ابوركوة : هو الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الاموى ، كني بابى ركوة لركوة كان يحملها في أسفاره على طريقة الصوفية ٠ خرج على الحاكم ، والتفت حول قبائل بني قرة ولواتة ومزاتة وزناتة ٠ ارسل اليه الحاكم جيشا في شعبان سنة ٣٩٥هـ بقيادة ينال التركي فانزل به هزيمة ساحقة وقوي أمره حتى عزم الحاكم على الخروج الى الشام ٠ وبرز بالعساكر والأموال الى بلبيس ٠ فاشير عليه بالعودة الى مصر فعاد ٠ ثم لم يلبث ان وقع أبو ركوة في أسر الجيوش الفاطمية حيث جيء به الى القاهرة واعدم سنة ٣٩٦هـ ٠
انظر المقريزي ، المصدر السابق ، ص ٦٠ وما بعدها ٠
(١٢٧) نفس المصدر ، ص ٦٦ ٠
(١٢٨) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، وقيل ثلاثة أيام ٠ افاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم في سنة ٧ من الهجرة ٠ دون أن يوجف في ذلك خيلا ولا ركابا ، فكانت خالصة له صلى الله عليه وسلم ٠
انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٢٣٨ ٠
(١٢٩) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١١ ٠
(١٣٠) العمري ، مسالك الأبصار ، جـ٢٤ ، ص ١١ ٠
(١٣١) نفس المكان ٠
(١٣٢) نفس المكان ٠

اقناع بعض شرفاء مكة للخروج على نظام مصر ثم شرع في مباينة الحاكم[١٣٣]، واستبد بالأمر في مكة[١٣٤] وأعلن استقلاله بها سنة ٤٠٢هـ ، وقطع الخطبة للحاكم وخطب لنفسه[١٣٥].

بيد أن المصادر التي بين أيدينا لم توضح الأسلوب الذي واجه به الحاكم عصيان أبي الفتوح سوى أنه قطع الميرة من مصر عن الحرمين[١٣٦] ويبدو أن الحاكم حتى الآن لم ير أن خروج أبي الفتوح يشكل خطرا عليه لأن سلطانه لم يتعد حدود الحجاز ولم يشرك أحدا معه في الخطبة كالخليفة العباسي كما كان يحدث في بعض الأحيان عندما يغاضب أمير مكة خليفة مصر[١٣٧] ولم ينضم لأي قوة معادية للخلافة الفاطمية ، بل أعلن استقلاله كأمير للحجاز المستقل .

ويبدو أن الحاكم اعتبر خروج أبي الفتوح مشكلة داخلية يمكن حلها بقطع الميرة والاعانة المصرية وتجويع مكة فيضطر أبو الفتوح تحت الظروف الناتجة عن ذلك وتحت الحاح بني عمه الأشراف الذين لا يخلو أن يكون للحاكم بينهم صنايع يضطر الى أن يجنح للطاعة ويسلم قيادة للحاكم .

غير أن الأمور لم تلبث أن سارت على غير ما يهوى الحاكم ، وفرضت على أبي الفتوح موقفا معينا خرج به من نطاق الأمير المستقل الى الخليفة المطلق وجدّت ظروف جعلته يراهن على الحصان الخاسر . ذلك أن خلاف الدولة الفاطمية مع آل الجراح بلغ ذروته عندما اعترض المفرج ابن دغفل بن الجراح زعيم قبائل طيء ياروخ (يارختكين)[١٣٨] التركي الذي ولاه الحاكم امارة الشام ولقبه علم الدولة . وكان قد خرج في قافلة كبيرة ومعه زوجته ابنة يعقوب بن كلس[١٣٩]. فأسالت تلك القافلة وما فيها من الأموال الواسعة لعاب المفرج هذا فاعترض القافلة ونهبها[١٤٠]، ثم أسر ياروخ الذي لم يلبث أن قتل على يد ابنه حسان بن مفرج[١٤١]. ولم يكتف زعيم طيء بهذا العمل بل توجه الى الرملة[١٤٢]، واستولى عليها وعاث فيها فسادا[١٤٣].

وفي تلك الأثناء نكب الخليفة الحاكم أسرة[١٤٤] الوزير أبي القاسم بن المغربي . وكاد يقضي عليه[١٤٥]، لولا أنه التمس الحيلة في الهرب من مصر والالتجاء الى بني الجراح[١٤٦] طالبا جوارهم فاستجابوا لذلك وأجاروه[١٤٧].

(١٣٣) العمري ، مسالك الابصار ، جـ٢٤ ، ص ١١ .
(١٣٤) القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ٤ ، ص ٢٦٩ .
(١٣٥) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠١ .
(١٣٦) القلقشندي ، مآثر الانافة ، جـ١ ، ص ٢٢٥ .
(١٣٧) في أماكن متفرقة من هذا البحث .
(١٣٨) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٧٠ .
(١٣٩) علي ، محمد كرد ، خطط الشام ، بيروت (١٩٦٩م) جـ١ ، ص ٢١٨ . ويعقوب بن كلس من أصل يهودي أسلم على يد كافور الأخشيدي سنة ٣٥٦هـ فولاه ديوانه بالشام ومصر . ثم انتقل الى المغرب فتقلب في عدة مناصب ادارية في عهد المعز والعزيز أهمها ديوان الوزارة . توفي سنة ٣٨٠هـ في عهد العزيز الذي العده بيده وأمر باغلاق الدواوين مدة أيام حدادا عليه . انظر : ابن الصيرفي ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ١٩ . الزركلي ، الأعلام ، جـ٩ ، ص ٢٦٧ .
(١٤٠) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٤ .
(١٤١) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٧٠ .
(١٤٢) عنان ، محمد عبد الله ، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، ص ١٨٢ . ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠١ .
(١٤٣) كرد ، المصدر السابق ، ص ٢١٨ .
(١٤٤) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ١٠١ .
(١٤٥) عنان ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .
(١٤٦) ياقوت ، معجم الأدباء ، جـ٤ ، ص ٦٠ .
(١٤٧) الأزدي ، علي بن ظافر ، الدول المنقطعة ، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٨٩٠ ورقة ٨٥ .

وكان بنو الجراح قد كشفوا عن نواياهم في الاستقلال عن الخلافة الفاطمية وتكوين دولة خاصة بهم[١٤٨]. ويبدو أنهم استشاروا الوزير ابن المغربي في هذا الأمر غير أنهم لا يملكون من الحقوق الأدبية والسياسية ما يؤهلهم للخروج على الحاكم بأمر الله ومنازلته ، لذلك أشار عليهم الوزير نفسه باستدعاء أبي الفتوح الذي سبق وأن أعلن استقلاله بمكة ، ومبايعته بالخلافة لأنه لا مطعن في نسبه[١٤٩]. وبذلك يستطيعون تحقيق أهدافهم في ظل الخليفة الجديد .

استحسن حسان بن المفرج ـ وهو أعظم بني الجراح شأنا وأكثرهم طموحا ـ رأي الوزير أبي القاسم وأرسله سفيرا الى أبي الفتوح [١٥٠] ، فلما وصل اليه أطمعه في الامامة وعرض عليه طلب الخلافة[١٥١]. وحثه على الخروج الى الرملة استجابة لرجاء حسان الذي سيكون خير عون له على تثبيت سلطته ، وضمن له الوفاء بما بذله حسان ابن المفرج من الطاعة له[١٥٢].

الا أن أبا الفتوح لم يتسرع في الاستجابة قبل مشاورة ذويه ، فجمع بني حسن وشاورهم في الأمر « فصبوا الى العز وأعطوه أيديهم بالبيعة »[١٥٣]. فخطب فيهم ، وتلقب بالراشد بالله[١٥٤]، وكان ذلك في أواخر عام ٤٠٢هـ .

وقبل أن يتوجه أبو الفتوح الى الرملة اشتكى الى الوزير بن المغربي قلة ما بيده من المال[١٥٥]. فأشار عليه الوزير بالاستيلاء على ما حوته خزانة الكعبة من أموال وما عليها من أطواق الذهب والفضة[١٥٦] ففعل وضربها دنانير ودراهم وهي التي تسمى بالفتحية[١٥٧]. كما استفاد من وفاة ثرى من سكان جده يدعى المطوعي ، وقد أوصى عند وفاته لأبي الفتوح ببعض ماله[١٥٨]، حتى يأمن على الباقي ولا تمتد يده الى ما بقي لورثته[١٥٩]. غير أن أبا الفتوح استولى على جميع ثروته بمشورة الوزير ابن المغربي فضلا عن ودائع كثيرة كانت لديه لأناس من الهند[١٦٠].

وبعد أن استكمل الراشد بالله استعداداته خرج من مكة بعد أن استخلف عليها نائبا[١٦١] عنه ، ثم توجه الى الرملة ، وكان كما تقول المصادر : راكبا فرسا ومتقلدا سيفا زعم أنه ذو الفقار ، وفي يده قضيب ذكر أنه قضيب[١٦٢] النبي (ص) ، وحوله جماعة من العلويين وفي خدمته ألف عبد أسود ، ومعه ألف فارس من بني حسن[١٦٣].

---

(١٤٨) البيطار ، امينة ، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى اواخر القرن الخامس ، رسالة ماجستير، آداب القاهرة برقم ١٠٠٢ ، ص ٨٥ .
(١٤٩) الجاسر ، حمد ، أدب الخواص لابن المغربي ، مجلة العرب س ٨ ، جـ٥ ، ص ٤١٦ .
(١٥٠) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٧١ ، الجاسر ، أدب الخواص ، ص ٤١٦ .
(١٥١) الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة ، ورقة ٥٨ .
(١٥٢) امينة البيطار ، موقف أمراء العرب ، ص ٩١ .
(١٥٣) الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، ص ٢٣٦ .
(١٥٤) غازي ، عبد الله ، افادة الأنام ، مكتبة التصنيف بجدة ، جـ٢ ، ورقة ٥٤ .
(١٥٥) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ .
(١٥٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ١٦٤ .
(١٥٧) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ١١٩ .
(١٥٨) الروذراوري ، المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .
(١٥٩) الفاسي ، شفاء الغرام ، ص ١١٩ .
(١٦٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ١٦٤ .
(١٦١) الجزيري ، درر الفوائد ، ص ٢٥ .
(١٦٢) نفس المكان .
De Gaury, Gerald, Rulers of Mecca. First Published (1951). p. 60.
(١٦٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٤ . الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٦١ .

ولما اقترب من الرملة تلقاه زعيم بني الجراح مفـرج بن دغفل بن الجـراح وأبناؤه حسان ومحمود وعلي[١٦٤]، ووجوه العرب بالترحاب ، وترجلوا له وقبلوا الأرض بين يديـه ، وسلموا عليه بامرة أمير المؤمنين[١٦٥] • ونزل دار الامـارة بالرملـة[١٦٦]• ونـادى في النـاس بأمـان الخائفـين[١٦٧]، وبايضاح العـدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١٦٨]، وأنشأ كتابا قرىء على الناس بألا يقبل له أحد الأرض وأن هذا شيء ينفرد به الله عز وجل[١٦٩]• ثـم ركب في أول جمعة من وصولـه والمفرج وأولاده وسائر أمراء طيء مشاة بين يديه[١٧٠]حتى دخل المسجد ودعا خطيب الجامع وأمره بصعود المنبر بعد أن أسرّ اليه بما يبدأ بـه[١٧١]• فصعد الخطيب المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه[١٧٢] وقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون عـلا في الأرض ، وجعل أهلهـا شيعـا يستضعف طائفـة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهـم الوارثين ، ونمكن لهـم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)[١٧٣]•

ونلاحظ أن أبا الفتوح أمـر الخطيب بالاستشهاد بهذه الآيات محاكيا بذلك سلفه محمد النفس الزكية فيما جرى بينه وبين أبـي جعفر المنصور مـن مكاتبات[١٧٤]عندما خرج عليـه سنة ١٤٥هـ كما أسلفنا • وهو (أي أبو الفتوح) بهذه المحاكاه يبرهن على حق العلويين في الخلافة لأن هؤلاء الخلفاء في نظر العلويين ــ طغاة قد سلبوهم حقهم الموروث ، هـذا من ناحيـة ومن ناحية ثانية نلاحظ اهتمام المؤرخين بذكر ذي الفقار سيف الامام علي (ر) وقضيب رسول الله (ص)، وأنهما كانا مع أبي الفتوح ، وحرص أبي الفتوح على اظهار هذين الشعارين يعني حقيقة هامة وهي أنهم (أي العلويين) هم الورثة الحقيقيون لتراث الرسول صلى الله عليه وسلم وابن عمـه علي بن أبي طالب رضى الله عنه •

موقف الحاكم من دعوى ابي الفتوح

ولما علم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بخروج أبي الفتوح الى الرملة ، ومبايعة آلالجراح له بالخلافة ، وانتشار دعوته في كثير من البلاد الشامية وسيطرته على جنوب الشام من الغرما الى طبرية[١٧٥]• اشتد ذلك عليه وازداد قلقه لعلمه أن أبـا الفتـوح « أهـل لمـا أهـل لـه مـن الخلافة »[١٧٦]• لكفاءتـه الشخصية ونسبه الشريف الذي لا مغمز فيه[١٧٧]• هذا من ناحية ومن

(١٦٤) الازدي ، اخبار الدول المنقطعة ، ورقة ٥٨ -
(١٦٥) ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ٦٤ •
(١٦٦) كرد علي ، خطط الشام ، جـ١ ، ص ٢١٨ •
(١٦٧) البيطار ، موقف أمراء العرب ، ص ٩٢ •
(١٦٨) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ • الجاسر ، أدب الخواص ، ص ٤١٦ •
(١٦٩) كرد علي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢١٨ •
(١٧٠) الأزدي ، المصدر السابق ، ورقة ٥٨ • البيطار ، المصدر السابق ، ص ٩٢ •
(١٧١) الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، جـ٢ ، ص ٢٣٦ •
(١٧٢) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٧٣ •
(١٧٣) سورة القصص ، الآيات من ١ـ٦ •
(١٧٤) انظر هذه المكاتبات ، صفوت ، احمد زكي ، جمهرة رسائل العرب ، جـ٣ ، ص ٨٤ـ٩٦ •
(١٧٥) كرد علي ، خطط الشام ، جـ١ ، ص ٢١٩ •
(١٧٦) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ١ ، ص ٧١ •
(١٧٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ١٩ •

ناحية ثانية فقد اتخذ في بغداد سنة ٤٠٢هـ محضر وقعه كثير من العلماء والعلويين[١٧٨]، أنكروا فيه نسب الفاطميين ، وأنهم ينسبون الى ديصان الخرمي[١٧٩]، وهذا يعني أن الشيعة الذين يدينون بالولاء للفاطميين اذا سلموا بصحة ما جاء في هذا المحضر فانهم سينفضون من حول الفاطميين ويمنحون تأييدهم لأبي الفتوح · وليس من غريب الصدف أن يكون ادعاء أبي الفتوح للخلافة موافقا لتلك الفترة التي أتخذ فيها هذا المحضر بل لعل خروجه كان مقصودا لكسب أولئك الذين سينفضون أيديهم من طاعة الحاكم بعد أن تبين لهم القدح في نسبه ويبحثون عن علوي آخر يمنحونه تأييدهم ويمدون يدهم لمبايعته · ولم يكن ذلك العلوى الا أبا الفتوح · يدل على ذلك مشاوراته مع ذويه من العلويين الذين منحوه تأييدهم من الوهلة الأولى ومشوا في ركابه الى الرملة ، وهم يفتدونه بالنفس والنفيس الى جانب اظهارهم شعارات معينة كالسيف والقضيب[١٨٠]تؤيد حقه في وراثه الخلافة وامامة المسلمين وليس من المستبعد أن يكون الوزير أبو القاسم بن المغربي وهو المعروف بدهائه قد لفت نظر أبي الفتوح الى هذه الناحية وحرضه على اهتبال تلك الفرصة ·

ومهما يكن الأمر فقد اتخذ الحاكم خطوات متعددة للقضاء على الخليفة الجديد وأنصاره من بني الجراح · وكانت أولى تلك الخطوات ارسال قوة فاطمية الى فلسطين الا أنها منيت بالفشل وانهزم الجيش الفاطمي قرب داروم[١٨١]، فأدى ذلك الى استفحال نفوذ الثوار في جنوب الشام وفرضوا حصارا طويلا على حصون السواحل[١٨٢]·

اشتد خوف الفاطميين من الثوار وداخلهم الرعب حتى قال أحد المؤرخين الاسماعيليين « وما بالحضرة أحد من العسكرية ، ولا من الرعية الا وهو يعتقد بأن حسن بن جعفر يجيء مع مفرج بن دغفل ويكبسون القاهرة »[١٨٣] · أما الحاكم نفسه فقد استبد به القلق وداخلته الوساوس فكان يركب كل يوم وليلة ، ويخرج في العتمة من القاهرة ، ويدخل صحراء الجبل[١٨٤]· وأدرك الحاكم عدم قدرته في التغلب على أبي الفتوح في ميدان الحرب ، ولجأ الى سلاح أمضى من سلاح الحرب هو سلاح المكر والخديعة وقد أبدى الحاكم قدرة فائقة في هذا المجال ، واتخذ خطوات تدل على حنكته السياسية ، وبالتالي هيأت له الفرصة الكفيلة بالنجاح والخروج من تلك المحنة منتصرا ·

---

(١٧٨) ورد في المحضر بأنهم ينسبون الى ديصان بن سعيد الخرمي اخوان الكافرين ونطف الشياطين · شهادة يتقربون بها الى الله · وقد وقع هذا المحضر الشريف المرتضى وأخوه الرضي وابن البطحاوى العلوى · وابن الأزرق الموسوى والزكي أبو يعلى عمر بن محمد · ومن القضاة العلماء ابن الأكفاني وابن الخزرى وأبو العباس الأبيوردى · وأبو حامد الأسفرائيني ، والكشفلى والقدورى ، والصيمرى وابن البيضاوى وأبو الفضل النسوى· وأبو عبد الله بن النعمان وغيرهم · انظر : ابن الأثير، **الكامل**، جـ٧ ، ص ٢٦٣ · برنارد، **الدعوة الاسماعيلية** ، ص ٤٥ ·

(١٧٩) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ ·

(١٨٠) السيف هو : ذو الفقار سيف الامام على بن ابى طالب رضى الله عنه كان في حوزة محمد النفس الزكية فلما قتل تناقلته الأيدى حتى صار الى المهدى ثم الهادى فجربه على كلب فانقطع السيف ، وقيل بل بقى الى أيام الرشيد · انظر : ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ١٠ ·

اما القضيب : فهو عود كان النبي يأخذه بيده وهو من تركاته وهو ثالث علامات الخلافة بعد البردة والخاتم . فاذا تولى الخليفة جاوزه بالبردة والخاتم والقضيب · أنظر : الصابى ، **رسوم دار الخلافة** ، بغداد (١٩٦٤م) ، ص ٨١ ·

ولا نستطيع قبول صحة هذه الرواية لأن السيف والقضيب كانا في يد الخلفاء العباسيين يتوارثونه كابرا عن كابر · أنظر : الصابى ، نفس المصدر ، ص ٨١ ، ٩٠ ·

(١٨١) الأزردى ، **اخبار الدول المنقطعة** ، ص ٥٨ ·

(١٨٢) كرد على ، **خطط الشام** ، جـ١ ، ص ٢١٩ ·

(١٨٣) الدجيلي ، عبد الحميد ، رسائل اسماعيلية قديمة نادرة ، **مجلة المجمع العراقي** ، م٣ ، جـ١، (١٩٥٤م) ص ٤٢١ ·

(١٨٤) نفس المكان ·

فقد كان الحاكم يدرك أن بني الجراح لم يقوموا بالدعوة لأبي الفتوح حبا له وكرها للفاطميين بل كانت لهم أهدافهم الخاصة[١٨٥]. وارادوا أن يحققوا تلك الأهداف من وراء الدعوة له ، ويتخذوه وسيلة لمساومة الفاطميين في سبيل الحصول على بعض المميزات المالية والاقليمية ، ويصرفوا الفاطميين عن اتخاذ اجراءات معينة نحو تاديبهم لقاء الجرائم التي ارتكبوها ضد الدولة الفاطمية وولاتها[١٨٦]. لذلك لجأ الحاكم الى استمالة آل الجراح بالمال . فارسل الى حسان بن مفرج بن الجراح وهو أعظم آل الجراح شأنا وأشدهم مراسا والى والده مفرج بن دغفل ، وبعث لهما بصورة سرية أموالا طائلة[١٨٧]، وأعطاهما وعودا كثيرة ، اذا تخلوا عن الدعوة لأبي الفتوح . وفوق ذلك خص حسان بن المفرج بكتابة يغالطه في أمر يارختكين ويسهله عليه[١٨٨] ، لأن الحاكم كان يدرك أن تزعم حسان لتلك الحركة وقيامه بها كان خوفا من مغبة الأخذ بثار يارختكين (ياروخ) الذي قتل على يد حسان كما أسلفنا .

ولم تقتصر مراضاة الحاكم لبني الجراح على حسان ووالده بل تعدى ذلك الى جميع رؤسائهم والمتنفذين فيهم مخافة أن يتحول تأييد الراشد بالله اذا تخلى عنه حسان ووالده الى أحد هؤلاء الرؤساء فيتولى زمام المعارضة ، لذلك حمل الى علي ومحمود ابني المفرج أموالا جزيلة[١٨٩]، وضمن لهم الاقطاعات الكثيرة ، وأغراهما كثيرا حتى استطاع أن يكسب ودهما[١٩٠]، وأن يحمل الجميع على الانفضاض عن الراشد بالله .

كما حقق الحاكم جميع مطالب حسان ، فقد كانت لحسان مطالبه الخاصة يقول صاحب ذيل تجارب الأمم « وكان حسان قد أنفذ والدته في أثناء هذه الخطوب الى مصر بتذكرة تتضمن أغراضه ، وسأل في جملتها أن تهدى له جارية من اماء القصر ، فأجابه الحاكم الى جميع ما سأل من اقطاع وتقرير وامضاء ، وكتب اليه أمانا بخط يده وأهدى له جارية جهزها بما بلغ قيمته مالا عظيما فعادت والدة حسان اليه بالرغائب له ولأبيه فسر بذلك ، واظهر طاعة الحاكم ولبس خلعه »[١٩١].

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فقد اتخذ الحاكم خطوات أخرى جبارة تجاه مكة المقر الرئيسي للخليفة الراشد بهدف قطع مواصلاته ووضعه بين فكي كماشة صمدا الى جانب اضعاف مركزه من الناحية الدينية بأخذ مكة منه ولعنه من فوق منابرها ليوصف بالخروج والعصيان على الخلافة الشرعية في مصر .

وكانت أولى تلك الخطوات حرب الحجاز حربا اقتصادية . فقد قرئ سجل حاكمي في آخر سنة ٤٠٢هـ يقضي بمنع الناس من السفر الى مكة في البر والبحر ومنع حمل الأمتعة والأقوات اليها[١٩٢]. وقد وضع هذا السجل موضع التنفيذ وطبق بشدة متناهية لا رجعة فيها حتى ردّ قوم خرجوا الى الحج من الطريق[١٩٣].

(١٨٥) البيطار . موقف امراء العرب . ص ٩٣ .
(١٨٦) المقريزي : اتعاظ . جـ٢ . في اماكن متفرقة .
(١٨٧) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق . ص ٦٤ .
De Gaury: The Rulers of Mecca, p. 60.
(١٨٨) الفاسي . العقد الثمين . جـ٤ . ص ٧١ .
(١٨٩) الأزدي . اخبار الدول المنقطعة . ص ٥٨ .
(١٩٠) نفس المكان .
(١٩١) ذيل تجارب الأمم . جـ٢ . ص ٢٣٨ .
(١٩٢) المقريزي . اتعاظ الحنفا . جـ٢ . ص ٩٠ .
(١٩٣) نفس المكان .

أما الخطوة الثانية التي اتخذها الحاكم تجاه مكة فهي محاولته اقصاء نفوذ أبي الفتوح منها فاستغل ما بين الموسويين وبني عمهم الطيبيين من بني سليمان بن داود[١٩٤] من تحاسد وتنافس على الرئاسة فكتب الحاكم الى زعيمهم أبي الطيب[١٩٥] وقلده الحرمين ، وأنفذ له ولشيوخ بني حسن مالا وثيابا[١٩٦]. فسار مع من انضوى اليه من بني عمه الى مكة وكان بها نائب أبي الفتوح[١٩٧] فنازله واستولى عليها ، ونجح أبو الطيب في صرف العرب عن طاعة أبي الفتوح والدخول في طاعة الحاكم بأمر الله[١٩٨].

فلما وصلت أخبار مكة الى أبي الفتوح ، ورأى انحراف بني الجراح عنه وخذلانهم له أحس بالأخطار المحدقة به وأنه راهن على الحصان الخاسر . فاتجه الى أبي القاسم بن المغربي[١٩٩] طالبا مساعدته والتدخل في انقاذه من ورطته وقال له : « أغويتني وأخرجتني الى هؤلاء القوم الغدارين ، وأخرجتني من بلدي ونعمتي وامارتي وجعلتني في أيدي هؤلاء ينفقون سوقهم بي عند الحاكم ويبيعونني بيعا بالدراهم . فيجب عليك أن تخلصني مما أوقعتني وتسهل سبيلي بالعودة الى الحجاز فاني راض من الغنيمة بالاياب ، ومتى لم تفعل اضطررت الى أن أركب فرسي ، وأركب التغرير في طلب النجاة »[٢٠٠]. غير أن الوزير أبو القاسم شجعه وثبته واخذ يفكر في خلاصه[٢٠١]. ولكنه أبطأ في ذلك فلما طال الأمر على أبي الفتوح ركب دابته وذهب الى المفرج وقال له : « اني فارقت نعمتي وكاشفت الحاكم . وذلك لركوني الى ذمامكم، وسكوني الى مقامكم، ولي في عنقك مواثيق ، وأنت أحق من وفى ، لمكانك من قومك ورئاستهم ، وأن خير ما ورثه الانسان ولده ، ما يكون له به الحمد والشكر وحسن الذكر ، وأرى حسانا ولدك قد أصلح نفسه مع الحاكم واتبعه أكثر أصحابه ، وانا خائف من غدره بي ، وما أريد الا العودة الى الوطن »[٢٠٢].

فاستجاب المفرج لرغبة أبي الفتوح وحفظ ذمامه وسمح له ولأصحابه بالعودة الى مكة وضم اليه من طيء من أجازه وادي القرى[٢٠٣]. فمضى مع قومه الى مكة فوصلها سنة ٤٠٣هـ ١٠١٢م[٢٠٤]، فتلاشى فيها أمر أبي الطيب واستقامت أمور أبي الفتوح[٢٠٥] بها .

العودة الى الولاء للفاطميين

عاد أبو الفتوح الى مكة كسير الجناح ، ولم يعد قادرا على المناورة والاحتفاظ بالحجاز مستقلا كما كان قبل تورطه في دعوى الخلافة ، فكتب الى الحاكم معتذرا عما حدث فقبل الحاكم عذره[٢٠٦]، واقره على امارته بمكة[٢٠٧]، فاقام أبو الفتوح الدعوة للحاكم وضرب السكة

(١٩٤) الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ .
(١٩٥) نفس المكان . الجاسر . ادب الخواص ، ص ٤١٧ .
(١٩٦) الروذراوري ، المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .
(١٩٧) نفس المكان .
(١٩٨) حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ٢٣٩ .
(١٩٩) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٧١ .
الجاسر ، المصدر السابق ، ص ٤١٦ .
(٢٠٠) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٧١ وما بعدها .
(٢٠١) نفس المصدر ، ص ٧٢ .
(٢٠٢) نفس المكان .
(٢٠٣) الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ .
(٢٠٤) البيطار ، موقف امراء العرب ، ص ٩٥ . ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٤ .
(٢٠٥) الروذراوري ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ .
(٢٠٦) نفس المكان .
(٢٠٧) حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ٢٣٩ .

باسمـه[٢٠٨]. بل لـم يلبث أن ذهب الى مصر بنفسه راكبـا حمـارا ، ليؤكد للحـاكم اخلاصه وولائه وحسن نواياه في المرحلة التاليـة . فتركت زيارة أبي الفتوح لمصر انطباعـا حسنا على نفسية الحاكم فأمر له بالكساء وأنعم عليه[٢٠٩].

ولما عاد أبو الفتوح من مصر الى مكة احتفظ بسيادة الفاطميين في هذا البلد المقدس ، وصار يقيم الخطبة[٢١٠] للحاكـم بأمر الله الخليفـة الفاطمي حتى توفي سنة ٤١١هـ[٢١١]. فأقامها لابنه وخليفته الظاهر لدين الله[٢١٢].

وفي تلك الأثنـاء استمر أبـو الفتوح في توسيع رقعة أمارته حتى وصلت حدود اليمن حيث احتل وادى حلي[٢١٣] بن يعقوب ، وأزال عنها امارة بني حرام سنة ٤١٢[٢١٤] ويبدو أن أبا الفتوح كان حريصا في السيطرة على سواحل تهامة أو « ما تسمى مخاليف مكة »[٢١٥] بما فيها حلي بن يعقوب وذلك لما هو معروف عن تلك السهول من خصب التربة وما تشتهر به من الزراعة ولا سيما زراعة الحبوب ، فلعله أراد من وراء ذلك ان يوفر لمكة مصدرا آخر للحبوب بدلا من الاعتماد على مصر ولا سيما في تلك الفترة التي أخذ فيها المصريون يشحون في ارسالياتهم الى مكة ، ولعل ذلك يعود الى ظروف الغلاء والقحط الشديد الذي حل بمصـر في الشطر الأول من عهـد الظاهر[٢١٦]. أو لانصراف الخليفة الى مرحه ولهـوه فلم يبد كبير عناية بنفوذ الفاطميين في مكة والخطبة لهم بهـــا .

فأدى ذلك الى تجميد العلاقات المكيـة الفاطمية ، وبدأت محاولات عباسية للتقارب مع أبي الفتوح تظهر في الأفق . وعندمـا أدرك الفاطميون تلـك الخطـوة أرسلوا أبـا القاسم بـن رزق البغدادى في شهر رجب سنة ٤١٤هـ في سفارة الى أبـي الفتوح[٢١٧]. وقد أعطت تلـك السفـارة نتائجها المرجوة حيث اقيمت الخطبة للخليفة الظاهر في موسم هذا العـام في عرفـات وفي جميـع المشاهد ومنع حجاج خراسان من اقامتها للخليفة العبـاسي[٢١٨]. ومـع ذلك فمـن الواضح أن الفاطميين لم يقوموا بجميع التزاماتهم تجاه مكة وأشرافها في تلك الفترة . فاضطر أبو الفتوح الى ايفاد جماعة من الأشراف الى مصر في ذى القعدة سنة ٤١٥هـ[٢١٩] لتدارس مستقبل علاقاتهم مـع الفاطميين الا أن الوفد منـى بخيبة أمل لأنه لـم يستقبله أحد من رجـالات الدولة[٢٢٠]. لذلـك أخذوا ينادون في القصر وقالوا : « يا قـوم جئناكم وفارقنا أولادنـا وأهالينـا وقد هلكنـا مـن الجوع ، فان يكن ليس لكم باقامة الدعوة بمكة والمدينة حاجة فاصرفونا فانا قد بذل لنا الرغائب في اقامة الدعوة لغير امامكم بالحجاز ، ولم نجـد انسانا يكلمنا ونكلمه »[٢٢١].

(٢٠٨) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٩٥ .
ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ١٥٣ .
(٢٠٩) ماجد ، الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، ص ١٥٣
(٢١٠) سرور ، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، ص ١٩ .
(٢١١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ١١٦ .
(٢١٢) سرور ، المصدر السابق ، ص ١٩ .
(٢١٣) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٧٩ .
(٢١٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٠ .
(٢١٥) كتاب المنتقى ، ص ٧١ ـ ٧٣ .
(٢١٦) غالب ، مصطفى ، تاريخ الدعوة الاسماعيلية ، ط٢ ، بيروت (١٩٦٥م) ، ص ٢٤٥ .
المقريزى ، المصدر السابق ، ص ١٢٤ـ١٧٢ .
(٢١٧) المسبحي ، محمد بن عبيد الله ، أخبار مصر وفضائلها ، مخطوطة مصورة عن مكتبة الاسكوريال بمدريد رقم ٥٣٤ ، ورقة ١٣٩ .
(٢١٨) نفس المصدر ، ورقة ١٤٤ .
(٢١٩) نفس المصدر ، ورقة ٢٥٦ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ١٦٣ .
(٢٢٠) اتعاظ ، نفس المكان .
(٢٢١) المسبحي ، المصدر السابق ، ورقة ٢٥٦ .

ورغم ما تضمنه هذا النداء من انـذار للفاطميين بمحاولات العباسيين الخطبة لهم بمكة الا أنهم لم يجابوا بشيء[٢٢٢] فاضطر جمال الدولـة مظفر الصقلبي صاحب المظلـة أن يرسل للوفد ألف دينار من ماله الخاص[٢٢٣] فقبلوها قائلين « لا نأخذ الا ما يصلنا به أمـير المؤمنين ، وهـذه الصلة قد قبلناها والله مجازيك عليها ، ونحن نفرقها على ضعفائنا وعبيدنا ففرقوها عليهم »[٢٢٤].

ثم أخذ المصريون يعللون الوفد بالوعود ويماطلونهم حتى فاتتهم فريضة حج عام ٤١٥هـ[٢٢٥] ومع ذلك لم يعطوا الا نصف ما كان يعطي لهم سابقا . هذا فيما يخص الوفد ، أما أبو الفتوح فلم يرسل اليه شيء من مخصصاته كما هو متبع مع الوفد الحجازي وانما وعد بارسال ذلك عن طريق البحر[٢٢٦] .

لذلك غادر الوفد الحجازي مصر في أواخر سنة ٤١٥هـ . وكان رئيسه أحمد بن أبي العباس الفضل بن جعفر ساخطا غير راضي عن تلك المعاملة السيئة لأنه كما يقول المسبحي ـ وهو شاهد عيان ـ « لم يجد بمصر معينا »[٢٢٧].

ورغم تلك المعاملة السيئة للحجازيين من جانب الفاطميين ، ورغم تخفيضهم نفقـات الأماكن المقدسة الى النصف الا أن ولاء أشراف مكـة للفاطميين لم يتبدل ولم يصرفوا ذلك الولاء للعباسيين أو حتى يشركوهم فيه رغم ما بذل لهم من الرغائب كما جاء على لسان رئيس الوفد الحجازي الى مصر . بل ظلت مكة تدين بالولاء والطاعـة للفاطميين في عهد الظاهر وشطرا من عهد المستنصر حتى توفى أبو الفتوح سنة ٤٣٠هـ[٢٢٨].

ولعل ذلك يعود الى أسلوب الحكم الذي اتبعه الفاطميون في مكة ، ذلك أنهم تركوا للأماكن المقدسة وللأسرة الحاكمـة فيهـا تمتعها باستقلالها الذاتـي والداخلـي ، واكتفوا بالحصول على الخطبة[٢٢٩] والدعاء لهم في المناسبات ، وهذا على العكس من العباسيين الذين كانوا ينزعون دائمـا الى مد سيطرتهم المباشرة على الأماكن المقدسة وارسال ولاة يحكمونها من قبلهم .

شكر ابن أبي الفتوح وسقوط الأسرة الموسوية

وشكر هو تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح الحسن بن جعفر بن محمد[٢٣٠] . تولى امارة مكة بعد وفاة والده سنة ٤٣٠هـ[٢٣١] . وكان أميرا جليلا جوادا جميلا[٢٣٢] عظيم القدر[٢٣٣] . وكـان بطلا لا يلمه الضراب ورمحا لا تحطمه الحراب[٢٣٤] . تذكـر المصادر أنـه حكـم ثلاثـا وعشريـن

(٢٢٢) نفس المكان .
(٢٢٣) المقريزي ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ .
(٢٢٤) المسبحي ، المصدر السابق ، ورقة ٢٥٦ .
(٢٢٥) المقريزي ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ .
(٢٢٦) المسبحي ، تاريخ مصر وفضائلها ، ورقة ٢٦٧ .
(٢٢٧) نفس المكان .
(٢٢٨) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠٢ .
(٢٢٩) ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ٣٤٣ .
(٢٣٠) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٢ .
(٢٣١) ابن ظهيرة ، الجامع اللطيف ، ص ٨٩ . الأصبهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، دمشق (١٩٦٤م) ، جـ٣، ص ٧ .
(٢٣٢) الطبري ، اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٧ .
(٢٣٣) دحلان ، خلاصة الكلام ، ص ١٨ .
(٢٣٤) العمري ، مسالك الأبصار ، جـ٢٤ ، ص ١٢ .

سنة [٢٣٥]. وكانت له خلالها مع أهل المدينة خطوب ملك في أثنائها المدينة وجمع بين الحرمين [٢٣٦].

الا أن تلك المصادر كعادتها في تناول أحداث هذه الفترة لم تشر الى تلك الخطوب ولا الى السنوات التي جرت فيها والتي ملك في أثنائها المدينـة ، ولكي نصل بعـد استقراء الحوادث الى فترة محددة على وجه التقريب لامتلاك شكر للمدينـة وضمه للحرمين الشريفين يجب أن نتنـاول عهده بعد دراسة النصوص التي بين أيدينا على مرحلتين • المرحلة الأولى وهي التي سبقت هروبه الى مصر ثم مرحلة تالية بعد عودته من مصر •

ويبدو في المرحلة الأولى أن بعض الأشراف ستمروا التأييد المطلق للفاطميين الذي اتسم به عهد والده أبي الفتوح في أواخر حكمه والذي سار عليه شكر فيما بعد بل ان شكر بن أبي الفتوح غالى في ولائه للفاطميين حتى أدى به الأمر الى منع الحجاج العراقيين من تأدية شعائرهم الدينية في بعض السنوات[٢٣٧]• هذا الى جانب أن الفاطميين خفضوا من نفقاتهم على أشراف مكة الى النصف كما سبق أن أشرنا اليه مما أدى الى تذمر بعض الحسنيين في مكـة • لذلك حصل انشقاق فـي صفوف بني موسى الجون من الحسنيين ــ وهم الطبقة الحاكمة ــ بين مؤيد للفاطميين ويتزعمهم شكر بن أبي الفتوح أمـير مكة ، وبين معارض لسياسة شكر وأتباعـه تجاه الفاطميين ومؤيـد لعودة الخطبة لبنـي العباس[٢٣٨] ، وهـذا الفريق لقي تأييدا مـن بني عمهم آل جعفر ابن أبـي طالب[٢٣٩]• وقد استفحل هذا الانشقاق في صفوف أشراف مكـة حتى أنـه بـدا من الواضح أن الفريق المعارض أصاب بعض النجاح ، فاضطر شكر بن أبـي الفتوح الى الاستعانـة ببني عمـه الحسينيين[٢٤٠] حكام المدينة ، وأرسل لهم قصيدة يستثير بها هممهم ، ويطلب منهم الاتحاد لمقاومة أولئك الذين يريدون عودة النفوذ العباسي • ويذكرهم فيهـا بالمآسي التي أحلهـا بنو العباس بالعلويين • وقد حفظت لنا بعض المصادر تلك القصيدة التي يقول فيها[٢٤١] :

بنـي عمنـا الأدنين قومـوا تأملـوا ... غرائبَ ما يأتي به البغـيُ في الأهلِ
نسيتـمْ دمـاءً بالمدينـة أُهـدِرتْ ... وما كانَ في فـخٍ من الأسرِ والقَتلِ
فَميلُوا لهـم لا درَّ للـهِ درُّكـم ... وعَاطُوهُم كأسَ المودةِ والوصـلِ
وخَلّوا بنـي بنـتِ النبـي بجـانبٍ ... ولا تقصروا حتى تروا فرقـةَ الشملِ
وتأخذُكـمْ أيـدي الشتـاتِ ... وتخرُجوا منالحرمِ الشاميوالحرمالقبلي
وامّا أنـا مـا دامَ للسيفِ قـائـمٌ ... فَلاَ أشتَري عـزَّ العَشيرةِ بالذُّلِ
فـلا أرتَقي الا ذُرَى كـلِّ منبـرٍ ... ولا أرتضي الا الـذي يرتضي مثـلي
أمهـدُ للأبنـاءِ مـا يرتضونـهُ ... وأتبـع آبائـي الذينَ مضَوا قبلـي

الا أن الحسينيين لم يهرعوا لمساعدة شكر بن أبي الفتوح بـل منحوا مناصرتهـم للفريق المعارض الذي يرغب اعادة الخطبة لبني العباس[٢٤٢]•

(٢٣٥) الفاسي . شفاء الغرام . جـ٢ . ص ١٩٥ •
(٢٣٦) السخاوي . التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة . ص ٤٧٨ • ابن خلدون . العبر . ص ١٠٢ •
(٢٣٧) السباعي . تاريخ مكة . جـ١ . ص ١٨١ـ٨٢ •
(٢٣٨) العمري . مسالك الأبصار . جـ٢٤ . ص ١٢ •
(٢٣٩) نفس المكان •
(٢٤٠) نفس المكان •
(٢٤١) نفس المكان •
(٢٤٢) نفس المكان •

لذلك ساءت حالة شكر بن أبي الفتوح وادرك أنه لا قدرة له بمناجزة هـذا التحالف الذي تكون ضده من الطالبيين فخاف غلبـة الرجال وأسلم الحجاز ذاهبا الى مصر (٢٤٣) وقال :

قَوِّض خيامَك عن أرضٍ تُضَامُ بها وجَانِبِ الذلَّ ان الذلَّ مجتَنَبُ
وارحلْ اذا كان في الأوطان مَنقَصةٌ فالمندلُ الرطبُ في أوطانِه حطبُ (٢٤٤)

لذلك ذهب الأمير شكر الى مصر لمقابلـة الخليفة المستنصر وطلب مساعدتـه في العودة الى امارة مكة ، واعادة الخطبة لهم بها ٠ ويبدو أنه وصل اليها سنة ٤٤٠هـ لأن ناصر خسرو (٢٤٥) ذكر أنه صحب أمير مكة الى مصر في هذا العام ٤٤٠هـ/١٠٤٩م وأنه ركب معه الى مدينة القلزم (٢٤٦) ثم ساروا منها الى مصر ٠

ولم تكن المساعدة التي سيطلبها شكر من الفاطميين هيقوة عسكرية اذ أن الحملات السابقة التي شنت على مكة في عهد المعز والعزيز ثبت فشلها ٠ وانما المساعدة التـي يرغب شكر فـي الحصول عليها من الفاطميين هي مساعدة مالية وعن طريقها يستطيع أن يستعيد نفوذه في مكـة سواء بالاستعانة بقبائل البدو الذين يجرون وراء كـل ناعق أو بشراء ضمائـر بعض الأشراف المعارضين له وحملهم على موالاته ما دام أنه على استعداد لدفع مخصصاتهم على الرسم السالف ٠

ونستطيع بعد ذلك أن نستنتج أن الفاطميين فرضوا حصارا اقتصاديا على مكة بسبب موقفها المعادي من الأمير شكر وأنصاره الفاطميين وميولهم تجاه العباسيين وهذا الاستنتاج له ما يؤيده فقد حدث في سنة ٤٤٧هـ غلاء شديد بمكة المكرمة تعذر معه وجود الخبز فأشرف الناس والحجاج على الهلاك ٠ اما سبب ذلك فيعود الى عدم حمل الطعام من مصر الى مكة (٢٤٧) ٠ هذا مـن ناحية ومـن ناحية أخرى فان العباسيين لم يكن فـي استطاعتهـم انقـاذ مكـة واخـراجهـا مـن أزمتهـا الاقتصادية بسبب فوضى البويهيين والأتراك وخلافاتهم مع الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ)(٢٤٨) قبيل دخول طغرلبك الى بغداد كما سيأتـي ذكره ٠ فليس من المستبعد عندئذ أن يضطر المكيون نتيجة لهذا الحصار الاقتصادي الى الاستسلام والالتفاف حول أميرهـم شكر بن أبي الفتوح الذي عاد الى مكة في آخر هذا العام ٠

ويفسر عودة شكر والنفوذ الفاطمي الى مكة انقطاع حاج العراق عنها في سنة ٤٤٨هـ (٢٤٩)، هذا الى جانب الرفاه الاقتصادى الذي عاشته مكة في السنة التالية(٢٥٠) مما يشير الى اطلاق الأرزاق لها من مصر في ذلك العام ٠ وفوق هذا ما جاء في السجلات المستنصرية بأن أمير مكة في سنة ٤٤٨هـ هو تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح (٢٥١) كما سيأتي ذكره ٠

وبعد أن استقرت الأوضاع لشكر بن أبي الفتوح في مكة رأى أن يمد سيطرته على المدينـة المنورة ليثأر لنفسه من بني الحسين الذين ناصروا المعارضين لسياسته من بنـي موسى الجـون

(٢٤٣) العمرى ، مسالك الابصار ، جـ٢٤ ، ورقة ١٢ ٠
(٢٤٤) العيني ، عقد الجمان ، جـ١١ ، ورقة ٤٠ ٠ الاصبهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، جـ٣ ، ص ١٩ ٠
(٢٤٥) سفرنامة ، نقله الى العربية الدكتور يحي الخشاب ،
(٢٤٦) انظر : الحديث من القلزم في الباب الاقتصادى ، ط٢ ، بيروت (١٩٧٠م) ، ص ١١٣ ٠
(٢٤٧) الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٥٤ ٠
(٢٤٨) زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ص ٩ ٠
(٢٤٩) الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٥٥ ٠
(٢٥٠) نفس المكان ٠
(٢٥١) ماجد ، محمد عبد المنعم ، السجلات المستنصرية ، تحقيق ، القاهرة (١٩٥٤م) ص ٥٦ ٠

وبني جعفر بن أبي طالب قبل سفره الى مصر[٢٥٢] ٠ وليوطد للنفوذ الفاطمي بالدعوة لهم في مكـة والمدينة معا وليعيد طموح والده في توحيد البلاد الحجازية تحت زعامة شريف مكة ٠ لذلك جرت بينه وبين أهل المدينة الحسينيين خطوب كبيرة تمكن خلالها من امتلاك المدينة الشريفـة والجمع بين الحرمين المقدسين[٢٥٣] ٠

وتشير المصادر أن بين شكر هذا وبني هلال علاقة مصاهرة حيث يزعم الهلاليون أنه (أي شكر) تزوج الجازية أخت الحسن بن سرحان[٢٥٤] من أمراء الاثبج ٠ وهــو خبــر مشهور في أقاصيصهم وحكاياتهــم[٢٥٥] ورغــم أن هــذه الحكايات والأقاصيص أقرب الى الأسطورة منها الى الحقيقة الا أنها تعطي دليلا على وجود علاقــة بــين شكر وأولئك البدو ، فمن المحتمل أن يكون قد استخدمهم في بعض حروبه التي لم تنقطع طوال حياته[٢٥٦]٠

استقرت الأوضاع لشكر في الحجاز ومضى في اقامة الدعــوة للخليفـة المستنصر[٢٥٧] حتــى توفي في رمضان سنة ٤٥٣هـ[٢٥٨] ٠

---

(٢٥٢) العمري ، مسالك ، جـ٢٤ ، ص ١٢ـ١٣ ٠
(٢٥٣) الأصبهاني ، الخريدة « قسم شعراء الشام » ، ص ٧ ٠
(٢٥٤) خفاجي ، محمد عبد المنعم ، بنو خفاجه ، القاهرة (١٩٥٠م) جـ١ ، ص ١٧ ٠
(٢٥٥) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠٢ ، خفاجي ، المصدر السابق ، ص ١٧ ٠
(٢٥٦) العمري ، المصدر السابق ، ص ١٣ ٠
(٢٥٧) حسن ابراهيم ، الدولة الفاطمية ، ص ٢٢٩ ٠
(٢٥٨) العيني ، عقد الجمان ، جـ١١ ، ورقة ٤٠٠ ٠ الفاسي ، تحصيل المرام ، ورقة ٤١٦ ٠



الفصل الرابع

طبقة الهواشم

● الطيبون وبداية التدخل اليمني ● الهواشم والعلاقات المتأرجحة ● أوضاع الخلافتين العباسية والفاطمية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وأثر ذلك على علاقاتهما بمكة ٠

الطيبون وبداية التدخل اليمني

والطيبون فرع من بني سليمان بن عبد الله بن موسى الجون [١] ٠ وهم الذين اصطلح المؤرخون الذين يقسمون تاريخ مكة في تلك الفترة الى طبقات بأنهم الطبقة الثانية [٢] ، وأطلقوا عليهم لقب السليمانيين [٣] نسبة الى سليمان بن عبد الله الثاني كما أسلفنا ٠

وأول من تولى امارة مكة منهم هو أبو الطيب داود بن عبد الرحمن [٤] ، وكانت ولايته في مطلع القرن الخامس في الفترة التي كان فيها أبو الفتوح قد أعلن نفسه خليفة وخرج الى الرملة منازعا للحاكم الفاطمي [٥] ، فاضطر الأخير الى تعيين داود هذا أميرا على مكة ٠ فلما رجع أبو الفتوح الى مكة تنحى أبو الطيب عنها واسترجعها منه أبو الفتوح [٦] ٠

استكان بنو أبي الطيب ولم يطلبوا الامارة بعد ذلك حتى توفي شكر بن أبي الفتوح سنة ٤٥٣هـ ، ولم يخلف ولداً ذكراً يلي الامارة فانتهى أمر مكة الى عبد [٧] له لم تذكر المصادر اسمه أو أن شكرا عهد له بالامارة في حياته ، ولكنه استطاع أن يتقدم على أسياده بجميع طبقاتهم ٠ ولعل انقسام الأشراف على أنفسهم ساعده في اغتنام الفرصة والوصول الى سدة الحكم فخلقت تلك الحالة فوضى مريعة في مكة ذلك أن العلويين غضبوا من هذا الوضع وتمردوا على الأمير العبد ، وكان أشدهم غضبا بنو أبي الطيب الذين هاجموا مكة وانتزعوها منه [٨] ، فتولى امارتها منهم محمد بن أبي الطيب عبد الرحمن بن القاسم [٩] ، الا أن بني أبي الطيب هؤلاء لم يحسنوا السيرة ، فقد أشاعوا السلب والنهب في مكة وتجاوزوا ذلك الى أخذ ميزاب الكعبة

(١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١ ٠
(٢) دحلان ، خلاصة الكلام ، ص ١٦ وما بعدها ٠
(٣) القلقشندى ، نهاية الأرب ، ص ١٣٨ ٠
(٤) دحلان ، المصدر السابق ، ص ١٧ ٠
(٥) الداودي ، عمدة الطالب ، ص ١٠٩ ٠
(٦) غازي ، افادة الأنام ، جـ٣ ، ص ٦٢ ٠
(٧) دحلان ، المصدر السابق ، ص ١٨ ٠
(٨) غازي ، المصدر السابق ، ص ٦٣ ٠
(٩) غازي ، افادة الأنام ، جـ٣ ، ص ٦٢ ٠

وتعريتها من الكسوة [١٠] ، كما نهبوا حلية البيت وذهب بها بعضهم الى اليمن [١١] .

ولم يكن في وسع كل من العباسيين والفاطميين التدخل لاقرار الأمور في مكة بسبب الظروف المحيطة بكل من الدولتين ففي بغداد كان طغرلبك منشغلا بتصفية حسابه مع بقايا الأتراك والديالمة بعد دخوله بغداد للمرة الثانية على أثر ثورة البساسيري [١٢] . أما الفاطميون فلم يستطيعوا التدخل مباشرة بسبب تورط مصر في الفتنة التي نشبت بين العبيد والأتراك في ذلك الوقت [١٣] .

لذلك تلقى علي بن محمد الصليحي موافقة الخليفة المستنصر بالتدخل في مكة وفرض سيادته عليها ، فأظهر الصليحي استعداده لتلك الغاية [١٤] . ولم تكن هذه أول صلة للصليحي بمكة وأمرائها من الأشراف ، ذلك أن الصليحي بعد أن تم له توحيد اليمن والسيطرة على تهامة تطلع الى الحجاز والأراضي المقدسة لأنها أقرب البلاد الى اليمن ، وأهمها في نظر المسلمين وأحوجها الى استقرار الحكم وحسن الادارة فيها . فكتب الى الخليفة المستنصر يستأذنه في السيطرة على مكة واخذها من شكر ، الا أن الخليفة بعث اليه سجلا في رجب سنة ٤٤٨هـ ينهاه عن التعرض لتاج المعالي شكر بن أبي الفتوح لما « ترعاه الحضرة لهذا الشريف من حرمة النسب وتوجبه من حق اللحمة والسبب وتراه من صلة الرحم وتؤثره من حفظ النعم جريا على عادة السلف في الفضل والكرم [١٥] » .

وكان اخلاص الصليحي للدعوة الفاطمية وتفانيه في رضى الامام بمصر يحتمان عليه أن يمتثل أوامره صاغرا [١٦] . لذلك كف عن التدخل في شئون الحجاز بل حسن علاقته بالأمير شكر وأبدى معه تعاونا جعل الأمير يكتب للخليفة المستنصر مثنيا على الجهود المشكورة التي يبذلها الصليحي لمساعدته في تذليل الصعاب التي تعترضه في سبيل استقامة أمور الحرم [١٧] .

لذلك أصدر الامام المستنصر سجلا لعلي بن محمد الصليحي [١٨] سنة ٤٥٠هـ يشكره على تعاونه مع أمير مكة ويبارك جهودهما الرامية الى احلال السلام في حرم الله الآمن .

على أن هذه العلاقات الطيبة بين الصليحي وشكر لم تلبث أن ساءت بين الأميرين ربما بسبب السيطرة على منطقة حلي بن يعقوب ، لذلك تبودلت بين الطرفين مراسلات تنطوي على كثير من التهديد والوعيد [١٩] .

---

(١٠) سبط ابن الجوزي ، **مرآة الزمان** ، مخطوطة : طوبقابو سراي برقم ٢٦٠٧ « اسطانبول » جـ١٢ ، ورقة ٨٨ .

(١١) المقريزي ، **اتعاظ الحنفا** ، جـ٢ ، ص ٢٦٩ .

(١٢) أبو الفداء ، **المختصر** ، جـ٢ ، ص ١٧٨ـ٧٩ .

(١٣) المقريزي ، المصدر السابق ، ص ٢٦٥ وما بعدها .

(١٤) الهمداني ، حسين فيض الله ، حسن سليمان محمود ، **الصليحيون والحركة الفاطمية** ، طبع القاهرة ، ص ٨٨ . الصليحي هو أبو الحسن علي بن محمد مؤسس الدولة الصليحية ، وأحد من ملك اليمن عنوة ، وأقام لنفسه مجدا بها ، كان ابوه شافعي المذهب ، وكان علي على مذهب أبيه فاستماله عامر الرواحي احد دعاة الفاطميين الى مذهبهم . فأخذ يجمع المؤيدين والانصار ثم لم يلبث ان امتنع بجبل مسار سنة ٤٢٩هـ فتكاثر جمعه فلم تحن سنة ٤٥٥هـ حتى ملك اليمن كله واتخذ صنعاء عاصمة له ثم أخذ يدعو للمستنصر في اليمن وخارجها حتى وافته منيته وهو في طريق الحج سنة ٤٥٩هـ فتوفي مقتولا على يد سعيد الأحول بن نجاح ، فولى بعده ابنه أحمد بن علي الملقب بالمكرم . أنظر : الحمادي ، **كشف** ، ص ٤٢ ، الزركلي ، **الأعلام** ، جـ٥ ، ص ١٤٧ـ٤٨ .

(١٥) ماجد ، **السجلات المستنصرية** ، ص ٥٦ .

(١٦) الهمداني ، **الصليحيون والحركة الفاطمية** ، ص ٨٨ .

(١٧) ماجد ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(١٨) نفس المكان .

(١٩) الهمداني ، المصدر السابق ، ص ٨٩ .

ومن تلك المراسلات قصيدة للشريف شكر بن أبي الفتوح بعث بها الى الملك علي بن محمـد الصليحي جاء في أولها :

لتَغليقَ' الجماجـم والـرؤوس واقحامي خَميساً في خَميسِ [٢٠]

فأجابه الشاعر عمرو بن يحي الهيثمي على لسان علي بن محمـد الصليحـي ردا على الشريف شكر بقصيدة طويلة على نفس القافية والروي [٢١] وقد انطوت هذه القصيدة على كثير من التهديد والوعيد . ثم كتب الى الامام المستنصر يستأذنه في ازالة الشريف عن مكة ليكون أمرها اليه . الا أن الخليفة كتب اليه ينهاه عن ذلك بقوله « اياك أن تلقى الله بدماء بني فاطمة [٢٢] » فاستجاب الصليحي لأوامر امامه وصبر حتى تواتيه الفرصة لفرض سيطرته على مكة .

فلما مات شكر بن أبي الفتوح وانتشرت الفوضى في مكة بعد مجـيء الطيبـين خشي الخليفـة المستنصر أن تؤدي تلك الفوضى الى خروج نفوذهم منها ، لذلك سمح لعلـي بـن محمد الصليحـي بتأدية فريضة الحج واقرار الأمور في مكة المكرمة .

فغادر اليمن متوجها الى مكـة ومعه ملوك اليمـن وزعمـاؤهـا [٢٣] ، فوصلهـا في سادس ذي الحجة سنة ٤٥٥هـ ، وانتزعها من بني أبي الطيب [٢٤] ، وأجبرهم على الخروج منها [٢٥] .

وبعد أن أتمّ شعيرة الحج ، أخرج للبيت واقامة حرمه ومناسكه ما يفوق حد التصور [٢٦] ، واستعمل الجميل مع أهل مكة [٢٧] ، وعامل الناس بالحسنى ، وأظهر العدل والاحسان ، وعمل على استمالتهم الى جانبه بما أنفقه من الأموال [٢٨] . فطابت قلوب الناس وأمن الحج أمنا لم يعهـد مثله لاقامة السياسة والهيبة حتى كانوا يعتمرون ليـلا ونهـارا ، وأموالهـم محفوظـة ورجالهـم

---

(٢٠) عماد الدين ، ادريس ، عيون الأخبار . مخطوط بالمكتبة المحمدية الهمدانية اعتمدت على نصوص منشورة كملاحق في كتاب « الصليحيون والحركة الفاطمية » . جـ٧ ، ص ١٢ .

(٢١) وقد جاء فيها :

دم الأبطال في اليوم العبوس مدامي لا شراب الخندريس
ولهوي بالشبيج اذا تلاقى الوشيج بمعرك حامي الوطيس
أحب الى من نغمات عود وصادحة تغرد عيطموس

الى ان قال :

بني حسن ألا تنهون شكرا عن استمطاره سحب النحوس
أتاني السب عنه وقال : اني اذا اقسمت أحلف بالمجوس
الى قسم لقي أبي تميم وأسرته البدور من الشموس
متى أذن الامام بحرب شكر اتته بالردى خيلي وعيسي
بني حسن حذار ، اذا اتتكم جنود الله بالخطب الشموس

وهي قصيدة طويلة جاء نصها الكامل في عيون الأخبار ، جـ٧ ، ص ١٧ـ١٩ انظر : الهمداني ، الصليحيون ، ص ٨٩ .

(٢٢) ادريس ، المصدر السابق ، ص ١٧ـ١٩ .

(٢٣) العيني ، عقد الجمان ، جـ١١ ، ص ٤٦ .

(٢٤) غازى ، افادة الأنام ، جـ٢ ، ص٦٣ .

(٢٥) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٩٦ .

(٢٦) ادريس ، عيون الأخبار ، جـ٧ ، ورقة ١٩ .

(٢٧) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٧٢ .

(٢٨) بامخرمة ، أبو محمد ، تاريخ ثغر عدن ، ليدن (١٩٣٦م) ، ص ١٦١ .

Al-Hamdani, Hussain. Letters of Al-Mustansir, Bulletin school of Oriental Studies, (1934), Part VII. P. 324.

محروسة [٢٩] ، كما عمل على جلب الأقوات فرخصت الأسعار وعم الرخاء [٣٠] • وفوق هذا فقد عمل على تاديب القبائل التي كانت تعتدي على الحاج [٣١] ورد مـا أخذه بنو أبـي الطيب مـن حلى الكعبة وغيره بعد أن فداه منهم ، وكانوا قد نهبوا الكعبة لما ملكوا مكـة [٣٢] بعد وفـاة شكر كما أسلفنا • ثم عمل على اصلاح ما أفسده الأشراف فكسب بحسن سياسته رضاء امامه وثقة كثير من أهالي البلاد لما قدمه من خدمات لحجاج المسلمين عامة [٣٣] ، وما قام به من كسوة الكعبة بالديبـاج الأبيض [٣٤] وكان شعار الدولة الفاطمية [٣٥] وما عمله من اشاعة الأمـن والرخـاء لهذه البقعـة الطاهرة فلهجت الألسنة له بالدعاء [٣٦] •

استمر الصليحي في مكة الى شهر ربيع الأول سنة ٤٥٦هـ فخاف المكيون أن يطمع في مكة ويحكمها حكما مباشرا الأمر الذي يهدد استقلالهم الذي حققوه طيلة قرن كامل من الزمان• فتجمع الحسنيون وتفاوضوا مع الصليحي في مستقبل الحكم في مكة وقالوا له : « اخرج من بلدنا ورتب منا من تختاره » [٣٧] فقبل الصليحي هذا العرض الذي تقدم به الحسنيون ربما لخوفه منهم لأنهم بدأو يتجمعون ويهددونه في مكة [٣٨] ، أو لخوفه من الوبـاء الذي تفشى بين جنده [٣٩] أو لوجـود ثائر خرج عليـه باليمن وأصبح خطـرا يتهدد مملكته [٤٠] • لذلك أنصاع لمـا طلبـه الحسنيون ووقع اختياره على محمد بن جعفر بن أبي هاشم فاستدعاه من بطن مر [٤١] وولاه امارة مكة نيابة عنـه [٤٢] ، وأعطاه مالا وسلاحا وترك له خمسين فرسا [٤٣] ، ثم قفل راجعا الى صنعاء [٤٤]•

أما لماذا اختار الصليحي محمدا هذا وهو من طبقة لم يسبق لها الحكم ، تاركا اختيار أي أحد من الموسويين أو من السليمانيين الذين كـانوا يتداولون حكم مكـة ؟ فهذا ما لا نعرفـه على وجه التحقيق • ولكن يبدو أن الصليحي اختار محمد بن جعفر أولا وقبل كل شيء لكفاءته الذاتية وشجاعته [٤٥] ، ولأنه زوج تاج الملك ابنة شكر أبي الفتوح [٤٦] من أمراء مكة السابقين ، وفي هذا ارضاء بطريقة غير مباشرة للموسويين أصحاب الحق الشرعي في امارة مكة بالاضافة الى أن نقل الامارة الى بيت جديد غير بيت السليمانيين والموسويين سيضع حدا للنزاعات المتكررة التي كانت تقوم بين البيتين ، لذلك رأى أن نقل الامارة الى الهواشم سيوقف حـدة الصراع بـين الطبقتين السابقتين ويقضي على تنافسهما • ووقف الصراع الحربي في مكـة سيؤدي بدوره الى الاستقرار السياسي فيها • لذلك قبـل الحسنيون رأى الصليحي في تنصيب محمد بن جعفر أميرا عليهم

(٢٩) العيني ، عقد الجمان ، جـ١١ ، ص ٤٦ •
(٣٠) بامخرمة ، المصدر السابق ، ص ١٦١ •
(٣١) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٩٦ • الفاسي ، تحفة الكرام ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٤٦ ، ص ١٨٨ •
(٣٢) الصباغ ، تحصيل المرام ، ص ٢١٧ •
(٣٣) الهمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية، ص ٩١ •
(٣٤) كتاب المنتقى ، في اخبار أم القرى ، طبع اوروبا ضمن مجموع بعنوان اخبار مكة المشرفة ، جـ٢ ، ص ٥٤ •
(٣٥) المقريزى ، الذهب المسبوك ، ص ٦٦ •
(٣٦) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٩٦ •
(٣٧) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٩٦ •
(٣٨) الطبرى ، اتحاف فضلاء الزمن ، ورقة ٩ •
(٣٩) غازى ، افادة الأنام ، جـ٣ ، ورقة ٦٤ •
(٤٠) ماجد ، السجلات المستنصرية ، ص ٣٩ •
(٤١) الطبرى ، الارج المسكي ، ورقة ٨٤ •
(٤٢) الصباغ ، تحصيل المرام ، ورقة ٢١٨ •
(٤٣) نفس المصدر ، ورقة ٢١٧ •
(٤٤) الهمداني ، الصليحون والحركة الفاطمية ، ص٩٢ •
(٤٥) العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٢٤ ، ورقة ٩ •
(٤٦) الداودى ، عمدة الطالب ، ص ١١٠ •

ما دام أن ذلك سيحول دون السيطرة المباشرة للصليحيين ٠

وهكذا فان الحسنيين حينما يمدون أيديهم الى يـد محمد بـن جعفر لمبايعتـه أميرا عليهـم ويجمعون على اختيـاره لهـذا المنصب رغـم كراهيتهم له فانما يضعون أمام أعينهم مصلحة أهـم واقوى من مصالحهم الذاتية الا وهي استقلال بلدهم ٠ وعدم اتاحـة الفرصة لأي سلطـة تحكمـه حكما مباشرا ٠

الهواشم والعلاقات المتارجحة

والهواشم بطن من بني الحسن السبط [٤٧]، ينسبون الى أبـي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون[٤٨] ٠٠٠ وكان أول من تولى منهم امارة مكة محمد بن جعفر بن أبي هاشم نيابـة عن علي بن محمدالصليحي الذي عاد الى اليمن كما تقدم ٠ غير أن موافقة الأشراف السليمانيين على تولية بن أبي هاشم امارة مكة لم تكن الا موافقة صوريـة أرادوا بها صرف الصليحي عن مكة ، حتى اذا عاد الى اليمن وخلا لهم الجو قلبوا لأبي هاشم ظهر المجن، وانتقضوا عليه ، وأجبروه على الخروج من مكة [٤٩]٠ ونصبوا حمزة بـن وهاس بن أبـي الطيب أميرا عليهم [٥٠] ٠ بيد أن كرسي الامارة لم يصف للأمير السليماني ذلك أن محمد بن جعفر توجه الى ينبع [٥١] ، وجمع جموعه وعاد الى مكة فهاجمها [٥٢]، فتصدى له بنو ابي الطيب السليمانيون فنشبت بينهم وبين أنصار أبي هاشم معركة حامية هزم محمد بن جعفر في بدايتها [٥٣]، ولكنه لم يلبث أن كر عليهم فأبدى شجاعة فائقة في قتالهم حتى انه ضرب رجلا منهم بسيفه فقطع درعه وجسده ووصل الى الأرض، فدهشوا لذلك [٥٤] ٠ ويبدو أن هذا الرجل كان من أحد قادتهم اذ بموته لم تقم لهم قائمة فانهزموا ، ورجعوا عن محمد بن جعفر [٥٥] ٠ الذي أصبح طريقه مفتوحا الى مكة حيث دانت له بالطاعـة [٥٦] ٠ وخطب للخليفـة المستنصر بالله الفاطمي [٥٧] ٠

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان محمد بن جعفر لم يرض عن ولائه للصليحي وحكمه مكه نائبا عنه ، سيما وأن استردادها هذه المرة تم بجهود هاشمية بحته دون أدنى تدخل من جانب الصليحيين ، لذلك نبذ طاعـة اليمنيين وأعلن استقلاله بمكة عنهم ، وفوق هذا فقد قام بهجوم على مدينة حلي بن يعقوب فاحتلها سنة ٤٥٦هـ واستولى على ما بها من متاع للصليحي [٥٨]، فأكد له بذلك نواياه في الاستقلال وأنه لن يتخلى له عن شبر من الأراضي التي كانت تتبع مكة فـي عهد أسلافه ومنها حلي [٥٩] ٠

(٤٧) القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ١٦٢ ٠
(٤٨) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤١ـ٤٢ ٠
(٤٩) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ١ ، ص ٤٣٩ وما بعدها ٠
(٥٠) دحلان ، خلاصة الكلام ، ص ١٩ـ٢٠ ٠
(٥١) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٩٦ ٠
(٥٢) دحلان ، المصدر السابق ، ص ٣٠ ٠
(٥٣) الطبري ، الأرج المسكي ، ص ٨٤ ٠
(٥٤) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ٤٣٩ ٠
(٥٥) الطبري ، الأرج المسكي ، ص ٨٤ ٠
(٥٦) العصامي ، سمط النجوم العوالي ، جـ٤ ، ص ١٩٩ ٠
(٥٧) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠٣ ٠
(٥٨) ادريس ، عيون الأخبار ، جـ٧ ، ص ٢٣ ٠ الهمداني ،الصليحيون والحركة الفاطمية ، ص ٩٣ ٠
(٥٩) كانت حلي منطقة نزاع بين أمراء مكة وملوك اليمن طوال العصور الاسلامية ٠ انظر : العصامي ، سمط النجوم ، جـ٤ ، في أماكن متفرقة ٠

وكعادة الصليحي في عدم ابرام أي أمر ولاسيما فيما يتعلق بالحرم الا بعد استشارة امامه ، واخذ موافقته ، فقد كتب للمستنصر يشتكي فعل أمير مكة ، ويستأذنه في السير اليه ومحاربته ، الا أن الخليفة المستنصر كان يعز عليه أن تنتهك لحرم الله ستوره (٦٠) ٠ فكتب الى الصليحي سجلا يهدىء فيه من روعه تجاه أمير مكة ويقول : « وتصف استشراف متولى مكة ــ حرسها الله ــ الى حلي لما لك من الأمتعة والأقوات ، فانك تستخير الله تعالى وتتوخى له مقدما للأعذار واللين في المقال ان نجع أو أثر والا حاكمته الى الله وهو خير الحاكمين » (٦١) ٠

ولم يكن الخليفة المستنصر يهتم بتبعية مكة للصليحي أو للأشراف ما دامت تعترف بامامته وتخطب له ، بل ان المستنصر يفضل بقاءها في يد الأشراف لأن التجارب الفاطمية السابقة اثبتت أن الحجاز لا يمكن السيطرة عليها عن طريق القوة ، هذا الى جانب ما يحصل عليه الفاطميون لقاء تأييدهم لأشراف مكة من اعترافهم بنسبهم وأنهم من ذوي قرابتهم كما يظهر في خطبهم ومراسيمهم (٦٢) ٠

غير أن محمد بن جعفر لم يلبث أن حول ولاءه للعباسيين ، وخطب باسم الخليفة العباسي القائم في موسم سنة ٤٥٨هـ (٦٣) ٠ فانتهز علي بن محمد الصليحي هذه الفرصة لاستعادة سيطرته على مكة ، فارسل في صفر سنة ٤٥٨هـ (٦٤) وفدا الى الخليفة المستنصر يتكون من القاضي عمران بن الفضل ونجيب بن عفير ويوسف بن محمد وعنتر بن عشم (٦٥) ، وذلك للمفاهمة معه في السماح للصليحي بالحج الى مكة لكي « يقضي على الفساد الذي حل بالحرم المعظم ، ويقوّم مناره ، ويقيم للعدل عماده ويعمر طرقه للسفر ويطهرها من المفسدين (٦٦) » ٠

ولم يكن هناك ما يمنع المستنصر من الموافقة على طلب الصليحي ما دام أن ابن أبي هاشم حول ولاءه للعباسيين وخطب لخليفتهم ، فأصدر سجلا لعلي بن محمد الصليحي في ربيع الأول سنة ٤٥٩هـ تضمن موافقة المستنصر على طلبه مبديا فيه نصحه له بمعالجة الأمور بحكمة ، وحرصه على تجنب انتهاك الأماكن المقدسة ، وعدم اراقة دماء العلويين ، وأن يتجنب الفتنة ما استطاع الى ذلك سبيلا ٠ ومما جاء في هذا السجل « وحقيق أن يقيض الله اصلاحه ــ وهو خير البقاع ــ على يديك ، وانت خير من لحظته عين الامامة بالاصطناع ٠ سوى أن أمير المؤمنين يشفق من وقوع جرح على جرح ٠٠٠ بتصدى قوم لقتالك ، اذا رأوك عليه مطلا فيحدث حادث فساد ، قتالا وقتلا ، وما يؤثر أمير المؤمنين أن يوجد من ذلك مثقال ذرة ، ولا ينال طالبينا خاصة وخز ابرة ٠ وان أمكنك ذلك المكان ، بتأليف القلوب ، وتجنب سورة الحروب ، فوابرد ذلك على الأكباد ، انه لآية المراد ، وغاية قصد القصاد » (٦٧) ٠

عاد رسل الصليحي الى اليمن فوصلوا صنعاء ومعهم هذا السجل في رجب سنة ٤٥٩هـ (٦٨) ٠ وما ان تلقى الصليحي موافقة امامه تلك حتى بدأ يتجهز للذهاب الى مكة لتادية فريضة الحج (٦٩) ، وانتزاع مكة من أيدي الهواشم ، وفرض سيادته المباشرة عليها ٠ وبعد أن

(٦٠) ماجد ، **السجلات المستنصرية** ، ص ٤٩ ٠
(٦١) نفس المصدر ، ص ٤٠ ٠
(٦٢) انظر خطبة الأمير أبي الفتوح ص ٥٢ من هذا البحث ٠ وحديث الأشراف لمحمد ابن جعفر ص ٩٦ ٠
(٦٣) القلقشندي ، **صبح الأعشى** ، جـ٤ ، ص ٤٥٨ ٠
(٦٤) ادريس ، **عيون الأخبار** ، جـ٧ ، ص ٧٨ ٠ الهمداني ، **الصليحيون والحركة الفاطمية** ، ص ٩٦ ٠
(٦٥) ادريس ، نفس المكان ٠
(٦٦) نفس المصدر ، ص ٨٠ وما بعدها ٠
(٦٧) نفس المصدر ، ص ٨٢ـ٩٦ ٠ انظر ملحق رقم ٤ ، **الصليحيون والحركة الفاطمية** ، ص ٣٠٦ ٠
(٦٨) نفس المكان ٠
(٦٩) العقيلي ، محمد بن احمد ، **من تاريخ المخلاف السليماني** ، جـ١ ، ص ١١٦ ٠

استكمل استعداداته توجه الى مكة المكرمة في أواخر سنة ٤٥٩هـ (٧٠) بعد أن استخلف ابنه أحمد المكرم على ملكه (٧١) باليمن ، وعهد اليه برعاية شئون البلاد ، واصطحب معه زوجته أسماء بنت شهاب (٧٢) ، وكانت من حرائر النساء بحيث كان يقصدها الشعراء لمديحها ويخطب لها مع زوجها (٧٣) . وقد احتوى ركب الصليحي على ألفي فارس (٧٤) وجميع آل الصليحي وغيرهم من ملوك اليمن (٧٥) . وقد سار بهم جميعا مخافة أن يغيروا على ولده المكرم بعد سفره . كما احتوى ركبه على كثير من مظاهر الأبهة وضروب الزينة التي لا تنحصر (٧٦) .

فلما وصل الى المهجم (٧٧) نزل في ضيعة تعرف بأم الدهيم وبئر أم معبد فنصب خيامه فيها وحوله عساكره والملوك الذين كانوا معه (٧٨) . وقد تخففوا من أسلحتهم وعددهم وركنوا بعد ذلك السفر المضني الى الدعة والاستجمام (٧٩) ، فما شعروا الا وقد داهمهم سعيد الأحول بن نجاح (٨٠) في يوم السبت الحادي عشر من ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ ، في سبعين رجلا من قومه الأحباش ليس معهم من السلاح الا الحراب (٨١) ، فأخذوا ركب الصليحي على غرة (٨٢) وقتلوا على بن محمد نفسه وأخيه عبد الله وسائر من معهما من آل الصليحي (٨٣) . وصالح بقية العسكر وقال لهم : « انما أخذت بثاري » (٨٤) . ثم استحوذ على جميع ما كان مع الصليحي من الأموال والذخائر وآنية الذهب والفضة وغيرهما من أدوات الزينة (٨٥) . ثم عاد الأحول الى زبيد ، ومعه رأس الصليحي وأخيه عبد الله وزوجته أسماء بنت شهاب في هودجها وقد أوكل حرسا خاصا بها (٨٦) . وهكذا انتهى بقتل على ابن محمد الصليحي ما كان قد بيته لمحمد بن جعفر بن أبي هاشم تحت ستار قطعه الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي وصرفها عنه الى القائم العباسي كما أشرنا الى ذلك فيما سبق .

غير أن محمد بن أبي هاشم لم يلبث بعد أن لامه أهله على سوء تصرفه أن أعاد الخطبة للخليفة المستنصر سنة ٤٥٩هـ (٨٧) . ورغم أن الخطبة أعيدت للخليفة الفاطمي ولما يمض عليها سنة الا أن هذه البادرة من محمد بن جعفر أعادت الأمل للخلافة العباسية وشجعتها في العمل بصورة جدية للتمكن من مشاركة الفاطميين نفوذهم في مكة فأخذ الخليفة القائم يخاطب محمد بن جعفر ويعاتبه ، ويبذل له الأموال حتى خطب له في موسم سنة ٤٦٢ (٨٨) ، ورغم ذلك فقد كتب الأمير الهاشمي الى الخليفة المستنصر معتذرا (٨٩) . الا أن الخليفة الفاطمي لم يلتفت لشئون مكة

---

(٧٠) بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ١٦١ .
(٧١) نفس المكان .
(٧٢) عمارة ، تاريخ اليمن ، ص ٥٥ .
(٧٣) بامخرمة ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .
(٧٤) ابن الديبع الشيباني ، بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد ، مخطوطة جامعة الرياض برقم ١٣٥٠ ، ص ٢٣ .
(٧٥) ابن القاسم ، غاية الأماني ، قسم ١ ، ص ٢٥٦ .
(٧٦) بامخرمة ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .
(٧٧) كانت مدينة عامرة من امهات مدن الجزء الشمالي من تهامة اليمن .. كان بها مسجد عظيم يحتوى على ثلاثمائة قبة لم تبق الا منارته المشرفة على الانهيار . أنظر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٧٥ .
(٧٨) ابن القاسم ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦ .
(٧٩) العقيلي ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .
(٨٠) نفس المصدر ، ص ١١٧-١١٨ .
(٨١) المقريزى ، الذهب المسبوك ، ص ٦٦ .
(٨٢) نفس المكان .
(٨٣) عمارة ، تاريخ اليمن ، ص ٥٥ .
(٨٤) العقيلي ، المخلاف السليماني ، جـ١ ، ص ١١٨ .
(٨٥) بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ١٦٣ .
(٨٦) العقيلي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١١٨ .
(٨٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١
(٨٨) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠٣ .
(٨٩) القلقشندى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٠-٢٧١ .

لشغله بنفسه ورعيته من عظم البلاء الذي[٩٠] حل بمصر ٠

ولا غرو في ذلك فقد أحاطت بكل من الخلافتين العباسية والفاطمية ظروف معينة منذ منتصف القرن الخامس ، ولعبت دورا بارزا في ميزان القوى لكل من الدولتين ، وبالتالي أوجدت تحولا كبيرا في علاقات الحجاز لصالح العباسيين ، وهذا ما سنتحدث عنه في الصفحات التالية ٠

اوضاع الخلافتين العباسية والفاطمية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وأثر ذلك على علاقاتهما بمكة

أصبح الخليفة العباسي القائم في العقد الرابع من القرن الخامس مجرد شبح من أشباح الماضي العريق يحمل اسم الخلافة العباسية ، وكان تدبير أمور الدولة بيد الأمراء البويهيين يولون الخلفاء ويعزلونهم متى شاءوا هذا الى أنهم كانوا من غلاة الشيعة الذين لا يعتقدون بشرعية الخلافة العباسية ، لذلك فهم يشكلون خطرا على الدولة العباسية المتداعية لوهب أحدهم لمناصرة ذوي مذهبهم من شيعة مصر الفاطميين ٠ وهذا ما تبناه أحد القادة الأتراك في عهد الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه ، ويدعى أبا الحارث البساسيري[٩١]، فقد تغلب على دار الخلافة ببغداد[٩٢] وأعمل فيها القتل والسلب والنهب ، وكاتب الخليفة الفاطمي المستنصر لاقامة الدعوة له ببغداد[٩٣] ٠

وهكذا تعرضت الخلافة العباسية لأزمة خطيرة كادت تودي بحياتها وتمحوها من الوجود ، لذلك نري الخليفة القائم يرتمي في أحضان السلاجقة الأتراك ويستعين بزعيمهم طغرلبك[٩٤] لانقاذه من محنته ، كيف لا وهو يعتنق مذهب السنة والجماعة الذي تدين به الدولة العباسية ولا يؤمن بآراء الشيعة في أمر الخلافة ٠ فخطب له في مساجد بغداد في رمضان سنة ٤٤٧هـ[٩٥]، وأذن للزعيم السلجوقي في دخول بغداد فدخلها على رأس جيشه عازما المحافظة على استقلال الخليفة القائم[٩٦] الذي استقبله في موكب عظيم ٠ وبدخوله دالت دولة بني بويه الديالمة وقامت على انقاضها الدولة السلجوقية ٠

وعندما عاد طغرلبك الى الشرق لاخماد بعض الحركات المتمردة على طاعته ثار البساسيري مرة ثانية على الخلافة العباسية ، ولكن طغرلبك لم يلبث أن عاد الى بغداد فتغلب على البساسيري وقتله[٩٧]. وهكذا اكتسبت الخلافة العباسية قوة جديدة من الأتراك السلاجقة فأدى ذلك الى انتعاشها ، واستعادة قوتها وهيبتها ، وأصبح مركزها قويا ولا سيما في عهد السلطان الب ارسلان ، وأصبحت قادرة على الصمود أمام عدوتها اللدود الخلافة الفاطمية التي شذبت أطرافها وهددتها في عقر دارها ٠ وتمكنت من استعادة هيبتها ونفوذها في مكة سيما وأن السلاجقة أعلنوا من الوهلة الأولى على لسان طغرلبك سياستهم تجاه الأماكن المقدسة عندما قدم بغداد حيث أظهر أنه يريد الحج واصلاح طريق مكة والمسير الى الشام ومصر وازالة المستنصر العلوي صاحبها[٩٨] ٠ لذلك لا غرابة اذا حدث تحول في علاقات مكة لصالح العباسيين منذ العقد السادس

(٩٠) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٨٤ ٠

(٩١) انظر ترجمته في كتاب الأعلام للزركلي ، جـ١ ، ص ٢٨٦ ٠

(٩٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٩٢ ٠

(٩٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٢ ، ٦٢ ٠

(٩٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٨ ، ص ٧٠-٧١ ٠

(٩٥) ابو الفداء ، المختصر ، جـ٢ ، ص ١٧٣ ٠

(٩٦) رايس ، تامارا ، السلاجقة ٠ تعريب لطفي الخوري واخرين ، بغداد (١٩٦٨م) ص ٢٨ ٠

(٩٧) ابو الفداء ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ ٠

(٩٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٨ ، ص ٧١ ٠

من القرن الخامس الهجري ·

وفي مقابل هذا الانتعاش الذي أصاب الخلافـة العباسية تردت الخلافـة الفاطمية وأصيبت بانتكاسة شديدة نتيجة السنوات العجاف التـي حلت بمصر ابتداء من سنة ٤٤٤هـ [٩٩] ، حيث عم الوباء والقحط وانقطع فيضان النيل فاهملت الزراعة وشح الطعـام وانتشرت المجاعة تبعـا لذلك وعم الوباء [١٠٠]، وامتدت تلك المحنـة ثمان سنوات من سنة (٤٤٦ ـ ٤٥٤هـ)[١٠١] عدمت خلالها الأقوات حتى آكل الناس الكلاب والقطط بل بلـغ بهم الحـد الى آكل بعضهـم بعضـا[١٠٢] وانتشر الموت حتى وصل الآلاف في بعض الأيام[١٠٣] · وفوق ذلك فقد انحلت السلطة السياسية وسادت الفوضـى وكثر تعيين الوزراء واقالتهـم حتى بلغ من تقلد الوزارة أربعين وزيرا في تسع سنوات · ولم تكد تتحسن أحوال مصر حتى عاد القحط والغلاء من جديد في سنة ٤٥٩هـ[١٠٤]· وانتقلت الحالة من سيء الى أسوأ · واقترنت هذه الشـدة التـي اصطلح المؤرخون على تسميتهـا « الشدة العظمى[١٠٥]بقيام الفتن والحروب الأهلية التي استمرت الى سنة ٤٦٤هـ · ومن أهمهـا تلك التـي نشبت بين الأتراك والعبيد وكانت الغلبـة فيهـا للأتراك رغـم رعايـة أم المستنصر للعبيد[١٠٦] · فاستفحل أمرهم بقيادة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبي ، وأخذوا يطالبون الدولة بزيادة أعطياتهم حتى بلغت في عام ٤٦٠هـ اربعمائة ألف دينار في كل شهر بعد أن كانت ثمانية وعشرين ألف دينار [١٠٧] · فاستنزفت تلك الأعطيات جميع موارد البلاد ، ومع هذا لم يقنع الأتراك بل ازداد نهمهم فأجبروا الخليفة على بيع ذخائـره فأخرجهـا لهم وقوموهـا على أنفسهـم بأبخس الأثمان [١٠٨]·

ولم تقف جرأة ناصر الدولة عند هذا الحد بل كاتب الزعيم السلجوقـي الب ارسلان في سنة ٤٦٢هـ يطلب منه مساعدته لاقامة الدعوة للخليفة القائم العباسي ، ومن ثم تصبح مصر تحت سيادته فاستجاب الزعيم السلجوقي لولا انشغاله بمحاربـة الروم عـن المسير الى دمشق ومصر[١٠٩] · ولما علم الخليفة المستنصر بذلك أرسل جيشا لمحاربته فهزمه ناصر الدولة وأقـام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي في الاسكندرية وغيرها من نواحي الوجـه البحري ، وحال دون وصول الأقوات الى القاهرة [١١٠]، وبذلك لعب نفس الدور الذي لعبه البساسيري مع الخلافة العباسية قبل حوالي عقد من الزمان ·

وهكذا ساءت أحوال الخلافة الفاطمية ، وعجزت عن القيام بالتزاماتها تجاه الحجاز وأشرافه وكان هؤلاء الأشراف يلحون على الفاطميين مطالبين برسومهم وأعطياتهم التي اعتادوا على تلقيها من الخلافة الفاطمية · وقد نلتمس العذر لهؤلاء الأشراف في طلب تلك المساعدات والحاحهم في الحصول عليها ، وذلك بسبب ضعف موارد البلاد والتزام الشريف الحاكم تجاه بقيـة الأشراف

---

(٩٩) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٢٤ وما بعدها ·
(١٠٠) نفس المصدر ، ص ٢٢٦ وما بعدها ·
(١٠١) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، جـ٤ ، ص ١٨٠ ·
(١٠٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥، ص ١٥ · المقريزى ، اغاثة الأمة ، تحقيق مصطفى زيادة ، جمال الدين الشيال ، القاهرة (١٩٤٠م) ، ص ٢٤ ·
(١٠٣) حسن ابراهيم حسن ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٨٠ ·
(١٠٤) نفس المكان ·
(١٠٥) نفس المكان ·
(١٠٦) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٧٣ ·
(١٠٧) نفس المصدر ، ص ٢٧٥ ·
(١٠٨) نفس المصدر ، ص ٢٧٥ـ٢٧٦ · ابن ميسر ، اخبار مصر ، ص ١٧ ·
(١٠٩) نفس المصدر ، ص ١٩ ·
(١١٠) المقريزى ، نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٣٠٢ـ٣٠٣ ·

الذين ليس لهم ما يعيشون عليه سوى تلك المساعدات .

ولم يكن الخليفة المستنصر ليقصر في شيءفيمـا يتعلق بأشراف الحجـاز ، الا أن الظروف المحيطة به في تلك الفترة جعلته عاجزا حتى عن الوفاء بمستلزمات قصره ، ومع ذلك كان بحق يشعر بالعطف تجاه الأماكن المقدسة ، متفهما لمشاكلهـا حريصا على بقاء نفوذه فيهـا ، لذلك نراه يلجأ الى المكرم الصليحى حاكم اليمن طالبا منه أن يقوم بارسال رسوم الحرمين نيابة عنه مدركا أن تأخر هذه الرسوم يضر بأصحابها [١١١] ، وبالتالى تجعلهم يبحثون عنجهة يلتمسون منها الدعم ويمنحونها ولاءهم . ولكن يبدو أن سوء العلاقات التي تربط المكرم بمحمد بن جعفر الهاشمي الذي لم يرع حقوق والده [١١٢] على بن محمد الصليحي جعلت المكرم يماطل في ارسالهـا [١١٣] ، فكتـب اليه المستنصر سجلا آخر في سنة ٤٦١هـ جاء فيه « كان قد نفذ اليك (الى المكرم) من حضرة أمير المؤمنين (المستنصر بالله) سجل مفرد فيما يتعلق بالحرمـين المحروسين ، واعلامـك أن الحوادث الشاغلة للصدر القاضية باختلاف كلمة الجمهور ، صدت عن سوق رسومها ورسوم أرباب الرسوم بها اليهم ، وأن تأخرها أضرّ بهم وكبر عليهم ، ورسم أمير المؤمنين لك أن تلمظهم بنفقة من عندك يتمززون بها الى حين وقوع الامكان من حمل رسومهم اليهم ، وقد جدد أمير المؤمنين الاذكار لك في سجله هذا بحمل عشرة آلاف دينار اليهم لتنفق على الحرمين المحروسين ، وأرباب الرسوم لكـل قدره ، واشعارهم بكون ذلك محمولا بأمر أمير المؤمنين لك فيه ، وصدور رأيه فـي تقديمه بـاذن الله » [١١٤] .

ويبدو أن المكرم لم يستجب لطلب امامه المستنصر بسبب انشغاله بتصفية حسابه مع أهل اليمن الذين انتقضوا عليه بعد مقتل أبيه[١١٥] . ولما لـم يرسل الفاطميـون واليمنيون نفقـات أشراف مكة بدأ التحول في علاقاتهم لصالح العباسيين فقـد خطب شريف مكـة محمد بـن جعفر الهاشمي للخليفـة القائـم بأمر اللـه العباسي وللسلطان الب ارسلان السلجوقي في موسم سنة ٤٦٢هـ[١١٦] وذلك كعربون للصداقة ثم أرسل رسولا ومعه ولده[١١٧] لمقابلة السلطان الب ارسلان واخباره بالقرار الذي اتخذه الأمير الهاشمي باقامة الخطبـة للخليفـة العباسي وللسلطـان الـب ارسلان السلجوقي واسقاطه خطبة العلوي صاحب مصر [١١٨] . وفي نفس الوقـت كـان الشريـف متخوفا من فشل التجربة الجديدة فلـم يضرب صفحا عن ولائه للخليفة الفاطمي المستنصر فكتب اليه متعللا بظروفه الاقتصادية واعتذر عما فعله [١١٩] .

الا أن الخليفة القائم والسلطان الب ارسلان أبديا ارتياحا لما فعله محمد ابن جعفر وأجازاه بمبلغ من المال ارتفع به المؤرخون الى ثلاثين ألف دينار[١٢٠] . ثم بعث الخليفة العباسي رسولا الى

---

(١١١) ماجد . السجلات المستنصرية . ص ٢٠٣ .
(١١٢) نفس المصدر . ص ١٣٩ .
(١١٣) نفس المصدر . ص ٢٠٣ .
(١١٤) نفس المكان .
(١١٥) كان أهل اليمن قد انتقضوا على المكرم وخرجت جميع البلاد اليمنية من يده ولم تبق معـه الا صنعاء العاصمـة وكانت لا تخلو من بعض اعدائه . ولكنه استطاع أن يثار لوالده ويسترد جميع بلاده . انظر : عمارة . تاريخ اليمن . ص ٥٦ وما بعدها . حسن سليمان . تاريخ اليمن . ص ١٨٦ وما بعدها .
(١١٦) الفاسي . العقد الثمين . جـ٢ . ص ٤٤١ .
(١١٧) ابن الأثير . الكامل . جـ٨ . ص ١٠٨ . اعتماد الأمير محمد بن جعفر أن يرسل جعفر بن يحيى بن ابراهيم التميمي المعروف بابن الحكاك (ت ٤٨٥) الى الخلفاء والملوك . ويتولى قبض الأموال منهم . ويحمل كسوة الكعبة. انظر : الفاسي . المصدر السابق . جـ ٣ . ص ٤٣٣ .
(١١٨) ابن الأثير . الكامل . جـ٨ . ص ١٠٨ .
(١١٩) القلقشندى . صبح الأعشى . جـ٤ . ص ٢٧٠ .
(١٢٠) العصامي . سمط النجوم العوالي . جـ٤ . ص ٢٠٠ .

شريف مكة هو أبو الغنائم الزينبي[١٢١]، ليبحث معه مستقبل العلاقات العباسية المكية والتوصل الى صيغة معينة تحدد التزام كل طرف للآخر ووضع الأسس الكفيلـة باظهـار شعارات الخلافة العباسية في تلك البقعة الطاهرة . فتم الاتفاق على اقامة الخطبة للقائم العباسي والسلطان الب ارسلان ، وتغيير الشعار من اللون الأبيض شعار الفاطميـين الى الأسود شعـار العباسيين[١٢٢]، وأعطى شريف مكة مقابل ذلك توقيعا بعشرة آلاف دينار كل سنة . وقال مندوب الخليفة « اذا فعل أمير المدينة مهنا كذلك أعطيته عشرين الف دينار وكل سنة خمسة آلاف دينار »[١٢٣].

وقد وضع هذا الاتفـاق موضع التنفيذ حيث خطب شريف مكة الهاشمي في موسم ٤٦٣هـ وقال « الحمد لله الذي هدانا الى أهل بيته بالرأى المصيب وعوض بيته بلبسة السواد بعد لبسة المشيب وأمال قلوبنا الى الطاعة ومبايعة امام الجماعة »[١٢٤] ثم تكلم بعد هذا بما يناسب[١٢٥].

ولكن هل كان محمد بن جعفر صادقا في صرف ولائـه عن الفاطميـين الى العباسيين ؟ وهـل التمس جانبهم ــ رغم علويته ــ عن قناعـة بعدالة خلافتهم وشرعيتها ؟ أو أنه فعل ذلك مضطرا تحت وطأة ظروف اقتصادية قاهرة لحاجته الى مساعدة العباسيين واستجداء لدعمهم ؟ والظاهر أن هذا الافتراض الأخير هو أقرب الى الصحة ودليلنا على ذلك ما ذكره العمري[١٢٦]أن الشاعر محمد بن ابراهيم الأسدي قام وألقى قصيدة بعدأن انتهى محمد بن جعفر من خطبته المشار اليها جاء فيها :

بني العبـاسِ عاد الأمرُ فيكـمْ وارثُ أبيكمُ اضحى مُقيمـــاً

فزمزمُ ليس تَروى غيرَ تـالٍ مَديحكُمْ وفخرَكُـمُ القَديمـــا

فاظهر له الشريف الهاشمي القبول ثـم طلبـه خفية وقال له ما يدخلك بين بنـي فاطمة وبنـي العباس ، ثم طرده[١٢٧].

ومن هنا نلاحظ عدم صدقه في ولائه للعباسيين وأنه اضطر اليه اضطرارا كما أسلفنا غير أن ما تم انجازه في الاتفاقية السابقة لم يقض قضاء مبرما على مظاهر المذهب الشيعي في مكة فقد بقى الأذان « يحي على خير العمل » وهو مظهر من مظاهر ذلك المذهب[١٢٨]فرأى القائم أن بقاء الأذان على تلك الحالة يعني بقاء النفوذ الفاطمي بصورة أو بأخرى ، لذلك أرسل الخليفة القائـم سنـة ٤٦٤هـ الشريف أبا طالب الحسن بن محمد[١٢٩]بمال وخلع للشريف محمد بن أبي هاشم وطلـب منه الغاء الأذان الشيعي بمكة . بيد أن محمد بن هاشم لـم يستجب لطلب القائـم دون مناقشة فدخل في مناظرة طويلة مع أبي طالب وقال له : « هذا أذان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال له أخو الشريف أبو طالب ما صح عنه ، وانما عبد الله بن عمر بن الخطاب روي أنه أذن به في

(١٢١) اسمه الحسين بن محمد بن علي الزينبي . نقيب النقباء ببغداد سنة ٥١٢هـ . انظر : الزركلي ، الاعلام ، جـ٢ ، ص ٢٧٩ .
(١٢٢) العمري ، مسالك الابصار ، جـ٢٤ ، ص ٩ وما بعدها .
(١٢٣) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ــ١٠٨ .
(١٢٤) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠٣ .
(١٢٥) العمري ، المصدر السابق ، جـ٢٤ ، ص ٩ .
(١٢٦) مسالك الابصار ، جـ٢٤ ، ص ٩ــ١٠ .
(١٢٧) نفس المكان .
(١٢٨) سرور ، النفوذ الفاطمي ، ص ٢١ .
(١٢٩) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٨٩ .

بعض أسفاره وما أنت وابن عمر »(١٣٠). لذلك اقتنـع محمد بن جعفر بوجهة نظر أبـي طالب فاسقط حي على خير العمل من الأذان بمكة (١٣١).

كان محمد بن جعفر يتطلع الى المدينة المنورة ويطمع في ضمها الى مكة المكرمة كما فعل أسلافه من قبل وكنا قد أشرنا الى أن السلطان الب ارسلان عرض على أمير المدينة من آل مهنـا عشرين الف دينار وخمسة آلاف دينار كل سنة مقابل اقامـة الدعوة للخليفة القائـم والسلطـان الب ارسلان ، وكان هذا العرض عن طريق محمد بن جعفر أمير مكة . ولكن يظهر أن أمير المدينة لم يقبل هـذا العرض ، وأنـه بقي على ولائـه للفاطميين فانتهز شريف مكة فرصة تحسن علاقاته مع العباسيين وانشغال الفاطميين بشئونهم الداخلية فهاجم المدينة بمساعدة العباسيين كما يظهر واحتلها حوالي سنة ٤٦٥هـ وضمها الى مكة وخطب فيها للقائـم العباسي(١٣٢)، وسمي لذلـك أمير الحرمين(١٣٣). ومما يؤيد ما ذهبنا اليه في تأييد العباسيين لمحمد بن جعفر في فتـح المدينـة وضمها الى مكة ما أشار اليه ابن خلدون بأنه « جمع أجنـادا من الترك وزحف بهـا الى المدينـة فأخرج منها بني الحسين وملكها وجمع بين الحرمـين »(١٣٤)ويبدو أن هؤلاء الترك مـن الأتـراك السلاجقة وهم من رعايا الدولة العباسية ، هذا الى جانب مسارعته بالخطبة في حرم المدينة للقائم بأمر الله العباسي مما يدل على أنه فتحها باسمه وبمساعدة منه .

ولا يفوتنا هنا أن نشير الى التغيير الذي طرأ على أساليب السياسة العباسية في الحجاز بعد أن أدركوا فشل السياسات السابقة الرامية الىحكم الحجاز حكما مباشرا والقيام في وجه كل حركة علوية تقوم على أرضه ، فقد لجأوا الى طريقة الفاطميين في كسب تأييد الحجاز لهم بابقاء الزعامات المحلية في شبه استقلال داخلي مع اعترافها بالتبعية الاسمية للخلفاء الفاطميين المتمثلـة في الخطبة لهم في مواسم الحج وغيرها . وقد حققت هذه السياسة بقاء الحجاز حوالي مائـة سنة تحت السيادة الفاطمية .

وعندما أدرك العباسيون أبعاد تلك السياسة التي أنتهجها الفاطميون استخدموها وحققوا من ورائها نجاحا كبيرا وتمكنوا عن طريقها من منافسة الفاطميـين والحصول على بعض المكـاسب السياسية ، فقد حدث في سنة ٤٦٦هـ أن الخليفة المستنصر أرسل رسولين الى مكة فقابلا الأمير محمد بن أبي هاشم وقبحا عليه خطبته للخليفة العباسي والسلطان الب ارسلان ، وبذلا له مالا على قطع الخطبة لهما ، ولكن أمير مكة لم يلتفتاليهما وأقصاهما (١٣٥). لذلك قدر العباسيون له هذا الموقف فارسلوا له ولأصحابه صحبة السلار من المال ما ملأ عينيه وقلبـه (١٣٦). وفوق ذلك اخذ السلار من الحجاج الذين اتبعوه دنانير فدفعها اليه والى العبيد(١٣٧).

غير أن سيادة العباسيين في الحجـاز لـم يكتب لها البقاء طويلا ذلك أن الخليفة المستنصر بالله استدعى بدر الجمالي والى عكا سنة ٤٦٦هـ وولاه الوزارة في مصـر(١٣٨)ولم يكـد الوزيـر الجديد يصل القـاهرة حتى قضى على عناصر الشغب في البـلاد فدبر مؤامرة للقـادة الأتـراك

(١٣٠) نفس المكان .
(١٣١) نفس المكان . الجزيري ، درر الفوائد ، ص ٢٥٦ .
(١٣٢) العمري ، مسالك الأبصار ، جـ٢٤ ، ص ٩ .
(١٣٣) نفس المصدر ، ص ١٠ .
(١٣٤) العبر ، جـ٤ ، ص ١٠ .
(١٣٥) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٤٦٦ .
(١٣٦) نفس المكان .
(١٣٧) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٤٦٦ .
(١٣٨) ابن الصيرفي ، أبو القاسم ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٥٨ .

وقضى عليهم جميعا في ليلة واحدة[١٣٩]، كمـا استطاع أن يؤدب الجند السودانيين وغيرهم من العرب الصعايدة فتمكن من استعادة نفوذ الخلافـة على جميع بـلاد الوجـه القبلي حتى مدينـة أسوان[١٤٠]. وبذلك تمهدت لـه الأمـور ، فشرع في اعادة بناء اقتصاد مصر واصلاح ما أفسدته أيام الشدة العظمى فاستطاع أن يعيد لمصر رخاءهـا واستقرارها وقوتهـا ، وأن يفرض سيـادة الدولة وهيمنتها على رعاياها ، وعاد الفلاحون الى الارض يزرعونهـا وتحسنت أحوالهـم بعد أن رفع عن كاهلهم بعض الأعباء المالية[١٤١].

ثم وجه نظره الى الحجاز ، فارسل الى اميرمكة يدعوه للدخول في طاعـة الفاطميين خصوصا بعد أن أحلته من عهوده للعباسيين وفاة الخليفة القائم والسلطـان الب ارسلان ، وهـدده ان يرفض يحرض عليه بني عمومته من الأشراف ويقويهم بالمال والرجـال لأخذ الامـارة منه[١٤٢]. فتلكأ الأمـير في الموافقة فاجتمع اليه أصحابه فقالوا : « انما سلمنا هذا الأمر الى بني العباس لما عدمنا المعونة من مصر ، ولما رجعت الينا المعونة فاننا لا نبغي بابن عمنا بديلا »[١٤٣]. لذلك لم يجد الأمير الهاشمي بدا من الاستجابة لرغبة بدر الجمالي خصوصا ، وقد اشتد الغلاء بالحجاز ، وقطعت عنه الميرة ، وأعاد الخطبة للخليفة المستنصر بالله وهو كاره[١٤٤] ، وقلعت ألقاب القائم والسلطان الب ارسلان من لوح كان على زمزم ونزعت الكسوة الخراسانية وجعل مكانها كسوة بيضاء ديبقية عليها ألقاب المستنصر[١٤٥] .

غير أن العباسيين لم يستسلموا لهذا النجاح الذي حققه خصومهم الفاطميون في مكة نتيجة للضغوط التي استخدمها بدر الجمالي على أمير مكة فظهروا من جديد في عهـد الخليفـة العباسي المقتدي[١٤٦]ولوحوا للشريف محمد بن جعفر بتزويجه من أخت السلطان ملكشاه ، وبعثوا سلار الحاج الى مكة لتلك الغاية[١٤٧]، فتعلق طمع الشريف بهذا العرض ، وأرسل رجلين الى مصر ينظران فان كان أمر صاحب مصر يرجى دام على خطبته[١٤٨] ، فرجعا اليه فقالا له : « ما بقي ثم شيء يرجى وقد فسدت الأحوال ونفد المال »[١٤٩]. ولم يرسل صاحب مصر هذه السنة ٤٦٨هـ سوى ألـف دينار[١٥٠] في حين وصل الى الشريف كتاب من الحاج سلار يخبره بانه قرر أمر الصلة ، وأنه قد أعطي للسنين الماضية عشرين ألف دينار عزل منها عشرة آلاف للمهر فراى ابن أبي هاشم أن دنانير المهر قد أخذت والصلة قد تمت فسر بذلك وخطب للعباسيين[١٥١] .

ولكن يبدو أن هذا الزواج لم يتم فقد أشارت بعض المصادر الى ان الخطبـة قـد أعيـدت للمصريين في سنة ٤٧٠هـ[١٥٢] بل ان العباسيين اصيبوا بخيبة أمل في تلك السنـة ، فقـد بعث

(١٣٩) Lane-Poole, S., A History of Egypt in the Middle Agess. Lindon (1901), pp. 150-151.

المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٣١٢ .

(١٤٠) نفس المكان .
(١٤١) ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص ٣٠ .
(١٤٢) المناوي ، محمد حمدي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، القاهرة (١٩٧٠م) ص ٢١١ .
(١٤٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٨ ، ص ٢٩٤ .
(١٤٤) ابن ميسر ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .
(١٤٥) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .
(١٤٦) المناوي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، ص ٢١١ .
(١٤٧) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث ٤٦٨ هـ .
(١٤٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٨ ، ص ٢٩٨ .
(١٤٩) ابن فهد ، المصدر السابق ، حوادث سنة ٤٦٨هـ .
(١٥٠) نفس المصدر
(١٥١) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .
(١٥٢) ابن فهد ، المصدر السابق ، حوادث سنة ٤٧٠ .

الخليفة المقتدى بالله العباسي منبرا كبيرا جيد الصنع كتب عليه اسمه بالذهب الخالص [١٥٣]. وذلك بأمر من الوزير فخر الدولة أبو منصور بن جهير[١٥٤] الذي أشرف على عمله في داره [١٥٥]، فاتفق وصوله الى مكة، وقد أعيدت الخطبة للفاطميين فآل أمر ذلك المنبر الثمين الى أن كسر وأحرق [١٥٦]. ونجح الفاطميون بعد ذلك في فرض سيادتهم الروحية على مكة حتى سنة ٤٧٩هـ. ثم بعد ذلك منع محمد بن أبي هاشم ولاءه نهائيا للعباسيين وقطع خطبة الفاطميين[١٥٧] فقلعت الصفائح التي على باب الكعبة والتي كانت تحمل اسم الخليفة المستنصر، وأبدلت بأخرى كتب عليها اسم الخليفة المقتدى العباسي[١٥٨]. ثم سير أمير مكة وفدا الى بغداد حيث استقبل استقبالا حافلا، « وخرج حجاب الديوان ـ كما يقول ابن الجوزى ـ لتلقيهم وعادوا والقراء بين أيديهم فنزلوا وقبلوا العتبة الشريفة (ثم اخذوا) الى دار الضيافة فادر عليهم ما جرت به العادة »[١٥٩] وقد بقى محمد بن جعفر بن أبي هاشم على ولائه للعباسيين حتى وفاته سنة ٤٧٨هـ [١٦٠].

ويكاد المؤرخون يجمعون على ذم ابن أبي هاشم واتهامه بأنه كان « ظالما فاتكا سفاكا للدماء مسرفا متلونا تارة مع الخلفاء العباسيين وتارة مع المصريين، وكان يقتل الحاج ويأخذ أموالهم »[١٦١].

والحقيقة أن محمد بن جعفر ليس شرا كله بل كانت له بعض الجوانب الحسنة، فقد استطاع بقوة شخصيته أن يقضي على فتن الأشراف التي لا تنقطع في مكة، وأن يوحد الحجاز من المدينة المنورة الى مدينة حلي بن يعقوب على حدود اليمن. وأن يفرض شخصيته على كل من الخلافتين العباسية والفاطمية ويجعلهما تتنافسان في كسب ولائه فيما تقدمه له من صلات وهدايا وخلع.

ولست مع المرحوم حسين الهمداني[١٦٢] فيما ذكر بأن الشريف لم يبد ما يشعر برغبته في الاستقلال لأنه في الحقيقة كان مستقلا الى حد ما من الناحية العملية فقد كان لا يسمح لأي قوة خارجية بالتدخل في شئونه الداخلية أو بتغيير أي وضع من أوضاع مكة دون مناقشة مقنعة وفي حدود الاحترامات الأدبية المرعية للدولتين العظميين بما لا يلحق الضرر بمصلحته ومصلحة بلده. كما استطاع أن يجنب مكة ما كان يحدث في مواسم الحج بين القوات العراقية والمصرية من قتال في سبيل الحصول على الخطبة، فحال دون اراقة الدماء في ذلك البلد الطاهر وفرض قوته وشخصيته على عساكر الدولتين واختار بنفسه الخليفة الذي يؤيده. أما ولاؤه لهذا الخليفة أو ذاك فكان لا يتعدى ذكر اسمه في الخطبة في مواسم الحج، وكان هذا لا يحدث الا بعد مساومة يجني من ورائها مكاسب اقتصادية جمة تدفعها الدولة الصديقة راضية مرضية، فاذا تأخر الدفع أو قل مقداره صب جام غضبه على الزعامة السياسية التي تأتي مع ركب الحجيج[١٦٣] وليس على الحجاج أنفسهم كما يختلط على بعض المؤرخين بل كان يعيد على

(١٥٣) العصامي، سمط النجوم العوالي، جـ٤، ص ٢٠٢.
(١٥٤) ابن فهد، المصدر السابق، حوادث ٤٦٨هـ.
(١٥٥) ابن الجوزى، المصدر السابق، جـ٨، ص ٣١١.
(١٥٦) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٣١٩.
(١٥٧) ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ١٤٤.
(١٥٨) نفس المكان.
(١٥٩) المنتظم، جـ٩، ص ٢٧.
(١٦٠) العمرى، مسالك الأبصار، جـ٢٤، ورقة ١٠.
(١٦١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ١٢، ورقة ١١٠.
(١٦٢) الصليحيون والحركة الفاطمية، ص ٩٢.
(١٦٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٥.

الحجاج الذين ليس لهم صفة سياسية ما كان يأخذه اتباعه منهم من غير قصد [١٦٤].

أما عن التلون والتأرجح في علاقاته فلم يعد ذلك التلون مستنكرا في عرف السياسة الحديثة ما دام أن هذا يحقق له ولبلده مكاسب سياسية واقتصادية ٠ ذلك أن مكة المكرمة كان يصل اليها في موسم الحج كل عام قوافل حجاج عظيمة برفقة جيوش مسلحة تحت امرة أمراء الحاج ، وكان كل واحد من أمراء الحاج يمثل خليفة ودولـة تختلف في أهدافهـا السياسيـة بـل ومذاهبهـا الدينية عن الأخرى اختلافا بينا فتسبب عن هذا التباين تصادم يهدف الى احراز مركز ممتاز في هذه البقعة الطاهرة ، وترتب على هذا كله تقلب في موقف شريف مكة حسب التوازن بين القوى المتضادة ٠ هذا الى ان ضعف موارد البلاد جعله يتقبل المساعدات التي كانت تقدم اليه من أي مصدر كان تامينا لأمن مكة وانعاشا لاقتصادها [١٦٥].

ومما تقدم في هذا الباب يمكن تحديد معالم العلاقات السياسية لمكة المكرمة في هذه الفترة أنها سارت في اتجاهين اثنين ٠

اولهما : سعي أهل مكة بزعامة الأشراف الى الاستقـلال بامارتهـم ، فقد لاحظنـا نضالهـم الطويل وثوراتهم المتعددة ضد الخلافة العباسية لتحقيق هذه الغاية ٠

أما الاتجاه الثاني : فهو محاولة كل من الخلافتين العباسية والفاطمية بسط نفوذها على مكة اذ أن ذلك يكسبها سمعة طيبة في نظر العالم الاسلامي وبالتـالى ينظر اليهـا على انها هـي الخلافـة الشرعيـة ٠ وتجدر الاشارة الى ان كلا مـن الخلافتـين لـم تمـارس نفوذا مباشرا على الحرمـين خلال الفترة التي ندرسها ٠ فقد تمتع حكامها المحليون بنظـام وراثي في الحكم في حـين اقتصر نفوذ كل من الخلافتين على التمتع ببعض المميزات التي أصبحت في ذلك الوقت شعارات تمثل السيادة والنفوذ ، ونعني بذلك الدعاء للخليفة في خطبـة الجمع وفي المناسبات الرسمية ، ورفع علمه في مكة وفي مشاعر الحـج ، واسبال كسوته على الكعبـة المشرفة وهكـذا قنعت كل مـن الخلافتين بهذا النوع من النفوذ الذي يكسبها سمعة طيبة بـين المسلمين ويؤهلها لكـي تصبح الخلافة الشرعية في نظرهم ٠

وقد احتدم النزاع بين الخلافتين العباسية والفاطميـة حول السيـادة الرسميـة على مكة وتمخضت عنه محاولات عدة للحصول على هذه السيـادة ، فمرة تتـم بتجريـد الجيوش ، ومرة بالبذل والعطاء لأمرائها والمتنفذين فيها وكسبهم عن طريق هذا العطاء ، وأخرى بتحريض القبائل الرابضة على طرق الحج لعرقلة مساعي هذه الخلافة أو تلك في مكة المكرمة ٠

وقد أدى هذا التنافس الى نجاح الاتجاه الأول فبرزت امارة مكة ـ كما أوضحنا ـ في شبه استقلال ذاتي (داخلي) أقرب في ولائها الى الفاطميين في مصر منهـا الى العباسيين في العـراق ، وهذا الولاء لمصر طبيعي تحتمه الظروف الاقتصادية للامارة الجديدة ، فقد أثبتت مصر منذ فتحها على يد عمرو بن العاص وحلها للضائقة الاقتصادية التـي ألمت بالحجاز في عام الرمـادة بارسالها الأرزاق عبر القلزم الى الموانيء الحجازية أثبتت أنها هي المؤهل الوحيد لدعم مكة اقتصاديا هـذا فضلا عن قربها من الموانيء الحجازية على الساحل الشرقي لبحر القلزم ٠

غير أن العامل الاقتصـادي لم يكن طوال هذه الفترة في صالح مصر ، وذلك لتعرضها من حين الى آخر للفتن والمجاعات مما رجح كفة العباسيين في بعض السنين ، ومن هنا نشأ التذبذب فـي علاقات مكة الخارجيـة بكل من العبـاسيين والفاطميين في أواخر الفترة بل أدى بالفعل الى محض

(١٦٤) نفس المكان ٠

(١٦٥) الهمداني . الصليحيون والحركة الفاطمية . ص ٩٢ ٠

ولائها ـ رغم كراهيتها ـ للعباسيين في أواخر حياة محمد بن جعفر بن أبي هاشم ، وذلك بسبب ظروف الشدة العظمى وما تلاها من ضعف سلطة الخلفاء واستفحال الوزراء في العصر الفاطمي الثاني ، وهو العصر الذي اصطلح المؤرخون على تسميته بعصر الوزراء ٠

✦

الباب الثاني

العلاقات الدينية (الحج)

١ ـ إمرة الحج.

٢ ـ طرق الحج والصعوبات التي تعترض الحاج فيها وإصلاحها.

٣ ـ إصلاحات الخلفاء والعظماء في مكة المكرمة.

٤ ـ المجاورة بمكة المكرمة.



الفصل الأول

إمرة الحج

● ماهيتها ، شروطها وأهم أعمالها ● امرة الحج قبل سنة ٣٠٠هـ ● دور أمير الحج في القرنين الرابع والخامس الهجريين والعوامل المؤثرة في تعيينه ● الهدايا التي تصحب قوافل الحج الى مكة المكرمة .

ماهيتها وشروطها ، وأهم أعمالها

كان الحج وهو ركن الاسلام الخامس من أقدم العبادات السماوية التي عرفتها البشرية بعد أن دعا اليه أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام (١) ، وأسس لتلك الغاية أول بيت مبارك (٢) وضع للناس بمكة المكرمة . وكان العرب في مختلف عصورهم يقومون بتأدية تلك العبادة الدينية الممعنة في القدم على صورة تناسب فطرتهم وتتمشى مع جاهليتهم (٣) .

وعندما جاء الاسلام وفرض عبادة الحج على معتنقيه دخلت تلك الشعيرة الدينية التاريخ من اوسع أبوابه بل أصبحت عنصرا عظيم الأهمية من عناصر التاريخ الاسلامي . فشدت لها الرحال وجهزت الركوب (الركبان) والمحامل (٤) ، فقطعت لذلك المسافات الشاسعة المقفرة لتأدية تلك الفريضة الدينية تيمنا بسنن الأنبياء (٥) واستجداء لمثوبة الله وغفرانه .

وكان المسلمون قبل عهدهم بوسائل المواصلات الحديثة يتجشمون جميع أنواع المصاعب في السفر من أقاصي الدنيا الى بيت الله الحرام في كل عام تحت ظلال الشراع في البحر وعلى ظهور الابل في البر ، ومنهم من كان يختار المشي اليه على الأقدام (٦) تقربا بتعبه الى الله ، وليزداد عنده مثوبة وأجرا .

وكان السفر على تلك الحالة وما تعتريه من صعوبات ومشاق وما تكتنفه من أخطار يستدعي أن تصحبه زعامة سياسية دينية تشرف على تنظيمه وتعمل على حل مشكلاته حتى يصبح ذلك السفر الشاق سهلا وميسورا على حجاج بيت الله الحرام . ومن هنا نشأ في التاريخ الاسلامي ما عرف « بامرة الحج » .

---

(١) وهو المقصود بقول الله تعالى : (واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ...) الآية ٢٧ من سورة الحج .

(٢) جاء ذلك في قوله تعالى : (ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا ...) الآية ٩٦ من سورة آل عمران

Grunebaum. G.E., Mohammadan Festivals, London (1976), p. 15.

جاء في تفسير الطبرى عدة اقوال تدل على أن ابراهيم عليه السلام اسس الكعبة لتكون اول بيت لعبادة الله تعالى في الأرض .. أنظر هذه الأقوال في الطبرى : التفسير (**جامع البيان عن تاويل اي القرآن**) طبعة دار المعارف بمصر . جـ٧ . ص ١٩ـ٢٦ .

(٣) لمعرفة حج العرب قبل الاسلام . انظر : **اخبار مكة للازرقي** ، جـ١ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

(٤) المحمل : هو ما يحمل على الجمل مثل الهوادج والشقادف والمحارات وغيرها . أما اصطلاح محمل الحج الذي عرف في العصور الوسطى وحتى دخول مكة في العهد السعودى . فهو هيكل خشبى كان يحلى بأجمل أنواع الزينة . ويحمل على جمل بصحبة قافلة الحج القادمة من القاهرة ودمشق وبغداد الى مشاعر الحج بمكة المكرمة ثم يعود منها الى الجهات التي ارسلته . أنظر : منقاوى . عبد الله ، المحمل ـ نشأته واراء المؤرخين فيه . **مجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض** ، م٢ . س٢ ، (١٩٧١م) ص ٣٢٤ .

The Organization and Role of the Pilgrimage. p. 139.

(٥) الطبرى . **القرى** ، ص ٥١ـ٥٦ .

(٦) متز . **العضارة الاسلامية** . جـ٢ . ص ٩٠ عن اخبار **اصفهان لأبي نعيم الاصفهاني** . مخطوطة ليدن ، ورقة ٧١ .

ولعل تلك الامرة تعود الى ما روي عن النبي (ص) أنه قال : « اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم [٧] » . وقوله لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض الا أمروا عليهم أحدهم [٨] .

فاذا كان الدين الاسلامي وهو دين دولة ودين تنظيم قد أوجب التامير على هذا العدد القليل في الاجتماع العارض والسفر القريب فكيف بالسفر الى الحج الذي يجتمع فيه الآلاف من الناس الذين يتعين عليهم الخروج والسير والنزول والعودة في وقت واحد . لذلك فالتامير على حجاج بيت الله تعالى توجبه الشريعة الاسلامية [٩] .

فقد قام بها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وتلاه في ذلك الخلفاء الراشدون ومن تبعهم من خلفاء المسلمين وملوكهم اما بأنفسهم ، أو بولاة قاموا بها من قبلهم . فامارة الحج اذن من أجل المناصب الاسلامية وأعظم الوظائف الدينية .

وقد تناولها بعض المؤرخين فجعلوها على ضربين : أحدهما أن تكون على تسيير الحجيج والثاني على اقامة الحج . فأما تسيير الحجيج فهو ولاية سياسية وزعامة وتدبير والشروط المعتبرة في من يتولى هذا المنصب ان يكون مطاعا ذا رأي وشجاعة وهيبة وهداية [١٠] وأما اذا كانت الولاية على اقامة الحج فهو بمنزلة الامام في اقامة الصلوات . فيشترط فيه الى جانب الشروط المعتبرة في ائمة الصلوات أن يكون عالما بمناسك الحج واحكامه ، عارفا بمواقيته وأيامه [١١] .

غير أن ما جرى عليه الحال في الفترة التي نؤرخ لها هي أن تلك الامارة كانت عامة في تسيير الحاج من دار الخلافتين العباسية والفاطمية ، وفي اقامة الحج بالمسلمين باستثناء بعض السنوات التي يتعذر فيها تجهيز ركب الحجيج بسبب مخاوف الطريق أو اضطراب الأحوال السياسية في الدولتين الكبيرتين فتصبح تلك الوظيفة قاصرة على اقامة الحج بمكة المكرمة فكان يتولاها قاضي مكة أو شريفها الحاكم كما سيأتي .

أما في الظروف العادية فكان أمير الحج يفوض من عاصمة الخلافة بالقيام بجميع مهام الامارة سواء ما يختص منها بتسيير الحجيج في الطريق أو في اقامة شعائر الحج للمسلمين عامة في مكة المكرمة . لذلك وجب على أمير الحج في هذه الولاية عشرة أشياء ذكرها الماوردي [١٢] بصورة مختصرة وتناولها شمس الدين الجزيري [١٣] بشيء من التفصيل وهي :

١ ـ جمع الناس في سيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم الضياع ويتخطفهم مفسدوا العربان من السراق وقطاع الطرق .

٢ ـ ترتيبهم في المسير والنزول باعطاء كل طائفة منهم محلا معينا حتى يعرف كل فريق منهم محله اذا سار ويألف مكانه اذا نزل ، وهذا الأمر يعرفه الجزيري [١٤] « بالتقطير والتعقيب وهو من المهمات الكبار لمراعاة مصلحة الحجاج واراحتهم من الازدحام والاصطدام والشرور والفتن مع بعضهم بعضا » .

٣ ـ الرفق بهم في السير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم ، اقتداء بقول

---

(٧) ابو داود ، السنن ، ط١ ، (١٩٧١م) ، جـ٣ ، ص ٨١ .
(٨) ابن حنبل ، أحمد ، المسند ، طبع بيروت ، م٢ ، ص ١٧٧ .
(٩) الرشيدي ، أحمد ، حسن الصفا والابتهاج ، مخطوطة مصورة بجامعة الرياض رقم ٢٣٤ ، ورقة ٣ .
(١٠) الماوردي ، ابو الحسن علي بن محمد ، الأحكام السلطانية ، ط٢ ، القاهرة (١٩٦٦م) ، ص ١٠٨ـ١٠٩ .
(١١) المصدر نفسه ، ص ١٠٨ ، ١١٠ .
(١٢) الأحكام السلطانية ، ص ١٠٨ـ١٠٩ .
(١٣) درر الفوائد المنظمة ، ص ٨٩ـ١٠٩ .
(١٤) نفس المصدر ، ص ٩١ .

الرسول صلى الله عليه وسلم « الضعيف أمير الركب » وهذا يعني أن من ضعفت دوابه كان على القوم أن يسيروا بسيره ٠

٤ ـ أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ، ويتجنب أجدبها وأوعرها ويسير بهم سيرا معتدلا ، وان يريحهم في أوقات القيلولة المفرطة الحر وأوقات الهواء والريح الشديدة وما اشبه ذلك ٠

٥ ـ أن يرتاد لهم المياه اذا انقطعت والمراعي اذا قلت ٠

٦ ـ أن يحرسهم اذا نزلوا ويحوطهم اذا رحلوا حتى لا يتخطفهم المتلصصون وقطاع الطرق ٠

٧ ـ أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج بقتال ان قدر عليه ، أو ببذل مال ان أجاب الحجيج اليه ، ولا يسعه ان يجبر أحدا على بذل الخفارة ان امتنع منها حتى يكون باذلا لها عفوا ومجيبا اليها طوعا ، لأن بذل المال في الخفارة لا يجب الا أن تكون تلك الخفارة يسيرة ٠

٨ ـ أن يجلس لهم في كل دار ومنزلة ليحضر اليه من يشكو حاله فيزيل شكواه او متنازعان فيصلح بينهما ، وان كانت الحكومة شرعية حكم بينهما ان كان من أهل الشرع ومفوض بذلك والا فليحيلها الى قاضي الركب ٠ فاذا دخلوا بلدا جاز له ولحاكم البلد ان يحكم بينهم ولو تنازع واحد من الحجيج وواحد من البلد لم يحكم بينهم الا حاكم البلد ٠

٩ ـ أن يؤدب جانيهم ولا يتجاوز التعزير الى الحد الا أن يؤذن فيه فيستوفيه اذا كان من أهل الاجتهاد فيه ، فاذا دخل بلدا فيه من يتولى اقامة الحدود على أهله نظر ، فان كان ما أتاه المحدود قبل دخول البلد فوالي الحجيج أولى باقامة الحد عليه من والي البلد ، وان كان ما أتاه المحدود في البلد فوالي البلد أولى باقامة الحد عليه من والي الحجيج ٠

١٠ ـ أن يراعي اتساع الوقت حتى يأمن الفوات ولا يحملهم ضيقه الى الحث في السير فاذا وصل الى الميقات أمهلهم للاحرام واقامة سننه ، فان كان الوقت متسعا عدل بهم الى مكة ليخرجوا مع أهلها الى المواقف ، وان كان الوقت ضيقا عدل بهم عن مكة الى عرفة خوفا من فواتها فيفوت الحج بها [١٥] ٠

فاذا أوصل الحجيج الى مكة فمن لم يرد العودة منهم زالت عنه ولاية الوالي على الحجيج فلم تكن له عليه يد ، ومن كان خلاف ذلك فهو تحت ولايته وملتزم أحكام طاعته [١٦] ٠

وعلى أمير الحج ايضا أن يمهل الحجاج بعدان يقضوا حجهم اياما محدودة ليتمكنوا خلالها من انجاز حوائجهم ولا يرهقهم في الخروج فيسبب ذلك ضررا لهم ، حتى اذا انتهى من ذلك وأزمع العودة سار بهم على طريق المدينة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ليجمع لهم بين حج بيت الله عز وجل وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم رعاية لحرمته وقياما بحقوق طاعته ، ولئن لم يكن ذلك من فروض الحج « فهو ـ كما يقول الماوردي ـ من ندب الشرع المستحبة وعادات الحجيج المستحسنة » [١٧] ٠

وقد جرت العادة أن يلقي أمير الحج بعض الخطب في جمهرة الحجيج في مكة المكرمة وقد حددها المؤرخون بأربع خطب تلقى في أوقات متفرقة في موسم الحج [١٨] ٠

---

(١٥) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ١٠٨-١٠٩ (بتصرف) ٠
(١٦) نفس المصدر ، ص ١٠٩ ٠
(١٧) الاحكام السلطانية ، ص ١٠٩ ٠
(١٨) أنظر : الماوردي ، نفس المصدر ، ص ١١٠-١١٢ ٠

ورغم أن هذه الخطب كان يغلب عليها الطابع الديني والتعليمي من حيث الشرح الكامل لعبادة الحج وفضلها ، وتعليم الناس كيفية تأدية مناسكهم ، الا أنها تحمل بين طياتها كثيرا من الأغراض السياسية والدعاية للحاكم الذي تتم تحت رعايته تأدية تلك الفريضة الدينية ، ولا سيما في خطبتي يوم عرفة ويوم عيد النحر . وقد جرّت تلك الخطب وحرص أمراء الحج على الخطبة لامامهم الكثير من الحروب والويلات في مكة المكرمة طوال القرنين الرابع والخامس الهجريين كما تقدم (١٩) .

امرة الحج قبل سنة ٣٠٠هـ

وكانت بداية هذه الامارة أول ما بدأت في مكة المكرمة في السنة الثامنة من الهجرة (٢٠) حين فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسند ولايتها الى عتّاب بن أسيد (٢١) ، وجعله على الصلاة والحج (٢٢) . فلما أزف موسم الحج أقامه للناس في تلك السنة (٢٣) .

على أن أول أمير نصب على الحج وسار مع ركب الحجيج من خارج مكة المكرمة كان أبو بكر الصديق في السنة التاسعة (٢٤) حيث انتدبه الرسول صلى الله عليه وسلم للحج بالناس نيابة عنه ، فسار مع ركب الحجيج من المدينة المنورة وهي العاصمة الاسلامية آنذاك الى مكة المكرمة (٢٥) .

ولعل عدم حج النبي (ص) في تلك السنة وانابة أبي بكر الصديق عنه في ولاية الحجيج هو ان المشركين لا زالوا يحجون الى مكة المكرمة ، ويؤدون تلك العبادة على الطريقة الجاهلية فخشى أن يكون حضوره الى مكة لاقامة فريضة الحج مع المشركين ان يكون ذلك اقرار منه بحج المشركين على الأسلوب الذي كانوا يمارسونه بمكة (٢٦) .

وعندما نزلت سورة براءة وتولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه شرح السياسة الجديدة للدولة الاسلامية في ذلك الموسم (٢٧) حج النبي صلى الله عليه وسلم في السنة التالية وهي الحجة التي عرفت في التاريخ الاسلامي باسم « حجة الوداع » (٢٨) وهي التي يعوّل عليها في الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم في اقامة شعائر الحج فيما تلى ذلك من عصور .

استمرت المدينة المنورة في تجهيز الحجيج في عهد الخلفاء الراشدين واقامته للمسلمين في مكة المكرمة ، وقد حرص هؤلاء الخلفاء على أن يتولوا ذلك بأنفسهم طوال حياتهم (٢٩) .

ولما انتقلت الخلافة الى بني أمية وأصبحت الشام دار ملكهم وتزعمت دمشق العالم الاسلامي صار أمير الحج يخرج منها (٣٠) ، وتجتمع جموع الحجيج من مختلف أنحاء العالم الاسلامي تحت لواء الخلافة الأموية (٣١) .

---

(١٩) انظر الباب السياسي من هذا البحث ، في أماكن متفرقة .
(٢٠) الرشيدي ، **حسن الصفا والابتهاج** ، ص ٣-٤ .
(٢١) الفاسي ، **العقد الثمين** ، جـ٦ ، ص ٣-٧ .
(٢٢) الطبري ، **القرى لقاصد أم القرى** ، ص ١٣٨ .
(٢٣) نفس المكان .
(٢٤) دده ، علي ، **رسالة المقام في بناء المسجد الحرام** ، مخطوطة بمكتبة أوغلو رقم ١٠٧٠ (بورصة) ، ورقة ٢٧ .
(٢٥) دده ، **رسالة المقام في بناء المسجد الحرام** ، ورقة ٢٧ .
(٢٦) كان بعض العرب في الجاهلية يطوفون بالبيت عراة ، رجالا كانوا أم نساء . أنظر : الأزرقي ، **أخبار مكة** ، جـ١ ، ص ١٨٢ .
(٢٧) الجزيري ، **درر الفوائد المنظمة** ، ص ٩٠-١٩١ .
(٢٨) نفس المصدر ، ص ٧٣ . المقريزي ، **الذهب المسبوك** ، ص ٥ وما بعدها .
(٢٩) حج عمر في جميع سنوات خلافته ما عدا السنة الأولى . وعثمان كذلك ما عدا السنتين الأولى والأخيرة . أما علي فلم يحج في خلافته لانشغاله بحروب الجمل وصفين . (المقريزي ، **الذهب المسبوك** ، ص ١٣ - ٢٤) .
(٣٠) الجزيري ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ وما بعدها .
(٣١) نفس المكان .

وقد حرص الخلفاء الأمويون في عهد قوتهم على الاهتمام بالحجاز [٣٢] ، ورعاية شئونه الخاصة والعامة فأولوا الحج جانبا كبيرا من اهتمامهم ومنهم من حرص على اقامة شعيرة الحج تحت رعايته ، اذ تذكر المصادر أن خمسة منهم تولوا تلك الولاية في عهد خلافتهم وهم معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد وسليمان وهشام أبناء عبد الملك [٣٣]. ومنهم من حج أكثر من مرة مثل معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان [٣٤].

ولما دالت دولة بني أمية وقامت الخلافة العباسية في العراق وتولت بغداد زعامة العالم الاسلامي صارت امرة الحج اليها [٣٥] ، وما يرد من مصر وغيرها من المراكز الاسلامية الأخرى من ركوب الحجيج فلا تعلق لها بولاية أمر الموقف فانها لا تعدو أن تكون قوافل عادية كتلك التي تاتي من سواها من البلاد الاسلامية .

وقد ازدهرت هذه الولاية في العصر العباسي الأول وأسندت الى أكبر شخصيات البيت العباسي ، بل ان أربعة من الخلفاء تقلبوا على امارة الحج في عهد خلافتهم : وهم أبو جعفر المنصور ومحمد المهدي وهارون الرشيد [٣٦] . وعبد الله المأمون الذي حج بالناس في سنة ٢١٢هـ [٣٧] على خلاف في ذلك [٣٨] .

أما خلفاء العصر العباسي الثاني فقد شغلتهم حياة الترف والانقسامات الداخلية وضعف الدولة وسيطرة الأتراك وتسلطهم عن أن يفكروا في الخروج على رأس ركب الحجيج الى مكة المكرمة لأداء تلك الفريضة الدينية ، بل لعل مصاعب الطريق وأخطاره من الأمور التي حالت دون تولي هؤلاء الخلفاء امارة الحج ولكنهم مع ذلك أسندوها الى أمراء أقوياء من البيت العباسي. نذكر منهم الفضل بن العباس [٣٩] وابراهيم بن محمد [٤٠] وأبا عبد الله محمد بن داود [٤١]، والفضل بن عبد الملك [٤٢] العباسي ، وقد بقي الأخير في امارة الحج من سنة ٢٨٩هـ [٤٣] حتى بداية القرن الرابع [٤٤] . مما يشعر برغبة الدولة العباسية في الاحتفاظ بقوة سيطرتها على مكة ، وبالتالي الظهور أمام العالم الاسلامي بأنها صاحبة الحق الشرعي في هذا المنصب الروحي ، وأنه يجب أن يبقى في البيت العباسي .

دور امير الحج في القرنين الرابع والخامس الهجريين والعوامل المؤثرة في تعيينه

غير أن هذا الاتجاه السابق لدى الخلافة العباسية لم يعمر طويلا ، فقد أصبح ولاة الحج يعينون مراعاة للأوضاع السياسية التي تفرض نفسها في مكة ، وكذلك اتجاهات القبائل التي تسيطر على طريق الحج العراقي .

(٣٢) الأزرقي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .
(٣٣) المقريزي ، الذهب المسبوك ، ص ١١ .
(٣٤) نفس المكان .
(٣٥) الجزيري ، درر الفوائد المنظمة ، ص ١٨٩ .
(٣٦) الطبري ، القرى ، ص ٥٨ .
(٣٧) الجزيري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .
(٣٨) لم يذكر المقريزي ان المأمون حج وهو خليفة (الذهب المسبوك ، ص ٢٦–٥٨) في حين أن الجزيري ذكر ذلك نقلا من الذهبي (درر الفوائد ، ص ٢٢٦) .
(٣٩) الجزيري ، نفس المصدر ، ص ٢٣١ .
(٤٠) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٤٠٧ .
(٤١) نفس المكان .
(٤٢) الجزيري ، المصدر السابق ، ص ٢٣١ .
(٤٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٦ ص ٣٣ ، ١١٦ .
(٤٤) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ص ٢٥ .

فقد رأينا أن هذه الولاية كانت تسند لأمراء من البيت العباسي عندما كانت الخلافة العباسية تتمتع بقوتها ومقدرتها في فرض سيطرتها وسيادتها على مكة ، وعلى طرق الحج ، وقد استمر هذا الاتجاه طوال القرنين الأولين من حياة الخلافة العباسية ، بل امتد كذلك حتى منتصف العقد الثاني من القرن الرابع الهجري ، فقد حفظت لنا المصادر التاريخية أسماء أشخاص كانوا يشغلون هذا المنصب في بداية القرن الرابع ولعل في مقدمة هؤلاء الفضل بن عبد الملك العباسي (٤٥)، الذي استمر في ولايتها حتى سنة ٣٠٥هـ (٤٦) ، فخلفه في تلك الولاية سنة ٣٠٦هـ أحمد بن العباس (٤٧)، المعروف بأخي أم موسى الهاشمية (٤٨)قهرمانة أم المقتدر ، ثم اسحاق بن عبد الملك (٤٩) . وقد بقي يشغل هذا المنصب حتى سنة ٣١١هـ (٥٠) .

ولكن نظرا لاستفحال أمر القرامطة واشاعتهم السلب والنهب في ركب الحجيج فقد أسندت ولاية طريق الحج ومرافقة الحجاج الى بعض القادة العسكريين من خارج البيت العباسي أمثال أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان سنة ٣١١هـ (٥١) وجعفر بن ورقاء سنة ٣١٣هـ (٥٢)، ومنصور الديلمي سنة ٣١٧هـ (٥٣) ، الا أن اقامة الحج للمسلمين كان يتولاه في بعض هذه السنوات قاضي مكة الحسن بن عبد العزيز بن عبد الله العباسي (٥٤) ثم ابنه عبد العزيز فيما بعد (٥٥)، وقد استمر في هذه الولاية حتى سنة ٣٣٥ على أرجح الأقوال (٥٦) . ويبدو أن اسناد ولاية قافلة الحج فقط لهؤلاء القادة مع بقاء اقامة الحج بمكة لقاضيها الحسن هو عدم توفر شروط الامامة في بيت بني العباس .

وعندما سيطر البويهيون وهم شيعة على الخلافة العباسية في بغداد واستشرى خطر القبائل المسيطرة على طريق الحج العراقي وازداد طمعهم في قوافل الحجيج ، وقيام أسر علوية ذات نفوذ بمكه تم ظهور الخلافة الفاطمية بالمغرب ، وتطلعها الى الحجاز واكتسابها بعض الأنصار والمؤيدين في الأماكن المقدسة ثم دخولها ميدان الصراع كمنافس للخلافة العباسية بعد احتلالها لمصر وتأسيس القاهرة وبسط سيادتها على الساحة الحجازية فيما بعد . كل هذه التطورات جاءت لصالح العلويين .

لذا نرى أن امارة الحج تنتقل الى البيت العلوي ، ولا غرو في ذلك ، فالعلويين يتمتعون باحترام وتأييد جميع هذه الأطراف ويملكون التأثير الأدبي والمعنوي عليهم ، وقد عرف العباسيون كيف يستفيدون من هذا الاحترام الذي يتمتع به العلويون لدى خصومهم فأسندوا اليهم ولاية الحج .

---

(٤٥) شغل الفضل ولاية الحج من سنة ٢٨٩-٣٠٥ . الجزيري ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٢٢ .
(٤٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ١٩٧ .
(٤٧) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣٠٧ .
(٤٨) نفس المكان .
(٤٩) القرطبي ، صلة الطبرى ، ص ٥٦ .
(٥٠) نفس المكان .
(٥١) النويرى ، أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب . ايا صوفيا برقم ٣٥١٤ ، جـ٢٣ ، ورقة ٢٢٥ .
ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ١١١-١١٢ .
(٥٢) القرطبي ، صلة الطبرى ، ص ٣١ . ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ص ١١٣ .
(٥٣) الرشيدى ، حسن الصفا والابتهاج ، ورقة ١٩ .
(٥٤) الجزيرى ، درر الفوائد ، ص ٢٣٤ .
(٥٥) القرطبي ، المصدر السابق ، ص ٧٥ ، ٨١ ، ٩٦ .
(٥٦) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٤٠٨ .
الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٦ ، ص ٢٨٧ .

ولعل الذي شجعهم على ذلك هو النجاح الذي حققه الزعيم العلوي عمر بن يحيى الفاطمي في سفارتـه لدى القرامطة وهم في عنفوان خطرهم وقمة مجدهم فتمكن بتأثيره الروحي عليهم من اقناعهم سنة ٣٢٧هـ بفتح الطريق للحجاج وحمايتهم لهم مقابل ضريبة تؤديها الخلافة العباسية (٥٧) كما أسلفنا . وهذا ما حدث بالفعل فقد حفظت لنا المصادر التاريخية أن القرامطة تولوا حماية الحجاج في طريقهم الى مكة من سنة ٣٢٧ ـ ٣٢٩هـ (٥٨) .

وكان أول من شغل منصب أمير الحج من العلويين على أرجح الآراء هو أبو الحسن محمد بن عبد الله العلوي (٥٩) سنة ٣٤٣هـ فقد أقام شعائر الحج للمسلمين في تلك السنة ، ثم استمر في هذه الولاية حتى سنة ٣٥٤هـ (٦٠) حيث أسندت لأبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد العلوي نقيب الطالبيين (٦١) فأخذ يسير الحج مرة بنفسه (٦٢) أو بنواب يعينهم من قبله (٦٣) .

ويبدو أن العلويين لعبوا دورا هاما في هذه الولاية وحقق نقيبهم أبو أحمد نجاحا كبيرا في تلك المهمة المنوطة به ، الأمر الذي دعا الخلافة العباسية في عهد الطائع لله سنة ٣٨٠هـ الى تفويضه تلك الولاية تفويضا مطلقا هذا الى جانب نقابته للطالبيين والنظر في المظالم (٦٤) ، واستخلاف ولديه المرتضى والرضى في ذلك ، وخلع عليهما من دار الخلافة (٦٥) .

وقد جاء في هذا التفويض الذي يتضمن الأمر له (٦٦) « بأن يسيّر حجيج بيت الله الحرام الى مقصدهم ويحميهم في بدايتهم وعودتهم ويرتبهم في سيرهم ومسلكهم ، ويرعاهم في ليلهم ونهارهم حتى لا تنالهم شدّة ولا تصل اليهم مضرّة ، وأن يريحهم في المنازل ويوردهم المناهل ، ويناوب بينهم في النهل والعلل ويمكنهم من الارتواء والاكتفاء مجتهدا في الصيانة لهم ، ومعذرا في الذب عنهم ومتلوما على متأخرهم ومتخلفهم ومنهضا لضعيفهم ومهيضهم ، فانهم حجاج بيت الله الحرام ، وزوار قبر الرسول عليه السلام ، قد هجروا الأوطان وفارقوا الأهل والاخوان وتجشموا المغارم الثقال وتعسفوا السهول والجبال يلبون دعاء الله عز اسمه ويطيعون أمره ويؤدون فرضه ويرجون ثوابه ، وحقيق على المسلم المؤمن أن يحرسهم متبرعا ويحوطهم متطوعا فكيف من تولى ذلك وضمنه وتقلده واعتنقه » (٦٧) .

فاضطلع أبو أحمد بتسيير الحجيج الى مكة المكرمة وأناب عنه في تلك المهمة (٦٨) أبا الحسن محمد بن الحسن الأقساسي (٦٩) ، غير أنه لم يلبث أن عزل عن منصبه سنة ٣٨٤هـ (٧٠) . ولعل ذلك يعود الى هيبته وقوة شخصيته فخشي صمصام الدولة أن ينفس عليه مكانته فتسبب في

(٥٧) الصولي ، محمد بن يحي ، اخبار الراضي ، نشر ج. هيورث . دين ـ مطبعة الصادق بمصر ، ص ٢٤١ .
(٥٨) نفس المصدر ، ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٠٥ .
(٥٩) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ٢٤٥ .
(٦٠) الجزيري ، درر الفوائد ، ص ٢٤٤ .
(٦١) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٦ ، ص ٣٤ .
(٦٢) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٢١ وما بعدها .
(٦٣) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٢٨٠ .
(٦٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ١٥٧ .
(٦٥) نفس المكان .
(٦٦) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ١٠ ، ص ٢٥٢ .
(٦٧) أنظر هذا المرسوم كاملا في صبح الأعشى للقلقشندي ، جـ١٠ ، ص ٢٤٧ـ٥٤ .
(٦٨) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ١٦٠ـ١٦٢ .
(٦٩) وقع كثير من الخطأ في نسبة أبي الحسن فجاءت الأفتاسي والأقساسي وغير ذلك . وصحة نسبته الأقساسي بالقاف المعجمة بعدها سين مفتوحة . نسبة الى اقساس وهي قرية بالكوفة ينسب اليها جماعة من العلويين . انظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص ١٣٦ .
(٧٠) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٦٧ .

عزله [٧١]

غير أن المكانة التي يتمتع بها عند بهاء الدولة جعلته يعيده الى منصبه سنة ٣٩٤هـ [٧٢] وأسند اليه الى جانب امرة الحج ولاية قاضي القضاة والمظالم ، ونقابة الطالبيين [٧٣]، ولقبه الطاهر الأوحد ذا المناقب [٧٤]٠

فباشر أبو أحمد جميع هذه الأعمال الا القضاء . فانه لم يتمكن من ذلك لامتناع الخليفة القادر من الاذن له فيه [٧٥]، ولعل ذلك يعود الىأمور مذهبية لأن أبا أحمد هذا كان كما يقول ابن تغرى بردى [٧٦]« رافضيا هو وأولاده على مذهب القوم » في حين أن الخلافة العباسية خلافة سنية ٠ ومهما يكن من أمر فانه بقي في امرة الحج حتى وفاته سنة ٤٠٠هـ [٧٧]٠

ويبدو أن تقليد أبي أحمد الموسوي وغيره من العلويين تلك المناصب على هذه الصورة يعني وجود ادارة مركزية في مقر الخلافة العباسية تتولى تنظيم الحج وتسييره تحت امرة أمراء يقومون بهذه المهمة نيابة عن أمراء الحج الذين يعينون من قبل الخلافة العباسية ويتمركزون في بغداد العاصمة ٠ ومن أمثال هؤلاء الأمراء النواب أبي عبد الله محمد بن أحمد[٧٨] في عهد الشريف الموسوي وأبي الحسن الأقاسي خلال امارة الشريف المرتضى [٧٩]٠ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد استطاع العلويين بنفوذهم أن يحققوا للخلافة العباسية بعض المكاسب السياسية والأدبية في مكة المكرمة ، وأن يحولوا دون وقوع بعض الكوارث التي كانت تنزلها قبائل البدو بالحجاج العراقيين ٠ على أن ما تم على يد الزعيم العلوي نور الهدى أبو الغنائم سنة ٤٦٣هـ [٨٠] من اقناع شريف مكة محمد بن جعفر بن أبي هاشم في قطع الخطبة للخليفة المستنصر بالله وتغيير معالم المذهب الفاطمي [٨١] في مكة لهو غاية النجاح الذي حققه أمراء الحج من العلويين لصالح الخلافة العباسية ٠

ولما قويت دار الخلافة العباسية نتيجة سيطرة السلاجقة عليها ، وأصبحت قادرة على ايقاف تعديات قبائل البدو على ركب الحجيج بما تملكه من قوة عسكرية ، وعلى كسب ولاء شريف مكة بما يقدمونه له من مساعدات اقتصادية ٠ لم تعد الخلافة في حاجة الى تأثير العلويين الروحي في هذا الميدان ، لذلك أسندت ولاية الحج الى أمراء أقوياء لم يعرفوا غير لغة السلاح والمال٠

وكان أول هؤلاء الأمراء الأتراك ختلغ المعروف بالطويل [٨٢] ، فقد تولى امرة الحج سنة ٤٦٨هـ [٨٣] ٠ وقد قوبل هذا التعيين بالتذمر من العلويين وأنصارهم في بداية الأمر حيث قامت

---

(٧١) نفس المصدر ، ص ٢٢٣ ٠
(٧٢) نفس المصدر ، ص ٢١٠ ٠
(٧٣) ابن الأثير ، **الكامل** ، جـ٧ ، ص ٢٢٤ ٠
(٧٤) نفس المكان ٠
(٧٥) ابن الأثير ، **الكامل** ، جـ٧ ، ص ٢٢٤ ٠
(٧٦) **النجوم الزاهرة** ، جـ٤ ، ص ٢٢٣ ٠
(٧٧) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ ٠
(٧٨) ابن الجوزى ، **المنتظم** ، جـ٨ ، ص ١٩ــ٢٠ ٠
ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ص ٢٦١ ٠
(٧٩) نفس المكان ٠
(٨٠) العيني ، **عقد الجمان** ، جـ١١ ، ورقة ٦٢ ٠
العصامي ، **سمط النجوم** ، جـ٤ ، ص ١٩٩ ٠
(٨١) أنظر ص ٨٠ من هذا البحث ٠
(٨٢) الرشيدى ، **حسن الصفا والابتهاج** ، ورقة ٢٥ ٠
(٨٣) الجزيرى ، **درر الفوائد** ، ص ٢٥٦ ٠

فتنة في موسم هذه السنة تزعمها كما يقول الجزيري[٨٤] « عبيد مكة » ولكن الأمير التركي تمكن من اخمادها بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة وهزمهم هزيمة شنيعة[٨٥] .

والظاهر أن هذه الحركة كانت ردا على التغيير الذي طرأ على امرة الحج بنزعها من العلويين واسنادها الى الترك ، وأن محمد بن أبي هاشم كان متواطئا مع هؤلاء العبيد لصلته بهم ولأنه لا يستطيع أن يجاهر الخلافة بمعارضته لحاجته الى دعمهم وهذا الاجتهاد له ما يبرره خاصة اذا علمنا أن أمير الحج الأسبق أبا الغنائم الزينبي قد احتج على هذا التغيير وكتب الى الخليفة يقول : « بأن أمر الحج مردود اليّ ، ومتى تولاه غيري كان عزلا لي ، وأمراء مكة علويون ، ومتى خرج اليهم (يعني الأمير الجديد) لم يتمكنوا من رعاية الحاج »[٨٦] .

وتدعم هذه الحادثة حادثة أخرى وقعت في العام التالي ذلك أن الشيعة في مكة تزعموا ثورة ضد حجاج العراق فتمكنوا من كسر واحراق المنبر الذي أرسله المقتدر[٨٧] بل ان أبا هاشم نفسه ضرب صفحا عن موالاة العباسيين وخطب للمستنصر[٨٨] .

ومهما يكن الأمر فقد نجح الأمير ختلع في تلك المهمة المنوطة به في السنوات التالية . ولعل ذلك يعود الى قوته وشجاعته فقد كانت له وقعات مع عرب البرية استطاع خلالها أن يقهرهم وينتصر عليهم[٨٩] حتى أصبحوا يخافون بأسه[٩٠] ، كما استطاع أن يكسب المسلمين الأتقياء في مكة المكرمة بما كان له من سيرة حسنة ، ومحافظة على الصلاة في جماعة وتلاوة للقرآن حتى قيل « بأنه كان يختم القرآن في كل يوم »[٩١] ويختص العلماء والقراء برعايته[٩٢] .

هذا الى جانب ما أنجزه من اصلاحات تتمثل في بناء المشاهد والمساجد والمصانع بين مكة والمدينة[٩٣] . لذلك استمر في ولايته حتى توفي سنة ٤٧٩هـ[٩٤] .

ثم خلفه في امرة الحج تركي آخر هو نجم الدين الحسباني واستمر في تلك الولاية حتى سنة ٤٨٥هـ[٩٥] . والظاهر أن الحسباني لم يكن في مقدرة ختلع اذ لم يلبث العرب أن تغلبوا عليه[٩٦] ، فتوقف ركب الحج العراقي تبعا لذلك سنة ٤٨٦هـ[٩٧] « وانقطعت الخطبة للعباسيين وبطل الحاج من العراق »[٩٨] .

وعلينا هنا أن نتساءل عن أوضاع أمراء الحج المصري واليمني ودورهم في اقامة الحج للمسلمين بمكة المكرمة - وقبل الدخول في هذا الموضوع لا بد وأن أشير الى ما سبق وأن ألمحت اليه بأن الحجاج المصريين كانوا يؤدون شعيرتهم الدينية قبل الفاطميين تحت زعامة أمير الحج العراقي ، غير أن المصادر التي بين أيدينا تشير الى أن مصر نافست العراق قبل مجيء الفاطميين في

---

(٨٤) نفس المكان .
(٨٥) العيني ، عقد الجمان ، جـ١١ ، ورقة ٧٥ .
(٨٦) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ورقة ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .
(٨٧) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠٣ .
(٨٨) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ١ ، ص ١٨٧ .
(٨٩) العيني ، عقد الجمان ، جـ١١ ، ورقة ٧٥ . ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠٣ .
(٩٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٩ ، ص ٣١ .
(٩١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٢٣ .
(٩٢) نفس المكان .
(٩٣) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٣١ .
(٩٤) نفس المكان .
(٩٥) الرشيدي ، حسن الصفا والابتهاج ، ورقة ٢٥ .
(٩٦) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ .
(٩٧) الجزيري ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٥٧ .
(٩٨) ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٠٣ .

بعض السنوات على تلك الولاية ، وأن ذلك بدأ منذ سنة ٣٤٠هـ فقد جاء عن الرشيدي الذي يورد هذه الرواية ـ قوله [٩٩] : « وظهور ناموس الحاج المصري ونصرته (على الحاج العراقي) وهو أول ظهور للناموس المصري وقيامه بمكة المشرفة وظهور أمرة واشتداد كلمته وسطوته » . وكان أمر الحج المصري في تلك الفترة هو قاضي مصر عمر بن الحسين بن عبد العزيز [١٠٠] .

على أن زعامة مصر لموكب الحجيج لم تتضح الا بعد أن قويت شوكة الخلفاء الفاطميين وبنيت القاهرة المعزية فأصبح أمر ولاية الحج اليهم ، مع احتفاظ المراكز الاسلاميـة الأخـرى كبغداد وغيرها ، بارسال أمراء للحج من قبلها ، ولكن هؤلاء الأمراء كانوا اذا وصلوا مكة « يصيرون ـ على حد قول الرشيدي ـ كالتوابع لأمير الحـاج المصري فانه هو المقدم عليهم »[١٠١].

غير أن المصادر التي بين أيدينا لم تشر الى أمراء الحج المصري في العهد الفاطمي الا اشارات طفيفة ولم تسهب في ذلك على صورة متسلسلة كما هو الشأن في تناولها لأمراء الحج العراقي ، ولعل ذلك يعود الى أن تلك المصادر كتبها مؤرخون سنيون فحمل بعضهم التعصب للمذهب الى اغفال هذه الناحية ، في حين أن المصادر الفاطمية المعاصرة على كثرتها وغزارة مادتها قد دثرت [١٠٢] ولم يصل الينا معظمها . فسيرة المعز لابن زولاق[١٠٣] ، وتاريخ المسبحي[١٠٤] ، ومؤلف القضاعي في الخطط[١٠٥] ، وتاريخ بن الطوير[١٠٦] ، وتاريخ بن المأمون[١٠٧] ، وغيرها مما كتب خلال العصر عن مشاهدة ودراسة مباشرة واتصال وثيق بالأشخاص والحوادث والشئون قد ضاع واندثر .

كمـا أن المؤرخين المتأخرين عن العصر الفاطمي أمثـال النويري والقلقشنـدي ، والمقريزي وابـن تغري بردي ، والعمري ، والفاسي ، وغيرهم من الذين اطلعنا على مؤلفاتهم وظفرنا بآثارهم قد انتفعوا بتلك المصادر الفاطمية المعاصرة ، ولكن لا ندري فلعلهم سلكوا سنن من سبقوهم من المؤلفين السنيين ، أو أن الولايـة على الحـج لم تلفت نظرهم حتى يوصلوها الينا ومع ذلك فقد حفظوا لنا كثيرا من الفصول والشذور الهامة من التاريخ الفاطمي « ولا سيما نظم الدولة الفاطمية ، ورسومها ومواكبها ومظاهر قوتها وعظمتها وبذخها »[١٠٨].

ومهما يكن من أمر فقد وردت تلميحات في بعض المصادر ـ سواء من ناحية تنظيم الحج أو ذكر أسماء الأشخاص الذين تولوا امارته ـ تبرهن على أن الخلفاء الفاطميين كانوا يرسلون أمراء حج ليس لمرافقة الحجيج من بركة الجب الى مكة فحسب ، بل كانوا يتولون اقامة مناسك تلك العبادة لجميع الحجاج الذين كانوا يصلون من مختلف أنحـاء العالـم الاسلامـي . فقد ذكـر الجزيري[١٠٩] « أن أمير بغداد (كان في سنة ٣٥٨هـ) نقيب الطالبيـين أبـو أحمـد الحسين بـن

(٩٩) حسن الصفا والابتهاج ، ورقة ٢١ .
(١٠٠) الجزيري ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٤٢ .
(١٠١) الرشيدي ، المصدر السابق ، ورقة ٤ .
(١٠٢) الأعظمي ، عبقرية الفاطميين ، ص ٨٦ .
(١٠٣) ينقل المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا شذرات مفيدة من سيرة المعز لابن زولاق . انظر : جـ١ ، ص ١٣٥ ومـا بعدهـا .
(١٠٤) بقي من كتاب المسبحي (في تاريخ مصر) الجزء الاربعون وهو مخطوط بمكتبة الاسكوريال بمدريد رقم ٥٣٤ (أسبانيا) وقد حصلت على صورة فوتغرافية من ذلك الكتاب .
(١٠٥) اسم الكتاب ، المختار في ذكر الخطط والآثار ، في خطط مصر . انظر ، كحالة ، عمر ، معجم المؤلفين ، طبـع بيروت ، جـ١٠ ، ص ٤٣ .
(١٠٦) مؤرخ فاطمي لم يصلنا شيء من كتبه ، وانما ينقل عنه كثير من المؤرخين الذين جاءوا بعـده أمثال المقريزي والقلقشندي وابن تغري بردي وغيرهم . انظر : المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١١٣ .
(١٠٧) كحالة ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٧ .
(١٠٨) عنان ، الحاكم بأمر الله ، ص ١٠ .
(١٠٩) درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٤٤ .

موسى ، وخطب بالحرمين واليمن للمعز بن المنصور العبيدي صاحب مصر ، وبطلت الخطبة لبني العباس ، وفرق لأجلها قائدهم من مصر أموالا عظيمة » ·

ويتضح من هذا النص ان أبا أحمد الموسوي كان أميرا على الحج العراقي فقط وليس اميرا على موسم الحج كله ، ولو كان كذلك لقال : « وحج بالناس أبو أحمد الموسوى »[(١١٠)] كما هو واضح في السنة التي قبلها ، في حين أن الأمير الفعلي كان كما يعتقد القائد المصري بدليل أن الخطبة أقيمت للخليفة المعز وبطلت الخطبة لبني العباس على حد قول الجزيرى[(١١١)]·

ثم اخذت هذه الصورة تقترب من الوضوح فقد أشارت المصادر أن العزيز بالله أرسل في سنة ٣٦٥هـ اميرا علويا من قبله لاقامة الدعوة له بمكة بعد أن قطعت عن الفاطميين بعد موت المعز فتمكن ذلك العلوي من اعادة سيطرة الفاطميين على مكة واقامة الحج للمسلمين في موسم تلك السنة واعادة الدعوة للعزيز بالله على الرسم الذي كان متبعا في عهد والده المعز[(١١٢)]· وهكذا فان عبارة « وحج بالناس » بما في تلك العبارة من التعميم تعطي دليلا كافيا على تزعم مصر لموكب الحجيج في تلك السنة وفي السنوات السابقة من عهد المعز حيث كانت مراسيم هذه السنة مشابهة لتلك التي كانت تجري في عهده ·

غير أن تلك الصورة لم تلبث أن أصبحت واضحة تماما فقد تولى اقامة الحج للناس في سنة ٣٦٧هـ أمير فاطمي هو باديس بن زيرى الصنهاجي[(١١٣)]، وكان باديس هذا أميرا قويا وسياسيا بارعا فقد تمكن من استعمال حيلة بارعة مع اللصوص استطاع عن طريقها أن يبتر يد أكثر من ثلاثين منهم[(١١٤)] فاراح الحجاج من شرهم[(١١٥)]·

ونسير مع الزمن وتسكت المصادر حتى سنة ٤٠٨هـ حيث كان أمير الحج من جانب المصريين هو عمر بن مسلم بن محمد بن عبد الله العلوي[(١١٦)]، وهذه الرواية التي ترجح الجانب المصري على العراقي في امارة الحج لهذه السنة يمكن قبولها لاعتبارات ثلاثة : فالاعتبار الأول عدم ورود ترجمة لعمر بن مسلم هذا في تاريخ بغداد[(١١٧)]، وكما هو معلوم أن هذا الكتاب يعتبر موسوعة تاريخية لتراجم البغداديين حتى ممن هم أقل مكانة من أمير الحج ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فان اسم مسلم يتردد دائما في أسماء علويي مصر وقلما يرد في أسماء العلويين الذين يقيمون في ظل الخلافة العباسية · أما الاعتبار الثالث ـ الأهم ـ فهو ما ذكره صاحب كتاب درر الفوائد المنظمة باسلوبه حيث يقول[(١١٨)]« وحج بالناس عمر بن مسلم بن محمد بن عبد الله العلوي ، ولم يحج من العراق أحد » · ويكفي عدم ورود حاج العراق دليلا على أن أمير الحج في تلك السنة كان أميرا مصريا ·

غير أن ارسال الفاطميين أميرا للحج من قبلهم لم يلبث أن توقف في الفترة من سنة ٤٠٩هـ الى سنة ٤٢٤هـ[(١١٩)]، فتولى اقامة الحج للمسلمين أمير مكة أبو الفتوح[(١٢٠)] تحت الشعارات الفاطمية

(١١٠) الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٤٤ ·
(١١١) نفس المكان ·
(١١٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ٨١ · ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ١١٠ ·
(١١٣) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٤٦٧هـ ·
(١١٤) الرشيدى ، حسن الصفا والابتهاج ، ص ٢٢ ·
(١١٥) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٠١ ·
(١١٦) الرشيدى ، المصدر السابق ، ص ٢٤ ·
(١١٧) الخطيب ، البغدادى ، جـ١١ ، ص ١٨٥ـ٩٣ ·
(١١٨) الجزيرى ، ص ٢٥٢ ·
(١١٩) الرشيدى ، حسن الصفا والابتهاج ، ورقة ٢٤ ·
(١٢٠) نفس المكان ·

ومع أننا لا نعرف الأسباب التي أدت الى هذا التغيير في أسلوب الفاطميين تجاه ولاية الحج ، الا أنه من المعتقد أن المصريين اكتفوا بارسال أمير للركب طوال الطريق الى مكة المكرمة ، حتى اذا وصل اليها تولى أبو الفتوح اقامة الحج لجميع المسلمين، ولعل ذلك يعود الى مقدرة أبي الفتوح وكفاءته من الوجهة الدينية في حين أنه لم يتوفر للحاج المصري من تنطبق عليه شروط امارة الحاج في الحالة الثانية .

وقد استمر الحال على ذلك حتى سنة ٤١٩هـ حيث انقطع ركب الحاج المصري ابتداء من هذه السنة مع بقاء أبي الفتوح في ولاية الحج[١٢١] باسم الفاطميين وتحت شعاراتهم حتى سنة ٤٢٤هـ كما تقدم .

أما ركب الحجيج في عهد الفاطميين فلم يصل الى ما وصل اليه في العصور المتاخرة من حيث الدقة والتنظيم . فقد رأينا أن المحمل في تلك العصور كان يشتمل على وظائف متعددة واختصاصات متنوعة يتولاها أناس كثيرون ويرتبطون جميعا بأمير المحمل[١٢٢].

أما في العهد الفاطمي فلم تسعفنا المصادر الا بذكر وظيفتين فقط من وظائف الركب وهما وظيفة الأمير ووظيفة القاضي ، ويمكن أن نفهم من سياق الحديث عن الحاج وظيفة أخرى هي وظيفة البريد أو سابق الحاج[١٢٣] كما تسميه المصادر .

وقد كان الأمير يفوض رسميا من الخليفة الفاطمي بخطاب خاص يتضمن كل الأعمال التي يتعين عليه أن يضطلع بها . وقد حفظ لنا القلقشندي وثيقة هامة تختص بتقليد امارة الحج في عهد الفاطميين . وهي تحتوي على معلومات قيمة تحدد أبعاد تلك الوظيفة والمهام المنوطة بصاحبها ، وقد جاء في تلك الوثيقة[١٢٤] « وأن أولى ما صرف أمير المؤمنين اليه همته ، ووفر عليه رعايته مثابرا عليه وناهضا لحق الله تعالى فيه ، النظر في أمر رفق الحجيج الشاخصة الى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام ، وردّه الى من حل محلك من الدين وتميز بما يميز به صلحاء المسلمين من العلم ورجاحة الحلم ونفاذ البصيرة وحسن السريرة وعدل السيرة ، ولذلك رأى أمير المؤمنين أن قلدك أمر رفق الحجيج المتوجهة الى الحرمين المحروسين ، وولاك الحرب والأحداث بها واثقا باستقلالك وغنائك وسدادك واصابة آرائك ، فتقلد بما قلدك أمير المؤمنين بعزم ثاقب ورأى صائب ، وهمة ماضية ، ونفس سامية ، وشمر فيه تشميرا يعرب عن محلك من الاضطلاع ، ويدل على استقلالك بحق الاصطناع ، وخص الحجاج بأتم الأحظ ، وكن من أمرهم على تيقظ ، واعتمد ترقبهم في السير ، وسوّ في رعايتهم بين الصغير والكبير ، فانهم جميعا الى الله متوجهون ، والى بيته الحرام قاصدون ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وافدون وقد استقربوا بعيد الشقة ،واستدمثوا خشن المشقة ، رغبة في ثواب الله وعفوه والنجاة من عقابه ... ، وتقربا اليه بارتسام أمره وطاعته وايجابه للحرمة بالحلول في عراص بيته وأفنيته فمرافدتهم واجبة ومساعدتهم لازبة حتى يصلوا الى بغيتهم وقد شملتهم السلامة في الأنفس والأموال والأمنة في الخيل والرجال متوجهين وقارّين وقافلين بعد أن يشهدوا منافعهم ويؤدوا مناسكهم ويعملوا بما حدّد لهم . وردهم في سيرهم عن الازدحام ورتّبهم على الانتظام ، وراعهم في ورود المناهل ، وامنعهم من التحادث عليها والتكاثر فيها حتى لا ينفصلوا منها الا بعد الارتواء ووقوع التساوي والاكتفاء ، وقدّم أمامهم من يمنعهم من التسرع وأخّر وراءهم من

(١٢١) نفس المصدر ، ورقة ٢٥ .
(١٢٢) انظر : الجزيري ، درر الفوائد ، ص ١١٧ وما بعدها .
(١٢٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٨ ، ١٧ ، ٢١ وما بعدها في أماكن متفرقة .
(١٢٤) صبح الأعشى ، جـ١٠ ، ص ٤٠٤ـ٤٠٦ .

يحفظهم من التقطع ، ورتّب ساقتهم ، ولا تخل بحفظهم من جميع جهاتهم ، وطالع أمير المؤمنين في كل منزل تنزله ومحل تحله بحقيقة أمرك ليقف عليها ويمدك بما ينهضك فيها ٠٠ هذا عهد أمير المؤمنين اليك فتدبره عاملا عليه ، متبصرا بما فيه ، عاملا بما يحسّن موقعه لك ، ويزيدك من رضا الله وثوابه ان شاء الله » ٠

أما الوظيفة الثانية من وظائف ركب الحجيج في عهد الفاطميين فهي وظيفة القاضي ولعل الداعي اليها هو الطابع العسكري والسياسي الذي تتصف به وظيفة أمير الحج ولا سيما في هذا العهد بالذات بحيث يفتقر فيه الأمير الى المعرفة التامة بأحكام الشريعة الاسلامية التي تمكنه من الفصل في الخصومات التي تنشأ بين أفراد قافلة الحج ، لذلك نشأت وظيفة قاضي الركب ، وهي ذات شقين : الشق الأول ويختص بالحكم في المنازعات التي يستوجب النظر فيها من الوجهه الشرعية ، والشق الثاني وهو كما يتضح من النص التالي يتعلق بتقديم الفتوى للحاج في كل ما يتصل بتأدية مناسكهم ٠

وقد عثرنا على نص بتقليد قضاء الركب السلطاني في عهد الفاطميين وهو يوضح اختصاصات القاضي الذي يصاحب ركب الحجيج الى مكة ، ومما جاء فيه[١٢٥]« رسم بالأمر الشريف ٠٠٠ أن يستقر (المكلف بهذه المهمة في قضاء الركب المصري) لما اختص به من غزارة علومه وافاضة فضائله المتنوعة الى قوته في الحق وتصميمه ، فان مثله من يختار لهذه الوظيفة الجارية بين وفد الله الذين هم أحق ببراءة الذمم ، وأولى بمعرفة حكم الله تعالى فيما يجب على المتلبّس بالاحرام والداخل الى الحرم ، وأحوج الى الاطلاع على جزاء الصيد فيما جزاء المتعرض اليه مثل ما قتل من النعم الى غير ذلك من ثبوت الأهلّة التي تترتب أحكام الحج عليها ، والحكم في محذورات الاحرام وما يجب على المتعرض اليها ، فليباشر هذه الوظيفة في الوقت المشار اليه على عادة من تقدمه فيها مجتهدا في قواعدها التي هو أولى من نهض بها وأحق من يوفيها » ٠

وتلحق بوظيفة القاضي وظيفة أخرى هي وظيفة شهود الركب وهؤلاء « تكتب لهم ـ كما يقول القلقشندي ـ مربعات شريفة من ديوان الوزارة »[١٢٦] ٠

وتمتاز وظيفة الشهود بالثبات وعدم التغيّر اذ يحتفظ بها أصحابها حتى تعجزهم الأمراض والاصابات والكبر عن مواصلة السفر[١٢٧]٠

أما وظيفة البريد فاننا لم نجد عنها اشارة صريحة في النصوص التي بين أيدينا ولكننا مع ذلك نعتقد بوجودها مع ركب الحجيج في الطريق الى مكة وفي مكة نفسها فقد تضمن تقليد أمير الحج هذه الاشارة « وطالع أمير المؤمنين في كل منزل تنزله ومحل تحله بحقيقة أمرك ليقف عليها ويمدك بما ينهضك بها »[١٢٨]، وليس هناك من وسيلة تتولى تنفيذ هذه المهمة غير البريد ٠ هذا الى جانب ما تشير اليه المصادر بوصول سابق الحاج[١٢٩]٠ وسابق الحاج هذا ـ وهو الذي يحمل البشارة بتمام الحج ـ يقطع المسافة من مكة الى القاهرة في مدة لا تتجاوز أحد عشر يوما[١٣٠]، في حين أنها تستغرق شهرا كاملا[١٣١]بسير الحجاج العاديين ٠ أما الوسيلة التي

(١٢٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ١١ ، ص ٤٤٢ـ٤٣ ٠
(١٢٦) صبح الأعشى ، جـ١١ ، ص ٤٤٣ ٠
(١٢٧) الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة ، ص ١٢٤ ٠
السليمان ، العلاقات الحجازية المصرية ، ٨٧ ٠
(١٢٨) القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٤٠٦ ٠
(١٢٩) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، في اماكن متفرقة ٠
(١٣٠) القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ١٤ ، ص ٣٨٦ ٠
(١٣١) نفس المكان ٠

تستخدم في الحالة الأولى فهي النُّجب السريعة[١٣٢]، وهذه النُّجب نعتقد بأنها دواب البريد .

وكان يقوم بهذا الدور في العراق في خلافة الراضي والمتقي رجـل يعرف بالخلنجي ذكـر الصولي[١٣٣] أنه « كان يحمل الخريطة الى مكة ويسبق بالأخبـار ويبشر بسلامة الناس وتمـام الحج » .

أمـا اليمن فلم يسبق لهـا أن تزعمت العالم الاسلامي طوال تاريخها في العصور الاسلامية وحتى بعد ضعف الخلافة العباسية وقيام دول مستقلـة باليمن فان هـذه الـدول كانت تدين بالولاء الأدبـي والمذهبي لاحـدى الخلافتين العباسية أو الفاطميـة ، لذلك لـم تستطـع منافسة هاتين الخلافتين على ولاية الحج في تلك الفترة .

وكانت اليمن قد عرفت هذه الولاية الاسلامية فاخذت كل دولة فيها ترسل ركب حجيجها عبر الطرق البرية في كل عام[١٣٤]، وطبيعي أن كل ركب من هذه الركوب كان يراسه أمير من قبل الدولة التي توفده حتـى اذا وصل مكة المكرمة انضم الى لواء الخلافة التي يؤيدها من الوجهة السياسية والمذهبيـة ليؤدي فريضة الحج تحت شعاراتهـا ، ومن المعلوم أن اليمن في تلك الفترة كانت منقسمة الى دويلات بعضها يؤيد الخلافة العباسية والبعض الآخر يؤيد الخلافة الفاطميـة ويدعو لها[١٣٥].

غير أن اليمن لم تلبث أن واتتها الفرص في بعض السنوات لتولى زعامة العالم الاسلامي في موسم الحج فقد حدث أن علي بن محمد الصليحي توجه الى مكـة المكرمة ، في سنة ٤٥٥هـ[١٣٦]، وقضى على الفوضى التي كانت مستشرية فيها بسبب تنازع الأشراف بعد وفاة شكر بن أبي الفتوح ، وأقـام الحج بالناس جميعـا في تلك السنة[١٣٧] ، وقدم كثيرا من الأيادي البيضاء لأهل مكة والحجاج على حد سواء[١٣٨] .

ولكـن الصليحـي رغـم هـذا الانتصار والكسب السياسي والأدبي الذي حققه في مكة فانه لم ينفرد بتلك المأثرة ، بل عمل كل هذا باسم امامه الخليفـة المستنصر بالله الفاطمـي صاحب مصر[١٣٩] ، حيث خطب باسم الخليفة أولا ، ثم تـلاه بذكر اسمـه واسم زوجتـه السيدة أسماء بنت شهاب[١٤٠] .

ولم تتكرر هذه الفرصة مرة ثانية لليمن اذ لم يلبث الصليحي أن قتل على الصورة التي سبق شرحها ، ودخل خلفاؤه في مشاكل داخليـة في القطر اليمني حالت دون تدخلهم في مكة مرة أخرى في حين ارتمت مكة في أحضان الدولة العباسية بعد تلك الحادثة ، فعادت الى بغداد زعامة العالم الاسلامي في مواسم الحج كما تقدمت الاشارة اليه .

---

(١٣٢) نفس المكان .
(١٣٣) اخبار الراضي . ص ٩٨ . ٢٤٥ .
(١٣٤) العمري . مسالك الأبصار . جـ٢ . ورقة ٦-٣ .
(١٣٥) كانت الدولة الزيادية واليعفرية والنجاحية تؤيد الخلافة العباسية ، في حين أن الدولة الصليحية كانت تؤيد الخلافة الفاطمية . (ابن الديبع . قرة العيون . في اماكن متفرقة) .
(١٣٦) المقريزي . الذهب المسبوك . ص ٦٦ .
(١٣٧) الجزيري . درر الفوائد . ص ٢٥٥ .
(١٣٨) سبط ابن الجوزي . مرآة الزمان . جـ١٢ . ورقة ٨٨ .
(١٣٩) بامخرمة . تاريخ ثغر عدن . ص ١٦٣ .
(١٤٠) نفس المكان .

الهدايا التي تصحب قوافل الحج الى مكة المكرمة

وقد جرت العادة أن تصحب قافلة الحج هدايا في بعض السنوات لتعلق بالكعبة المعظمة ، وتاريخ الاهداء للكعبة في الاسلام قديم يرجع الى الهلالين التي غنمها المسلمون عندما فتحوا المدائن ، ولما وردا الى المدينة بعث بها عمر بن الخطاب الى الكعبة فعلقا بها[١٤١].

ثم توالت الهدايا الى الكعبة في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين وحكام الاسلام المعاصرين لهم[١٤٢]. نذكر من ذلك القناديل التي بعث بها الخليفة المطيع الى مكة سنة ٣٥٩هـ ، وكانت كلها فضه ما عدا قنديلا واحدا منها كان ذهبا زنتـه ستمائة مثقال[١٤٣].

واهدى صاحب عمان بعد سنة ٤٢٠هـ محاريب مبنية زنة المحراب أزيد من قنطار وقناديل كانت في غاية الاحكام ، وقد سمرت المحاريب في الكعبة مما يلي بابها[١٤٤].

على أن هدية « الشمسة » كانت من أعظم الهدايا التي تصل الى مكة مع ركب الحجيج في كل سنة[١٤٥]. وكانت خلال هذه الفترة موضع اهتمام الخلفاء العباسيين والفاطميين على حد سواء .

ويرجع تاريخ الشمسة الى عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله فقد ذكر الأزرقي أنه بعث « بشمسة عملها من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد بسلسلة من ذهب تعلق في وجه الكعبة »[١٤٦].

وقد سار العباسيون على هذا التقليد فكانوا يرسلون الشمسة الى مكة في كل موسم[١٤٧]، مع قافلة مستقلة ضمن ركب الحجيج . وتعرف هذه بقافلة الشمسة[١٤٨]، وكانت تبعث من العراق برفقة قائد تعينه دار الخلافة فاذا وصل الى مكة يدفعها الى حجبة الكعبة ، ويشهد عليهم بقبضها ، ثم يعلقونها بالكعبة كما هو متبع[١٤٩]. وقد استمرت شمسة الخلفاء العباسيين في الورود الى مكة مع قافلة الحج العراقي كل سنة حتى أخذها القرامطة[١٥٠] ضمن الغنائم التي حصلوا عليها عند هجومهم على مكة سنة ٣١٧هـ .

وعندما امتد النفوذ الأخشيدي الى مكة عمل كافور شمسة لمولاه أونوجور بن الأخشيد[١٥١]، ثم أخذ يبعثها الى مكة مع ركب الحاج المصري في كل سنة[١٥٢]، وكان يسير بها الى الحرم جعفر بن محمد الموسوي ، ثم ابنه ابو الحسين ، ثم ابنه مسلم ، ثم أبو تراب بعد أخيه الى أن أخذها

(١٤١) الأزرقي . **أخبار مكة** . جـ١ . ص ٢٢٤ - القطبي . **اعلام العلماء الإعلام** . ط١ . القاهرة (١٩٥٠م) . ص ٥١ .
(١٤٢) لمعرفة المزيد من المعلومات عن الهدايا التي كانت تهدى الى الكعبة . أنظر : الأزرقي ، المصدر السابق . ص ٢٢٤-٢٧ . الفاسي . **شفاء الغرام** . جـ١ . ص ١١٦-١٩ .
(١٤٣) الفاسي . المصدر السابق ص ١١٨ . رفعت . **مرآة الحرمين** . جـ١ . ص ٢٧٩ .
(١٤٤) نفس المصدرين ونفس المكان .
(١٤٥) المقريزي . **اتعاظ الحنفا** . جـ١ . ص ١٤١ .
(١٤٦) الأزرقي . **اخبار مكة** . جـ١ . ص ٢٢٥ .
(١٤٧) المقريزي . المصدر السابق . جـ١ . ص ١٤١ .
(١٤٨) النويري . **نهاية الأرب** . جـ٢٣ . ص ٣٢٨ .
(١٤٩) المقريزي . المصدر السابق . ص ١٤١ .
(١٥٠) العمري . **مسالك الأبصار** : تحقيق احمد زكي . القاهرة . (١٩٢٤م) . جـ١ . ص ٦٢ .
(١٥١) المقريزي . المصدر السابق . ص ١٤٢ .
ابن ميسر . **تاريخ مصر** . ص ٤٤ .
(١٥٢) نفس المصدرين ونفس المكان .
ص (٣٧) من هذا البحث .

القائد الفاطمي جوهر الصقلي من أبي تراب[١٥٣].

وكان المعز لدين الله ، أول خليفة فاطمي يعمل شمسة للكعبة في أواخر سنة ٣٦٢هـ . وقبل أن يرسلها الى مكة في العام التالي نصبها على ايوان قصره في يوم عرفة من ذلك العام[١٥٤]. وقد وصفها المقريزي بأن[١٥٥]« سعتها اثنا عشر شبرا في مثلها ، وأرضها ديباج أحمر ، ودورها اثنا عشر هلالا ذهبا ، وفي كل هلال اترجّـة ذهبا مشبك ، جوف كل اترجّـه خمسون درّة كبيض الحمام ، وفيهـا الياقوت الأحمـر ، والأصفر والأزرق ، وفي دورها مكتوب آيـات الحج بزمرد أخضر ، وحشو الكتابة درّ كبار لم ير مثله . وحشو الشمسة المسك المسحوق ، فرآهـا الناس في القصر ومن خارجه لعلو موضعها » .

وقد تعرض لذكر الشمسة كثير من المؤرخين المعاصرين ممن عني بنشر التراث الاسلامي أو تناول بعض موضوعاته بالدراسة والتحقيق ، غير أن هؤلاء المؤرخين ـ مـع اعترافنـا بجهودهـم وفضلهم ـ قد وقعوا في بعض الأخطـاء عند ذكرهم للشمسة سواء فيما يتعلق باللفظ أو المعنى . فأوردهـا بلفظ الشمسية ، وفسروها على أنها كسوة الكعبة التي كان يرسلها الفاطميون في كل سنة الى مكة[١٥٦].

وقبل أن نتسرع في أحكامنا لا بد من استعراض النصوص التي بين أيدينـا لنصل الى حكم صحيح فيما يتعلق بالشمسة ، وهل هي كسوة الكعبة ؟ أم أنها شيء آخر ؟

يقـول المقريزي[١٥٧] : « وأول من عمـل الشمسة أمـير المؤمنين جعفر المتوكل على الله » وهذا يعني أن الشمسة شيء جديد عمله المتوكل وقدمه للكعبة بخلاف الكسوة التي كانت معروفة من قبل الاسلام[١٥٨]. كما أن الشمسة كانت تسلم للشيبيين ثم تسترد منهم بعد انتهاء المدة المخصصة لها[١٥٩]، ويعاد بها مع قافلة الحج[١٦٠]. أمـا الكسوة فكانت تبقى على الكعبـة حتى تستبدل بكسوة أخرى ثم توزع في حينها[١٦١]. هـذا الى أن سعة الشمسة اثنـا عشر شبرا في مثلها[١٦٢]. وهذه المساحة صغيرة جدا اذا قيست بحجم الكعبة . وفوق ذلك فقد كانت الشمسة تعلق بسلسلة في وجه الكعبة ، أما الكسوة فكانت تغطي سائر البيت[١٦٣].

ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن الشمسة شيء مختلف تماما عن الكسوة ، وأنها نوع من الحلية التي كانت تزين بها واجهة الكعبـة في مواسم الحج . أما الأدلة على ذلك فهي كثيرة جدا ويمكن ان نورد بعضا منها فيما يلي :

١ ـ ورد ذكرها في المصادر التي تعني بتاريخ مكة تحت باب « معاليق مكة وما اهدى اليها في معنى الحلية »[١٦٤] وهذا الباب مستقل عن باب كسوة الكعبة .

---

(١٥٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٤٢ . ابن ميسر ، تاريخ مصر ، ص ٤٤ .
(١٥٤) المقريزي ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٨٥ .
(١٥٥) اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٤٠ـ٤١ .
(١٥٦) ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ١٥١ .
حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٤٢ ، ٥٨٣ .
(١٥٧) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٤١ .
(١٥٨) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٧٧ .
(١٥٩) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٤١ .
(١٦٠) النويري ، نهاية الأرب ، جـ٢٣ ورقة ٣٢٧ .
(١٦١) القلقشندي ، المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .
(١٦٢) المقريزي ، الخطط ، ص ٢٨٥ـ٨٦ .
(١٦٣) القلقشندي ، المصدر السابق ، ص ٢٨١ـ٨٢ .
(١٦٤) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ١١٦ .

٢ ـ ذكر الأزرقي أن شمسة المتوكل عملت من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد وأنها كانت تعلق بسلسلة من ذهب في وجه الكعبة في كل موسم ـ كما تقدم ـ ٠

٣ ـ أنها وردت في بعض المصادر مقترنة بالياقوته التي كان يبعثها المأمون ومن جاء بعده من الخلفاء العباسيين الى الكعبة ، وأنها كانت تعلق معها في كل سنة[١٦٥].

٤ ـ أن الكسوة كانت تعمل من النسيج بينما كانت الشمسة تعمل من الذهب والأحجار الكريمة ، وأنها لا صلة لها بالنسيج الا في أرضيتها التي كانت تعمل كما يذكر المقريزي « من ديباج أحمر »[١٦٦].

٥ ـ أن معاجم اللغة العربية ذكرتها بهذا المعنى ولكن بلفظ « الشمس » تذكيرا وتأنيثا والجمع شموس[١٦٧]، وقالت ان من معانيها أنها ضرب من القلائد والحلي[١٦٨]، وأنها معلاق القلادة في العنق[١٦٩]، ومن هنا يتضح أنها لا صلة لها بالكسوة ، وأنها كانت من المعاليق التي تزين بها واجهة الكعبة ٠

وكان المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال قد وقع في هذا الخطأ في النشرة الأولى لكتاب اتعاظ الحنفا سنة ١٩٤٨م ، ولكنه تداركه في طبعته الثانية للكتاب نفسه سنة ١٩٦٧م ، عندما وجد كلمة « الشمسة » مكتوبة بدون ياء في المخطوطة التي اعتمد عليها في النشرة الأخيرة، فعمل على تصحيح هذا الخطأ وتعرض للتفسيرات المختلفة التي وضعت لهذه الكلمة[١٧٠].

اما عذره في غلطته السابقة فكان ـ كما يذكر ـ خطأ من سبقه في هذا الميدان حيث رسموا هذه الكلمة « الشمسية » بزيادة ياء ، والظاهر أن المرحوم الشيال لم يكلف نفسه عناء البحث والتحقيق في هذه الكلمة ، ولو فعل ذلك لوجد أنها وردت بهذا اللفظ « الشمسة » في جميع طبعات أخبار مكة للأزرقي[١٧١]، وكذلك في طبعات ديوان الشاعر تميم بن المعز[١٧٢]، فقد جاء في احدى قصائد هذا الشاعر التي قيلت بمناسبة احتفال نصب الشمسة :

وحبّذا الشَّمسةُ التي نُصِبَتْ يَقصُرُ عنها المَديحُ والخُطَبُ[١٧٣]

والبيت بهذه اللفظة متسق مع سائر القصيدة[١٧٤] عروضيا ولو زيدت ياء مشددة لانتاب البيت شيء من عيوب العروض ٠ وفوق هذا وذاك فقد وردت هذه الكلمة بهذا الرسم « الشمسة » في مسالك الأبصار طبع القاهرة سنة ١٩٢٤م[١٧٥] ، وفي نهاية الأرب للنويري[١٧٦] ، وهما من المصادر التي لا يستغني عنها أي باحث في تاريخ مصر ٠

(١٦٥) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٤١ ٠
(١٦٦) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٤١ ٠
(١٦٧) ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، اعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي ، طبع بيروت ، جـ٢ ، ص ٢٥٨ ٠
(١٦٨) نفس المكان ٠ الجوهري ، الصحاح ، تحقيق احمد عبد الغفور عطار ، طبع مصر ، جـ٢ ، ص ٩٣٧ ٠
(١٦٩) الزبيدي ، تاج العروس ، طبع بيروت (١٩٦٦م) جـ٤ ، ص ١٧٢ ٠
(١٧٠) المقريزي ، المصدر السابق ، ص ١٤٠ـ٤١ ٠
(١٧١) طبع اوروبا سنة ١٢٧٥هـ ، ص ١٥٧ ٠ طبع مكة ، جـ١ ، ص ٢٢٥ ٠
(١٧٢) طبع القاهرة (١٩٥٧م) ص ٥٦ ٠ طبع بيروت (١٩٦٠م) ص ١٥٣ ٠
(١٧٣) ديوان تميم ابن المعز ، ص ٥٦ ٠
(١٧٤) انظر القصيدة كاملة في ديوان الشاعر تميم بن المعز ، ص ٥٥ـ٥٧ ٠
(١٧٥) الأعظمي ، عبقرية الفاطميين ، ص ٥٥ـ٥٧ ٠ العمري ، جـ١ ، ص ٦٢ ٠
(١٧٦) جـ٢٣ ، ورقة ٣٢٧ ٠

وما دمنا قد انتهينا في مناقشتنا لهذه الهدية الباهظة التكاليف والتي تفاني حكام هذه الفترة في عملها وارسالها الى مكة ، الى أنها نوع من الحلية التي كانت تعلق في الكعبة وتزين بها واجهتها ، ينبغي علينا أن نعرف الدوافع التي تكمن وراء ارسال هذا الرمز ، وهل هو نوع من الاصلاحات التي تعني عادة بشئون الأماكن المقدسة ، وتوفر الراحة التامة للحجيج ؟ . أم أنها عمل ديني غايته القربة الى الله للحصول على أجره وثوابه ؟ والواقع أن هدية الشمسة ليست من الدين في شيء ، وانما هي ذات طابع سياسي دعائي ، ذلك لأن هذه المناسبة الدينية العظيمة التي كانت – ولا تزال – منتدى يجتمع فيه فيض هائل من المسلمين من جميع أنحاء المعمورة ، كانت فرصة يظهر فيها الخلفاء العباسيون أو الفاطميون أمام هذا الحشد الهائل سيطرتهم الحقيقية على مكة المكرمة . فكان عرض الشمسة في مكان بارز على واجهة الكعبة بحيث يراها جميع الحجاج القادمون ، فضلا عن سكان مكة يعطي دليلا ماديا ملموسا على أن صاحب هذه الهدية هو المسيطر الحقيقي على مكة المكرمة وبالتالي فهو خليفة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

ومهما يكن الأمر ، فقد تفاني الخلفاء في اعداد هذه الهدية القيمة ، وتأنقوا في صنعها وتجميلها . ومن هنا جاءت الشمسة التي عملها المعز متفوقة على سابقاتها يتضح هذا من طريقة عرضها والمفاضلة بينها وبين شمسة بني العباس ، فقد وصف المقريزي حفل الشمسة الذي أقامه المعز بقوله [١٧٢] : « فلما وصل (المعز) الى القصر أذن للناس عامة فدخلوا والشمسة منصوبة على حالها ، فلم يبق أحد حتى دخل – من أهل مصر والشام والعراق – فذكر أهل العراق وأهل خراسان ، ومن يواصل الحج أنهم لم يروا قط مثل هذه الشمسة ، وذكر أصحاب الجواهر ووجوه التجار أنه لا قيمة لما فيها (أي لا تقدر بثمن) وأن شمسة بني العباس كان أكثرها مصبوغا ... وأن مساحتها مثل ربع هذه ... وكذلك كانت شمسة كافور التي عملها لمولاه أونوجور بن الأخشيد » .

وبعد فقد عرضنا في الصفحات السابقة صورة مفصلة لهذه الوظيفة السياسية الدينية التي كانت سائدة في تلك الفترة التي نخصها بهذه الدراسة ، ومن هذا العرض يمكن أن نخرج بالنقاط التالية :

١ – أن امرة الحج كانت متصلة منذ فتح مكة وحتى نهاية الفترة التي نتحدث عنها وأنها كانت من الأهمية بحيث كانت تسند الى أكبر شخصيات الدولة وقادتها .

٢ – أن الخلافة العباسية فازت بنصيب الأسد في الامارة على الحج طوال تاريخها ، وحتى بعد سيطرة الفاطميين على مكة تلك السيطرة التي امتدت نحو قرن من الزمان ، ومع ذلك فقد كان للعباسيين القدح المعلى في تلك الولاية ، ذلك لأنهم استفادوا من العلويين في هذا المنصب ، وما كان لهؤلاء العلويين من تأثير روحي على أولئك الذين يدينون بالمذهب الشيعي ، وهو المذهب الذي كان منتشرا بين معظم القبائل العربية الرابضة على طول طريق الحج العراقي ، هذا الى جانب كونه المذهب الرسمي لطبقات الأشراف الحاكمة في مكة ، ولا سيما في عهد محمد بن جعفر بن أبي هاشم ، فضلا عن رابطة النسب القوية التي تربط بين أمراء الحج العراقي وأشراف مكة .

٣ – أن حرص الخلفاء العباسيين والفاطميين على تأكيد سيادتهم الروحية والزمنية في مكة أمام هذا القطاع الهائل من المسلمين جعلتهم يتبارون في ارسال الهدايا مع أمراء الحج الى مكة المكرمة في كل موسم ، وكانت هذه الهدايا تعرض أمام الملأ من الحجاج محفوفة باعلام تحمل شعارات الخلافة التي ترسلها .

(١٧٢) اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٤١–١٤٢ . ابن ميسر ، تاريخ مصر ، ص ٤٤ .

الفصـــل الثاني

طرق الحج والصعوبات التي تعترض الحاج فيها وإصلاحها

● طرق الحج الى مكة المكرمة ● صعوبات وأخطـار طرق الحج ● اصلاحات طرق الحج ·

طرق الحج الى مكة المكرمة

وطرق الحج التـي سنعرض لها في هـذا الفصل هي التي تسلكها قوافل الحاج العراقـي والمصري واليمني ، وهي التـي تهمنـا في هذه الفترة التي نؤرخ لها ، لأنهـا تأتـي من العواصم ذات العلاقة والتأثير السياسي في تاريـخ مكة حينذاك ، هذا فضلا عن أن قوافل الحاج التي ترد منها كانت أكبر من تلك التي ترد من المواقع الأخرى من حيث عددها وانتظامها [١] ·

هذا وقد تحدث الجغرافيون العرب عن هذه الطرق ومحطاتها وعن المسافات الواقعة بين كل محطة وأخرى محددين ذلك بالبرد والفراسخ والأميال [٢] ، وكذلك عن مياهها ونوعية هذه المياه من حيث العذوبة والملوحة وغير ذلك مما حفظته لنا أشعارهم وأخبارهم [٣] ·

ويكاد معظم الحجـاج يفدون الى مكة المكرمـة عبر طرق برية باستثناء أولئك الذين يأتون بحرا الى موانىء الحجاز من الحجاج المصريين والمغاربـة واليمنيين ، وقلمـا يحج الخراسانيـون والعراقيون عن طريق البحر [٤] ·

على أن أعظم الطرق البرية التي تسلكها قوافل الحج في ذلك الوقت هـو الطريق العراقـي الذي ترد معه القافلة السلطانية ، أو القافلة الرسمية التي ترعاها الخلافة العباسية حيث تخرج هذه القافلـة ـ بعد أن يلتئم شملهـا ويكتمل جمعها ـ من بغداد العاصمة ، وتصل الى الكوفة بعد أن تقطع ثلاث مراحل من بغداد [٥] ، ثم تخرج من الكوفة تجاه الحجاز فتسير في منازل عامرة ومناهل قائمة فيها قصور لخلفاء بني هاشم [٦] ، فأول هذه المنازل القادسية ثم المغيثية ثم القرعا ثم واقصة ثم العقبة ثم القاع [٧] ثم تسير بعد ذلك حتى تصل زبالة بعد أن تكون قد قطعت من

---

(١) السيوطي ، جلال الدين ، حسن المحاضرة ، القاهرة (١٢٩٩هـ) ، جـ٢ ، ص ٢١٩ ·
(٢) نقش أثري يعود الى العصر العباسي الثاني وجد على درب زبيدة قرب مكة محفوظ بمتحف الآثار بوزارة المعارف · رقم (٢٨٥٥) ·
(٣) ابن منقذ ، أسامة ، المنازل والديـار ، تحقيـق مصطفى حجازي ، القاهرة (١٩٦٨م) في أماكن متفرقة ·
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٧ ، ص ٣٢٤ ·
(٥) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣٠٨ · المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٢٤ ·
(٦) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ٣١١ · العلي ، صالح احمد ، طرق المواصلات في الحجاز ، مجلة العرب ، س٢ · جمادى الأولى سنة ١٣٨٨هـ ، جـ١١ ، ص ٩٧٥ ·
(٧) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣١١ ·

الكوفة مائتين وثمانية وأربعين ميلا [٨] · وزبالة قرية عامرة تشتهر بكثرة آبارها ومياهها [٩] ·

ثم تاخذ القافلة في السير منها الى الشقوق ثم بطان ثم التعلبية ، وهي مدينة مسورة [١٠] وبها قصر وجامع وعدد من الآبار الصغيرة والكبيرة [١١] ، ثم زرود فالأجفر ثم فيد · وهي تقع على منتصف الطريق بين مكة وبغداد [١٢] · وبها منبر وأسواق وبرك [١٣] ، وفيها كان ينزل عمال طريق مكة [١٤] · وكان الحجاج يودعون ما ثقل عليهم من أزوادهم وأمتعتهم عند أهلها ، فاذا عادوا أخذوا ما أودعوه بعد أن يدفعوا لهم شيئامن ذلك [١٥] · وكان أهلها يتعاونون مع الحجاج ويقدمون لهم كثيرا من وسائل الراحة والاغاثة في هذا المكان المنقطع [١٦] ·

ثم ترحل القافلة من فيد وتواصل سيرها الى توز وهي على مسافة ٣٠٨ ميلا من الكوفة [١٧] ثم سميرا فالحاجر ثم النقرة (معدن النقرة) وعندها يفترق الطريق الى المدينة والى مكة [١٨] ·

وقد جرت العادة أن يذهب الركب العراقي الى مكة لتادية فريضة الحج ثم يعطف بعد ذلك الى المدينة المنورة [١٩] ، لذلك فهو يأخذ في السير من النقرة على طريق مكة الى مغيثة ثم الى الربذة ومنها يجتاز بعض المحطات الصغيرة الى ذات عرق [٢٠] وهي ميقات أهل العراق ومنها يهلون بالاحرام [٢١] · ثم يواصلون السير الى بستان ابن عامر ومنه الى مكة المكرمة بعد أن يقطعوا مرحلة واحدة [٢٢] ·

أما قافلة الحج المصري فتسلك طريقين الى الأماكن المقدسة ، أحدهما بحري والآخر بري [٢٣] ، فالطريق البحري يخرج الحجاج اليه من القاهرة ، ثم يسيرون الى قوص ومنها الى عيذاب [٢٤] ثم يركبون البحر من عيذاب الى ميناء جدة [٢٥] ، حيث لا تزيد المسافة بين عيذاب وجدة على مائتي ميل [٢٦] ، يقطعها المسافرون في الظروف العادية في مدة لا تتجاوز يومين وليلة [٢٧] ، ثم يتجه الحجاج من جدة الى مكة المكرمة [٢٨] ·

---

(٨) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، طبعة اوروبا ، ص ١٢٥-٢٦ ·
(٩) الحربي ، ابراهيم بن اسحاق ، كتاب المناسك واماكن طرق الحج ، تحقيق حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة (١٩٦٩م) ، ص ٢٨٤-٨٥ ·
(١٠) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ٣١١ ·
(١١) الحربي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٧ ·
(١٢) موزل ، لويس ، طريق الحج العراقي القديم ، مجلة العرب ، السنة السابعة (رمضان ١٣٩٢هـ) ، جـ٣ ، ص ٢٠٣ ·
(١٣) ابن خرداذبة ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ ·
(١٤) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ٣١٢ ·
(١٥) الحربي ، المصدر السابق ، ص ٣٠٦ ·
(١٦) نفس المكان ·
(١٧) موزل ، المصدر السابق ، ص ٢٠١ ·
(١٨) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ٣١١ ·
(١٩) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٠٩ ·
(٢٠) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣١٣ ·
(٢١) ابو الفرج ، نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، طبع اوروبا ، ص ١٨٦ ·
(٢٢) الجزيري ، درر الفوائد ، ص ٤٦٧ ·
(٢٣) السليمان ، العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٦١ ·
(٢٤) نفس المصدر ، ص ٦٢ ·
(٢٥) الادريسي ، نزهة المشتاق · مخطوطة مصورة ، جامعة الرياض برقم ١٩٧ ورقة ١٠٤-١٠٥ ·
(٢٦) السبتي ، القاسم بن يوسف ، مستفاد الرحلة والاغتراب ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، تونس (١٩٧٥م) ، ص ٢١٨ ·
(٢٧) نفس المكان ·
(٢٨) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٧-٥٨ ·

وكان لطريق عيذاب البحري أهمية اقتصادية بالغة (٢٩) ، ولكن لم تلبث أن ازدادت أهميته كطريق للحج ، وذلك بعد الشدة العظمى التي حلت بمصر في عهـد المستنصر (٣٠) ، وقد احتفظ بتلك الأهمية حوالـي قرنين من الزمـان منذمنتصف القـرن الخامس وحتي منتصف القرن السابع الهجري (٣١) حيث عادت للطريق البري اهميته في عهد الملك الظـاهر بيبرس الذي أعـاد تسيير قافلة الحج عبر ذلك الطريق (٣٢) .

وهناك طريق بحري آخر يبـدأ من ميناء القلزم (٣٣) . وقـد حج منـه ناصـر خسرو سنة ٤٣٩هـ حيث خرج من القاهـرة في مطلـع ذي القعدة وبلغـه في الثامن منـه (٣٤) . وتستغـرق المسافة من القلزم الى ميناء الجار الحجازي (٣٥) خمسة عشر يوما (٣٦) . ثم يتجه الحجيج من الجار الى المدينـة المنورة عبر طريق بري يستغرق أربعة أيام (٣٧) .

ويبدو أن طريق القلزم يأتي في المرتبة الثالثة بعـد الطريق البري وطريق عيذاب ، وذلك لطول المسافة البحرية الواقعة بين القلزم والموانيء الحجـازيـة خاصة اذا وضعنـا فـي الاعتبـار الصعوبات والأخطار المترتبة على ركوب البحر فيذلك الوقت .

أما خروج القافلة المصرية عن طريق البر في موسم الحج فكان يسبقه هذا النداء « يا معشر المسلمين ، حل موسم الحـج ، وسيجهز ركب السلطان كالمعتاد وسيكون معـه الجنود والخيل والجمال والزاد » (٣٨) ، وهذا النداء كان يتم في شهر رمضان في عهد ناصر خسرو (٣٩) . أمـا في عهد المقريزي فكان ينادى بذلك في شهر رجب (٤٠) .

وبعد أن يستكمل الحجاج استعداداتهم يبدأون السفر مـن القـاهرة في أول ذي القعـدة فينزلون في بركة الحاج (٤١) ، ويقيمون فيها اقامة قصيرة (٤٢) ، ثم يتحرك ركبهم الى البويب ومنها

---

(٢٩) المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، جـ٥ ، ص ٣٠٠ .
(٣٠) نفس المكان .
(٣١) نفس المكان .
(٣٢) البتنوني ، الرحلة ، ص ٣١ .
(٣٣) القلزم : مدينة ساحلية عظيمة فيها التجار الذين يجهزون الميرة مـن مصر الى الحجاز واليمـن وبهـا مرسى للمراكب ، وأهلها أخلاط من الناس ، وتجارها اهل يسار . اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣٤٠ .
(٣٤) ناصر خسرو ، الرحلة ، ص ١١٠ .
(٣٥) نفس المكان .
والجار : مدينة على ساحل بحر القلزم ، كانت وقتذاك ميناء للمدينة المنورة ترد اليها السفن حاملة للتجارات من الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند ، وهي من المدن المندثرة في وقتنا هذا ولا يعرف موقعها . غير ان الأستاذ حمد الجاسر يذكر ان الجار هو ما يطلق عليها في الوقت الحاضر اسم الرايس . أنظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٩٢ـ٩٤ ، الجاسر ، حمد ، في شمال غرب الجزيرة ، ص ١٩٧ وما بعدها .
(٣٦) رحلة ناصر خسرو ، ص ١١٠ .
(٣٧) نفس المكان .
(٣٨) نفس المصدر ، ص ١٠٩ .
(٣٩) نفس المكان .
(٤٠) المقريزي ، الذهب المسبوك ، ص ١١ .
(٤١) رحلة ناصر خسرو ، ص ١١٠
Ankawi, Abdullah, The Pilgrimage to Mecca in Mamluk Times, London (1974), vol. I, p. 148.
بركة الحاج : وتسمى أيضا ، بركة الجب او جب عميرة . قرية تقع في الشمال الشرقي للقاهرة بنحو خمس ساعات ، وفي غرب الترعة الاسماعيلية بنحو ستة الاف متر ، وفي جنوب الخانقاه كذلك . (مبارك ، على باشا ، الخطط التوفيقية ، جـ٩ ، ص ١٦) .
(٤٢) حدد العمري الاقامة في بركة الحاج بثلاثة او اربعة ايام ، اما الجزيري فيرى أنهـا لا تقل عـن خمسة ايام ، وكلاهما متاخران عن العصر الفاطمي ، واذا جاز لنا ترجيح احد الأقوال فاننا نرجح ما قاله العمرى لقربه من الفترة الفاطمية . انظر : مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ٣٠٧ـ٣٠٩ . درر الفوائد المنظمة ، ص ٤٤٩ .

الى عجرود[٤٣] ثم يستمر الركب في رحلة التفاف حول البحر حتى يصل حفل[٤٤]، ومنها يقطع مراحل متعددة الى أن ينزل الوجه[٤٥]، وهو بلد شحيح الماء مما يسبب عناء كبيرا للحجاج[٤٦]. ثم يسير عدة مراحل حتى يصل ينبع[٤٧] حيث يقيم الحجاج فيها ثلاثة أيام[٤٨]، وهناك يودعون ما ثقل عليهم من أمتعتهم حتى يعودوا، كما يشترون منها حاجتهم مما يصل اليها من المنتجات المصرية عن طريق بحر القلزم[٤٩]، ثم يتحرك الركب من ينبع فيترك عدة منازل صغيرة حتى يصل بدر فرابغ فغليص فبطن مر وأخيرا يدخل مكة المكرمة[٥٠].

وقد اختلف المؤرخون في المدة التي يقطعها الركب المصري الى مكة، فناصر خسرو يحددها بخمسة وعشرين يوما[٥١]، في حين أن القلقشندي يجعلها ثلاثين يوما[٥٢]. ونحن نرجح ما قاله ناصر خسرو لمعاصرته للفترة التي ندرسها، ولسفراته المتكررة من مصر الى الحجاز في تلك الفترة[٥٣]، ولا يعني هذا الاختلاف تغييرا في طريق الحج أو تطورا في وسائل السفر، ولكن يظهر أنه كان نتيجة الاختلاف في مدد الاستراحة التي يمكثها الركب من مكان الى آخر تبعا لحجم القافلة والمراسيم المصاحبة لها، فليس غريبا أن تزداد هذه المدة التي تقطعها قافلة الحج المماليكي في عهد القلقشندي لما هو معروف من الاختلاف في بعض المراسيم وأبهة ركب الحجيج في هذا العهد عنه في عهد الفاطميين.

أما اليمن فالى جانب الطريق البحري[٥٤]، يسلك الحجاج عدة طرق برية، أشهرها الطريق العليا، وهي التي تبدأ من صنعاء[٥٥] مرورا بصعدة فنجران فالطائف ثم تنتهي الى مكة المكرمة[٥٦].

ثم يليه طريق تهامة، وهي تفترق الى طريقين: طريق ساحلية تسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر، وأخرى وهي الجادة السلطانية متوسطة بين الطريق العليا والساحلية[٥٧].

والطريق الوسطى، أهم من الساحلية، فهي تبدأ من تعز وتمر بزبيد، وهي احدى العواصم اليمنية في ذلك الوقت[٥٨]، ثم تسير منها قافلة الحج الى المهجم[٥٩]، ثم جيزان فبيش فضنكان فحلي ابن يعقوب[٦٠]، ومنها ترحل الى يبة ثم قنونا ثم قرما[٦١]، فتأخذ في السير

---

(٤٣) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٤٩. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١٤، ص ٣٨٦.
(٤٤) ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص ١٤٩.
(٤٥) القلقشندي، المصدر السابق، جـ١٤، ص ٣٨٦.
(٤٦) الجزيري، المصدر السابق، ص ٤٥٠.
(٤٧) انظر مراحل الحج كاملة في مسالك الأبصار للعمري، جـ٢، ورقة ٣٠٧-٣٠٩. القلقشندي، المصدر السابق، جـ١٤، ص ٣٨٦ الى ٨٨.
(٤٨) الجزيري، المصدر السابق، ص ٤٥١.
(٤٩) القلقشندي، المصدر السابق، ص ٣٨٧.
(٥٠) رحلة ناصر خسرو، ص ١١٠.
(٥١) نفس المكان.
(٥٢) القلقشندي، المصدر السابق، ص ٣٨٦ وما بعدها.
(٥٣) رحلة ناصر خسرو، في أماكن متعددة.
(٥٤) العمري، مسالك الأبصار، جـ٢، ص ٣٠٦.
(٥٥) كانت صنعاء في ذلك الوقت عاصمة للدولة الصليحية. وكان يخرج منها طريق آخر فيلتقي مع الطريق الوسطى عند المهجم، وهو الطريق الذي سلكه علي بن محمد الصليحي سنة ٤٥٩هـ في حجته التي قتل فيها على يد ابن نجاح.
(٥٦) عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص ٤٢.
(٥٧) نفس المكان.
(٥٨) العمري، مسالك الأبصار ـ قسم اليمن، تحقيق ايمن فؤاد السيد، طبع القاهرة، ص ٤٤.
(٥٩) عمارة، المصدر السابق، ص ٤٢.
(٦٠) البرعي، الديوان، ص ٣٧.
(٦١) اليعقوبي، البلدان، ص ٣١٧.

حتى تلتقي بالطريق الساحلية في السرين [٦٢] . ومنها تقطع القافلة عدة مراحل حتى تصل يلملم [٦٣] وهي ميقات أهل اليمن ، ومنها يهلون بالاحرام [٦٤] ، ثم يواصلون سيرهم حتى يصلوا مكة المكرمة [٦٥] .

وكنت أود بعد ايراد هذه النبذة المختصرة عن طرق الحج ومراحلها المختلفة أن أشير الى بعض المعلومات التي تتعلق بقافلة الحج وما يدور في هذه القافلة من وسائل الرفاهية وعدمها سواء فيما يتعلق بأساليب النقل أو أشكال الطعام والشراب وسواها ، ولكنني آثرت أن أذكر بعض النماذج المختصرة دون الدخول في تفصيلات اذ أن ذلك يحتاج الى بحث مستقل .

فعلى الرغم من أن فريضة الحج مطلب ديني من الوجهة الاسلامية ، وأن المسلمين يذهبون الى مكة لتادية تلك الفريضة الدينية التي هي ركن من أركان الاسلام الخمسة اذا توفرت القدرة والاستطاعة ، الا أن ذوى اليسار والحكومات القائمة تجاوزوا حدود الاستطاعة ، فقد كانوا لا يتورعون في اظهار مختلف وسائل الترف والأبهة التي يضفونها على قوافل حجهم وهي في طريقها الى مكة المكرمة .

فقد كانت لأهل النعيم والترف في مراكبهم على الجمال قباب تضلهم بديعة المنظر عجيبة الشكل ، قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها القشاوات [٦٦] ، وهي كالتوابيت المجوفة ، كانت لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للأطفال تملأ بالفرش الوثيرة ويقعد الراكب فيها مستريحا كأنه في مهاد فسيح ، وبازائه معادله أو معادلته في مثل ذلك من الشقة الأخرى والقبة مضروبة عليهما [٦٧] ، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران أو كيفما أحبا [٦٨] . وقد بلغت بهما حياة الترف والنعيم عندما يصلان الى المرحلة التي يحطان بها للاستراحة أن يضرب لهما سرادقهما في الحال فيدخل بهما راكبين ، وينصب لهما كرسي ينزلان عليه ، فينقلان من ظل قبة المحمل الى قبة المنزل دون لفحة هواء تلحقهما ولا ضربة شمس تصيبهما [٦٩] « فهؤلاء – كما يقول ابن جبير – لا يلقون لسفرهم وان بعدت شقته نصبا، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعبا [٧٠] » .

وتحدثت المصادر عن حجة جميلة بنت ناصر الدولة سنة ٣٦٦هـ [٧١] ووصفتها بأنها كانت غاية في الترف والنعيم ، ومضرب المثل في البر والاحسان ، فقد كان معها أربعمائة محمل على لون واحد ، ولم يعلم في أي محمل كانت [٧٢] ، وأعدت للفقراء خمسمائة بعير تحملهم عليها في الطريق [٧٣] ، كما حملت معها البقول مزروعة في مراكب الخشب ، ولم توقد في مدة اقامتها بمكة الا بشمع العنبر [٧٤] .

وخرج علي بن محمد الصليحي سنة ٤٥٩هـ قاصدا الحج [٧٥] ومعه جميع آل الصليحي

---

(٦٢) عمارة ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .
(٦٣) الجزيري ، درر الفوائد ، ص ٤٧٠ .
(٦٤) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ٣١٧ .
(٦٥) العمري ، مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ٢٠٦ .
(٦٦) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٥٤ .
(٦٧) كان الربيع يعادل أبي جعفر المنصور في احدى حجاته . انظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص ٤٤ .
(٦٨) ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ١٥٤ .
(٦٩) نفس المصدر ، ص ١٥٥ .
(٧٠) نفس المكان .
(٧١) العيني ، عقد الجمان ، جـ١٠ ، ورقة ٨٤ .
(٧٢) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٣٦٦هـ .
(٧٣) غازي ، افادة الانام ، جـ٣ ، ورقة ٣١٢ .
(٧٤) نفس المصدر ، ص ٣١٣ .
(٧٥) ابن القاسم ، غاية الأماني ، جـ١ ، ص ٢٥٦ .

وغيرهم من ملوك اليمن في جمع كبير من الخيل والرجال [٧٦]، وكانت بين يديه خمسمائة فرس مجنوبة عليهـا مراكب الذهب وخمسين هجينـا عليهـا أكـواب الذهب [٧٧]، واصطحب معـه خمسين دواة من ذهب وفضة ، وغير ذلك من أدوات الزينة التي لا تنحصر [٧٨] .

أما عامة الناس فكانوا متباينين في وسائل أسفارهم ومتاعهم ، فبينما كان هناك من يسافر في الشقادف [٧٩] ـ وهي دون القشاوات من حيث الراحة والأبهة ـ والمحـارات وهي التـي تقلهـا الجمال تحت ظلائل تقي من بداخلها حر الشمس [٨٠] . كان هناك من يسافر سيرا على الأقدام من أقاصي البلاد البعيدة الى مكة المكرمة [٨١] .

وبينما كان بعض الحجاج يأتدمون في سفرهم بالعسل والسمن واللحوم [٨٢]، كان البعض الآخر يأكلون في طريق مكة الخبز اليابس بعد أن يدقّ ويطرّ [٨٣] ، بل لقد وجد من بين الحجاج من يخرج في هذا السفر الطويل متوكلين بلا زاد ولامال [٨٤] .

صعوبات وأخطـار طرق الحج

أدت سياسة العباسيين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري الرامية الى الابتعاد عن العرب والتقرب الى الأتراك الى تذمر هؤلاء العرب وسخطهم وبالتالي تمردهم على الدولة العباسية هـذا الى أن فساد الحكم وضعف الادارة المركزية في العصر العباسي الثاني ، وميل الخلفاء الى حياة الترف واللهو والمجون [٨٥] ، ولّد حالة من الحقد والكراهية لدى القبائل العربية الكبرى مما جعلهم ينضمون الى أخطر حركة ناوأت الخلافة العباسية في الجزيرة العربية ، وأعني بذلك حركة القرامطة . وفوق هذا فان امتناع الخلافة العباسية أو عجزهـا عن دفع ما كـان يعطي لهـذه القبائل من أعطيات أوجد حالة من البؤس والحاجة بين أفرادها ، فأخذت تتصدى لقوافل الحج التي ترد الى مكة المكرمة لنهبها والاستيلاء على ما كان يصاحبها من أموال وأمتعة ولعل ما قامت

(٧٦) نفس المكان .

(٧٧) بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ١٦٣ .

(٧٨) نفس المكان .

(٧٩) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٥٥ .

(٨٠) نفس المكان .

(٨١) الأصفهاني ، أخبار اصفهان ، ورقة ٧١ .

(٨٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٣٥٨ .

(٨٣) نفس المصدر ، ص ٣٥٦ .

(٨٤) القشيري ، عبد الكريم بن هوازن ، الرسالة القشيرية ، ط٢ ، القاهرة (١٩٥٩م) ص ٨٤ـ٨٦ .

(٨٥) ان خير ما يصور حياة الترف عند خلفاء هذا العصر ، وفساد الحكم والادارة في دولتهم ، وصرفهم الأموال في غير مستحقيها ، واستنكار القبائل العربية لذلك وخروجهم عليهم . رسالة ابي طاهر التي بعثها ردا على رسالة تلقاها من خليفة بغداد .

وقد جاء في هذا الرد « ... فاما ما ذكرت من قتل الحجيج واخراب الأمصار واحراق المساجد فوالله ما فعلت ذلك الا بعد وضوح الحجة كايضاح الشمس ، وادعاء طوائف منهم انهم ابرار ، ومعاينتي منهم أخلاق الفجار . فحكمت عليهم بحكم الله . ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون . خبرني أيها المحتج لهم والمناظر عنهم في أي آية من كتاب الله أو أي حديث عن رسول الله (ص) اباحة شرب الخمور وضرب الطنبور وعزف القيان ومعانقة الغلمان ، وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام واحتووها من وجود الحرام . وأما ما ذكرت من احراق مساجد الأبرار . فأي مساجد احق بالخراب من مساجد اذا توسطتها سمعت فيها الكذب على الله تعالى ورسوله ... بأسانيد عن مشايخ فجرة بما أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا من الجهالة . وأما تخويفك لي بالله وأمرك بمراقبته فالعجب من بهتك وصلابة حدقتك ، اترى اني أجهل بالله منك وصرفك أموال المسلمين للضفاعنة والظراطين ، ومنعها من مستحقيها . يدعى لهم على المنابر للصبيان ويخطب للخصيان الله اذن لكم أم على الله تفترون » .

انظر هذه الرسالة كاملة في كشف أسرار الباطنية للحمادي . ص ٣٤ـ٣٥ .

به قبائل بني سليم ضد ولاة بني العباس في بعض المدن الحجازية سنة ٢٣٠هـ (٨٦) وما احدثوه من سلب ونهب بين أهلها هو أكبر دليل على تمرد هذه القبائل على السياسة العباسية والخروج عليها .

على أن مطلع القرن الرابع الهجري شهد سلسلة من العمليات المتتالية لقطع الطرق على الحجاج ونهب القافلة السلطانية التي تفد الى مكة المكرمة في كل عام .

ففي سنة ٣٠٢هـ خرجت الأعراب من الحاجر (٨٧) على الحجاج فقطعوا عليهم الطريق وأخذوا ما معهم من الأموال والأمتعة والجمال وسبوا مائتين وخمسين امرأة (٨٨) فخرج عليهم ورقاء بن محمد في العام التالي فاستطاع أن يوقع بهم بناحية الأجفر (٨٩) وقتل جماعة منهم وأسر جماعة أخرى قدم بهم الى بغداد فوثبت عليهم العامة وقتلتهم (٩٠) .

وفي مطلع سنة ٣١٢هـ خرج أبو طاهر الى الهبير فاعترض الحجاج عند عودته من مكة المكرمة ، واستطاع الايقاع بمقدمة قافلة الحجيج ، وأن ينهب ما فيها من أموال وأمتعة (٩١) ولما اتصل الخبر بباقي الحاج أقاموا بفيد حتى فنى زادهم فارتحلوا مسرعين ولكن أبا طاهر اعترضهم ، وقتل معظمهم ، وأسر أبا الهيجاء ابن حمدان أمير القافلة وجماعة من رجال الخلافة وأخذ جميع ما معهم من أمتعة واستولى على جمال الحاج جميعها ، وترك من بقي حيا في موضعه ليموت من الجوع والعطش والشمس (٩٢) .

واستمر خطر القرامطة يتهدد قافلة الحاج العراقي حتى سنة ٣١٧هـ فاستهدف مكة حيث قتلوا ونهبوا الحجاج بها في يوم التروية من موسم ذلك العام (٩٣) ، بل تجاوزوا ذلك الى قلع الحجر الأسود ونقله الى الاحساء كما أسلفنا .

ولم يتوقف الخطر القرمطي على طريق الحاج العراقي طوال تلك الفترة الا بعد اتفاقية سنة ٣٢٧هـ والتي تمت – كما تقدم – على يد الزعيم العلوي أبو علي عمر بن يحيى الفاطمي ، وأصبحت الخلافة العباسية تقدم بمقتضى هذه الاتفاقية ضريبة للقرامطة بلغت في سنة ٣٢٩هـ أكثر من عشرين ألف دينار (٩٤) .

وكان خروج القرامطة وفتكهم بقوافل الحاج العراقي وحصولهم على ضريبة سنوية من الحجاج والخلافة ، بادرة سيئة ، سارت على نهجها كثير من القبائل العربية المقيمة على طول الطريق سواء من حيث انزال الكوارث بالحجاج أو مطالبتهم بدفع الضرائب والمكوس ، فقد حدث أن قبيلة بني هلال ، وهي من القبائل الكبرى في الجزيرة العربية اعترضت ركب الحجيج سنة ٣٦١هـ ونهبته وقتلت عددا كبيرا من الحجاج (٩٥) ، ولم يسلم الا القليل ممن مضى مع الشريف أبي أحمد الموسوي عن طريق المدينة المنورة (٩٦) .

(٨٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص ٢٧٠ .
(٨٧) نفس المكان ، جـ٦ ، ص ١٥٠ .
(٨٨) نفس المكان .
(٨٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٣٠ .
(٩٠) نفس المكان .
(٩١) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٧٧ .
(٩٢) النويري ، نهاية الأرب ، جـ٢٣ ، ورقة ٢٢٥–٢٢٨ .
(٩٣) الدواداري ، الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية ، جـ٦ ، ص ٩٣ .
(٩٤) الصولي ، اخبار الراضي بالله ، ص ٢٠٥ .
(٩٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ٥٧ ، دول الاسلام : جـ١ ، ص ١٧٤ .
(٩٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٦٢ .

وفي سنة ٣٨٤هـ رجع الحجاج العراقيون دون أن يؤدوا فريضة الحج [٩٧] ، أما السبب في ذلك فيعود الى أن الأصيفر الأعرابـي اعترض الحجاج ، وهم في طريقهم بين زبالـة والثعلبية ، ومنعهم من الحج [٩٨] ، وحجته في ذلك أن الدنانير التـي أعطيت لـه في العـام الأول كـانت مزيفة [٩٩] ، وانه لن يفتح لهم الطريق الا بعد انيعطوه رسمه لسنتين [١٠٠] . وقد أدت المحـاورة الى ضياع الوقت فعاد الحجاج دون تأديـة الفريضة [١٠١] ، وكان الأصيفر قد تعهد فيسنة ٣٨٢هـ بتسيير الحاج وحراستهم صادرين وواردين وفي اقامة الخطبة للخليفـة القادر من حد اليمامـة والبحرين الى الكوفة مقابل مبلغ معين من المال . فقبل ذلك منه وحمل اليه خلعة ولواء [١٠٢] .

وفي سنة ٣٩٥هـ لقي الحجاج عناء شديدا ذلك أن ابن الجراح الطائـي اعترض الحجـاج ، وضيق عليهم الخناق ، ولم يفسح لهم الطريق ؛ الا بعد أن ألزمهم بدفـع ضريبة قدرهـا ابـن الجوزى بتسعة آلاف دينار [١٠٣] .

أما بنو خفاجة فقد شنـوا سلسلة من الاعتداءات على قافلة الحاج منذ مطلع القرن الخامس الهجري ، فقد حـدث أن الخفاجيين انتهزوا فرصة مجيء قافلة الحجاج القادمة من بغداد سنة ٤٠٢هـ ، فساروا الى واقصة ، ونزحوا مياه الآبار وألقوا فيهـا الحنظل فلمـا وصل الحجـاج اعترضوهم ومنعوا عنهم الماء ، وقاتلوهم فأكثروا فيهم القتل وأخذوا الأموال ولم يسلم من الحاج الا اليسير [١٠٤] ، ولما علمت بغداد بتلك الحادثة أرسلت جيشا كبيرا للفتك ببني خفاجة ، وأمرت الحسن بن مزيد الأسدى بمحاربتهم فتمكن من الايقاع بهم قرب البصرة . فقتل وأسر منهم جمعـا كبيرا [١٠٥] ، واستطاع استرداد بعض ما وجده من أمتعة الحاج [١٠٦] .

واستمرت خفاجة في تعدياتهـا على ركب الحجيج ، ففي سنة ٤٨٥هـ ، انتهزوا فرصة خروج قافلة الحاج من الكوفة وكان فيها أموال وجنودكثيرون للخلافـة ، فخرج عليهـم بنـو خفاجـة فأوقعوا بهم ثم قصدوا الكوفة فنهبوها [١٠٧] ، فسيرت اليهم بغـداد جيشا لمحاربتهـم ، فلما سمـع الخفاجيون بذلك انهزموا فأدركتهم القوات العباسية ، وأنزلت بهم هزيمة ساحقة كانت سببا في ضعف شأنهم [١٠٨] .

وهكذا نجد أن صعوبة الطريق وأخطـار القبائل جعلت الحج ينقطـع من العراق سنوات عديدة ، حتى لقد بات من المألوف ونحن نستعرض الحوليات في كتب التاريـخ أن نواجه بهـذه العبارة « ولم يحج أحد من العراق في هذه السنة » [١٠٩] ، ولعل خير ما يصور هذه العبارة هو ما جاء في عقد الجمان بأن الحج انقطع من العراق خمسا وعشرين سنة متصلة من سنة ٤٣١ – ٤٥٥هـ [١١٠] .

---

(٩٧) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٤ ، ص ١٦٥ .
(٩٨) ابن الجوزى ، المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ١٧٤ .
(٩٩) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ .
(١٠٠) ابن الجوزى ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ .
(١٠١) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ .
(١٠٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ١٧٠ . ابن الأثير ، الكامل ، جـ٧ ، ص ١٥٩ .
(١٠٣) ابن الجوزى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٩ .
(١٠٤) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .
(١٠٥) نفس المكان . خفاجى ، بنو خفاجة ، جـ١ ، ص ٦٤ .
(١٠٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .
(١٠٧) نفس المصدر ، ص ١٦٥–١٦٦ .
خفاجى ، المرجع السابق ، ص ٧١ .
(١٠٨) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ١٦٥–٦٦ .
(١٠٩) العيني ، عقد الجمان ، جـ١١ ، في اماكن متفرقة .
(١١٠) نفس المصدر ، ورقة ٢ فما بعدها الى ورقة ٥١ .

ولم يكن طريق الحاج المصري الى مكة بأحسن حالا من الطريق العراقي فقد كانت تعتوره كثير من الصعوبات والأخطار من وقت الى آخر ، على أن ما حدث في أواخر سنة ٣٥٤هـ كان قمة تلك الكوارث التي تنزل بالحاج وتعطل الحج الى مكة المكرمة ، فقد قطع بنو سليم الطريق على قافلة المغرب ومصر والشام الحاجة الى مكة المكرمة [١١١]. وقد كانت قافلة عظيمة ضمت الى جانب الحجاج كثيرا من التجار القادمين من الشام هربا من الروم [١١٢] وكانوا قد خرجوا بأموالهم وأهليهم وقصدوا مكة ليسيروا منها الى العراق [١١٣]. فتمكن بنو سليم من اعتراضهم وقتلوا الكثير منهم ، واستولوا على جميع الأمتعة والأموال التي قدرها مسكوية بعشرين ألف حمل [١١٤] . وعاد من بقي من الناس الى مصر والشام [١١٥].

وهذه الحادثة كانت من الشدة والقسوة بحيث شبهها بعض المؤرخين [١١٦] بتلك التي أحدثها القرامطة بحجاج العراق وخراسان في الهبير سنة ٣١٢هـ [١١٧].

على أن بعض هذه الأموال أعيد الى الحجاج [١١٨]، فقد ذكر الجزيري الذي أورد هذه الحادثة أيضا « أن بعض تلك الأموال ردّ الى الحجاج في السنة التي بعدها » [١١٩] ويؤيده في ذلك محمد بن يوسف الكندي [١٢٠]. فقد أشار الى أن صاحب هجر القرمطي أرسل وفدا الى كافور ومعهم نحو مائتي حمل من متاع الحاج الذين قطع عليهم بنو سليم الطريق الى مكة .

أما الطريق اليمني فلم يكن حاله أحسن من الطريقين السابقين من حيث الصعوبة والخطورة فقد تربصت القبائل المسيطرة على هذا الطريق بالحجاج اليمنيين ، وفرضت عليهم الأتاوات الباهظة ، فقد ذكر العمري [١٢١] أنه كان « ينوب كل جمل يخرج من مدن اليمن مثل تعز أو زبيد حتى يصل الى مكة المعظمة مائة درهم سواء كان حاجا أو تاجرا أو معه شيء أو لا شيء معه ، ومن أخل بدرهم منها في مكان عليه فيه قسط منها أخذ في ذلك المكان » .

وكانت قبيلة بني شعبة [١٢٢]، وهي من القبائل التي تسكن جنوب مكة وتنتشر بصورة خاصة في وادي ادام [١٢٣] وما حولها حتى وادي الخضراء [١٢٤]، من أشد القبائل خطورة على الحجاج القادمين من اليمن ، فقد وصفهم ابن المجاور بقوله [١٢٥] « ولم يكن في جميع العالم أضل من هؤلاء القوم ، ولا أسرف ولا أجرم ولا أجسر منهم في أخذ مال الحاج » وقد تمادى هؤلاء الشعبيون في نهب

---

(١١١) مسكوية ، تجارب الامم ، جـ٢ ، ص ٢١٥ .
(١١٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ٣٥ .
(١١٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٧ ، ص ٢٠ .
(١١٤) مسكوية ، المصدر السابق ، ص ٢١٥ .
(١١٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٠ ، ورقة ٦٥ .
ابن الجوزى ، المصدر السابق ، ص ٣٥ .
(١١٦) نفس المكان .
مسكوية ، المصدر السابق ، ص ٢١٥ .
(١١٧) انظر : ص ١٠٤ من هذا البحث .
(١١٨) ذكر سبط ابن الجوزى ما حوته القافلة من الأموال فقال : « فيها الف حمل من متاع مصر ، ومن متاع المغرب اثنا عشر ألف جمل ، وكانت الأموال في الأعدال ، وكان لقاضي طرطوس ويعرف بالخواتيمي فيها ١٢٠ الف دينار » . انظر : مرآة الزمان ، جـ١٠ ، ورقة ٦٥ .
(١١٩) درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٤٤ .
(١٢٠) ولاة مصر ، ص ٢١٤ .
(١٢١) مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ٣٠٦ .
(١٢٢) محمد بن أحمد العقيلي ، قبيلة بني شعبة ، مجلة العرب ، س٨ ، جماديان سنة ١٣٩٤هـ ، جـ١١ ، ١٢ ، ص ٨٩٢ وما بعدها .
(١٢٣) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص ١٢٥ .
(١٢٤) البركاتي ، شرف بن عبد المحسن ، الرحلة اليمانية ، ط٢ ، بيروت (١٣٨٤هـ) ص ١٥ .
(١٢٥) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٥٢ .

الحجيج ، واعتمدوا عليه من الوجهـة الاقتصادية حتى أسموه « جفنة الله »[١٢٦] فكانوا يقولون : « اذا حضر جفنة الله (الحاج) أكل منه الصادر والوارد »[١٢٧].

ولم يقف نشاط بني شعبة عند حد قطع الطريق على الحاج اليمني ونهبه بل تعدى ذلك الى الاغـارة على بعض مشاعر الحـج وانزال الأذى بجميع الحجاج في مكـة نفسها ولا سيمـا عند خروجهم الى منى وعرفات ، فقد كانوا يقطعون الماء على الحجاج ويمتنعون من جلبه اليهم الا بعد الحصول على مبالغ كبيرة من المال[١٢٨].

هذا من جهة ومن جهة ثانية أخذ الشعبيون يعتدون على الحجاج وينهبونهم في بعض المشاعر حتى لقد تعذر عليهم المبيت بمبنى يوم التروية ، بل أخذوا يجتازونها الى عرفات[١٢٩]، كما كانوا يتعجلون العودة الى مكة المكرمة من منى في اليوم الثاني من أيام التشريق[١٣٠]، كل ذلـك كـان بسبب الخوف من بطش تلك القبيلة الضالة[١٣١].

وحتى بعد انتقالهم الى منازلهم الجديدة في درب ملوح الذي عرف فيما بعد باسم درب بني شعبة[١٣٢]، وسلم لذلك الحجاج في مكة المكرمة من شرهم ، فانهم كانوا يسيطرون على جزء من الطريق اليمني ، والظاهر أنهم اختاروا هذا المكان لممارسة نشاطهم ضد حجاج اليمن بعيدا عن أعين الحكومات القوية التي قامت بمكة فيما بعد ٠

وكان الحاج في أوقات الأمن والسلامة من خطر القبائل يعاني الشدائد المخيفة بسبب عوامل الطبيعـة المختلفة التـي تودي بحياة الآلاف من الحجاج ، وتحويل دون وصولهم الى مكة أحيانا ، أو الى أهليهم أحيانا أخرى ، حتي لقد بات من المألوف ونحن نتصفح تراجم عظمـاء المسلمين في تلك الفترة أن نقرأ هذه العبارة « ومـات في طريق الحج »[١٣٣].

ولعل في مقدمة هذه العوامل المخيفة التي تعيق ركب الحجيج هبوب الرياح العاتيـة ولا سيما في أشهر الصيف ٠ ففي سنة ٣٩٧هـ ثارت على الحجاج وهم بالثعلبية ريـح سوداء أظلم لها الجو فلم ير الحجـاج بعضهم بعضا ، وأصابهم لذلك عطش شديد فاضطروا تحت وطأة هذه الظروف القاهرة الى العودة دون أن يحجوا[١٣٤].

ثم تكررت المأساة سنة ٣٩٩هـ حيث هبت على الحجاج ريح شديدة في شهر آب (غسطس) من تلك السنة انعدمت خلالها الرؤية ، وكاد يموت الناس عطشا ، وزاد الطين بلّة اعتراض بني رغبة الهلاليين للحجاج فأجبروهم على العودة بعد أن غنموا منهم مالا كثيرا[١٣٥].

وفي ذى الحجة سنـة ٤٠٢هـ هاجت ريح سوداء على الحجـاج عند وصولهـم الى زبـالة ، وفقدوا الماء فهلك منهم خلق كثير وبلغت المزادة من الماء مائة درهم ، ولـم يستطع من بقى منهـم

---

(١٢٦) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٥٢ ٠
(١٢٧) نفس المكان ٠
(١٢٨) ابن جبير ، الرحلة ، بيروت (١٩٦٤م) ، ص ١٠٢ ٠
(١٢٩) السبتى ، مستفاد الرحلة والاغتراب ، ص ٤٦٨ ٠ ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٢٦ـ٢٧ ٠
(١٣٠) ابن جبير ، نفس المصدر ، ص ١٥٠ ٠
(١٣١) نفس المكان ٠
(١٣٢) محمد احمد العقيلي ، قبيلة بني شعبة ، ص ٨٩٦ ٠
درب ملوح ، أو درب بني شعبة ، ويطلق على مكان بمنطقة جازان وموقعه على الطريق الواصل الى رجال ألمع مقاطعة في أطراف عسير من الناحية الغربية ٠ انظر : العقيلي ، المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (جازان) ، الرياض (١٩٦٩م) ، جـ١ ، ص ١٠٢ ٠
(١٣٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص ٤٢ـ٤٣ ٠ الفاسي ، العقد ، ٥/٦٠ ، ٣/١٢٧ ، ٢/٢٢٦ ـ ٢٧ ٠
(١٣٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ٢٣٨ ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٢٢٨ ٠
(١٣٥) ابن الجوزى ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤ ٠

العودة الا تحت خفارة بني خفاجة [١٣٦] .

وكانت قلة الماء وندرته وصعوبة مذاقه من الشدائد الكبرى التى يعانيها الحاج فقد شبه ابن المعتز صاحب السؤ الذي لا بد منه بماء طريق الحج اذ يقول [١٣٧]:

كماء طريق الحج في كل منهل   يذم على ما كان منه ويشرب

وكان الحاج كثيرا ما يتعرض للهلاك بسبب العطش فقد حدث أن أصيب الحجاج بعطش شديد عند منصرفهم من مكة سنة ٢٩٥هـ مات بسببه جمع كبير من الناس ، وكان هذا العطش من الشدة والقسوة بحيث قال الطبرى : « وسمعت بعض من يحكي أن الرجل كان يبول في كفه ثم يشربه » [١٣٨] .

وفي أواخر سنة ٣٥٧هـ نزلت بالحجاج كارثة عظيمة ، ذلك أنهم تعرضوا في طريقهم الى مكة لعطش شديد أودى بحياة الكثير منهم [١٣٩].

وفي سنة ٤٠٣هـ سبق بعض الأعراب الحجاج الى مواضع الماء فنزحوها وغوروها وطرحوا الحنظل في الآبار ، ثم اعترضوا الحجاج ومنعوهم من الاجتياز وطالبوهم بأموال كثيرة ، وبلغ منهم العطش مبلغا كبيرا حتى مات منهم خمسة عشر ألفا، ولم ينج منهم الا عدد يسير [١٤٠]، فكوتب عامل الكوفة ـ وكان مكلفا بحفظ طريق الحاج [١٤١] ـ بأن ينهض لتأديب الأعراب الذين أقدموا على هذا العمل فلحق بهم في البرية وأوقع بهم وقتل كثيرا منهم ، وأسر من وجوههم خمسة عشر رجلا، وأرسلهم الى بغداد فشهروا هناك وأودعوا الحبس وأجيع منهم جماعة ، وأطعموا المالح وتركوا على دجلة ـ فشاهدوا الماء دون أن ينالوا منه شيئا حتى ماتوا عطشا [١٤٢].

وفي سنة ٤٠٥هـ أصيب الحجاج بعطش شديد في طريق الحج العراقي تسبب في هلاك الكثير منهم ، وكانوا عشرين ألفا ، فسلم ستة آلاف فقط [١٤٣]، وقد اشتد بهم هذا العطش حتى شربوا أبوال الجمال وأكلوا لحومها [١٤٤].

ورغم قلة الماء وانعدامه ، وما يترتب على ذلك من صعوبات تجاه الحجاج فان الأمطار تهطل بغزارة في بعض السنوات مكونة سيولا جارفة في الأودية لم تلبث هذه السيول أن اصبحت تشكل خطرا كبيرا على أرواح عشرات الآلاف من الحجاج ففي سنة ٣٤٩هـ « انصرف حجاج مصر بعد أن قضوا حجهم ، فنزلوا في واد بمكة فلما كان بالليل حملهم الوادى وهم لا يشعرون فغرق أهل مصر ، وكانوا عددا كبيرا وكنسهم الماء مع أمتعتهم الى البحر » [١٤٥].

وهناك حادثة أخرى ارخت لها سنة ٤٨٩هـ ، وهي أن الحجاج العراقيين نزلوا بواد بعد

(١٣٦) نفس المصدر ، ص ٢٥٧ .
(١٣٧) الديوان . بيروت (١٩٦١م) ، ص ٧١ .
(١٣٨) تاريخ الأمم والملوك . جـ١١ ، ص ٤٠٤ .
القرطبي ، صلة الطبرى ، ص ١٤ .
(١٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٧ ، ص ٣٠ .
ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٢١١ .
(١٤٠) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ٢٦١ .
(١٤١) متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ٢ ، ص ٨٩ نقلا عن مسكوية ، جـ٥ ، ص ٢٤٧ .
(١٤٢) نفس المكان .
(١٤٣) ابن الجوزى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .
(١٤٤) نفس المكان .
(١٤٥) مسكوية ، تجارب الأمم ، جـ٢ ، ص ١٨٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ٢٥٨ .

نخلة » فأتاهم سيل عظيم فاغرق أكثرهم ، ونجا من تعلق بالجبال وذهب المال والدواب والأزواد وغير ذلك »[١٤٦].

ولا يعني ما ذكر من هذه الصعوبات والأخطار حصرا دقيقا لكل ما يعوق الحج ويؤذي الحجاج ، ولكن يعني أن هذه الحوادث التي استقطبت اهتمام المؤرخين وحظيت بعنايتهم ، لم تكن الا قليلا من كثير من تلك التي أهملت ، وانماذكروا هذه الوقائع القليلة ، لأنها ارتبطت بحوادث مهمة كموت عدد كبير من الناس ، أو رجوع الحجاج الى أوطانهم دون تأدية الفريضة ·

وقد عبر هؤلاء المؤرخون عن بعض ما أهمل من تلك الكوارث بقولهم : « وقد لاقى الحجاج في هذه السنة مشقة كبيرة » أو نالتهم « مصيبة من شدة الغرق »[١٤٧] وتحت هاتين العبارتين تكمن كثير من المآسي التي حلت بحجاج تلك العهود ·

ونتيجة لتلك الصعوبات والأخطار التي كان يلاقيها الحاج وهو في طريقه الى مكة المكرمة أخذ المسلمون في بعض الأقطار الاسلامية يعزون أنفسهم بزيارة أماكن ومساجد لم تلبث أن اكتسبت قداسة في نفوسهم وأصبحت الزيارة اليها في نظرهم تعادل حجة ، وقد استشرى ذلك الابتداع في القرنين الرابع والخامس الهجريين · وكان من شأن تلك الأماكن أن فازت بنصيب كبير من مجموع الحجاج الذين يقصدون مكة المكرمة ·

فقد كان هناك من يزعم أن سبع زورات لمسجد يونس قرب نينوى القديمة ـ وهو المسجد الذي اختطته جميلة بنت ناصر الدولة ـ يعدلن حجة[١٤٨].

وهناك مسجد الجند باليمن ، وهو مسجد جميل البناء وصف بأنه على غرار مسجد ابن طولون بمصر . وأول من اختطه معاذ بن جبل الأنصارى رضي الله عنه حين أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن[١٤٩]، ذكر الخزرجي أن « أهل اليمن وما حولها من القرى يذكرون أنه ورد في فضل هذا المسجد أخبار كثيرة عن رسول الله (ص) بأن زيارته في أول جمعة من رجب تعدل عمرة أو حجة »[١٥٠] غير أن عمارة ـ وهو يكاد يكون معاصرا للفترة التي نؤرخ لها ـ يذكر أنهم[١٥١] « يروون في فضل هذا المسجد (الجند) أخبارا من جهة الآحاد » وكلمة الآحاد دليلا كافيا على ضعف هذه الروايات التي تكسبه تلك الفضيلة . ومع هذا فقد بالغ اليمنيون في زيارة هذا المسجد حتى أطلق على تلك الزيارة لفظ الحج فقد جاء في تاريخ اليمن « ولم يزل أهل تلك الآفاق يزورونه في كل سنة حتى كثر ذلك فصار موسما من مواسم الحج ، ومنسكا للعامة ، واذا كان لبعضهم على بعض حق قال أمهلني حتى ينقضي الحج ، وما يعنون الا زيارة الجند »[١٥٢].

أما مدينة بيت المقدس فقد استفادت من هذه الظروف الجديدة ، واستطاعت أن تقاسم مكة بعض ما كان يأتي اليها من الحجاج المسلمين ، فقد ذكر ناصر خسرو في النصف الأول من القرن الخامس الهجري أنه كان يذهب الى القدس من سكان الشام وما حولها من لا يستطيع الذهاب الى مكة المكرمة من أهل هذه الولايات حاملين معهم أبناءهم فيتوجهون الى الموقف ويضحون

(١٤٦) نفس المصدر ، جـ٩ ، ص ١٨٠ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٩ ، ص ٩٧ ·
ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، جـ٥ ، ص ١٤٨ ·

(١٤٧) العيني ، عقد الجمان ، جـ١١ ، ورقة ٧١ ·

(١٤٨) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٣٦ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ٢ ، ص ٩١ ·

(١٤٩) ابن الديبع ، قرة العيون ، ورقة ١٠٥ · صالح محمد امين ، تاريخ اليمن (عصر الولاة) ، ط١ ، القاهرة (١٩٧٥م) ، ص ٥١ ·

(١٥٠) العسجد المسبوك ، ورقة ٥٩ ·

(١٥١) تاريخ اليمن ، ص ٤١ ·

(١٥٢) نفس المكان ·

ضحية العيد كما هي العادة[١٥٣]، ويحضر هناك في بعض السنين أكثر من عشرين ألف شخص في أوائل ذى الحجة[١٥٤].

وكان هناك ثمة أماكن مبتدعة يذهب اليها على نحو مشابه للحج الى مكة المكرمة فقد ذكر المقدسي أن الخليفة المتوكل على الله العباسي قد بنى الى الغرب من سامراء كعبة ، وجعل حولها طوافا واتخذ منى وعرفات ليغرّ بذلك العمل أمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه[١٥٥].

وهنا لا أستطيع الجزم بصحة هذه الشبهة التي ينفرد بها المقدسي عن الخليفة المتوكل العباسي وهو المعروف بتعقله فقد أبطل القول بخلق القرآن وعاقب على ذلك حتى شبه بعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الذي أبطل سنة آبائه في سب العلويين على المنابر وفي رده المظالم الى أصحابها[١٥٦]، هذا الى أن اليعقوبي وهو معاصر للمتوكل لم يورد هذه الرواية ، ولم يشر الى أن هذا الخليفة قد اتخذ أي بناء سوى مدينة الماحوزة التي أطلق عليها اسم الجعفرية[١٥٧]والتي قتل بعد بنائها بتسعة أشهر سنة ٢٤٧هـ[١٥٨]، هذا من جهة ومن جهة ثانية لم يكن المتوكل بالخليفة الذي يرغب في بقاء قواده المتمردين عليه الى جانبه حتى أنه حاول الابتعاد عنهم أكثر من مرة[١٥٩] ، كما أن القوّاد أنفسهم لم يرغبوا في مفارقته قيد أنملة لخوفهم من أن يحتل غيرهم مكانتهم أو يعمل بنفسه على التخلص منهم[١٦٠].

وفي مصر ذكر ابن ميسر[١٦١] انه « كان من عادة الخليفة المستنصر في كل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم الى جب عميرة (يوم عرفة)[١٦٢]بهيئة أنه خارج للحج على سبيل الهزوء والمجانة ، ومعه الخمر في الروايا عوضا عن الماء ويسقيه الناس كما يفعل بطريق مكة » .

وقد أنشده مرة شاعره الشريف أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدرة العقيلي[١٦٣]هذه الأبيات :

« قُمْ فَانحر الراحَ يَومَ النَّحرِ بالماءِ ولا تُضَحِّ ضُحى الاّ بصَهبَاءِ
وادْرِكْ حَجيجَ النَّدامى قَبلَ نَفرِهِمُ الىَّ مِنَى قَصفِهِمْ معْ كُلِّ هَيفَاءِ
وَعُجْ عَلى مَكّةِ الرَّوحاءِ مُبتكِراً فَطُفْ بِها حَولَ رُكنِ العُودِ والنّائي»[١٦٤]

وقد اورد المقريزي وهو المعروف بحياده وانصافه هذه الرواية دون أن ينفيها[١٦٥].

---

(١٥٣) الرحلة ، ص ٥٥ .
(١٥٤) نفس المكان .
(١٥٥) أحسن التقاسيم ، ص ١٢٢ـ٢٣ .
(١٥٦) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ٧ ، ص ١١ .
(١٥٧) كتاب البلدان ، ص ٢٦٦ .
(١٥٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص ٣٠١ وما بعدها .
(١٥٩) حاول جعفر المتوكل الابتعاد عن الأتراك والتقرب من العرب فنقل مقره الى دمشق (المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص ١١٥) ثم الماحوزة . (اليعقوبي ، البلدان ، ص ٢٦٦) .
(١٦٠) المسعودي ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١١٥ وما بعدها .
(١٦١) تاريخ مصر ، ص ١٣ .
(١٦٢) المقريزي ، الذهب المسبوك ، ص ١٣ .
(١٦٣) انظر ترجمته في الثعالبي : يتيمة الدهر ، ط٢ القاهرة (١٩٥٦م) ، جـ١ ، ص ٤٢١ـ٢٤ .
(١٦٤) العقيلي ، ديوان الشريف العقيلي ، تحقيق زكي المحاسني ، طبع القاهرة ، ص ٣٧ .
(١٦٥) المقريزي ، الخطط ، طبع لبنان ، جـ٢ ، ص ٢٨٨ .

وهنا يجد الباحث نفسه في حيرة أمام هذه الرواية التي تدور أحداثها حول خليفة من أتقى الخلفاء الفاطميين ، وأكثرهم اهتماما بالحج والأماكن المقدسة يجسدها شاعر معاصر لـه معروف بخمرياته [١٦٦]، وتربطه به صلة نسب قوية [١٦٧]، ولكن لا ندري ! هل كانت هذه الخرجة الماجنة الساخرة بالحج مقصورة على المستنصر وحده [١٦٨]، أم أنها كانت رمزا يدل على رأي الفاطميين في الحج ؟ وهذا ما سنعرض له في مناسبة قادمة ٠

كما شهدت هذه الفترة التي ندرسها ظهور بعض الانحرافات التي قامت بهـا بعض الفرق الضالة لمحاولة صرف الناس عن الحج الى مكة المكرمة ، امـا لتحقيق مكاسب سياسية واقتصاديـة لأقاليمهم التي ظهروا بها ، أو للنيل من تلك الفريضة الدينية والحط من منزلة مكة بين المسلمين ٠

ومما له دلالته في هذا المجال ما قام به قرامطة البحرين من الاعتداء على مكة المكرمة وأخـذ الحجر الأسود ونقله الى الاحساء محاولين بذلك نقل الحج اليها بدلا من مكة [١٦٩].

وفي اليمن عمد علي بن الفضل ـ وهو من القرامطة أيضا ـ حينمـا استفحـل أمره باليمن واستولى على المناطق التهامية بها [١٧٠] عمد الى قطع طريق الحج اليمني ، ومنع الناس من تأديتهـم لفريضتهم الدينية ، وقال : « حجوا الى الجرف ٠٠٠ واعتمروا الى الأثلاث » [١٧١].

وتبعا لهذا فقـد ظهرت بعض الاتجاهات الصوفيـة التي تعارض الحـج وتدعو الى القيام ببعض الأعمال التـي يمكن التقرب بهـا الى الله للحصول على أجره وثوابـه فقـد أثر عن أبـي عبدالله محمد البلخي وهو صوفي عاش في القرن الرابع قوله « عجبت لمـن يقطع البوادي والقفـار ليصل الى بيت الله وحرمه ، لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه ، حتى يصل الى قلبه ، لأن فيه آثار مولاه » [١٧٢].

وحكى عبد الله السارجي : أن نظام الملك استأذن السلطـان ملكشاه السلجوقي فـي الحج فأذن له ، وهو اذ ذاك ببغداد ، فعبر بالآلات والأقمشة وضرب الخيام على شط دجلة [١٧٣]. قال : فأردت أن أدخل عليه ، فرأيت بباب الخيمة التي فيهـا الوزير فقـيرا تلوح عليـه سيمـا القوم (الصوفية) فقال يا شيخ قلت نعم ! فأعطاني رقعة مطوية سلمتها للوزير [١٧٤] ففتحها فاذا فيها : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وقال لي اذهب الى الحسن وقل له أين تذهب الى مكة ؟ حجك ها هنا أما قلت لك أقم بين يدي هذا التركي وأغن أصحاب الحوائج من أمتي فرجع نظام الملك » [١٧٥].

وأثر عن أحد الصوفية أنه أمر حاجا بالرجوع عن الحج والقيام بحقوق أمه ٠ وقال له [١٧٦]: « ان رعاية حق الأم أفضل من الحج فعد واطلب رضا قلبها » فعاد ذلـك الحاج ولـم يذهـب الى

(١٦٦) الثعالبي ، المصدر السابق ، ص ٤٣١ـ٤٣٤ ٠
الكتبي ، محمد بن شاكر ، فوات الوفيات ، تحقيق احسان عباس ٠ طبع بيروت ، جـ٣ ، ص ١٨ـ٢٣ ٠
(١٦٧) العقيلي ، المصدر السابق ، ص ١١ـ١٢ ٠
(١٦٨) المقريزي ، الذهب المسبوك ، ص ١٣ ٠
(١٦٩) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ، ص ٣٢ ٠
(١٧٠) نفس المكان ٠
(١٧١) الجندي ، السلوك ، نشر كاي ، ص ١٦٥ وما بعدها -
(١٧٢) الهجويري ، كشف المحجوب ، نقلته من الفارسية الدكتورة اسعاد عبد الهادي قنديل ، القاهرة (١٩٧٤م) ، جـ١ ، ص ٣٥٣ ، القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص ٢٢ ، السلمي ، ابـو عبـد الرحمن ، طبقـات الصوفيـة ، القاهرة (١٩٥٣م) ، ص ٢١٤ ٠
(١٧٣) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٣ ، ص ١٤٠ ٠
(١٧٤) نفس المكان ٠
(١٧٥) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٣ ، ص ١٤٠ ٠
(١٧٦) الهجويري ، كشف المحجوب ، ص ٢٠١ ٠

مكة [١٧٧]. ونحن لا نستطيع الاعتراض على مقالة الصوفي ما دام أننا لا ندري هل كان حجه يتعارض مع رعاية أمه أم لا ؟

وجاء عن أبي حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ) ، وكان صوفي السمت والهيئة متفننا في علم الكلام على مذهب المعتزلة [١٧٨] أنه ألف كتابا في أواخر القرن الرابع أسماه « كتاب الحج العقلي اذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي »[١٧٩]، ورغم أن هذا الكتاب لم يصل الى أيدينا حتى نستطيع الحكم عليه الا أنه كان كما يبدو من عنوانه دعوة صريحة لترك الحج الشرعي والبحث عن حج بديل عنه ٠

ورويت لأبي العلاء المعرى (ت ٤٤٩) بعض[١٨٠]الأبيات التي تحط من شان الحج الى مكة المكرمة . لما كان عليه سدنة الكعبة في تلك الفترة من تحلل أخلاقي ، وبعدا عن شرف الأمانة التي أنيطت بهم في خدمة البيت العتيق ٠

وكان الهجويرى من رجال القرن الخامس الهجرى [١٨١] يمثل الاتجاه المعتدل لدى الصوفية وقد قام برحلات طويلة جاب خلالها معظم أنحاء العالم الاسلامي آنذاك ولكنه لم يشر في رحلاته تلك الى أنه حج الى مكة المكرمة [١٨٢] . وكان قد عرف الحج بقوله : « الحج نوعان الأول في الغيبة ، والثاني في الحضور ، فمن كان غائبا عن الله في مكة فهو كمن كان غائبا عنه في بيته ، ومن كان حاضرا مع الله في بيته فهو كمن كان حاضرا معه في مكة ، فالحج مجاهدة لكشف المشاهدة ، والمجاهدة ليست علة للمشاهدة ، ولكنها وسيلة لها ٠٠٠ فليس المقصود من الحج رؤية البيت بل المقصود الحقيقي مشاهدة الله » [١٨٣] ٠

كما أدت تلك الصعوبات الى انتشار الحج البدل ، وذلك بأن يخرج بعض الناس الى الحج مقابل أجر يأخذه لقاء من يحج عنه ، ولا ريب أن الاسلام أجاز الحج البدل في حالات معينة حددها الشرع [١٨٤]. ولكن يظهر أن الحج عن الغير تجاوز تلك الحدود حتى جعل واحدا من الرحالة المعاصرين لتلك الفترة يقول : « ورأيت من حج بأجرة انتكس قلبه ، فان عاد ازداد نكوسا ، وقل ورعه ، حتى ربما أخذ الحجتين والثلاث ، ولم أر لهم بركة ولا جمعوا مالا قط »[١٨٥].

هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد كانت عودة الحجاج من مكة المكرمة عيدا كبيرا في دار الخلافة العباسية حيث كان الحجاج لا يدخلون العاصمة ليلا بل كانوا يبيتون بالياسرية [١٨٦]

(١٧٧) نفس المكان ٠
(١٧٨) ياقوت ، **معجم الأدباء** ، جـ٥ ، ص ٣٨٠ ٠
(١٧٩) نفس المصدر ، ص ٣٨٢ ٠

(١٨٠) أتيمي لا أعد الحج فرضا — على عجز النساء ولا العذارى
ففي بطحاء مكة شر قوم — وليسوا بالحماة ولا الغيارى
وان رجال شيبة سادنيها — اذا راحت لكعبتها الجمارى
قيام يدفعون الوفد شفعا — الى البيت الحرام وهم سكارى
اذا أخذوا الزوائف أولجوهم — ولو كانوا اليهود أو النصارى

المعرى ، أبو العلاء ، **لزوم ما لا يلزم** ، بيروت (١٩٦١م) ، م١ ، ص ٧٣ ٠
(١٨١) **كشف المحجوب** ، ص ١٥ ٠
(١٨٢) نفس المصدر ص ٧٣ وما بعدها ٠
(١٨٣) نفس المصدر ، ص ٤٠-٤١ ٠
(١٨٤) أنظر : أبو داود ، **السنن** ، ط١ ، (١٩٦٩م) ، جـ٢ ، ص ٤٠٠ وما بعدها ٠ الزيلعي ، جمال الدين ، **نصب الراية** ، ط٢ ، بيروت (١٣٩٢هـ) ، جـ٣ ، ص ١٥٤ وما بعدها ٠
(١٨٥) المقدسي ، **أحسن التقاسيم** ، ص ١٢٧ ٠
(١٨٦) السراج ، جعفر بن محمد ، **مصارع العشاق** ، بيروت (١٩٥٨م) ، جـ١ ، ص ١٧١ ٠

احدى ضواحي بغداد ، ثم يبكرون لدخول بغداد(١٨٧)، وهناك يجرى لهم استقبال حافل تحت رعاية الخليفة ، ففي سنة ٣٩١هـ جلس الخليفة القادر بالله الى أهل خراسان العائدين من الحج (١٨٨) وأقيم لذلك حفل عظيم قرىء فيه على رؤوس الأشهاد كتاب تقليد ولي العهد(١٨٩) .

اصلاحات طرق الحج

لقد كانت للمكانة الكبيرة التي يحتلها الحج في قلوب المسلمين ، وأثره في جلبهم الى مكة المكرمة من شتى بقاع المعمورة وكذلك حرص الخلفاء ـ ولا سيما في تلك الفترة ـ على الاستفادة منه لأغراض الدعاية السياسية فقد أخذ هؤلاء الخلفاء على عاتقهم الاهتمام بكل ما يتعلق بالأماكن المقدسة في الحجاز وتوفير الراحة للوافدين اليها من الحجاج الذين يقصدونها من مختلف أنحاء العالم الاسلامي .

فقد اهتم الخلفاء بالطرق التي كان يسلكها هؤلاء الحجاج ، وعنوا بها من حيث ازالة العقبات ووضع العلامات(١٩٠)وحفر الآبار واقامة مصانع المياه ، وصرف نفقات باهظة للقبائل المتربصة بالحجيج على طول الطريق الى مكة المكرمة .

وكان اهتمام الدولة العباسية في مختلف عصورها بطريق الحج العراقي لا يقف عند حد(١٩١) حتى ان أمر هذا الطريق كان في بداية القرن الرابع الهجرى ولاية تضاف الى أمير الكوفة ، وكان يمثل هذا الأمير في ولاية طريق الحج عمال يقيمون في بعض المراكز الهامة على طول الطريق(١٩٢). والظاهر أن الغرض من اسناد طريق الحج الى وال تعينه الخلافة هو ما يتطلبه هذا الطريق من اصلاحات توفر الأمن والراحة لحجاج بيت الله الحرام .

وكان يتولى هذه المهمة في سنة ٣٠٣هـ ورقاء بن محمد الشيباني(١٩٣)، الذي جاء على أثر عزل واليه الأسبق اسحاق بن عمران(١٩٤). وقد كان يتولى الى جانب طريق الحج قصبة الكوفة وبعض نواحيها(١٩٥).

غير أن ولاية طريق مكة لم تلبث أن سلخت منه وأسندت الى الوزير علي بن عيسى سنة ٣٠٤هـ وذلك بأمر من الخليفة العباسي المقتدر ، وكلفه بأن يقيم طريقا يخترق بلاد بني سليم شمال مكة ، وذلك تسهيلا لسفر الحجاج الى بيت الله الحرام(١٩٦).

والظاهر أن هذه التولية كانت بصورة استثنائية لما تتطلبه الحاجة الى الاسراع في اصلاح الطريق كما نص على ذلك أمر الخليفة ، لأن ولاية طريق الحج ظلت تابعة لأمير الكوفة كما يتضح ذلك من الحوادث التي سبق ايرادها فيما يتعلق بتأديب القبائل المعتدية على الحجاج وأن هذه المهمة كان يقوم بها أمير الكوفة .

---

(١٨٧) نفس المكان .
(١٨٨) ابن الأثير . الكامل . جـ٧ . ص ٢١٠ .
(١٨٩) ابن الجوزى . المنتظم . جـ٧ . ص ٢١٥ .
(١٩٠) نقش متحف وزارة المعارف رقم ٢٨٥٥ .
(١٩١) لمعرفة المزيد من اهتمام العباسيين بطريق مكة انظر : صالح العلي . طرق المواصلات في الحجاز . ص ٩٧٥ـ٧٦ . موزل .الويس . طريق الحج العراقي . ص ١٩٣ـ٩٤ .
(١٩٢) اليعقوبي . كتاب البلدان . ص ٣١٢ .
(١٩٣) القرطبي . صلة الطبري . ص ٣١ .
(١٩٤) نفس المكان .
(١٩٥) نفس المكان .
(١٩٦) نقش بالخط الكوفي على حجر من الجرانيت . محفوظ بمتحف الآثار بوزارة المعارف برقم ٩ .

ثم توالت بعد ذلك الاصلاحات والنفقات التي تدفع للقبائل المسيطرة على طريق مكة سواء ما كان يتم عن طريق الحكومات القائمة أو ما تؤديه بعض الشخصيات الهامة من رجال الدولة وأصحاب اليسار . فمنذ خروج القرامطة وفتكهم بقوافل الحجاج بما في ذلك القافلة السلطانية [١٩٧]، أصبح الحاج والخلافة ملتزمة بدفع الضرائب والمكوس تأمينا لسلامة ارواح رعاياها وضمانا لحجهم . فقد ذكرت بعض المصادر أن أول مكس في الاسلام يدفع لهذا الغرض كان سنة ٣٢٧هـ حيث تم الاتفاق بأن يدفع الحجاج ضريبة للقرامطة بواقع خمسة دنانير عن كل جمل وعلى المحمل سبعة دنانير [١٩٨]. ثم لم يلبث هذا المبلغ أن زاد حتى بلغت جملته في السنة التالية خمسين ألف دينار [١٩٩].

وتبعا لهذا فقد أصبح لزاما على الخلافة أن تدفع مبالغ مماثلة لبعض الأعراب فارسلت سنة ٣٨٥هـ الى الأصيفر أمير العرب تسعة آلاف دينار عوضا عما كان يأخذه من الحاج وصار ذلك رسما له [٢٠٠].

ولم يقتصر ذلك على الخلافة بل كانت بعض الشخصيات من الأمراء وغيرهم يسهمون في هذا الميدان الخيري ، فقد حمل بدر بن حسنوية (ت ٤٠٥هـ) أمير الجبل ابتداء من سنة ٣٨٥هـ الى الأصيفر الأعرابي مبلغ خمسة آلاف دينار عوضا عما كان يأخذه من الحجاج [٢٠١] وقد جعل هذا رسما في ماله لم يلبث أن ازداد حتى بلغ تسعة آلاف دينار [٢٠٢] ، هذا عدا ما كان ينصرف في عمارة الطريق وغيرها من المشروعات الخيرية [٢٠٣].

وكان عضد الدولة ابن بويه قد أولى الحرمين والطريق اليهما جانبا كبيرا من عنايته فعمل على رفع الجباية عن الحاج وأقام لهم السواني في الطريق وحفر المصانع والآبار وفرض الصلات لأهل الحرمين ورد رسومهم القديمة [٢٠٤].

ولما تعطل الحج سنة ٤١٠هـ ، ٤١١هـ بسبب تأخر نفقات القبائل قصد جماعة من الناس يمين الدولة أبا القاسم محمود بن سبكتكين (ت ٤٢١هـ) [٢٠٥] وقالوا له : « أنت سلطان الاسلام وأعظم ملوك الأرض ، وفي كل سنة تفتح من بلاد الكفر قطعة والثواب في فتح طريق مكة أعظم ، والتشاغل به أوجب ، وقد كان بدر بن حسنوية وما في أصحابك الا من هو أكبر شأنا منه ، يسير الحجاج بما له وتدبيره عشرين سنة . فانظر لله تعالى ، وأجعل لهذا الأمر حظا من اهتمامك ، فتقدم الى أبي محمد الناصحي قاضي القضاة في مملكته بالتأهب للحج ونادى في سائر اعمال خراسان بالتأهب للمسير ، وأطلق للعرب في البادية ثلاثين ألف دينار وسلمها الى الناصحي سوى ما أطلقه من الصدقات » [٢٠٦].

وعندما ظهر السلاجقة وأصبحت لهم السيطرة والنفوذ في الدولة العباسية أخذ الوزير

---

(١٩٧) المسعودي ، **التنبيه والاشراف** ، ص ٣٣٠ .
(١٩٨) الجزيري ، **درر الفوائد** ، ص ٢٤١ .
(١٩٩) ابن الجوزي ، **المنتظم** ، جـ٦ ، ص ٣٠٠-٣٠١ .
(٢٠٠) نفس المصدر ، جـ٧ ، ص ١٧٨ ، متز ، **الحضارة الإسلامية** ، جـ٢ ، ص ٨٧ .
(٢٠١) ابن الأثير ، **الكامل** ، جـ٧ ، ص ١٧٥ .
(٢٠٢) الروذراوري ، **ذيل تجارب الأمم** ، ص ٢٨٧ .
(٢٠٣) نفس المكان .
(٢٠٤) ابن الجوزي ، **المنتظم** ، جـ٧ ، ص ١١٤ .
(٢٠٥) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٣٤٦-٤٧ .
(٢٠٦) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ٨ ، ص ٢ .
ابن تغري بردي ، **النجوم الزاهرة** ، جـ٤ ، ص ٥٥ ، ٢٥٦ .
ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٣١٠ .

التقي نظام الملك على عاتقه الاهتمام باعادة تسيير الحاج الى مكة ، وكان قد انقطع منذ سنوات عديدة[٢٠٧]. فعمل على فتح طريق الحج[٢٠٨] العراقي ، وقام بتعصيره فاستقام لذلك أمر الحجيج[٢٠٩]. وكان مولاه السلطان السلجوقي ملكشاه (ت ٤٨٧هـ) لا يقل اهتماما عنه في هذا الميدان فعمل على اقامة مصانع الماء بطريق مكة وغرم عليها أموالا كثيرة[٢١٠].

وكان الأخشيديون يدفعون للقرامطة مقابل حماية الحجاج في الطريق المصري وعدم التعرض لهم ثلاثمائة ألف دينار[٢١١].

أما الفاطميون فلا نعرف شيئا عن اسهامهم في هذا الميدان ، ولعل السبب في عدم فهمنا لذلك هو قصور المصادر التي وصلت الى أيدينا وسكوتها عن ايصال مثل هذه المعلومات القيمة الينا ، لأن الفاطميين كانت لهم اهتمامات كبيرة بالحج ، وتبعا لهذا لن يخلو التاريخ الفاطمي من عناية بالطرق الموصلة الى الأماكن المقدسة . والظاهر أن الفاطميين كانوا يعتمدون على القوة العسكرية في حماية الحاج الذي يأتي من ناحيتهم اذ تفيدنا المصادر أن قافلة الحج المصري كان يصحبها قوة عسكرية كبيرة الى مكة ، وهذه القوة كانت من الحجم ووفرة العدد بحيث بلغت نفقاتها الف دينار مغربي في اليوم الواحد[٢١٢] أما المؤيد في الدين فقد ارتفع بجملة ما ينفق على طريق الحج الى مائتي ألف دينار[٢١٣] ويضيف بأن الخليفة المستنصر هو الذي « يمسك فريضة الحج الموجبة على الخلق ... فلولا قيامه بماله وسيفه لكان طريق الحج منسدا »[٢١٤].

وهناك اشارة عابرة تلقي بصيصا من الضوء على أن الفاطميين كانت عليهم تعهدات والتزامات مالية تجاه قبائل الجزيرة العربية، فقد ذكر ناصر خسرو في احدى حجاته أن نفقات الجيش المرافق للقافلة السلطانية بلغت « ستين ألف دينار مغربي عدا التعهدات والصلات والمشاهرات وثمن الجمال التي تنفق في الطريق »[٢١٥] فهذه التعهدات التي تنفق في الطريق نعتقد بأنها كانت تشير الى بعض ما كان على الفاطميين من التزامات تجاه القبائل الحجازية المسيطرة على الطريق المصرى الى الأماكن المقدسة . هذا من جهة ومن جهة أخرى ذكر المقريزى[٢١٦] أن عيذاب أصبحت مسلكا للحجاج منذ كانت الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر وانقطع الحج عن طريق البر ، ومعلوم أن عصر الشدة العظمى اتصف بنضوب موارد الخلافة الفاطمية بمصر مما جعلها غير قادرة على الوفاء بالتزاماتها تجاه القبائل المسيطرة على الطريق المصري فاتجه الحجاج الى ركوب البحر حتى يأمنوا طلبات القبائل الفادحة.

وكان الحسين بن سلامة (ت ٣٨٤هـ) متولي الوزارة في بلاط الدولة الزيادية[٢١٧] في أواخر القرن الرابع الهجري ، قد عني عناية فائقة بطريق الحج اليمني[٢١٨] يقول عمارة : « ومن محاسن حسين بن سلامة ، انشاء الجوامع الكبار ، والمنارات الطوال من حضرموت الى مكة حرسها

(٢٠٧) العيني ، **عقد الجمان** ، جـ١١ ، ص ٢ وما بعدها .
(٢٠٨) السبكي ، **طبقات الشافعية** ، جـ٣ ، ص ١٤٠ .
(٢٠٩) السبكي ، **طبقات الشافعية** ، جـ٣ ، ص ١٤٠ .
(٢١٠) ابن الأثير ، **الكامل** ، جـ٨ ، ص ١٦٤ .
(٢١١) المقريزى ، **اتعاظ الحنفا** ، جـ١ ، ص ١٨٦ـ٨٧ .
(٢١٢) **رحلة ناصر خسرو** ، ص ١١٠ .
(٢١٣) **سيرة المؤيد في الدين** ، ص ١٥٥ .
(٢١٤) نفس المكان .
(٢١٥) **الرحلة** ، ص ١١٠ .
(٢١٦) **الخطط** ، جـ٦ ، ص ٣٠٠ .
(٢١٧) عمارة ، **تاريخ اليمن** ، ص ٤٠ .
(٢١٨) نفس المصدر ، ص ٤٠ـ٤١ .

الله تعالى - وطول المسافة التي بني فيها ستون يوما ، وحفر الآبار الروية والقلب العادية في المقافر المنقطعة ، وبنى الأميال والفراسخ ، والبرد على الطرقات فمن ذلك ما رأيته عامرا ومهدوما . ومنها ما رواه الناس لي رواية أجماع »[٢١٩].

وقد شملت اهتمامات الحسين بن سلامة جميع طرق الحج اليمني ، فبالنسبة للطريق الجبلي امتدت عمارته من الجوه[٢٢٠] ، مرورا بالجند وصنعاء وصعدة الى الطائف[٢٢١]، وفي كل مرحلة من مراحل هذا الطريق جامع ومصانع للماء[٢٢٢]. كما عمر عقبة الطائف ، وهي مسيرة يوم للطالع من مكة ونصف يوم للهابط اليها[٢٢٣] بحيث يمشى في عرضها ثلاثة أجمال بأحمالها[٢٢٤] .

كما شملت عمارته الطريقين الساحلي والأوسط من بدايتهما في اليمن حتى التقائهما في السرين بالحجاز على مسافة عدة مراحل من مكة[٢٢٥]، وقد عمل في هذا الجزء المقفر على حفر الآبار واصلاحها على طول الطريق الى يلملم[٢٢٦]، وهو ميقات أهل اليمن وبه بئر من عمارة الحسين بن سلامة[٢٢٧]، ثم بئر ادام وهي بئر روية ذكر عمارة أن « طولها عشرة أبواع وعرضها خمسة »[٢٢٨].

ثم تمتد عمارة الحسين بعد هذه المرحلة فمن أراد مكة ورد من عمارته بئر البيضاء ثم القوين ثم مكة[٢٢٩]، ومن أراد عرفات ورد من عمارته بئرا بوادي الرخم ثم نعمان ثم عرفات[٢٣٠].

ولما حج علي بن محمد الصليحي سنة ٤٥٥هـ قام ببعض الاصلاحات في طريق مكة ، وعمل على تذليل الصعوبات التي كانت تعترض ركب الحجيج ، ولعل في مقدمة ذلك تاديب القبائل المسيطرة على هذا الطريق والتي كثيرا ما تعتدى على الحاج اليمني[٢٣١] . غير أن هذا لم يدم طويلا اذ لم يلبث الحج الى مكة أن عاد الى صعوبته فخرج الصليحي بنفسه سنة ٤٥٩هـ[٢٣٢] « قاصدا الحج الى بيت الله الحرام ، راضيا بمشاعره العظام ، وتسهيل الحج لطالبي قصده في كل عام ... وعمارة ما درس من آثاره ، وابانة ما عفا من مناره ، وأمان قاصديه وزواره ، واجراء ما رقأ من أنهاره ، وحط المؤن عن أسفاره[٢٣٣]» . الا أن الموت عاجله قبل أن ينفذ برنامجه هذا حيث قتل وهو في طريقه الى مكة في تلك السنة ، كما تقدم .

والخلاصة أن الحج الى مكة المكرمة في تلك الفترة وما تعتريه من صعوبات وأخطاركان مجازفة خطيرة رغم الاستعدادات الكبيرة التي تهيئها العواصم الاسلامية حينذاك والتي تتمثل في اصلاح

---

(٢١٩) نفس المكان .
(٢٢٠) الجوة : بضم الجيم وتشديد الواو ، قرية معروفة باليمن . (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٩١) .
(٢٢١) ابن الديبع الشيباني ، قرة العيون ، ورقة ١٠٥ .
(٢٢٢) بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ٦٠ .
(٢٢٣) الخزرجي ، علي بن محمد ، كتاب العسجد المسبوك ، ورقة ٥٩ .
(٢٢٤) الحبشي ، عبد الرحمن بن محمد ، الاعتبار في التواريخ والاخبار ، مخطوط ، المكتبة الغربية بجامع صنعاء الكبير، رقم ٨١ ، ورقة ٢٣ .
الخزرجي ، المصدر السابق ، ورقة ٥٩ .
(٢٢٥) عمارة ، تاريخ اليمن ، ص ٤٢-٤٣ .
(٢٢٦) الديبع الشيباني ، قرة العيون بتاريخ اليمن الميمون ، ورقة ١٠٥ .
(٢٢٧) نفس المكان .
(٢٢٨) عمارة ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .
(٢٢٩) الخزرجي ، العسجد المسبوك ، ورقة ٥٩ .
(٢٣٠) نفس المكان .
(٢٣١) الهمداني ، الصليحيون والحركة الفاطمية ، ص ٩١ .
(٢٣٢) بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ١٦٢ .
(٢٣٣) القمي ، حسين بن علي ، رسائل القمي ، (رسالة ملحقة من رسائل المذكور بكتاب « الصليحيون والحركة الفاطمية ») ، ص ٣٠٨-٣١٨ .

الطرق وتوفير مياه الشرب ودفع الأتاوات لقبائل البدو المتكفلة بخفارة الحجاج ومع هذا فقد بات من المتعذر على السواد الأعظم من المسلمين الحج الى مكة المكرمة . ومن هنا أخذ المسلمون في أقطار شتى من العالم الاسلامي وقتذاك يعزون أنفسهم بزيارة الأماكن المشار اليها لعلها تشفع لهم فيما فاتهم من تأدية تلك الفريضة الدينية ٠

الفصل الثالث

إصلاحات الخلفاء والعظماء في مكة المكرمة

● عمارة المسجد الحرام ● عمارة الكعبة المعظمة ● كسوة الكعبة ● اصلاحات عامة ·

عمارة المسجد الحرام

ومكة هي المكان الذي تتم على أرضه شعيرة الحج ، وتجتمع فيه وفود الحجيج من كل بقاع الأرض وتحتدم فيه المنافسة بين جميع القوى المتصارعة للسيطرة والنفوذ وكسب الرأي العام المحلي والعالمي ، فكان من الطبيعي أن تحظى هي الأخرى بفيض هائل من الاصلاحات والانجازات ·

وكان اصلاح المسجد الحرام وعمارته وتوسعته من أكثر الميادين التي شملتها عناية الخلفاء، ولا غرو في ذلك فقد كان المسجد الحرام ولا يزال أعظم مسجد عرفته الدنيا ويقع في بقعة هي أشرف بقاع المعمورة واطهرها ، وهو أكثر المساجد تعظيما وتكريما لدى المسلمين ، تهش لذكره نفوسهم وتهوى اليه أفئدتهم فهو مولد الهدى ومهبط الوحي ، ومبتدأ الرسالة المحمدية ، وقبلة المسلمين في جميع مشارق الأرض ومغاربها ، لذلك لا غرابة اذا توفر ولاة أمور المسلمين عبر العصور على عمارته وتوسعته وتنميقه ، وتباروا في اصلاحه وتوفير وسائل الراحة والأمن والطمأنينة للحاجين اليه ·

ويرجع تاريخ أول اصلاح في المسجد الحرام الى سنة ١٧هـ عندما تمت التوسعة الأولى على يد الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه [١] ، فقد اشترى بعض الدور الملاصقة للحرم ، وعمل على هدمها وأدخلها في المسجد الحرام « واحاط عليه جدارا قصيرا » [٢] ·

ثم أخذت عمارته تتجدد وتتوسع عبر العصور [٣] ، حتى عهد الخليفة المقتدربالله العباسي من سنة ٢٩٥ـ٣٠٦هـ فعمل على احداث زيادتين في المسجد الحرام ·

فأما الزيادة الأولى فكانت ادخال زيادة دار الندوة في المسجد الحرام ووصلها بالحرم وصولا أفضل مما تم في عهد سلفه الخليفة المعتضد بالله سنة ٢٨٤هـ ·

(١) الأزرقي ، تاريخ مكة ، جـ٢ ، ص ٦٩ ·
(٢) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٢٢٤ ·
(٣) الأزرقي ، المصدر السابق ، ص ٦٨ وما بعدها · النابلسي ، عبد الغني اسماعيل ، الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز · طوبقا بوسراى برقم ٥٢٤ ، م (استانبول) ورقة ٢٢١ وما بعدها ·

وكانت دار الندوة وهي التي بناها قصي بن كلاب وجعلها منتدى لقومه يجتمعون فيها للمشورة [٤] ـ كانت بعد ظهور الاسلام وكثرة بناء الدور بمكة المكرمة ، دارا واسعة ينزل بها الخلفاء اذا أرادوا مكة ويخرجون منها الى المسجد الحرام للطواف والصلاة [٥] .

وكان لها فناء واسع أخذت ترمي فيه القمائم، فاذا نزلت الأمطار جرفتها السيول الى المسجد الحرام ، فاستدعى ذلك تنظيف هذه الأوساخ والقمائم فضلا عن الضرر الذي تلحقه بالمسجد الحرام [٦] .

فكتب محمد بن عبد الله المقدمي قاضي مكة من قبل المعتضد العباسي مكاتبات الى وزير الخليفة عبيد الله بن سليمان بن وهب ، جاء فيها : « ان دار الندوة قد عظم خرابها وتهدمت وكثيرا ما تلقى فيها القمائم حتى صارت ضررا على المسجد الحرام وجيرانه ، واذا جاء المطر سالت السيول من بابها الى بطن المسجد وحملت تلك القمائم الى المسجد الحرام ، وأنها لو اخرج ما فيها من القمائم وتهدمت وبنيت مسجدا يوصل بالمسجد الحرام أو جعلت رحبة يصلى فيها ويتسع الحجاج بها لكانت مكرمة لم تتهيأ لأحد من الخلفاء بعد المهدى والهادى ، ومنقبة باقية وشرفا وأجرا باقيا على طول الزمان ، وأن بالمسجد خرابا كثيرا وأن سقفه يسيل منه الماء اذا جاء المطر ، وأن وادى مكة قد انكبس بالأتربة فعلت الأرض عما كانت وصارت السيول تدخل من الجانب اليماني أيضا الى المسجد الحرام » [٧] .

استجاب المعتضد لهذه المكاتبات فأمر بعمارة دار الندوة [٨] مسجدا متصلا بالمسجد الحرام فقد ذكر الفاسي أن المعتضد « أخرج لذلك مالا عظيما فحمل الى قاضي بغداد يوسف بن يعقوب فأنفذ بعضه صفائح ، وأنفذ بعضه على يد ابنه عبد الله بن يوسف في وقت الحج وقدم معه برجل يقال له أبو الهياج الأسدى فوكله بالعمل وخلّف معه عمالا وأعوانا لذلك ، فأخرجت القمائم من دار الندوة ، وهدمت ثم أنشئت مسجدا من أساسها بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالساج المزخرف ، ثم فتح لها في جدار المسجد الكبير اثنا عشر بابا ، ستة كبار سعة كل باب خمسة أذرع وارتفاعه الى السماء أحد عشر ذراعا وجعل بين الستة الأبواب الكبار ستة صغار سعة كل باب منها ذراعان ونصف وارتفاعه في السماء ثمانية أذرع وثلثا ذراع ، وجعل بها سوى ذلك ثلاثة أبواب شارعة في الطريق التي حولها : منها بابان طاقان وباب طاق واحد ، وسوى جدارها وسقوفها بالمسجد الحرام ، وجعل لها منارة وشرفا وفرغ منها ... في سنة ٢٨٤هـ » [٩] .

غير أن عمارة دار الندوة هذه لم تكن داخلة في المسجد الحرام وانما كانت مسجدا آخر متصلا بالحرم بواسطة الأبواب التي وضعها ، فكان المصلون فيها لا يرون القبلة فاستدعى ذلك تجديد زيادة دار الندوة في عهد الخليفة المقتدر باللهالعباسي على يد قاضي مكة من قبله محمد بن موسى فجدد بناءها ، وغير الطاقات التي كانت قد فتحت في جدار المسجد الحرام وجعلها متساوية واسعة بحيث صار كل من في زيادة دار الندوة من مصل ومعتكف وجالس يمكنه مشاهدة الحرم الشريف [١٠] .

---

(٤) الطبرى ، الأرج المسكي ، ورقة ٣٨ .
(٥) النهروالى ، الإعلام ، ص ١٤٤ .
(٦) باسلامة ، حسين ، تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ط٢ ، القاهرة (١٩٦٤م) ، ص ٧٤ .
(٧) النهروالى ، الاعلام ، ص ١٤٥ ، باسلامة ، أنظر قبله .
(٨) ابن عبد الشكور ، أشراف وأمراء مكة ، ورقة ٤٨ـ٤٩ .
(٩) شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٢٢٦ـ٢٧ .
(١٠) النهروالى ، الأعلام ، ص ١٤٨ .

كما جعلت أساطين تلك الزيادة حجرا مدورا منحوتا ، وركب عليها سقوفا من الخشب الساج منقوشا مزخرفا وعقودا مبنية بالآجر والجص [١١] . ووصل هذه الزيادة بالمسجد الكبير وصولا أحسن من الأول وجدد شرفاتها وبيضها [١٢] . وكان ذلك في سنة ٣٠٦هـ [١٣] .

أما الزيادة الثانية في عهد الخليفة المقتدر بالله فكانت زيادة باب ابراهيم ، وقد تمت أيضا على يد قاضي مكة محمد بن موسى سنة ٣٠٦هـ [١٤] ، وقد ذكرها النهروالي في كتابه الأعلام بقوله [١٥] : ومن جملة محاسن المقتدر بالله أنه زاد في المسجد الحرام بقرب باب الحزورة ، ويقال له باب الخياطين ، وبقرب باب ثان يقال له باب بني جمح ، وخارج هذين البابين ساحة بين دارين لزبيدة أم الأمين بنيتا في سنة ٢٠٨هـ فأدخلت هذه الساحة التي بين الدارين في المسجد الحرام ، وأبطل البابان يعني باب الخياطين وباب بني جمح حيث دخلا في المسجد الحرام ، وجعل عوض البابين باب كبير هو المسمى بباب ابراهيم في غربي هذه الزيادة » .

وقد ذكرها أيضا الحافظ نجم الدين عمر بن فهد القرشي في كتابه : اتحاف الورى حيث قال : « وفيها زاد قاضي مكة يومئذ محمد بن موسى في الجانب الغربي قطعة عند باب الخياطين ، وباب بني جمح وهي السوح التي كانت بين داري زبيدة أم الأمين وعمل ذلك مسجدا أوصله بالمسجد الكبير ، وطول هذه الزيادة من الأساطين التي في ازاء جدار المسجد الكبير الى العتبة التي عليها باب ابراهيم سبعة وخمسون ذراعا الا سدس ذراع ، وعرض هذه الزيادة من جانبها الشمالي الى جانبها اليماني ، وذلك من جدار رباط الحوزي الى رباط رامشت ٥٢¼ ذراعا ، وفي هذه الزيادة في الجانب الشرقي المتصل بالمسجد الكبير صفان من الرواق على أساطين منحوتة من الحجارة ، وكذلك في جانبها الشمالي ، ولم يكن في جانبها الغربي رواق ، وفي جانبها سبيل ماء وسط رواقية » [١٦] .

أما الفاسي فقد أورد صفة هذه الزيادة وقال : « انها ليس لها رواق غربي ، وانما لها رواق شرقي وشمالي وجنوبي ، وموضع الغربي أبواب ، وبينهما باب الزيادة ، وكل رواق منها شقة واحدة ، وغالب الجنوبي مما يلي الجهة الشرقية محوط ببيت فيه شبابيك من خشب » [١٧] .

وهناك خلاف بين الفاسي وابن فهد في الرواق المحاط بتلك الزيادة . فقد قال ابن فهد [١٨] : « انه صفان . أما الفاسي فذكر أنه رواق » [١٩] .

ونحن نرجح ما قاله الفاسي لأنه أقرب الى تلك الفترة من ابن فهد ، ولأن حسين باسلامه صاحب كتاب تاريخ عمارة المسجد الحرام أدرك تلك الزيادة قبل التوسعات التي شملت الحرم بكامله في العهد السعودي ، وقال : « والذي عليه تلك الزيادة في العصر الحاضر هي كما وصفها الفاسي برواق واحد من جهاتها الثلاثة » [٢٠] .

---

(١١) الفاسي . شفاء الغرام . جـ١ . ص ٢٢٧ .
(١٢) القطبي . اعلام العلماء . ص ٨٠ .
(١٣) النهروالي . أنظر قبله .
(١٤) الفاسي . العقد الثمين . جـ٢ . ص ٢٧٤ .
(١٥) ص ١٥٩ - وليس المقصود بابراهيم المذكور في هذه الرواية ابراهيم الخليل عليه السلام . بل كان ابراهيم هذا خياطا يجلس عند هذا الباب مدة طويلة به ونسب اليه . انظر : النهروالي . المصدر السابق . ص ١٥٩ .
(١٦) حوادث سنة ٣٠٦هـ .
(١٧) شفاء الغرام . جـ١ . ص ٢٢٧ .
(١٨) اتحاف الورى . حوادث سنة ٣٠٦هـ .
(١٩) الفاسي . أنظر قبله .
(٢٠) ص ٧٩ .

وكانت هاتان الزيادتان اللتان تمتا في عهد الخليفة المقتدر آخر الاصلاحات التي أولاها الخلفاء العباسيون فيما يتعلق بعمارة المسجد الحرام ، فقد ذكرها الفاسي بعد أن أورد زيادة دار الندوة وباب ابرهيم بقوله : « وهذا ملخص مختصر من خبر ما زيد في المسجد الحرام بعد الأزرقي » (٢١).

ثم انتقل ــ كعادته ــ بعد ذلك الى العصر المملوكي متجاوزا حقبة من الزمن تصل الى خمسة قرون (٢٢)، والظاهر أن الحرم المكى لم يخل من العمارة طوال هذه الفترة التي تميزت بالتنافس الكبير بين الفاطميين والعباسيين في تقديم العديد من الاصلاحات في مكة المكرمة ، والتي تهدف في مضمونها الى جانب الدعاية السياسية ، كسب رضا وتاييد المكيين بصورة خاصة والمسلمين في جميع أنحاء العالم الاسلامي بصورة عامة ٠

أما دليلنا على ذلك فهو الاختلاف الذي وقع بين رواية ابن عبد ربه المتوفي سنة ٣٢٨ (٢٣)، وناصر خسرو الذي زار مكة قبيل منتصف القرن الخامس الهجرى (٢٤)٠ فقد ذكر ابن عبد ربه أطوال المسجد الحرام ، وعدد أعمدته فقال (٢٥): « وذرعه طولا من باب بني جمح الى باب بني هاشم الذي يقابل دار العباس بن عبد المطلب اربعمائة ذراع وأربع أذرع ٠ وذرعه عرضا من باب الصفا الى دار الندوة لاصقا بوجه الكعبة الشرقي ثلاثمائة ذراع وأربع أذرع ٠٠٠ وجملة عمد المسجد أربعمائة وأربعة وثلاثون عمودا » ٠

أما ناصر خسرو فذكر أن « اقصى طول للمسجد من باب ابراهيم الى باب بني هاشم أربع وعشرين وأربعمائة ذراعا وعرضه من باب الندوة وهو جهة الشمال حتى باب الصفا وهو جهة الجنوب ثلاثمائة وأربعة أذرع ٠٠٠ وعدد الأعمدة الرخامية التي فيه أربعة وثمانون وأربعمائة عمودا » (٢٦).

ومن هنا يتضح الاختلاف بينهما فنجد أن طول المسجد زاد بعشرين ذراعا ، أما الأعمدة فزادت بخمسين عمودا ، وهذا يدل على أن المسجد الحرام قد حظي بزيادة جديدة خلال هذه الفترة وقد غفل المؤرخون عن ايرادها ٠

والظاهر أن هذه الزيادة كانت من جانب الخلفاء الفاطميين ، وقد ذهب ذكرها مع ما ذهب من الكثير من تراثهم ، واذا كان هناك من يحتج بعدم نسبة هذه الزيادة الى خلفاء مصر من جانب ناصر خسرو ، وهو فاطمي النزعة والمعتقد ، فان ذلك يعود الى اكتفائه في معظم كتابه بالوصف فقط لما شاهده دون الدخول في تفصيلات تاريخية ٠

أما في مجال الترميمات والاصلاحات في الحرم المكى ، فلم تخل هذه الفترة من وسائلها المختلفة ، فقد حفظت لنا المصادر التاريخية (٢٧): أن بعض مواضع المسجد الحرام قد تهدمت منذ منتصف القرن الخامس ، وانها بقيت على تلك الحالة حتى قدم مكة الرئيس الأجل السيد فخر الرؤساء مغيث الدولة أبو النصر ابراهيم بن محمد بن على الأستراباذى سنة ٤٦٦هـ (٢٨) ، فرصد

(٢١) شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٢٢٧ ٠
(٢٢) نفس المكان ٠
(٢٣) ابن الأثير ، جـ٦ ، ص ٢٧٥ ٠
(٢٤) الرحلة ، ص ١٢٦ـ٢٧ ٠
(٢٥) العقد الفريد ، جـ٦ ، ص ٢٥٥ ٠
(٢٦) الرحلة ، ص ١٢٧ ٠
(٢٧) الفاسى ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٦٢١ ٠
(٢٨) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٤٦٦هـ ٠

لترميم المسجد الحرام مبلغ ثلاثين الف دينار، صرف معظمها على اصلاح ما تهدم منهذه المواضع [٢٩] وما تبقى من ذلك أخذها أمير مكة محمد بن جعفر بن أبي هاشم [٣٠].

وهذه المعلومة الأخيرة تجرنا الى نقطة هامة ، وهي أن اجراء أي اصلاح في المشاعر المقدسة، كان يجابه بمعارضة شديدة من شريف مكة في هذه الفترة الا اذا حصل على قدر من المال ربما يساوى في بعض الأحيان تكاليف المشروع المراد اصلاحه [٣١].

فإلى جانب الحادثة السابقة أخذ محمد بنجعفر بن أبي هاشم من الحسين بن سلامة مبلغ ألف دينار [٣٢] ، وذلك مقابل السماح له بالقيام ببعض الأعمال الخيرية والاصلاحية في مكة المكرمة وغيرها من مشاعر الحج الأخرى [٣٣].

وقد أدى هذا العمل غير المستحسن من أشراف مكة الى أن يلجأ بعض أهل الخير الى استعمال الحيلة في تحقيق بعض مقاصدهم الخيرية ، فقد ذكر ابن جبير مثالا على هذه الحالة بقوله [٣٤] : « ومن أغرب ما اتفق لأحد دهاة الأعاجم ، وذوى الملك والثراء أنه وصل الى الحرم الكريم ، مدة جد هذا الأمير مكثر ، فرأى تنور بئر زمزم وقبتها على صفة لم يرضها · فاجتمع بالأمير وقال : اريد ان اتانق في بناء تنور بئر زمزم وطيه وتجديد قبته ، وأبلغ في ذلك الغاية الممكنة ، وانفق فيه من صميم مالى ، ولك عليّ في ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك الغرض المقصود ، وهو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة في ذلك ، فاذا استوى البناء التمام··· بذلت لك مثلها جزاء على اباحتك لي ذلك · فاهتز الأمير طمعا ، وعلم أن النفقة تنتهي الى آلاف من الدنانير على الصفة التي وصفها له . فاباح له ذلك ، وألزمه مقيدا يحصى قليل الانفاق وكثيره · وشرع الرجل في بنائه واحتفل واستفرغ الوسع وتأنق وبذل المجهود ··· الى أن فرغ البناء ··· فلما لم يبق الا أن يصبح صاحب النفقة بالحساب ويستقصى منه العدد المجتمع فيها ، خلا منه المكان ، وأصبح في خبر كان وركب الليل جملا ، وأصبح يقلب كفيه ، ويضرب أصدريه ، ولم يمكنه أن يحدث في بناء وضع في حرم الله تعالى حادثا يحيله أو نقصا يزيله · وفاز الرجل بثوابه وتكفل الله به في انقلابه وتحسين مآبه » ·

فاذا صحت هذه الروايات عن أمراء مكة من الأشراف فيمكن القول بأنهم كانوا في هذه الفترة عائقا في طريق المشروعات الاصلاحية في مكة المكرمة ·

كما شملت الاصلاحات جوانب أخرى متعددة من المسجد الحرام ومنها منبر الخطابة في المسجد الحرام ، فقد ذكر الأزرقي أن [٣٥] « اول من خطب بمكة على منبر معاوية بن أبي سفيان ، قدم به من الشام سنة حج في خلافته ، وكان منبرا صغيرا على ثلاث درجات وكان الخلفاء والولاة قبل ذلك يخطبون يوم الجمعة على أرجلهم قياما في وجه الكعبة وفي الحجر ، وكان ذلك المنبر الذي جاء به معاوية ربما خرب فيعمر ولا يزاد فيه حتى حج هارون الرشيد ··· في خلافته ، وعيسى بن موسى عامل له على مصر ، فاهدى له منبرا عظيما في تسع درجات منقوشا ، فكان منبر مكة ، ثم أخذ المنبر القديم فجعل بعرفة ، حتى أراد الواثق بالله الحج فكتب ، فعمل له ثلاثة منابر : منبر بمكة ، ومنبر بمنى ، ومنبر بعرفة » ·

(٢٩) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٦٢١ ·
(٣٠) نفس المكان ، ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٤٦٦هـ ·
(٣١) رحلة ابن جبير ، ص ١٠٤ ·
(٣٢) رحلة ناصر خسرو ، ص ١٣٦ ·
(٣٣) نفس المكان ·
(٣٤) رحلة ابن جبير ، ص ١٠٥ ·
(٣٥) تاريخ مكة ، جـ٢ ، ص ٩٩-١٠٠ ·

ولم يكن منبر مكة بناء ثابتا كما نعرفه اليوم ، بل كان يصنع من الخشب أعوادا مفصلة قطعا ، وكان يحفظ في خزانة المسجد فاذا كان عيدا أو جمعة أخرج المنبر أعوادا مفرقة ثم يركب وينصب ما بين باب البيت والركن الشامي فيما يقابل المقام ، وأسند الى جدار البيت فيصعد الامام للخطبة عليه (٣٦) .

وقد استمر على تلك الحال حتى سنة ٣٩٤هـ عندما ورد على أبي الفتوح كتاب من الحاكم يشتم بعض الصحابة رضي الله عنهم ، وبعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأمر القاضي الموسوي ــ وهو يومئذ قاضي مكة ــ بقراءته على الناس ، فنصب المنبر لتلك الغاية ، فلما علم المجاورون ، وبعض القبائل العربية المقيمة قريبا من مكة بذلك الخبر هجموا على المنبر فرجموه بالأحجار حتى صار رضاضا (٣٧) .

ثم توالت الاصلاحات والتجديدات على منبر مكة حتى سنة ٤٧٠هـ حيث عمل الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله بمعرفة وزيره محمد بن جهير منبرا نقش عليه بالذهب عبارة « لا اله الا الله محمد رسول الله » (٣٨) وأرسله من بغداد الى مكة برفقة أصحاب محمد بن أبي هاشم الذين وفدوا على بغداد سنة ٤٦٢هـ(٣٩)، فوافق وصولهم الى مكة عودة الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في السنة نفسها ، فأدى تغير الأوضاع في مكة الى معارضة هذا العمل العباسي ، وتمكن انصار الفاطميين ــ كما أسلفنا ــ من كسره واحراقه (٤٠) .

عمارة الكعبة المعظمة

والكعبة بناء مسقف يقع في وسط المسجد الحرام (٤١)، ولها أربعة أركان شمالي وجنوبي وشرقي وغربي ، وقد اختلف المؤرخون في أطوال هذه الأركان اختلافا طفيفا (٤٢) والظاهر أن هذا الاختلاف يعود الى اختلاف وحدة القياس ، وهي الذراع في الفترات المتفاوتة لهؤلاء الكتاب ٠ غير أن مساحة الأرضية المقامة عليها الكعبة خلا حجر اسماعيل هي : ٥١٢٪ ذراعا (٤٣) .

وباب الكعبة يقع الى الشرق منها بحيث يكون الركن العراقي على يمين الداخل وركن الحجر الأسود على يساره (٤٤)، وارتفاعه عن الأرض نحو القامة (٤٥) ، وهو مصنوع من خشب الساج ، ارتفاعه ست أذرع ونصف ، وعرض مصراعيه ثلاث أذرع ونصف (٤٦)، وظاهر الباب ملبس بالذهب ، وباطنه بالفضة ، وله عروتان يضرب فيهما قفل من ذهب (٤٧) .

والحجر الأسود مركب على زاوية الحائط في حجر كبير بحيث اذا وقف رجل طويل القامة

---

(٣٦) البكري ، أبو عبيد الله ، المسالك والممالك ٠ نور عثمانية جامعي برقم ٣٠٣٤ (اسطانبول) ورقة ٢٣٢ ٠
(٣٧) نفس المكان ٠
(٣٨) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٤٧٠هـ ٠
(٣٩) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٨ ، ص ١٠٨ ٠
(٤٠) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٨ ، ص ٣١٢ ٠
(٤١) الحميري ، الروض المعطار ، مكتبة عارف حكمت برقم ١١٠ (المدينة) ورقة ٥٢ ٠
(٤٢) لمعرفة هذا الاختلاف، انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد ، جـ٦ ، ص ٢٥٥ــ٥٦ ٠ الحميري ، المصدر السابق ، ورقة ٥٢ ، رحلة ناصر خسرو ، ص ١٢٩ ٠
(٤٣) باسلامة ، حسين ، تاريخ الكعبة ، ص ١٣١ ٠
(٤٤) رحلة ناصر خسرو ، انظر قبله ٠
(٤٥) الحميري ، الروض المعطار ، ورقة ٥٢ ٠
(٤٦) رحلة ناصر خسرو ، ص ١٢٩ــ٣٠ ٠ ابن عبد ربه ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٢٥٦ ٠
(٤٧) ابن عبد ربه ، نفس المكان ٠

يكون مقابلا لصدره ، وبينه وبين باب الكعبة أربعة أذرع ، ويسمى ما بينهما الملتزم (٤٨) .

وللكعبة سقفان علوى ، وآخر أسفل منه منقوش بالذهب والزخرف (٤٩) وتحته افريز من الفسيفساء (٥٠) ، وماء السقف الأعلى يخرج عنه الى خارج البيت في ميزاب من خشب مصفح بالذهب من داخله وخارجه ، ويصب في حجر اسماعيل (٥١) .

وتاريخ بناء الكعبة قديم قدم الكعبة نفسها ، وقد تعرضت لكثير من وسائل التعمير طوال تاريخها (٥٢) ، وآخر بناء كان موجودا في تلك الفترة هو بناء الحجاج بن يوسف الذي تم في عهد عبد الملك بن مروان بعد سقوط ابن الزبير واستسلام الحجاز لبني أمية سنة ٧٣هـ (٥٣) .

أما بعد ذلك فلم تشر المصادر التي بين أيدينا الى أي بناء آخر للكعبة غير ذلك الذي تم في عهد السلطان التركي مراد خان سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م (٥٤) . الا أن هذه الفترة الطويلة التي تمتد الى عشرة قرون لم تخل من بعض الاصلاحات والترميمات في بيت الله العظيم نذكر من ذلك أن الخليفة العباسي المتوكل على الله أمر بأن تصفح زوايا الكعبة بالذهب فتم ذلك على يد اسحاق بن سلمه الصايغ (٥٥) ، كما عمل في عهده منطقه من فضه ركبت فوق ازار الكعبة من داخلها عرضها ثلثا ذراع ، وجعل لها طوق من الذهب (٥٦) ، هذا الى جانب أن عتبة البيت الشريف وكانت من خشب الساج قد رثت وتآكلت فابدلت بخشب آخر ، والبست صفائح من فضة (٥٧) .

أما حلية الكعبة فكانت قد تعرضت للسطو (٥٨) خلال ثورة محمد بن اسماعيل العلوى سنة ٢٥١هـ ومما فقد في تلك الثورة عضادتا الكعبة المشرفة ، فكتب حجبة الكعبة بما حدث الى الخليفة العباسي المعتضد ، فأمر الخليفة باعادة ذلك جميعه فأعيد على الوجه المطلوب (٥٩) .

وفي سنة ٣١٠هـ أمرت شغب أم الخليفة المقتدر بالله غلاما لها يدعى لؤلؤ بالباس الاسطوانة التي تلى باب الكعبة صفائح الذهب من أسفلها الى أعلاها (٦٠) ، وكان بعضها قبل ذلك ملبسا بصفائح الذهب ، والبعض الآخر كان مموها (٦١) .

أما عن اسهام الخلفاء الفاطميين في هذا المجال ، فلم تذكر المصادر التي بين أيدينا أي عمل فاطمي في مكة في تلك الفترة فيما يتعلق بتعمير الكعبة المعظمة أو تحليتها ولعل ذلك يعود كما أشرنا الى ضياع المصادر الفاطمية وجهل المصادر السنية أو اغفالها للأعمال التي أسداها الفاطميون في مكة خلال فترة نفوذهم فيها ، والذي امتد الى قرن من الزمان ، وهي فترة قد لا تخلو من بعض الاصلاحات التي اضطلع بها الفاطميون في بيت الله العظيم .

(٤٨) رحلة ناصر خسرو ، ص ١٢٩ .
(٤٩) ابن رسته ، **الأعلاق النفيسة** ، ليدن ، (١٨٩١م) ، ص ٣٢ .
(٥٠) ابن رسته ، **الأعلاق النفيسة** ، ص ٣٢ .
(٥١) الحميري ، **الروض المعطار** ، ورقة ٥٢ ، ابن رستة ، المصدر السابق ، ص ٣١ .
(٥٢) لمعرفة المزيد من بناء الكعبة قبل عبد الملك بن مروان ، أنظر : الأزرقي ، **اخبار مكة** ، جـ١ ، ص ١٥٧ وما بعدها . النابلسي ، **الحقيقة والمجاز** ، ورقة ٢٢١ . باسلامة ، **تاريخ الكعبة** ، ص ٤٠ وما بعدها .
(٥٣) أعلام الأنام ، (المؤلف مجهول) ، مكتبة الحرم المكي ، غير مرقمة ، تاريخ دهلوى ، ورقة ٢٥-٢٦ .
(٥٤) باسلامة ، المصدر السابق ، ص ٩٩ وما بعدها .
(٥٥) القطبي ، **اعلام العلماء** ، ص ٤٦ .
(٥٦) الأزرقي ، المصدر السابق ، ص ٣٠٤ .
(٥٧) القطبي ، المصدر السابق ، ص ٤٧ .
(٥٨) نفس المكان .
(٥٩) الصباغ ، **تحصيل المرام** ، ورقة ٣٣ .
(٦٠) الفاسي ، **شفاء الغرام** ، جـ١ ، ص ١١٥ . ابن فهد ، **اتحاف الورى** ، حوادث سنة ٣١٠هـ .
(٦١) **أعلام الأنام** ، ورقة ٤١ . الصباغ ، المصدر السابق ، ورقة ٣٤ .

ومما له دلالته في هذا المعنى أن ناصر خسرو الذي زار مكة في منتصف القرن الخامس الهجري شاهد على حائط الكعبة الأمامي ، فوق العمد الخشبية ، كتابة ذهبية فيها اسم العزيز بالله سلطان مصر [٦٢] ، كما شاهد اربعة ألواح أخرى كبيرة من الفضة متقابلة ومثبتة بمسامير من فضة • وعلى كل لوح منها اسم السلطان الذي أرسله من سلاطين مصر [٦٣] • وهؤلاء السلاطين الأربعة هم المعز والحاكم والظاهر والمستنصر فضلا عن العزيز بالله ، وقد كان هؤلاء السلاطين الخمسة هم أصحاب النفوذ في مكة المكرمة ، ولعل هذه الألواح التذكارية تدل على أن عملا ما قد تم انجازه في الكعبة خلال فترة هؤلاء الخلفاء [٦٤] •

كما ذكر ابن تغرى بردى [٦٥] « أنه حدث تشعث في الركن اليماني من البيت الحرام في أول سنة ٣٠٧هـ » غير أنه لم يذكر اصلاح ذلك التشعث ، ولا الخليفة الذي قام بعمله •

والظاهر أن خلفاء مصر هم الذين قاموا باصلاح الركن اليماني بدليل انقطاع حاج العراق في السنوات التالية ، وانتظام ورود الحاج المصري الى مكة المكرمة ومعه في بعض السنوات كسوة الكعبة والأموال للصدقة وصلات لأمير مكة [٦٦] •

وميزاب الكعبة في وسط جدارها الذي يلي الحجر ــ بكسر الحاء ــ بين الركن الشامي والركن الغربي ويسكب في بطن حجر اسماعيل [٦٧] ، وطول الميزاب أربعة أذرع ، وسعته ثمانية أصابع في ارتفاع مثلها [٦٨] • والميزاب ملبس بصفائح الذهب من الداخل والخارج منذ عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك [٦٩] •

غير أن هذا الذهب لم يلبث أن أخذ من الميزاب عندما تمكن بنو أبي الطيب من قلعة في الفتنة التي أعقبت وفاة شكر بن أبي الفتوح سنة ٤٥٣هـ [٧٠] ، والذهاب به معهم الى اليمن [٧١] • وقد بقي عندهم حتى استرده منهم علي بن محمد الصليحي وأعاده ــ كما أسلفنا ــ الى موضعه بالكعبة [٧٢] • ثم بقي ميزاب الكعبة على حالته الطبيعية حتى قدم مكة الرئيس مفيث الدولة أبو النصر ابراهيم الاستراباذي، فعمل على تلبيسه من الفضة [٧٣] ، وقال : « لو أني عملته ذهبا سلم ، لعملته » [٧٤] •

أما الحجر الأسود فكان في الركن اليماني من الكعبة المعظمة ، وكان على رأس صخرتين من وجه الأرض ، قد نحت من صخور البيت مقدار ما أدخل فيه [٧٥] ، وهو أملس حالك السواد في قدر الكف المنحنية ، وجوانبه مشدودة بمسامير من الفضة [٧٦] •

---

(٦٢) رفعت ، مرآة الحرمين ، ص ٢٧٨ •
(٦٣) الرحلة ، ص ١٣٠ •
(٦٤) نفس المكان •
(٦٥) النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٢٤١ •
(٦٦) الجزيري ، درر الفوائد ، ص ٢٥٢ـ٥٤ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٨ ، ص ٦٩ • سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ، ص ١٠٦ •
(٦٧) ابن رستة ، الأعلاق النفيسة ، ص ٣١ •
(٦٨) نفس المكان •
(٦٩) نفس المكان •
(٧٠) العيني ، عقد الجمان ، جـ١١ ، ورقة ٤٠ •
(٧١) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ٢٢ ، ص ٨٨ •
(٧٢) نفس المكان •
(٧٣) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث ٤٦٦ •
(٧٤) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٢٦١ـ٦٢ •
(٧٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٦ ، ص ٢٥٦ •
(٧٦) نفس المصدر ، ص ٢٥٧ •

وكان الحجر الأسود هدفا لكثير من الاعتداءات ففي سنة ٣١٧هـ تعرض لحادث جلل ، فقد هاجم القرامطة مكة في موسم تلك السنة (٧٧)، وأخذوا الحجر الأسود مع ما أخذوه من الغنائم ، وذهبوا به الى الاحساء ، وقد بقي هناك حتى سنة ٣٣٩هـ ثم ردوه الى موضعه بالكعبة كما تقدم ٠

وقد تولى سنبر القرمطي ، وكان من الشخصيات البارزة في تلك الحركة اعادته الى مكانه (٧٨)، وقد وصف الحجر الأسود حينذاك بأن عليه ضبابا من فضة في طوله وعرضه ، وهذه الضباب تضبط شقوقا حدثت فيه عند قلعه (٧٩) في حادث القرامطة المشار اليه ، وقد وضعه سنبر بيده في مكانه بحضرة أمير مكة (٨٠)، وشده البناء حسن بن المزردق بجص كان قد أحضره سنبر معه حين مجيئه الى مكة (٨١).

والظاهر أن هذه الضباب الفضية كانت من عمل القرامطة ، وأنها غير الحلية السابقة التي كانت عليه منذ عهد ابن الزبير وهارون الرشيد (٨٢) ٠ يتبين ذلك من رواية الفاسي عند اعادة الحجر الى مكانه ، ومما جاء في تلك الرواية (٨٣)« أن سنبر لما صار بفناء الكعبة ومعه أمير مكة أظهر الحجر من سفط وعليه ضباب فضة قد عملت من طوله وعرضه ، تضبط شقوقا حدثت عليه بعد انقلاعه » ٠

ومن هنا يتضح أن ضباب الفضة هذه كانت من عمل القرامطة ، وأنها وضعت لترأب الصدوع التي تعرض لها الحجر الأسود أثناء عملية قلعه من الكعبة في حادث سنة ٣١٧هـ ٠

وفي سنة ٣٤٠هـ عمل حجبة الكعبة على قلع الحجر الأسود من مكانه خوفا عليه من الأيدي الأثيمة (٨٤)، وأخفوه في البيت الشريف حفظا له وصونا عمن أراده بسوء (٨٥)، ثم أمروا صانعين ماهرين فعملا له طوقا محكما من الفضة على غرار الطوق الذي عمله عبد الله ابن الزبير (٨٦)، وقد بلغت تكاليف هذا العمل كما ذكره الفاسي نقلا عن المسبحي « ثلاث آلاف وسبعة وتسعين درهما ونصف درهم » (٨٧).

وفي سنة ٣٦٣هـ اعتدى رجل رومي على الحجر الأسود وضربه بمعول كان معه فابتدره رجل من السكاسك وطعنه بخنجر فارداه قتيلا (٨٨) ثم تجمع عليه الناس وأخرجوه من الحرم ، وجمعوا عليه الحطب وأحرقوه بالنار (٨٩) ، وقد ذكرت المصادر التي أوردت هذه الرواية أن الرجل تلقى مالا كثيرا مقابل هدم الحجر الأسود (٩٠) ، ولكنها لم تذكر الدوافع التي تكمن وراء هذا

(٧٧) البسطامي ، الفوايح المسكية ، ورقة ٦٣ ٠
(٧٨) ابن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص ١٠٤ ٠
(٧٩) القطبي ، اعلام ، ص ٨١ ٠
(٨٠) نفس المكان ٠
(٨١) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ١٩٢ ، القطبي ، المصدر السابق ، ص ٨١ ٠
(٨٢) ابن رستة ، الإعلاق ، ص ٣٩ ٠
ابو البقاء ، احوال مكة ، ورقة ٦٣ ٠
(٨٣) شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ١٩٣ ٠
(٨٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٣٠٥ ٠
(٨٥) النهروالى ، الأعلام ، ص ١٦٦ـ٦٧ ٠
(٨٦) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ١٩٣ ٠
(٨٧) نفس المصدر ، ص ١٩٤ ٠
ابو البقاء ، احوال مكة ، ص ٦٣ ٠
(٨٨) الجزيرى ، درر الفوائد ، ص ٢٥٣ ٠
(٨٩) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث ٣٦٦هـ ٠
(٩٠) نفس المكان ٠

العمل ، ولا الجهة التي تولت تمويله ٠

وبعد نصف قرن من تلك الحادثة تعرض الحجر الأسود لحادثة مماثلة ، فقد ذكر الفاسي[٩١]، « أنه في سنة ٤١٣هـ يوم النفر الأول قام رجل فقصد الحجر الأسود فضربه ثلاث ضربات بدبوس فخدش وجه الحجر من تلك الضربات، وتساقطت منه شظايا مثل الأظفار ، وتسبب ذلك عن وجود شقوق صغيرة في الحجر الأسود[٩٢] ٠ وكان يقف على باب الحرم عشرون رجلا لنصرته[٩٣]، فغافله رجل من أهل اليمن وطعنه بخنجر ثم تكاثر عليه الناس فقتلوه وأحرقوه[٩٤] ٠

وهذه الحادثة تبرز لنا نقطة هامة في تاريخ العلاقات الفاطمية العباسية في مكة ، فالمصادر التي تمثل وجهة النظر العباسية تلصق هذه التهمة بالمصريين ، وتزعم أن الذي قام بهذا العمل كان من المصريين الذين استغواهم الحاكم[٩٥] ٠

أما الخليفة الفاطمي الظاهر لاعزاز دين الله فقد تجاوب مع الأحداث تجاوبا سريعا وتنصل من أي تبعية تلحق برعاياه من المصريين نتيجة هذا العمل المستهجن وأصدر بيانا يشجب فيه هذا الحادث ، ومما جاء فيه « وذهبت طائفة من النصيرية الى الغلو في أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، غلت وادعت فيه ما ادعت النصارى في المسيح٠ ونجمت من هؤلاء الكفرة فرقة سخيفة العقول ضالة بجهلها عن سواء السبيل ، فغلوا فينا غلوا كبيرا ، وقالوا في آبائنا وأجدادنا منكرا من القول وزورا ، ونسبونا بغلوهم ، وجهلهم المستفظع الى ما لا يليق بنا ذكره ٠ وانا لنبرأ الى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضُّلال، ونسأل الله أن يحسن معونتنا على اعزاز دينه وتوطيد قواعده وتمكينه ، والعمل بما أمرنا به جدنا المصطفى وأبونا على المرتضى وأسلافنا البررة أعلام الهدى ٠

وقد علمتم يا معشر أوليائنا ودعاتنا ما حكمنا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة الفساق والفجرة المراق ، وتفريقنا لهم في البلاد كل مفرق ، فظعنوا في الآفاق هاربين ، وشردوا مطرودين خائفين ، وكان من جملة من دعاة الخوف منهم الى الانتزاح رجل من أهل البصرة أهوج أنول ضال مضل ، سار مع الحجيج الى مكة حرسها الله فرقا من وقع الحسام ، وتستر بالحج الى بيت الله الحرام٠ فلما حصل في البيت المفضل المعظم، والمحل المقدس المكرم ، أعلن بالكفر وما كان يخفيه من المكر ، وحمله لم في عقله على قصد الحجر الأسود حتى قصده ، وضربه بدبوس ضربات متواليات ، أطارت منه شظايا وصلت بعد ذلك ٠ ثم ان هذا الكافر عوجل بالقتل على أسوأ حاله وأضل أعماله ، والحق بأمثاله من الكفرة الواردين موارد ضلاله ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ٠

ولعمري ان هذه لمصيبة في الاسلام قادحة ونكاية فادحة ، فانا لله وانا اليه راجعون ، لقد ارتقى هذا الملعون مرتقى عظيما ومقاما جسيما ، اذكر به ما كان أقدم عليه غلام ثقيف المعروف بالحجاج ٠٠٠ من احراق البيت وهدمه وازالة بنيانه وردمه[٩٦] ٠

وهكذا فان الظاهر بهذا البيان يوضح سياسته وموقفه تجاه هذا العمل الذي نسب تدبيره الى الفاطميين ، وينفي تبعيته عن رعاياه من المصريين ، وينسبه الى رجل بصري من رعايا الخلافة العباسية المعادية ٠

---

(٩١) شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ١٩٤ ٠
(٩٢) نفس المكان ٠
(٩٣) الجزيري ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٥٣ ، الطبري ، الأرج المسكي ، ورقة ٢٥ ٠
(٩٤) نفس المكان ٠
(٩٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٨ ، ص ٨ـ٩ ٠
(٩٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٢٤٨ـ٥٠ ٠

ومهما يكن الأمر فقد جمع الشيبيون شظايا الحجر المتناثرة ، وعملوا على عجنها بالمسك واللنك ، وحشى بها الشقوق التي وقعت منها تلك الشظايا (٩٧) .

كسوة الكعبة :

وتغطى الكعبة جميعها سترة تسمى الكسوة ، وكسوة الكعبة معروفة في الجاهلية والاسلام (٩٨) . وكان النبي صلى الله عليه وسلم أول من كساها في الاسلام ، فقال في خطبة له : « هذا يوم ... تستر فيه الكعبة وترتفع فيه الأعمال » (٩٩) .

ثم توالت الكساوى على الكعبة في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين حتى استقرت في الخلفاء العباسيين بعد انتقال الخلافة اليهم .

وكانت مصر منذ الفتح الاسلامي تتولى صناعة الكسوة للكعبة فكان عمر بن الخطاب أول من كتب الى واليه بمصر يطلب منه حياكة الكسوة وارسالها الى مكة (١٠٠) .
وكانت مدينتا شطا وتنيس من المدن التي اشتهرت بصناعة الكسوة فقد ذكر المقريزى نقلا عن الفاكهى قوله « ورأيت فيها كسوة من كساوى أمير المؤمنين هارون الرشيد من قباطي مصر مكتوب عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعته في طراز شطا كسوة للكعبة في سنة ١٩١هـ » (١٠١) .

أما تنيس ، فكانت من أهم المدن المصرية التي تصنع بها كسوة الكعبة . فقد أورد المقريزى ما جاء في كتاب أخبار مكة للفاكهى بقوله : « ورأيت كسوة مما يلي الركن الغربى (من الكعبة) مكتوب عليها مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الحروى بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين ، وطاهر بن الحسين سنة ١٩٧هـ (١٠٢) .

ورأيت شقة من قباطي مصر في وسطها الا أنهم كتبوا في أركان البيت بخط دقيق أسود . مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ٢٠٦هـ . ورأيت كسوة من كساوى المهدى مكتوب عليها : بسم الله بركة من الله لعبدالله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع في طراز تنيس على يدي الحكم بن عبيدة سنة ١٦٢هـ (١٠٣) .

ورأيت كسوة أخرى من قباطي مصر مكتوب عليها : « بسم الله بركة من الله مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع في طراز تنيس كسوة الكعبة على يدي الخطاب بن مسلمة عامله سنة ١٥٩هـ » (١٠٤) .

وعندما ضعفت الخلافة العباسية واستولى الفاطميون على مصر أخذوا على عاتقهم ارسال الكسوة الى مكة المكرمة ، فقد ذكر المقريزي في حوادث سنة ٣٦٤هـ أن الخليفة الفاطمي المعز لدين

---

(٩٧) الطبرى ، الأرج المسكي ، ورقة ٢٥ ، باسلامة ، تاريخ الكعبة ، ص ١٥٧ .
(٩٨) لمعرفة من تولى كسوة الكعبة في الجاهلية والاسلام ، انظر : الأزرقي ، أخبار مكة ، جـ١ ، ص ٢٥١-٢٥٧ . القطبي ، أعلام ، ص ٥٤-٥٦ .
(٩٩) الأزرقي ، نفس المصدر ، ص ٢٥٢ .
(١٠٠) الأزرقي ، نفس المصدر ، ص ٢٥٣ .
(١٠١) الخطط ، جـ٥ ، ص ٨١-٨٢ .
(١٠٢) نفس المصدر جـ٤ ، ص ٢١٣-٢١٤ .
(١٠٣) المقريزى ، الخطط ، جـ٤ ، ص ٢١٣-١٤ . مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ١٠ ، ص ٤٩ .
(١٠٤) نفس المكان .

الله » بعث الى الحجاز بالأموال والنفقة وكسوةالكعبة »[١٠٥].

وعندما توفي المعز سنة ٣٦٥هـ تولى خلفاؤه من بعده ارسال الكسوة الى مكة المكرمة في أغلب السنوات التي شهدتها خلافة العزيز والحاكم والظاهر[١٠٦].

وكما ازدهرت تنيس كدار لصناعة كسوة الكعبة في عصر الولاة فقد ازدادت اهميتها في العصر الفاطمي ، واضطلعت مع غيرها من مدن الوجه البحرى بهذا الدور البناء ، فقد ذكر المقريزى نقلا عن المسبحي في حوادث سنة ٣٨٤هـ قوله : « وفي ذى القعدة ورد يحيى بن اليمان من تنيس ودمياط والفرما بهديته ، وهي اسفاط وتخوت وصناديق وخيل وبغال وحمير وثلاث مظال وكسوتان للكعبة »[١٠٧].

وكان الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، قد أولى جانبا كبيرا من عنايته بالأماكن المقدسة في الحجاز ، فتوفر على ارسال كسوة الكعبة ، ونفقات أهل الحرمين وصلات ومخصصات أشراف مكة »[١٠٨].

وعندما ضعفت موارد الخلافة الفاطمية بسبب ظروف الشدة العظمى التي حلت بمصر منذ منتصف القرن الخامس ، لم تف مصر بالتزاماتها تجاه مكة المكرمة ، وفي مقدمتها كسوة الكعبة ، فتولت اليمن وهي حينذاك تدين بالولاء الروحي للفاطميين الكسوة في بعض السنوات . وقد تم ذلك على يد علي بن محمد الصليحي ، عندما حج سنة ٤٥٥هـ[١٠٩]، فقد كسا الكعبة ديباجا أبيض[١١٠]. وذلك جريا على سنة الفاطميين في اختيار اللون الأبيض لكسوة الكعبة[١١١].

ومن المعروف أن اللون الأبيض كان شعار الفاطميين[١١٢]. وقد وصف ناصر خسرو الكسوة في عهد الفاطميين بقوله : « والكسوة التي تغطي الكعبة بيضاء ، وقد طرزت في موضعين ، عرض كل منهما ذراع ، وبينهما عشر أذرع تقريبا بواسطة طرازى الكسوة . وعلى جانب هذه الكسوة نسجت محاريب ملونة مزينة بخيوط من ذهب ، وعلى كل ناحية ثلاثة محاريب : محراب كبير في الوسط ، ومحرابان صغيران على جانبيه ، فعلى النواحي الأربعة اثنا عشر محرابا »[١١٣].

أما العباسيون فلم يهتموا باضفاء شعارهم ــ وهو اللون الأسود ــ على كسوة الكعبة فقد كانوا يكسونها اللون الأبيض والأحمر[١١٤]، ثم كسوها اللون الأخضر فيما بعد[١١٥] وقد استمر هذا اللون حتى عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله حيث كساها اللون الأسود[١١٦]، وقد أصبح هذا اللون طابعا مميزا لكسوة الكعبة حتى عصرنا الحاضر[١١٧].

---

(١٠٥) اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ٢٢٢ .
(١٠٦) نفس المصدر ، ص ٢٤٦ وما بعدها في اماكن متفرقة .
(١٠٧) الخطط ، جـ٤ ، ص ٢١٤ .
(١٠٨) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ، ورقة ١٠٦ .
المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، في اماكن متفرقة .
(١٠٩) العيني ، عقد الجمان ، جـ١١ ، ورقة ٤٦ .
(١١٠) الفاسى ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ١٢٢ .
(١١١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٢١٧ .
(١١٢) المقريزى ، الذهب المسبوك ، ص ٦٦ .
(١١٣) الرحلة ، ص ١٢١ـ٢٢ .
(١١٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٦ ، ص ٢٥٧ .
(١١٥) الفاسى ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ .
(١١٦) نفس المكان .
(١١٧) باسلامة ، تاريخ الكعبة ، ص ٢٣٩ .

والظاهر أن الخليفة الناصر لم يرد بكسوة الكعبة السواد اظهار شعار العباسيين خاصة وان الخلافة الفاطمية قد انقرضت ، ولم تعد هناك خلافة شيعية تنافس الخلافة العباسية السنية في هذا الميدان ، وانما اختار هذا اللون لعدم تغيره وقدرته على مقاومة عوامل الطبيعة المختلفة . وهذا يعلل بقاءه وصموده أمام جميع الألوان حتى عصرنا الحاضر ٠

ومهما يكن من أمر فقد أدى ضعف موارد الخلافة الفاطمية . وعدم وفائها بالتزاماتها في هذه الفترة ، ووفاة علي بن محمد الصليحي الى بقاء البيت عريانا عدة سنين حتى قدم مكة أبو النصر ابراهيم بن محمد الاسترابادي(١١٨) وكسا البيت ثيابا بيضا من عمل الهند(١١٩)٠

وقد صادف مجيء الاسترابادي مكة وكسوته للبيت ، وصول كسوة للكعبة من قبل السلطان جلال الدولة ملكشاه السلجوقي ، وكانت من ديباج أصفر ، برفقة رجل أعجمي يدعى السلار(١٢٠)، فلما وصل الى مكة في حفل بهيج ، جعلت الكسوة التي احضرها فوق كسوة أبي النصر الاسترابادي(١٢١)٠

ولم تمدنا المصادر التاريخية بعد ذلك بشيء من المعلومات عن كسوة الكعبة والظاهر انها انتقلت الى الخلفاء العباسيين وانصارهم من السلاطين السلاجقة وذلك لأن الميزان السياسي في مكة تحول لصالح العباسيين ٠

اصلاحات عامة

والى جانب الاصلاحات التي قام بها الخلفاء وبعض الأمراء المعاصرين لهم في المسجد الحرام والكعبة المعظمة ، هناك اصلاحات أخرى شملت جوانب متعددة من مكة المكرمة ، ولعل في مقدمتها توفير مياه الشرب لأهالي تلك المدينة وللحجاج القادمين اليها من مشارق الأرض ومغاربها ٠

وكانت مكة قليلة المياه ، وتقع في واد تحف به جبال سود شاهقة الارتفاع خالية من المياه والنبات ، وكان سكانها والحجاج الوافدين اليها يحصلون على ماء الشرب من الأمطار التي تتجمع في صهاريج وبرك(١٢٢)، ومن آبار أخرى مالحة(١٢٣) اطيبها بئر زمزم وماؤها مالح ايضا ولكنه يستساغ(١٢٤)٠

وعندما حجت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد ، ورأت حجاج بيت الله الحرام يقاسون الأمرين من قلة المياه ، وصعوبة الحصول عليها ، سارعت الى شراء حائط حنين وهو مكان كثير المياه يستفاد منها في زراعة بساتين النخيل(١٢٥) وغيرها ، فابطلت تلك المزارع ، وعملت على توصيل مياهها بما ضمت اليها من العيون الأخرى كعين مشاش وعين الزعفران وعين البرود(١٢٦) وغيرها عبر قنوات الى مكة المكرمة(١٢٧)٠ كما عملت على اجراء عين وادي نعمان الى عرفات(١٢٨)٠ وقد

(١١٨) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٤٦٦ ٠
(١١٩) الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٢٦١ ٠
(١٢٠) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٩٥ ٠
(١٢١) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ ٠
(١٢٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٢٧ ٠
(١٢٣) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣١٦ ٠
(١٢٤) رحلة ناصر خسرو ، ص ١٣٣ ٠
(١٢٥) لمازي ، افادة الانام ، جـ٢ ، ورقة ٢٨٩ ٠
(١٢٦) نفس المكان ٠
(١٢٧) نفس المكان ٠
(١٢٨) اليعقوبي ، مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٢٦ ٠

بلغت تكاليف هذا العمل مليون وسبعمائة ألف دينار من الذهب[١٢٩]٠

ثم أخذ الخلفاء والسلاطين يتعاهدون عين زبيدة بالاصلاح كلما بلغهم خراب فيها أو في أحدى قنواتها[١٣٠]فكانوا يرسلون من يعمل على اصلاحها كلما دعت الحاجة الى ذلك[١٣١]٠

وكان ممن عمرّها من الخلفاء العباسيين المتوكل على الله عندما غارت عيون مكة نتيجة زلزال سنة ٢٤١هـ ، فرصد لذلك مبلغ مائة الف دينار ذهبا لاعادة اجراء مياه عرفات اليها[١٣٢]٠ وفي سنة ٢٤٥هـ غارت عين مشاش ــ وهي العين التي تمد مكة بالماء ــ فبلغ ثمن القربة درهمان فبعث المتوكل على الله مالا أنفق عليها حتى عاد جريانها[١٣٣]٠

وكان الخليفة العباسي المقتدر بالله ممن عنى عناية كبيرة بالأماكن المقدسة في مكة ، وبتوفير الراحة والطمانينة للحاجين اليها ٠ فعمل على استكمال مشروع عين زبيدة ، وأوصله في قناة الى باب بني شيبة ، وجعله في حياض يمتح منها الماء بقدر الكفاية[١٣٤]٠

وكانت لوالدته شغب أيضا ، اهتمامات كبيرة في هذا المجال ، فقد كانت تواظب على مصالح الحجاج[١٣٥]، وتبعث معهم في كل موسم خزانة الشراب والأطباء[١٣٦]، وكانت تأمر باصلاح الحياض في مكة المكرمة[١٣٧] ٠ كما ذكر عنها أنها عملت في سنة ٣١٥هـ على تعمير خمس برك بعرفة[١٣٨]، وذلك لسقيا الناس في مواسم الحج[١٣٩]٠

وكان الحسين بن سلامة ــ أحد الوزراء في الدولة الزيادية بمدينة زبيد باليمن ــ قد عمل على ايصال الماء الى جبل الرحمة ، وانفق في سبيل ذلك أموالا طائلة[١٤٠]، وكان الماء يحمل من هذا الجبل الى صحراء عرفات ، حيث عملت أحواض تملأ بالماء أيام الحج حتى يتيسر ذلك للحجيج[١٤١]٠

والظاهر أن عين نعمان التي عملتها السيدة زبيدة كانت تقف عند نقطة معينة من حدود عرفة ، ولم تصل الى جبل الرحمة ، فعمل الحسين بن سلامة على ايصالها الى جبل الرحمة نفسه ، ومن ثم الى صحراء عرفات ، ولعل الرحالة ناصر خسرو يقصد بصحراء عرفة هي المنطقة الفسيحة المنبسطة التي يقع فيها مسجد نمرة ٠

كما يبدو أن الحسين بن سلامة حاول ايصال عين نعمان من عرفات الى مكة فقد ذكر ناصر خسرو انه ، أنشأ مجرى للماء تحت الأرض وأنفق عليها أموالا كثيرة يسقى منه ما على حافتيه من شجر في عرفات ، وقد حبس هذا الماء هنالك حيث غرست الحدائق فلا يصل قرب مكة منه الا القليل

---

(١٢٩) نفس المكان ٠
المغربي ، من آثار السيدة زبيدة ، ص ٨٦٢ ٠
(١٣٠) الزواوي ، محمد صالح ، بغية الراغبين ، الطبعة الأولى ، المطبعة الخيرية (١٣٣٠هـ) ، ص ٩ ٠
(١٣١) نفس المكان ٠
(١٣٢) الزواوي ، بغية الراغبين ، ص ٩ ٠
(١٣٣) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٢٤٥ ٠
الزواوي ، المصدر السابق ، ص ٩ ٠
(١٣٤) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٣٧ ٠
الأصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٧ ٠
(١٣٥) الجزيري ، درر الفوائد ، ص ٢٣٤ ٠
(١٣٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٦ ، ص ٢٥٣ ٠
(١٣٧) الجزيري ، المصدر السابق ، ص ٢٣٤ ٠
(١٣٨) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٢٥٣ ٠
(١٣٩) نفس المكان ٠
(١٤٠) رحلة ناصر خسرو ، ص ١٣٦ ٠
(١٤١) نفس المكان ٠

لأن القناة لا تبلغها ، وهذا القليل يجمع في حوض خارج مكة فيأخذ منه السقاءون ويذهبون به اليها ويبيعونه »(١٤٢).

كما شملت الاصلاحات العامة في مكة أمورا أخرى غير مياه الشرب ، ومما له دلالته في هذا المعنى أن الخليفة العباسي المقتدر بالله كان يفرق يوم عرفه كل عام أربعين ألف رأس من الابل والبقر ، وخمسين ألفا من الغنم(١٤٣).

وفي سنة ٣٢٥هـ أمر الخليفة العباسي الراضي بالله بعمارة العلمين الكبيرين التي توضح الحدود الفاصلة بين الحل والحرم من ناحية مسجد التنعيم ـ وهو المكان الذي يهل منه أهل مكة بالعمرة(١٤٤) ـ وأمر أن يكون هذان العلمان مبنيين في الأرض لا في الجبل(١٤٥).

وقدمت جميلة بنت ناصر الدولة كثيرا من أفعال الخير والبر بمكة عندما حجت اليها سنة ٣٦٦هـ (١٤٦)، فقد اعتقت بمكة ثلاثمائة عبد ومائتي جارية ، وسقت أهل عرفة السويق والسكر ، وأحضرت معها عددا كبيرا من الجمال والعجول للذبح وخلعت على كبار الناس بمكة خمسين ثوبا (١٤٧).

أما الحسين بن سلامة فكان له من المآثر بمكة الى جانب ما تقدم ، مسجد بناه على جبل الرحمة بعرفات (١٤٨)، وهذا المسجد هو الذي وصفه ناصر خسرو بقوله : « وقد بنى هذا الأمير (الحسين بن سلامة) طاقا كبيرا يضعون فوق قبته كثيرا من القناديل والشموع ليلة عرفة ويومه فيرى نورها من مسافة فرسخين » (١٤٩).

وعندما قدم أبو النصر الأسترابادي مكة سنة ٤٦٦هـ صنع بها وبظاهرها مآثر حسنة ، فمنها أنه عمَّر المسجد الذي أحرمت منه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالتنعيم لما حجت ، وهذا المسجد، هو المعروف بمسجد الهليلجة نسبة الى شجرة كانت قريبة منه(١٥٠)، وذكر الفاسي أن اسم الأسترابادي مكتوب بذلك المكان على حجر في جدار المسجد الشامي (١٥١)، ونص المكتوب في الحجر بعد البسملة « أمر بعمارة مسجد عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما ، بأمر منه الرئيس الأجل فخر الرؤساء مغيث الحرمين أبو النصر ابراهيم بن محمد بن علي ، عنه وعن أخيه الرئيس الأجل السيد ذي المحاسن أبي مسعود علي بن محمد بن علي ، تقبل الله عملهما ، وبلغهما في الدارين آمالهما وشكر سعيهما . ولا قطع من الحرمين أثرهما ، وذلك في رجب سنة ٤٦٦هـ »(١٥٢).

وحج الوزير محمد بن حسين أبو شجاع الروذراوري في وزارته سنة ٤٨٠هـ ، فبذل في طريقه الى مكة المكرمة الزاد والأدوية ، وعم أهل الحرمين بكثير من أعمال البر والصدقات ، وساوى بين الفقراء جميعا في اقامة مناسكهم وعبادتهم(١٥٣).

وبالرغم من هذه الاصلاحات والتسهيلات التي يتسابق الخلفاء في تقديمها للحجاج

(١٤٢) رحلة ناصر خسرو ، ص ١٢٣ـ٢٤ .
(١٤٣) الاسحاقي ، لطائف اخبار الدول ، ورقة ٦٠ .
(١٤٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٠٧ ، ١١٤ـ١٥ .
(١٤٥) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٣٢٥هـ .
(١٤٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ١٢٦ـ٢٧ .
(١٤٧) غازى ، افادة الأنام ، جـ٣ ، ص ٣١٢ـ١٤ .
(١٤٨) عمارة ، تاريخ اليمن ، ص ٤٣ . الخزرجي، العسجد المسبوك ، ورقة ٥٩ .
(١٤٩) الرحلة ، ص ١٣٦ .
(١٥٠) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٤٦٦هـ .
(١٥١) العقد الثمين ، جـ٣ ، ص ٢٦١ .
(١٥٢) نفس المكان .
(١٥٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٩ ، ص ٩٢ .

والنفقات الباهظة التي ينفقونها في مكة وفي طرق الحج الموصلة اليها ، رعاية لأهلها ورحمة بآلاف الحجاج الوافدين اليها من أقاصي المعمورة . بالرغم من هذا كله فان أحدا من خلفاء هذه الفترة التي ندرسها عباسيا كان أم فاطميا لم يحج الى بيت الله الحرام .

وهذه الحالة تختلف عما كانت عليه في العصور الاسلامية المبكرة ، فقد رأينا حرص الخلفاء الراشدين والأمويين وبعض العباسيين في عصرهم الذهبي على تأدية فريضة الحج اثناء خلافتهم .

أما في العصور العباسية المتأخرة ، فقد ذكرنا أن حياة الترف والانقسامات الداخلية وضعف الدولة ، وسيطرة الأتراك وتسلطهم على الخلفاء ، شغلتهم عن الخروج لتأدية الفريضة الدينية ، بل لعل مصاعب الطريق واخطاره ، وسيطرة الفاطميين على الأماكن المقدسة من الأمور التي حالت دون قيامهم بفريضة الحج ، حتى أن بعض هؤلاء الخلفاء عزم على الخروج الى مكة حاجا، فلما جاءته الأخبار بصعوبة الطريق وأخطاره عدل عن ذلك[١٥٤].

فاذا كان خوف الخلفاء العباسيين من المغامرة في طريق غير مأمونة تتحكم فيها القبائل المتمردة على دار الخلافة ، أو خوفهم من ترك عاصمتهم نهبا للقادة الأتراك هو الذي يمنعهم من الحج . فما الذي يمنع الخلفاء الفاطميين ، وهم في قمة مجدهم وعظمة سلطانهم من تأدية تلك الفريضة الدينية ؟

فاما فاطميو المغرب الأول فموقفهم واضح وعذرهم أوضح ، لأن طريق الحج الى مكة عبر مصر لا يزال تحت سيطرة دولة معادية تتربص بهم الدوائر ، ولن تسمح لهم بالمرور الى الأماكن المقدسة. وهذا عندهم من موانع الحج ، فقد روى عن جعفر بن محمد قوله[١٥٥]: « من مات ولم يحج حجة الاسلام ، لم تمنعه من ذلك حاجة تجحف به ، أو مرض لا يطيق فيه الحج ، أو سلطان يمنعه ، فليمت يهوديا أو نصرانيا » .

فماذا نقول ــ بعد زوال تلك الموانع ــ في موقف الخلفاء الفاطميين ، ولا سيما الأقوياء منهم وذلك بعد انتقالهم الى مصر ، وسيطرتهم بشكل أو بآخر على الحجاز وانفاقهم الأموال الطائلة على الأماكن المقدسة ، وتسهيل سبل الحج ، وتوفير الراحة والطمأنينة لقاصديه ؟

تشير المصادر التي بين أيدينا الى أن المعز لدين الله كان من أكثر الخلفاء الفاطميين شوقا الى الحج ، وأشدهم تلهفا الى زيارة الأماكن المقدسة عندما كان بالمغرب ومما له دلالته على تلك الرغبة ذلك النسيج الفخم الذي نسج سنة ٣٥٣هـ من الحرير والذهب ، وكان يحمل مصورا للعالم يوضح موقع بلاد الحجاز منه ، وقد وصفه المقريزي بانه « مقطع من الحرير التسترى القرقوبي ، غريب الصنعة ، منسوج بالذهب ، وسائر ألوان الحرير ، وكان المعز أمر بعمله في سنة ٣٥٣هـ فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومسالكها ، وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير ، وفي آخره مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله ، واشهارا لمعالم رسول الله »[١٥٦].

(١٥٤) الأزرقي ، أخبار مكة ، جـ٢ ، ص ٩٩ـ١٠٠ .
والخليفة : هو الواثق بالله . أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص ٢٧٤ .

(١٥٥) أبو حنيفة ، النعمان بن محمد بن منصور ، دعائم الاسلام ، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي ، ط٣ ، القاهرة (١٩٦٩م) ، جـ١ ، ص ٢٩٥ـ٩٦ .

(١٥٦) حسن ، حسن ابراهيم ، المعز لدين الله الفاطمي ، ص ٢٨١ـ٨٢ . الخطط ، جـ١ ، ص ٤١٧ .

كما تتجلى رغبة المعز في الحج الى بيت الله العظيم وزيارة قبر نبيه الشريف في خطاباته وتوقيعاته المتكررة التي كان يرسلها الى مولاه جوذر وهو لا يزال بالمغرب[١٥٧].

ولكن هذه الرغبة لم تلبث أن اختفت بعد قدومه الى مصر ، فلم يؤثر عنه أو عن غيره من الخلفاء الذين جاءوا بعده أنهم قاموا بتادية تلك الفريضة الدينية ، فهل كان في عقيدتهم الاسماعيلية ما يمنع الحج ؟

والاجابة على هذا السؤال تحتمل النفي ، لأن الحج في اعتقادهم دعامة من دعائم الاسلام السبعة [١٥٨]، والشيعة الاسماعيلية لا ينتقصون دعامة من هذه الدعائم ، غير أن هذا في ظاهر الأمر ، أما في باطنه ، فقد جاء في مؤلفاتهم أن لعبادة الحج كغيرها من العبادات ظاهرا وباطنا[١٥٩]، فالحج في الظاهر هو اقامة شعائره الدينية العملية في مكة وعرفات وغيرهما من المشاعر المقدسة في مواسمه المعروفة شأنهم في ذلك شأن سائر المسلمين[١٦٠] . أما الحج في الباطن فهو قصد امام الزمان ولو مرة في العمر[١٦١] .

ومن هنا يتضح أن الأئمة يشركون في هذه الفريضة ، وأن زيارتهم واجبة وأنها شبيهة بالحج الى مكة المكرمة . فهل يجد هؤلاء الأئمة ـ وهم المحجوج اليهم ـ رخصة في التأويل تعفيهم من الحج الى مكة ؟ أغلب الظن لا ! ، لأنه لا يجوز في اعتقادهم اقامة ظاهر العبادات دون باطنها ولا باطنها دون ظاهرها[١٦٢].

هذا من جهة ومن جهة ثانية ، كان بعض الخلفاء الفاطميين يختلفون على زيارة بعض الأماكن المعروفة بمصر ، فقد كان الحاكم بأمر الله يواصل الخروج الى جبل القرافة [١٦٣]، وكان من عادة المستنصر ـ كما أسلفنا ـ أن يركب على النجب مع النساء والحشم الى جب عميرة في يوم عرفة من كل سنة ، وذلك بهيئة أنه خارج الى الحج وربما حمل معه الخمر في الروايا عوضا عن الماء ويسقيه من معه [١٦٤] .

وكان تعريف الحج هو الاختلاف الى الموضع والى الشيء مرة بعد مرة [١٦٥]، فهل يعني اختلاف الحاكم والمستنصر على هذين الموضعين أنهما يحجان اليهما في الباطن ؟ وهذا ما لا نستطيع تقريره والجزم به .

والظاهر أن رغبة الخلفاء الفاطميين في الحج الى مكة المكرمة وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم كانت لا تقل عن اهتمامهم بالأماكن المقدسة ، وتسهيل السبل لقاصديها ، ولكن كانت تنقصهم العزيمة الصادقة والنية القوية ، فقد ذكر المقريزي في حوادث سنة ٣٦٣هـ أن الخليفة المعز خرج في شهر رمضان من تلك السنة على فرس ، وقد اجتمع الناس من الأشراف والقواد والعمال والكتاب والمغاربة فوقفوا بين يديه فقال لهم : « قد أنعم الله ـ عز وجل ـ وتفضل ومكن ،

---

(١٥٧) سيرة الأستاذ جوذر ، ص ٨٢ـ٩٣ ، ١٠٧ .

(١٥٨) ابو حنيفة ، دعائم الاسلام ، جـ١ ، ص ٢ . ودعائم الاسلام السبعة هي : الولاية ، الطهارة ، الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج والجهاد .

(١٥٩) سيرة الأستاذ جوذر ، ص ١٧٩ .

(١٦٠) نفس المكان .

(١٦١) ابو حنيفة ، تاويل الدعائم ، تحقيق محمد حسن الأعظمي ، طبعة دار المعارف بمصر ، جـ٣ ، ص ١٤٣ . سيرة جوذر ، انظر قبله .

(١٦٢) ابو حنيفة ، دعائم الاسلام ، جـ١ ، ص ٥٢ .

(١٦٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ١٨١ ، ٢١٥ـ٢٦ .

(١٦٤) ابن ميسر ، تاريخ مصر ، ص ١٣ .

(١٦٥) ابو حنيفة ، المصدر السابق ، ص ١٤٢ـ٤٣ .

ونريد الحج وزيارة قبر جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد ، فأيش يقصر عن هذا ؟

ان قلت ليس عندي مال أني لكاذب ، وان قلت ليس عندي كراع وسلاح ، اني لكاذب ، وان قلت ليس عندي رجال ، اني لكاذب ، اللهم أعني بنية أقوى من نيتي » (١٦٦) ٠

وهكذا نلاحظ أن حاجة الخلفاء الفاطميين الى النية الصادقة والعزيمة القوية حالت ـ رغم قدرتهم ـ دون ذهابهم الى مكة المكرمة لتادية فريضة الحج ، كما نلاحظ من دراستنا لهذا الفصل أن مكة حظيت بقدر كبير من الانجازات التي قام بها الخلفاء العباسيون والفاطميون في جميع الميادين المختلفة ، كما نلاحظ تفاوتهم في تحقيق هذه الانجازات ٠

فحين نرى أن الخلفاء العباسيين فازوا بنصيب كبير في اصلاح وعمارة المسجد الحرام ، نلاحظ من ناحية ثانية أن الخلفاء الفاطميين كان لهم القدح المعلى في كسوة الكعبة وفي وجوه الانفاق المختلفة في مكة واضعين في اعتبارهم كسب رضا وتاييد المسلمين في جميع أنحاء العالم الاسلامي بصورة عامة وفي مكة بصورة خاصة ٠

---

(١٦٦) اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ٢٠٩ ٠

الفصل الرابع

المجاورة بمكة المكرمة

● تمهيد ● الآثار الدينية ● الآثار الثقافية ● الآثار السياسية ● الآثار الاجتماعية ·

تمهيد

لقد كانت ـ ولا ريب ـ للمكانة الروحية التي تتمتع بها مكة أهمية خاصة لدى جماهير المسلمين في جميع أنحاء المعمورة ، فاستقطبت هذه الأهمية عددا كبيرا من المسلمين الذين توافدوا على مكة حجاجا وطلاب علم، ثم لم يلبثوا أن فضلوا قضاء فترة صفاء روحي في جوار بيت الله العظيم ، وعلى أرض مكة الطاهرة ، ومن هنا نشأ ما عرف في التاريخ الاسلامي باسم « المجاورة » [1] ·

ويرجع تاريخ المجاورة الى ما جاء في الأثر عن فضل مكة والاقامة بها ، فقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله « أما والله اني لأخرج منك واني لأعلم أنك أحب البلاد الى الله وأكرمها ··· ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت ··· » [2] ·

وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت « لولا الهجرة لسكنت مكة ، اني لم أر السماء بمكان قط أقرب الى الأرض منها بمكة ، ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة ، ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة » [3] ·

والمجاورة بمكة مستحبة عند أكثر العلماء [4] ، وقد جاور بها عدد كبير من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم بعد مماته [5] ، وكان على رأس هؤلاء الصحابة عبد الله بن عمر بن الخطاب وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم [6] ·

---

(١) وفي اللغة جاوره مجاورة وجوار اي ساكنه ولاصقه في المسكن ، وجاور المسجد اى اعتكف به، ويقال جاور المدينة او مكة : انظر ، مصطفى ، ابراهيم وآخرون : المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص ١٤٦ ·

(٢) الأزرقي ، اخبار مكة ، جـ٢ ، ص ١٥٥ ، علان ، مثير شوق الأنام ، ورقة ٢٥ · Snouk, Mekka, p. 3.

(٣) الأزرقي ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ · علان ، المصدر السابق ، ورقة ٢٥ · ابن ماجه ، سنن المصطفى ، جـ١ ، ص ٢٦٦ · ا·ى· ونسنك وآخرون ، المعجم المفهرس ، جـ٢ ، ص ١٨ ·

(٤) الفاسي ، تحصيل المرام ، الباب السادس · وهناك بعض من العلماء يرون كراهية المجاورة بمكة وعلتهم في ذلك هو خوف الملل وقلة الاحترام لمداومة الانس بالمكان وخوف ارتكاب ذنب هنالك فان المعصية فيها ليست كغيرها من البلدان · انظر : الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٨٤ · المحبي ، القرى لقاصد ام القرى ، ص ٦٦١ ·

(٥) المحبي ، نفس المصدر ، ص ٦٦٢ · وعدد من نزل بها من الصحابة أربعة وخمسون رجلا · (نفس المكان) ·

(٦) نفس المكان ·

كما جاور بمكة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فترة [٧] ، ولم يخرج منهـا الا بعـد أن أوذي في عهد عبد الله بن الزبير [٨] ، وقد أثر عنه قوله « اقم بمكة وان أكلت بها العظاة يعنى السمر » [٩] ٠

أما في هذه الفترة التي نتناولها بالدراسة فقد أمدتنا المصادر بمعلومات لا بأس بهـا عـن المجاورين بمكة المكرمة ، ومن دراسة هذه المعلومات نستشف الحقائق التالية :

١ ـ ان أغلب المجاورين بمكة كانوا من رعايا الدولة العباسية ولا سيما من البلاد الواقعـة شرقي العراق ، ثم يلي ذلك الأندلسيون والمغاربة فالمصريون والشاميون وقلما جـاور أحـد مـن اليمنيين بمكة المكرمة [١٠] ٠

٢ ـ أن أغلب المجاورين بمكة كانوا من الصوفية الزهاد ، أو من العلماء المتبحرين في فنونهم ، وقد وجد من بين هؤلاء المجاورين من جاء الى مكة المكرمة موفدا من قبل الخلافة العباسية لرعايـة مصالح الحرم [١١] ٠

٣ ـ أن مدة المجاورة بالحرم المكى تطول وتقصر تبعا لراحة المجاور ، والظروف المحيطة به ، ففي حين أنها لم تزد على أربع سنوات لدى بعض الأشخاص [١٢] ، نجد أنها تمتد بالبعض الآخر الى خمســين سنة [١٣] ، بـل ان معظم المجاوريــن فضلوا البقاء بمكة حتى وفاتهم [١٤] ٠

٤ ـ أن بعض العلماء من المجاورين استطاعوا الوصول الى وظائف دينية مهمـة ، فتقلـب بعضهم على امامة الحرم المكي [١٥] ، وتولى البعض الآخر اقامة الآذان فيه [١٦] ، ومنهم مـن اشتغل بالتدريس [١٧] ، والقضاء [١٨] ، وتصدر للفتوى [١٩] ٠

٥ ـ أنه وجد من بين طبقات المثقفين من فضل المجـاورة بالمدينـة المنورة ، فقـد روى أن البخارى (المتوفي سنة ٢٥٦هـ) صنف كتابه في التاريخ عنـد قبر الرسول صلى اللـه عليـه وسلم [٢٠] ٠

ويحكي عن جعفر بن الفضل بن الفرات المتوفـي سنـة ٣٩١هـ ، وكـان وزيـرا لكـافـور الأخشيدى [٢١] أنه اشترى دارا بالمدينة المنورة الى جانب المسجد وكانـت مـن أقرب الدور اليـه وأوصى أن يدفن فيها [٢٢] ٠

---

(٧) الفاسي ، **شفاء الغرام** ، جـ١ ، ص٨٥ ٠ **تحصيل المرام** ، الباب السادس ٠

(٨) ابن سعد ، **كتاب الطبقات** ، طبعة ليدن ، (١٣٢٢هـ) ، جـ٥ ، ص ٧٥ ٠

(٩) الفاسي ، **تحصيل المرام** ، الباب السادس ٠

(١٠) الجندى ، **السلوك** ، مخطوط بمكتبة احمد زبارة ، صنعاء ، مادة مخلاف جعفر والمشرق٠ الفاسي : **العقد الثمين** جـ٤ ، ص ٤٨٠ ٠

(١١) الفاسي ، نفس المصدر ، ص ٤٠٦ ٠

(١٢) الفاسي ، نفس المصدر ، جـ٥ ، ص ٥٠٧ـ٥٠٨ ٠ ابن خلكان : **وفيات** ، جـ٣ ، ص ١٦٨ ٠

(١٣) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٦ ، ص ١٤ ٠

(١٤) الخطيب البغدادى ، **تاريخ بغداد** ، جـ٣ ، ص ٧٤ ٠ الفاسي ، **العقد الثمين** ، جـ١ ، ص ٤٥٦ ٠

(١٥) الفاسي ، نفس المصدر ، جـ٤ ، ص ٣٣٩ ٠

(١٦) السلفي ، أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من **معجم السفر** ٠ تحقيق احسان عباس ٠ طبع بيروت ، ص ٩٥ ٠

(١٧) الفاسي ، **العقد الثمين** ، جـ٥ ، ص ٥٠٧ـ٥٠٨ ٠ ابن خلكان ، **وفيات** ، جـ٣ ، ص ١٦٣ ٠

(١٨) القرشي ، عبد القادر ، **الجواهر المضية** ، طبع الهند ، جـ١ ، ص ١٠٧ـ١٠٨ ٠

(١٩) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٤٨٠ ٠

(٢٠) أبو الفداء ، **المختصر** ، جـ٢ ، ص ٤٨ ٠

(٢١) ياقوت ، **معجم الادباء** ، جـ٢ ، ص ٣٥٧ ٠

(٢٢) نفس المكان ٠

وروى ان الوزير أبا شجاع محمد بن الحسن الروذراوري « المتوفي سنة ٤٨٨هـ » وهو احد وزراء الدولة العباسية في عهد الخليفة المقتدي بالله [٢٣] . مات وهو أحد خدام روضة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فكان يكنس المسجد ، ويفرش الحصر ويشعل المصابيح [٢٤].

٦ ـ أن معظم هؤلاء المجاورين لم يكونوا بمعزل عن الحياة العامة في مكة المكرمة ، بل تفاعلوا معها ، وظهرت آثارهم واضحة في النواحي الدينية ، والثقافية ، والسياسية والاجتماعية .

الآثار الدينية

كانت الغاية من المجاورة بمكة هي الانقطاع للعبادة والتبتل وطلب العلم بجوار بيت الله العظيم ، وكان اغلب المجاورين ينهجون في عبادتهم نهج الصوفية ، ويلتزمون طرقا معينة تقوم على قهر النفس واتعابها في ذات الله . فهؤلاء هم أصحاب النزعة العملية في التصوف الذين الزموا أنفسهم الزهد في الدنيا ، والقيام بالعبادات المفروضة عليهم .

ولكنهم مع ذلك يختلفون عن طبقات العوام من الصوفية الجهال الذين اتخذوا الرقص والغناء والدروشة شعارا لهم [٢٥]، حتى كانوا محل تهكم وسخرية حتى من بعض رجال الصوفية المثقفين [٢٦] .

اما مجاوروا مكة فكانوا عبادا مثقفين « من خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف » [٢٧].
وقد حفظت لنا المصادر أسماء عدد كبير من هؤلاء الرجال سأورد لهم في هذه الجزئية نماذج مختصرة مع ذكر طرقهم في العبادة وأهم أقوالهم .

فمن هؤلاء ، محمد بن علي بن جعفر البغدادي ، ويكنى بأبي بكر [٢٨] ، جاور مكة ومات بها سنة ٣٢٢هـ [٢٩] ، جاء في تاريخ بغداد أنه كان « من مشايخ الصوفية ، سكن مكة ، وكان فاضلا نبيلا حسن الشارة » [٣٠] وكان يلقب بسراج الحرام [٣١].

ترجم له السلمي في طبقات الصوفية [٣٢] ، وذكر الفاسي أنه كان يكثر من قراءة القرآن أثناء الطواف حتى أنه ختم اثنتا عشر ألف ختمة [٣٣] وروى له قوله « من طلب الراحة بالراحة عدم

---

(٢٣) ذيل تجارب الامم ، ص ٢ .
(٢٤) السبكي ، طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص ٥٨ .
(٢٥) قال أبو العلاء المعري « المتوفي سنة ٤٤٩هـ » :

ارى جيل التصوف شر جيل	فقل لهم : وأهون بالحلول
اقال الله حين عبدتموه ؟	كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

(ياقوت ، معجم الأدباء ، جـ١ ، ص ١٧٥) .
(٢٦) الهجويري ، كشف المحجوب ، ص ٢١٢ .
(٢٧) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص ٨ . نلاحظ ان جميع المجاورين الذين سنعرض لهم كانوا على مذهب السنة والجماعة . ولم تسعفني المصادر التي بين يدي بسواهم من المذاهب الأخرى ولا سيما الزيدية التي كان لها وجود كبير في مكة في تلك الفترة .
(٢٨) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٢ ، ص ١٤٩ .
(٢٩) نفس المكان .
(٣٠) الخطيب البغدادي ، جـ٣ ، ص ٧٤ .
(٣١) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ . السلمي ، طبقات الصوفية ، ص ٣٧٣ .
(٣٢) السلمي ، نفس المصدر ، ص ٣٧٣ـ٧٧ .
(٣٣) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

الراحة » [٣٤].

وجاور بمكة أبو الحسن علي بن محمد البغدادي المعروف بالمزين [٣٥]، وهو بغدادي الأصل قدم مكة فجاور بها حتى وفاته سنة ٣٢٨هـ [٣٦]، كانت له صحبة مع سهل ابن عبد الله التستري والجنيد [٣٧]، وكان مشهورا بالتقوى والورع مجتهدا في أمور العبادة حتى عدّ من خيرة المشايخ وأحسنهم حالا [٣٨].

حفظت له المصادر بعض الأقوال المأثورة فمنها قوله [٣٩]: « الذنب بالذنب عقوبة الذنب والحسنة بالحسنة عقوبة الحسنة ».

وقال: « متى ما ظهرت الآخرة، فنيت فيها الدنيا، ومتى ما ظهر ذكر الله تعالى فنيت فيه الدنيا والآخرة، فاذا تحققت الأذكار، فني العبد وذكره، وبقي المذكور بصفاته » [٤٠].
وقال: « المعجب بعمله مستدرج، والمستحسن لشيء من أحواله ممكور به، والذي يظن أنه موصول فهو مغرور » [٤١].

وسئل عن المعرفة فقال: « أن تعرف الله بكمال الربوبية، وتعرف نفسك بالعبودية وتعلم أن الله أول كل شيء، وبه يقوم كل شيء، واليه مصير كل شيء، وعليه رزق كل شيء » [٤٢].

وكان أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد البصري [٤٣]، اماما حافظا ثبتا سمع الكثير، وروى عنه ابن خفيف وابن المقرى وابن النحاس وغيرهم [٤٤]، وكان كثير العبادة شيخ الحرم في وقته علما وزهدا وتسليكا [٤٥].

نزل بمكة مجاورا، وأقام بها حتى وفاته سنة ٣٤٠هـ [٤٦].
وجاور بمكة محمد بن ابراهيم بن يوسف بن محمد النيسابوري المتوفي سنة ٣٤٨هـ [٤٧] ترجم له أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية، وذكر أنه صحب أبا عثمان والجنيد وغيرهما [٤٨].

---

(٣٤) نفس المكان.
(٣٥) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، جـ٢، ص ١٥٠. القشيري، الرسالة القشيرية، ص ٢٩.
(٣٦) ابن الجوزي، المنتظم، جـ٦، ص ٣٠٦.
(٣٧) الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص ١٥٦. هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري احد ائمة الصوفية وعلمائهم له كتاب في تفسير القرآن وكتاب رقائق المحبين. انظر: السلمي، طبقات الصوفية، ص ٢٠٦. الأصفهاني، حلية الأولياء، جـ١٠، ص ١٨٩.
الجنيد: هو أبو القاسم الجنيد بن محمد (ت٢٩٧) صوفي من العلماء بالدين قال عنه احد معاصريه: ما رأت عيناي مثل الجنيد، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه والشعراء لفصاحته والمتكلمون لمعانيه، وعده البعض شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ولكونه مصونا من العقائد الذميمة. انظر: الأصفهاني، المصدر السابق، ص ٢٥٥. البغدادي، تاريخ بغداد، جـ٧، ص ٢٤١.
(٣٨) الخطيب البغدادي، نفس المصدر، جـ١٢، ص ٧٣.
(٣٩) الفاسي، المصدر السابق، ص ٢٥٤.
(٤٠) نفس المصدر، ص ٢٥٥.
(٤١) نفس المكان.
(٤٢) السلمي، المصدر السابق، ص ٣٨٢.
(٤٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ٣٠٦.
(٤٤) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص ١٢٧.
(٤٥) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ص ٣٠٧.
(٤٦) نفس المكان.
(٤٧) الفاسي، المصدر السابق، جـ١، ص ٤٠٨-٤٠٩.
(٤٨) ص ٤٢٧.

قدم مكة حاجا فاختار الاقامة فيها ، وصار شيخها المنظور اليه فيها [٤٩] ، وكان مجتهدا في العبادة حتى أنه حج قريبا من ستين حجة [٥٠] وقيل عنه أثناء اقامته بمكة أنه لم يبل ولم يتغوط في الحرم أربعين سنة [٥١] . فكان يخرج كل يوم لعمرة خارج الحرم فيقضي حاجته ثم يرجع فلا يبول ولا يتغوط الى غد ذلك الوقت في اليوم التالي [٥٢] .

وكان أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله البغدادي الآجري من مجاوري مكة في القرن الرابع [٥٣] . ترجم له الخطيب البغدادي فذكر أنه « كان ثقة صدوقا دينا وله تصانيف كثيرة » [٥٤] ووصفه ابن خلكان « بأنه كان فقيها صالحا ، عابدا ذا تصانيف كثيرة حج فاعجبته مكة ، فقال : اللهم ارزقني الاقامة بها سنة ، ولكنه اقام بها ثلاثين سنة [٥٥] .

مكث الآجري في جوار البيت الحرام طوال هذه المدة حتى توفي بمكة المكرمة في أول جمعة من شهر المحرم سنة ٣٦٠هـ [٥٦] .

وجاور بمكة أيضا ، أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي الزاهد [٥٧] ، ولد في قرية من قرى القيروان [٥٨] بشمال افريقيا ، وكان اوحد عصره في الورع والزهد والصبر على العزلة . رحل الى مصر والتقى بشيوخها ، ثم دخل الشام ، واتجه بعد ذلك الى مكة المكرمة فجاور بها أكثر من عشر سنين [٥٩] . ثم انصرف الى بغداد فاقام بها سنة ، ثم رحل الى نيسابور [٦٠] وفيها ألقى عصا الترحال ، وظل مقيما بها حتى وفاته سنة ٣٧٣هـ [٦١]

وقد أثر عن أبي عثمان المغربي أنه قال : « من اختار الخلوة على الصحبة ، فيجب أن يكون خاليا من جميع الأذكار ، الا من ذكر ربه وخاليا من جميع الارادات الا رضى ربه ، وخاليا من مطالبة النفس من جميع الأسباب ، وان لم يكن بهذه الصفة ، فان خلوته توقعه في فتنة أو بلية » [٦٢] .

وقال [٦٣] : « الغني الشاكر ، يكون كابي بكر الصديق رضي الله عنه ، شكر فقدم ماله وآثر الله تعالى عليه ، فأورثه الله غنى الدارين وملكها . والفقير الصابر مثل أويس القرني .

---

(٤٩) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٠٨-٤٠٩ .
(٥٠) نفس المكان .
(٥١) ملا ، مثير شوق الأنام ، ورقة ٤٨ . الفاسي ، المصدر السابق ، ص ٤٠٨-٤٠٩ .
(٥٢) ملا ، المصدر السابق ، ورقة ٤٨ .
الحقيقة أنه من الصعب على الانسان أن يبقى يوما كاملا دون ان يبول أو يتغوط ، الا ان المصادر التاريخية تورد هذه الرواية على هذه الصورة المحيرة للعقل في تقبلها ولا سيما في بقائه يوما كاملا دون ان يبول .
(٥٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ٥٥ .
(٥٤) تاريخ بغداد ، جـ٢ ، ص ٢٤٣ .
(٥٥) وفيات ، جـ٤ ، ص ٢٩٢ .
(٥٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ٥٥ .
(٥٧) القشيري ، الرسالة ، ص ٢٢ .
(٥٨) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ١٢ ، ص ١١٢ . اسم القرية التي ولد فيها كراكنت .
(٥٩) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٥٦٧ .
(٦٠) الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .
(٦١) نفس المكان .
(٦٢) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ٧٦٩ .
(٦٣) نفس المصدر ، ص ٥٧٠ .
أويس القرني ، احد النساك العباد ، اصله من اليمن والظاهر أنه ينسب الى بلاد بالقرن الواقعة في المنطقة الجبلية شرقي القنفذة والتي تمتد الى حدود بيشة كان يسكن القفار والرمال . وقدم على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع علي ويرجح أنه قتل فيها . انظر :
الأصفهاني ، حلية الأولياء ، جـ٢ ، ص ٧٩ . الزركلي ، الأعلام ، جـ١ ، ص ٣٧٥ .

ونظرائه ، صبروا فيه ، حتى ظهرت لهم براهينه » ٠

وفي سنة ٣٩١هـ قدم أبو محمد عبد الله بن سعيد بن لباج الأندلسي الى مكـة حاجـا ، فاختار المجاورة بها ومكث مدة طويلة حج خلالها خمسا وثلاثين حجة ، وزار المدينة مع كل حجة زورتين (٦٤) ٠ وكان اذا أراد قضاء الحاجة في فترة اقامته ، خرج من الحرم الى الحل (٦٥) ٠

وكان ابن لباج الأندلسي « رجلا صالحا خيرا زاهدا ، ولم يكن للدنيا عنده قيمة وكان يسرد الصوم ، ويكتحل بالاثمد كثيرا (٦٦)٠ عاد الى الأندلس سنة ٤٣١هـ ، وتوفي بها في رجب سنة ٤٣٦هـ (٦٧) ٠

وكان أبو القاسم سعد بن علي بن محمد بـن علي بـن الحسين الزنجانـي مـن مشاهـير المجاورين في مكة في القرن الخامس الهجري (٦٨)، وعندما نوى المجاورة عزم على أن يلزم نفسه أكثر من عشرين عزيمة من المجاهدات والعبادات . وظل على ذلك حتـى مـات دون أن يخل منهـا بعزيمة واحدة (٦٩) ٠

كان الزنجاني، حافظا متقنا ثقة ورعا ، كثير العبادات (٧٠) صاحب كرامات ، وآيات ، وكـان اذا خرج الى الحرم ، يخلو الطواف ، فيقبلون يده أكثر مما يقبلون الحجر الأسود (٧١)٠ وقد ظل الزنجاني مجاورا بمكة أربعين سنة حتى توفي سنة ٤٧١هـ(٧٢) ٠

وجاور بمكة هيـّاج بن عبيد بـن حسين الحطيني(٧٣) ، وكان غايـة فـي الزهـد والورع والعبادة ، وقد بلغ من زهده وتعبده « أنه يصوم ثلاثة أيام ، ويواصل ولا يفطر الا على ماء زمزم ، واذا كان آخر اليوم الثالث ، من أتاه بشيء أكله ولا يسأل عنه ٠٠٠ وكان يعتمر في كل يوم ثلاث عمرات على رجليه حافيا ٠٠٠ وكان يزور عبد الله بن عباس رضى الله عنه بالطائف كل سنة مرة ، يأكل بمكة أكله ويأكل بالطائف أخرى ٠٠٠ وكان يمشي حافيا من مكة الى المدينة ذاهبا وراجعا ، ومنذ أن دخل الحرم ما لبس نعلا ، وكان ٠٠٠ لا يـدخر شيئـا لغـد ، ولا يملـك غـير ثـوب واحد ٠٠٠ » (٧٤)٠ وقد استمر هيـّاج على هذا المنوال في العبادة حتى استشهد سنة ٤٧٢هـ (٧٥) كما سيأتي (٧٦)٠

ومنهم عبد الملك الطبرى الزاهد ، اقام بمكة قريبا من أربعين سنة على الجد والاجتهاد فـي العبادة والرياضة وقهر النفس (٧٧)٠

وكان في بداية أمره يدرس الفقه في المدرسة النظامية ، فلاح له شيء فخرج على التجريد الى

(٦٤) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٥ ، ص ١٧٠ ٠
(٦٥) نفس المكان ٠
(٦٦) نفس المكان ٠
(٦٧) نفس المكان ٠
(٦٨) الفاسي ، نفس المصدر ، جـ٤ ، ص ٥٢٥ ٠
(٦٩) نفس المصدر ، ص ٥٢٦ ٠
(٧٠) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٨ ، ص ٣٢٠ ٠
(٧١) نفس المكان ٠
(٧٢) الحافظ الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، طبع الكويت (١٩٦١م) ، جـ٣ ، ص ٢٧٦ ٠ الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٥٢٦ ٠
(٧٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٠٩ ٠
(٧٤) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٧ ، ص ٢٨٠ـ٨١ ٠
(٧٥) ابن الأثير ، اللباب في تهذيب الأنساب ، القاهرة (١٣٥٧هـ) ، جـ١ ، ص ٣٠٦ ٠
(٧٦) انظر : ص ١٤٨ من هذا البحث ٠
(٧٧) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٥١٧ ٠

مكة ، واقام بها ، حتى توفي في مطلع القرن السادس [٧٨] .

هذا وقد اسندت الى المجاورين بعض الوظائف الدينية في الحرم المكي نذكر من ذلك أن أحمد بن محمد النيسابوري المتوفي سنة ٣٥١هـ [٧٩] جاور بمكة أكثر من عشر سنوات تولى خلالها وظيفة القضاء في الحرم المكي [٨٠] .

وكان عبد الله بن عمر القيرواني المتوفي سنة ٤٩٧هـ ، اماما لمقام ابراهيم [٨١] ، وكان شافعي المذهب [٨٢] ، وهو أول من يصلي من أئمة الحرم متقدما بذلك على الأئمة المالكية والحنفية والزيدية [٨٣] .

أما زيد بن عبد الله بن جعفر بن ابراهيم اليفاعي ، فقد جاور بمكة حوالى اثنتي عشرة سنة، وكان قد انتهت اليه خلالها — بلا منازع — رئاسة الفتوى في مكة المكرمة [٨٤] .

وكان عتيق بن أحمد بن عبد الرحمن الأندلسي الأريولي [٨٥] ، قد قدم الى مكة في القرن الخامس الهجري ، فمكث بها مجاورا ما يقرب من خمسين سنة [٨٦]، تولى خلالها الأذان للمالكية في الحرم المكي [٨٧] .

الآثار الثقافية

أشرت في مكان سابق من هذا الفصل بأن أغلب المجاورين الذين حفظتهم لنا المصادر كانوا من العباد ورجال العلم ، وأوردت نماذج لأولئك الذين كانت تغلب عليهم حياة الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة . وسأتحدث في هذه الجزئية عن نماذج أخرى من المجاورين الذين جمعوا بين العبادة والاشتغال بالعلم فتركوا لذلك آثارا واضحة على المجتمع الثقافي بمكة المكرمة .

وكانت حياة هذا الطراز من المجاورين تبدأ برحلة علمية يجوب خلالها الأقطار الاسلامية للانتهال من موارد العلم المختلفة ، فيلتقي بعلماء أفذاذ ويأخذ عنهم بالاستماع والاجازة ما طاب له من فنون العلم والمعرفة ، ثم يأتي الى مكة حاجا ثم مجاورا ، فيلقى بها عصا الترحال ، ويؤثر العيش في جوها الروحي على العودة الى وطنه الأصلي .

وكان أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن أحمد بن محموية النصر أبادى من مجاوري مكه في القرن الرابع الهجري [٨٨] ، وقد بدأ حياته التعليمية في بلدته نيسابور ثم قام برحلة علمية الى الري وبغداد ودمشق وبيروت ومصر [٨٩] ، فتلقى العلم على مشايخ تلك البلاد [٩٠] وروى عنه

---

(٧٨) نفس المكان .
(٧٩) القرشي ، الجواهر المضية ، جـ١ ، ص ١٠٨ .
(٨٠) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٦ .
(٨١) نفس المصدر ، جـ٥ ، ص ٢١٧ .
(٨٢) نفس المصدر ، ص ٢١٨ .
(٨٣) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٥ ، ص ٢١٨ .
(٨٤) نفس المصدر ، جـ٤ ، ص ٤٨٠ .
(٨٥) والأريولي ، نسبة الى اريولة : مدينة من ناحية تدمير بشرق الأندلس انظر : السلفي ، اخبار وتراجم اندلسية ، ص ٩٥ .
(٨٦) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٥ .
(٨٧) السلفي ، المصدر السابق ، ص ٩٥ .
(٨٨) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٣٧ .
(٨٩) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ٦ ، ص ١٦٩ .
(٩٠) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٣ ، ص ٢٣٧ .

جماعة من المتأخرين منهم أبو عبد الرحمن السلمي [٩١] ، الذي قال عنه : « واليه يرجع في فنون من العلم منها حفظ الحديث وفهمه ، وعلم التاريخ ، وعلوم المعاملات والاشارة » [٩٢] .

قدم مكة سنة ٣٦٥هـ فجاور بها ، ولزم العبادة واشتغل بالذكر والوعظ حتى توفي بها في ذي القعدة سنة ٣٦٧هـ [٩٣] .

وكان أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن بن جهضم بن سعيد الهمداني [٩٤] قد تلقى علومه على طائفة كبيرة من العلماء [٩٥] ، ثم جاور بمكة واشتغل بالحديث ، فأخذ عنه جماعة من المغاربة وغيرهم من الحجاج [٩٦] ، وصنف كتابا في أخبار الصوفية أسماه « بهجة الأسرار » [٩٧] .

وقد نسب صاحب كشف الظنون هذا الكتاب الى علي بن يوسف الشنطوفي المتوفي سنة ٧١٣هـ [٩٨] ، وتبعه كثيرون ممن سار على نهجه في هذا الميدان من التأليف [٩٩] .

والحقيقة أن هذا الكتاب لا شك في نسبته الى صاحب الترجمة بدليل أن ابن الجوزي [١٠٠] نسبه اليه قبل أن يعرف الشنطوفي الذي عاش في القرنين السابع والثامن الهجريين .

أما من حيث صدق ابن جهضم في الحديث فقد وثقه البعض وكذبه البعض الآخر ، فقد نقل الفاسي عن شيرويه الديلمي بأنه [١٠١] « كان ثقة صدوقا عالما زاهدا » أما ابن الجوزي [١٠٢] فذكر أنه كان كذابا وأنه وضع حديث صلاة الرغائب .

ومهما يكن الأمر فقد عاش ابن جهضم مجاورا بمكة المكرمة حتى توفي بها سنة ٤١٤هـ [١٠٣] .

أما أبو النصر السجزي عبيد الله بن سعيد بن حاتم بن أحمد الوائلي البكري الحافظ [١٠٤] ، فقد قام برحلة علمية الى الشام ومصر وخراسان والحجاز [١٠٥] ، وحدث عن جماعة منهم أبو أحمد الحاكم [١٠٦] ، كما أخذ عنه أبو اسحاق الحبّال وأبو معشر الطبري وغيرهم [١٠٧] .

نزل مكة مجاورا وألف كتاب « الابانة الكبرى في مسألة خلق القرآن » [١٠٨] وهذا الكتاب يدل على امامته في هذا الميدان والى معرفته بالرجال والطرق [١٠٩] . عاش بقية حياته بمكة ومات بها في المحرم سنة ٤٤٤هـ [١١٠] .

---

(٩١) نفس المكان ، طبقات الصوفية ، ص ٤٨٤ .
(٩٢) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٣٧ .
(٩٣) الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ . ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٧ ، ص ٨٩ .
(٩٤) ابن حجر ، احمد بن علي العسقلاني ، لسان الميزان ، حيدر أباد (١٢٤٠هـ) جـ٤ ، ص ٢٣٨ .
(٩٥) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٨٠ .
(٩٦) نفس المكان .
(٩٧) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ٨ ، ص ١٤ .
(٩٨) خليفة ، حاجي ، كشف الظنون ، الطبعة الثانية ، طهران (١٣٨٧هـ) ، جـ١ ، ص ٢٥٦ـ٥٧ .
(٩٩) البغدادي ، اسماعيل باشا ، هدية العارفين ، طبع استانبول (١٩٥١م) ، جـ١ ، ص ٧١٩ .
الريان ، خالد ، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، دمشق (١٩٧٣م) ، جـ٢ ، ص ٨٤ـ٨٥ .
(١٠٠) المنتظم ، جـ٨ ، ص ١٤ .
(١٠١) العقد الثمين ، جـ٦ ، ص ١٨٠ .
(١٠٢) المنتظم ، جـ٨ ، ص ١٤ .
(١٠٣) الحافظ الذهبي ، العبر ، جـ٣ ، ص ١١٦ـ١٧ .
(١٠٤) نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .
(١٠٥) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٣٠٧ .
(١٠٦) نفس المكان .
(١٠٧) نفس المصدر ، ص ٣٠٨ .
(١٠٨) نفس المكان .
(١٠٩) نفس المكان .
(١١٠) الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

وكان أبو الحسن علي بن يوسف بن عبدالله الجويني المتوفي سنة ٤٦٣هـ[١١١]، قد سافر وجال في الأقطار طلبا للعلم[١١٢]، وبعد أن اكتمل تحصيله ، قدم مكة فجاور بها حتى عرف بشيخ الحجاز ، ثم صنف كتاب « السلوة » في التصوف[١١٣].

أما أبو معشر الطبري ، عبد الكريم بن عبدالصمد بن محمد بن علي ، فكان شيخ القراء بمكة[١١٤] بلا منازع ، تلقى علوم القراءة على مشايخه بمكة وحران ومصر . وله من التاليف التخليص وسوق العروس في القراءات المشهورة والعربية ، وكتاب الرشاد في شرح القراءات الشاذة وطبقات القراء ، وكتاب الدرر في التفسير ، وكتاب في اللغة وغير ذلك[١١٥]. توفي بمكة المكرمة سنة ٤٧٨هـ[١١٦] .

وكان أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن خلف القيرواني المعروف بابن العرجاء [١١٧]، من أصحاب أبي معشر الطبري قرأ عليه القرآن بروايات مختلفة [١١٨]، وكان ابن العرجاء شافعي المذهب من مواليد القيروان ، ثم هاجر الى مكة وجاور بها [١١٩]، وتدرج في الوظائف الدينية حتى أصبح امام مقام ابراهيم ، وأحد القراء بمكة[١٢٠].

وقد استمع اليه كثيرون منهم أبو طاهر السلفي سنة ٤٩٧هـ وقال عنه [١٢١]«وانتهت اليه رئاسة الاقراء (بمكة) » .

وممن جاور بمكة ، وكان له أثره البعيد في الناحية الثقافية بها[١٢٢]، أبو عبد الله الحسين بن علي بن الحسن الطبري[١٢٣]، واليه ينتسب قضاة مكة الشيبانيون الطبريون[١٢٤].

ولد بطبرستان سنة ٤٤٨هـ ، وتنقل في البلاد ودرس الصحيحين [١٢٥]. ثم جاور بمكة ولازم التدريس لمذهب الشافعي والتسميع بها نحوا من ثلاثين سنة[١٢٦].

ترجم له السبكي في طبقاته وذكر أنه مؤلف « العدة » وانه توفي بمكة في سنة ٤٩٥هـ[١٢٧] .

وكان رزين بن معاوية بن عمار الأندلسي السرقسطي (المتوفي بسنة ٥٢٥هـ) من معاصري

---

(١١١) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٢٧٧ .
(١١٢) نفس المكان .
(١١٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، جـ٢ ، ص ٩٩٩ .
كحالة ، معجم المؤلفين ، جـ٧ ، ص ٢٦٦ .
(١١٤) الجزري ، شمس الدين ، غاية النهاية في طبقات القراء ، طبع القاهرة (١٩٣٢م) ، جـ١ ، ص ٤٠١ .
(١١٥) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٥ ، ص ٤٧٥ .
(١١٦) نفس المكان .
(١١٧) الجزري ، المصدر السابق ، ص ٤٠١ .
(١١٨) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ٤٧٦ .
الجزري ، المصدر السابق ، ٤٣٨ .
(١١٩) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢١٨ .
(١٢٠) الجزري ، المصدر السابق ، ص ٤٣٨ .
(١٢١) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ٢١٨ .
(١٢٢) نفس المصدر ، جـ٤ ، ص ٢٠٠ .
(١٢٣) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٢٠٠ .
(١٢٤) نفس المكان .
(١٢٥) السبكي ، طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص ١٥٢ـ٥٣ .
(١٢٦) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٠٠ .
(١٢٧) طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص ١٥٢ـ٥٣ .
وعن كتاب « العدة » انظر : كحالة : معجم المؤلفين ، جـ٤ ، ص ٢٩ .

الحسين الطبرى ، وسمع منه صحيح مسلم ، ومن أبي ذر الهروي صحيح البخارى[١٢٨]، ثم تولى امامة المالكية بالحرم ، واشتغل بالتاليف ، ومما ذكر له في هذا الميدان : كتاب جمع فيه ما في الصحاح الخمسة والموطا ، ومنها : كتاب في اخبار مكة ، ذكر الفاسي أنه رأى هذا الكتاب وأنه ملخص من كتاب الأزرقي[١٢٩] .

وقد تأثر بهذا الجو الروحي والعلمي بعض أبناء مكة فحاكوا المجاورين وحذوا حذوهم في طلب العلم والاشتغال به ، ونبغ منهم كثيرون نذكر منهم :

أبا الحسن محمد بن نافع الخزاعى ، روى عن عمه اسحاق بن أحمد الخزاعي تاريخ مكة للازرقي ، وله عليه حاشيتان يتعلقان بزيادة دار الندوة ، وزيادة باب ابراهيم [١٣٠] قيل أنه كان حيا في سنة ٣٥١هـ[١٣١] ، وذكرت له بعض التآليف في فضائل الكعبة[١٣٢] .

ومنهم أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثى المتوفي سنة ٣٨٦هـ[١٣٣] ، فقد كان رجلا صالحا مجتهدا في العبادة ، صنف كتابا على لسان الصوفية أسماه « قوت القلوب »[١٣٤] وذكر ان له مصنفات أخرى في التوحيد[١٣٥] .

ومنهم ، عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عفير السماك الأنصارى ابو ذر الهروى المكي[١٣٦] . جاب الأقطار الاسلامية لدراسة علم الحديث فتم له ذلك على يد محدثين عديدين[١٣٧] ، ثم عاد الى مكة وصنف بها كتبا منها الصحيح والمستدرك عليه في مجلدين ، ومعجم شيوخه وغير ذلك[١٣٨] .

وكان الهروى زاهدا ورعا لا يدخر شيئا لغده[١٣٩] ، وكان من كبار مشايخ الحرم توفي بمكة في ذى القعدة سنة ٤٣٤هـ[١٤٠] .

ومنهم شميلة بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبى هاشم ، سمع صحيح البخارى على كريمة المرزوية[١٤١] ، وسمع على القضاعى كتاب الشهابى سنة ٤٤٧هـ[١٤٢] . عمر طويلا ومات في النصف الأول من القرن السادس[١٤٣] .

---

(١٢٨) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٣٩٩ .
(١٢٩) نفس المكان .
(١٣٠) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٣٧٨ .
(١٣١) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص ٤٨٢ .
(١٣٢) نفس المكان .
(١٣٣) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، جـ٣ ، ص ٨٩ .
(١٣٤) خليفة ، كشف الظنون ، جـ٢ ، ص ١٣٥٩ .
(١٣٥) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٢ ، ص ١٥٩ .
(١٣٦) الخطيب البغدادى ، المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ١٤١ .
(١٣٧) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٥٤٠ .
(١٣٨) نفس المكان .
(١٣٩) نفس المكان .
(١٤٠) الخطيب البغدادى ، المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ١٤١ .
(١٤١) هي الحافظة كريمة بنت احمد بن محمد بن حاتم المرزوية المجاورة بمكة ، روت صحيح البخارى ، وكانت ذات فهم ونباهة ، ماتت دون ان تتزوج سنة ٤٦٣هـ . انظر : الذهبي ، العبر ، جـ٣ ، ص ٢٥٤ .
(١٤٢) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٧ ، وكان شميلة يلقب بالزين ، ويسمى عبد الله الا أنه لم يشتهر الا بشميلة . (نفس المكان) .
(١٤٣) نفس المصدر ، ص ١٨ .

الآثار السياسية

لم يكن للمجاورين أي دور في الحياة السياسية في المجتمع المكي ، ولم تشر المصادر التي بين ايدينا الى أن أحدا من المجاورين قد تقلد عملا سياسيا في امارة مكة المكرمة ، وانما كانت جميع مقاليد الامارة في أيدي الأشراف الحسنيين فهم « القوام بمكة[١٤٤] » أما من عداهم « فليس فيهم – كما يقول القلقشندي – من هو في عير ولا نفير ، ولا يحل في ذروة ولا غارب »[١٤٥].

غير أن هناك اشارات طفيفة نستشف منها بأن المجاورين كانوا يمثلون المعارضة من الوجهة السياسية ، وهذه المعارضة تزداد قوة في كل ما له مساس بالدين · ولعل هذا يعود الى ما سبق أن أشرت اليه من أن هؤلاء المجاورين كانوا من أصحاب النزعة العملية في التصوف وانهم كانوا يتدخلون في حياة المجتمع تدخلا شديد الوطأة في نطاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومع ذلك فقد كانوا المثل الأعلى والقدوة الحسنة ·

اما نجاح هذه المعارضة او اخفاقها فانه كان يتوقف على قوة أمير مكة ومرونته وطبيعة علاقاته مع الخلافتين العباسية والفاطمية ·

ومما له دلالته أن أبا عثمان سعيد بن سلام المغربي المتوفي سنة ٣٧٣هـ[١٤٦]، لما كان مجاورا بمكة ، كان ينتقد أمراءها من الأشراف العلويين ، فأدى موقفه الى تعرضه لايذائهم ، وطلبوا اليه الخروج من مكة[١٤٧]، فاضطر تحت وطأة هذه الظروف الى مغادرة مكة الى بغداد فأقام بها سنة ثم هاجر منها واستقر في نيسابور [١٤٨] حيث توفرت له الراحة النفسية وزال عنه الانقباض الذي كان يعاني منه خلال محنته في مكة حتى قال لبعض أصحابه : « كان انقباضي بالحجاز وانبساطي بخراسان »[١٤٩].

وفي سنة ٣٩٤هـ تلقى أمير مكة الحسن بن جعفر كتابا من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله يتضمن شتم بعض الصحابة رضي الله عنهم ، وبعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم[١٥٠]، فاستقر الرأي على أن يقرأ قاضي مكة الموسوي هذا الخطاب على الملأ بمكة[١٥١].

فلما علم المجاورون بذلك تولوا زمام المعارضة ونشروا الخبر بين سكان مكة والمنتجعين اليها من قبائل العرب المجاورة ، كهذيل ورواحة وغيرهم ، فثاروا غضبا لله ولنبيه ولأصحابه رضي الله عنهم[١٥٢].

وعندما علم القاضي بهذا التدبير تثاقل عن الخروج وتباطأ في قراءة كتاب الحاكم ، فطال انتظار الناس الذين تجمهروا حول الحرم ، ولكن لم يلبث أن أشيع بين هؤلاء المعارضين بأن القاضي قد صعد المنبر فرماه الناس بالحجارة حتى تكسر وصار رضاضا ، ثم زحفوا الى مكان المنبر ولكنهم لم يجدوا عليه أحدا[١٥٣].

(١٤٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٧ ، ص ١٩٤ ·
(١٤٥) نفس المكان ·
(١٤٦) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص ٣٢ ·
(١٤٧) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ٩ ، ص ١١٢ ·
(١٤٨) نفس المكان ·
(١٤٩) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٥٦٨ ·
(١٥٠) البكري ، المسالك والممالك ، ورقة ٢٣٢ ·
(١٥١) نفس المكان ·
(١٥٢) البكري ، المسالك والممالك ، ورقة ٢٣٢ ·
(١٥٣) نفس المكان ·

وقد أدت هذه الحادثة الى معارضة أبي الفتوح ـ كما أسلفنا ـ لكتاب آخر بعثه اليه الحاكم فيما بعد ، وكان يحتوى على لعن بعض الصحابة ، وزوجات النبي صلى الله عليه وسلم ٠

وفي سنة ٤١٠هـ اتخذ المجاورون موقفا معارضا لسياسة أبي الفتوح ، لا يقل في قوته وصلابته عن الموقف السابق ، فقد ظهر في أواخر أيام أبي الفتوح رجل يقال له : هادي المستجيبين[١٥٤] ، قيل أنه سب النبي صلى الله عليه وسلم ، وبصق على المصحف ، وسار في البوادي يدعو الناس الى عبادة الحاكم بأمر الله الفاطمي[١٥٥] ٠

ثم لم يلبث أن قدم مكة ونزل ضيفا على أميرها أبي الفتوح واجتمع به[١٥٦]٠ ولما رآه المجاورون يطوف بالكعبة ، مضوا الى أبي الفتوح وذكروا له شأنه[١٥٧] ، فقال لهم : « هذا قد نزل عليّ واعطيته الذمام ٠ فقالوا له : ان هذا سب النبي صلى الله عليه وسلم وبصق على المصحف فسأله عن ذلك فاقر به ، وقال : قد تبت ٠ فقال المجاورون توبة هذا لا تصح ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل ابن خطل ، وهو متعلق بأستار الكعبة ، وهذا لا يصح أن يعطى الذمام ، ولا يسع الا قتله »[١٥٨] ٠

وهنا يتضح أن المعارضة اتخذت جانب الحوار والمناقشة والاقناع بالحجة دون اللجوء الى سياسة العنف والتحريض ، غير أن أبا الفتوح لم يوافقهم على رأيهم سيما وان علاقته مع الحاكم دخلت في طور جديد من التحسن بعد المصالحة التي أعقبت خروجه عليه ومطالبته بالخلافة ٠

ولما يئس المجاورون من اقناع أبي الفتوح تجمهروا عند الكعبة ، وألحوا عليه فاضطر أبو الفتوح الى الأخذ برأي المجاورين[١٥٩] ، فأمر باحضار هادي المستجيبين وغلام مغربي كان في صحبته ، فأخذا الى باب العمرة وصلبا[١٦٠] ٠ ثم اخذ الناس يرجمونهما بالحجارة حتى سقطا فجمعوا لهما الحطب وأحرقوهما[١٦١] ٠

وكان هياج بن عبيد بن الحسين أبو محمد الحطيني المتوفي سنة ٤٧٢هـ[١٦٢] غاية في التقوى والزهد والورع ، وقد التف حوله عدد كبير من المجاورين السنيين ، فأصبح قطبهم الروحي حتى قال بعضهم فيه[١٦٣] :

أقول لمكّة ابتهجي وتيهي	على الدنيا بهيّاجٍ الفقيه
امامٌ طلّقَ الدنيا ثلاثا	فلا طمعٌ لها من بعد فيه

فأثار ذلك حفيظة الشيعة ـ وهم أصحاب الحظوة عند حكام مكة ـ فشكوا الى صاحب مكة

(١٥٤) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٧ ، ص ٣٥٤ ٠
(١٥٥) الجزيري ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٥٢ ٠
(١٥٦) الفاسي ، المصدر السابق ٠
(١٥٧) نفس المكان ٠
(١٥٨) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٧ ، ص ٣٥٤ـ٥٥ وابن خطل ، هو عبد الله بن خطل التميمي ، مشرك أمر رسول الله (ص) بقتله يوم فتح مكة لقتل ٠ انظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ٢ ، ص ١٦٩ ٠
(١٥٩) الجزيري ، درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٥٢ ٠
(١٦٠) نفس المكان ٠
(١٦١) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٣٥٥ ٠
(١٦٢) ابن الأثير ، اللباب ، جـ١ ، ص ٣٠٦ ٠
الذهبي ، العبر ، جـ٣ ، ص ٢٧٩ ٠
(١٦٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ١٠٩ ٠

محمد بن جعفر بن أبي هاشم أمر هياج ، وقالوا[١٦٤]: ان أهل السنة يستطيلون به علينا فأخذه شريف مكة وضربه[١٦٥]. فهاجت لذلك فتنة بين السنة والشيعة اشترك فيها عدد من المجاورين[١٦٦]، وقد أسفرت تلك الفتنة عن مقتل هياج[١٦٧] ومجاورين آخرين ، نذكر منهم أبا محمد الأنماطي[١٦٨] ، وأبا الفضل بن قوام[١٦٩].

الآثار الاجتماعية

كان الزهد والورع يغلب على حياة معظم المجاورين بمكة المكرمة ، وكان الانصراف عن الكسب والعمل الى العبادة والانقطاع لها ، جعل الفقر ينتشر بين غالبية هؤلاء المجاورين ، فأصبحوا لذلك عالة على مجتمع مكة الضيق ، ولم يكن لهم أي أثر في انعاشه من الوجهة الاقتصادية . وكان يعيش معظمهم على الصدقات التي تاتيهم من ذوى اليسار ولا سيما في مواسم الحج[١٧٠].

فقد كان عبد الملك الطبرى الزاهد (عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى) من فقراء المجاورين ، ومن المشهورين بالزهد والورع[١٧١]، وكان يلبس الخشن من الثياب ويعيش في فقر مدقع حتى قيل بانه كان يقتات على العشب[١٧٢].

وكان هياج بن عبيد الحطيني المتوفي سنة ٤٧٢هـ فقيرا يتكفف الناس ، وكان اذا أراد الخروج الى المدينة كعادة أهل مكة في كل عام[١٧٣] ، يتوقف الى يوم الرحيل فأول من أخذ بيده كان في مؤونته طوال تلك الرحلة الى أن يرجع[١٧٤].

أما عن أرزاق المجاورين في مكة فهي ــ كما أوضحت ــ كانت تعتمد على الصدقات والأعطيات التي تصل اليهم من أهل اليسار والحكومات القائمة ، فقد ذكر أن أبا بكر محمد بن علي الماذرائي المتوفي سنة ٣٤٥هـ[١٧٥] كان يحمل معه الى الحجاز في البر والبحر أثناء حجاته مبلغا كبيرا من « الدنانير والدراهم والثياب والطيب والحلوى والحبوب وسائر الأطعمة والقمح والدقيق والشعير والزيت ولا ينصرف عن الحجاز الا وجميع من فيه أغنياء »[١٧٦] وقيل أن مبلغ ما انفقه في خمس حجج ــ وهي آخر حجاته ــ بلغ ألفي ألف دينار[١٧٧].

وكانت جميلة بنت ناصر الدولة قد حجت الى مكة في سنة ٣٦٦هـ فانفقت أموالا طائلة في مجاوري مكة وأمرت بكسوتهم جميعا[١٧٨]، وقد بلغ ما أعطته للمجاورين عشرة آلاف دينار من الذهب الأحمر[١٧٩]. وكان حجاج العراق وخراسان يكثرون من عطائهم للمجاورين فقد كانت

---

(١٦٤) نفس المكان .
(١٦٥) ابن تغرى بردى ، **النجوم الزاهرة** ، جـ٦ ، ص ١٠٩ .
(١٦٦) غازى ، **افادة الأنام** ، جـ٣ ، ص ٢١ .
(١٦٧) الفاسي ، **العقد الثمين** ، جـ٧ ، ص ٣٨١ .
(١٦٨) غازى ، المصدر السابق .
(١٦٩) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٨ ، ص ١٠١ .
(١٧٠) ابن بطوطة ، **تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار** ، بيروت (١٩٦٠م) ، ص ١٧١ .
(١٧١) الفاسي المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٥١٧ .
(١٧٢) نفس المكان .
(١٧٣) نفس المصدر ، جـ٧ ، ص ٣٨١ .
(١٧٤) نفس المكان .
(١٧٥) ابن سعيد ، المغرب ، ص ٣٥٠ .
(١٧٦) نفس المصدر ، ص ٣٥٢ .
(١٧٧) الجزيرى ، **درر الفوائد المنظمة** ، ص ٦٩١ .
(١٧٨) ابن الجوزى ، **المنتظم** ، جـ ٧ ، ص ٨٤ .
(١٧٩) الجزيري ، المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

عادتهم أنهم يتاخرون في الرحيل من مكة أربعة أيام بعد رحيل الحاج الشامي والمصري(١٨٠)، فيكثرون في هذه الأيام الأربعة من الصدقات على المجاورين وغيرهم ، فقد شاهدهم ابن بطوطة « يطوفون بالحرم ليلا فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب »(١٨١).

ولم تقتصر نفقة المجاورين في مكة على ما كانوا يتلقونه من صدقات فحسب ، بل كانوا يفوزون بنصيب كبير من النفقات العامة للدولة القائمة ، فقد رتب علي بن عيسى ابن الجراح منذ مطلع القرن الرابع الهجري بأن يحمل الى الحرمين الشريفين والى المجاورين بهما والى أرباب الوظائف بمكة والمدينة في كل سنة ٤٢٦ر٣٠٥ دينارا(١٨٢).

وجاء عن أبي عبيد البكري من رجال القرن الخامس الميلادي قوله « وما يحمل للمجاورين بها ـ أي بمكة ـ من العين خمسة آلاف وثلاثمئة ، ومن الورق احدى وعشرون ألفا »(١٨٣).

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فقد كان معظم المجاورين يقيمون في الأربطة التي أقامها اهل الخير ليسكن فيها أولئك الذين لا يجدون مأوى في مكة سواء من المجاورين أو غيرهم . ومعلوماتنا عن الأربطة في هذه الفترة قليلة ، ولا تمدنا المصادر التاريخية الا بذكر رباطين منهما : أحدهما الرباط المعروف برباط السدرة بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل الى المسجد الحرام من باب بني شيبة ، يذكر الفاسي(١٨٤) « أنه كان موقوفا في سنة ٤٠٠هـ » وموضع هذا الرباط دار القوارير التي بنيت في زمن هارون الرشيد(١٨٥)، أما الثاني فهو رباط الفقاعية قيل أن قهرمانه أم الخليفة العباسي المقتدي هي التي وقفته في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري(١٨٦).

أما من الناحية السكانية ، فقد كان للتزاوج بين هؤلاء المجاورين والمكيين أثر كبير ترك بصماته على المجتمع المكي . ولا يزال تأثير تلك السلالات التي وفدت الى مكة من أقطار شتى ، واختلاطهم بسكانها الأصليين واضح حتى اليوم(١٨٧).

فقد كان بعض المجاورين يتزوجون من نساء مكيات ، بل ان بعضهم بالغ في تلك الزيجات فقد أثر أن أبا الفتوح يحي بن عيسى بن اسماعيل بن ملامس المتوفي سنة ٤٢١هـ(١٨٨)، وكان من أعيان العلماء وأكابر الفضلاء(١٨٩)، وكانذا مال كثير ، حج فأقام بمكة مجاورا فتزوج أثناء اقامته بها ستين امرأة(١٩٠).

---

(١٨٠) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٧١ .
(١٨١) نفس المكان .
(١٨٢) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٣٠٦هـ .
غازي ، افادة الأنام ، جـ٣ ، ورقة ٨٦ .
(١٨٣) المسالك والممالك ، ورقة ٢٣٣ .
(١٨٤) شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٣٣٠ .
(١٨٥) الأزرقي ، تاريخ مكة ، جـ٢ ، ص ٧٥ .
(١٨٦) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ .
(١٨٧) لمعرفة المزيد من تأثير الحج والهجرة على المجتمع السكاني بمكة المكرمة ، واختلاط المكيين بالسلالات المهاجرة اليها والمستوطنة بها ، انظر : البتنوني ، الرحلة الحجازية ، ص ٤٠ـ٤٤ .
السليمان ، العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٢٠٩ .
Snouck, Mekka, pp. 3,215
الذويب ، عبد المجيد ، الجغرافيون العرب وتعريفهم بالجزيرة العربية ، ص ١٦ .
(١٨٨) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٧ ، ص ٤٤٤ . الجعدي ، عمر بن سمرة ، طبقات فقهاء اليمن . طبع القاهرة (١٩٥٧م) ، ص ٩٣ .
(١٨٩) الجندي ، السلوك ، مادة مخلاف جعفر .
(١٩٠) الفاسي ، المصدر السابق ، ص ٤٤٤ . الجعدي ، المصدر السابق ، ص ٩٢ .

ولما عاد الى اليمن وعزم ابنه على المجاورة بمكة واستأذنه في ذلك[١٩١]، قال له : « بشرط انك متى أردت الزواج (من مكة) فلا تتزوج الا بكرا فانني لا آمن عليك من أن تتزوج من كنت قد تزوجتها »[١٩٢].

وكان هناك من بين طوائف المجاورين من يفضل حياة العزوبة والاشتغال بالعلم بعيدا عن مشاغل الحياة الزوجية . فقد أثر أن امرأة استأذنت في الدخول على العابد الزاهد أبي نصر السجزى المتوفي بمكة سنة ٤٤٤هـ[١٩٣] فلما اذن لها أخرجت كيسا فيه ألف دينار فوضعته بين يديه وقالت له : انفقها فيما ترى . فقال لها : ما المقصود ؟ قالت تتزوجنى ولا حاجة لى في الزواج ، ولكن لأخدمك ، فأمرها بأخذ الكيس وان تنصرف[١٩٤]. فلما انصرفت قال لأحد جلسائه « خرجت من سجستان بنية طلب العلم ، ومتى تزوجت سقط عنى هذا الاسم ، وما أوثر على طلب العلم شيئا »[١٩٥].

وصفوة القول أن حياة المجاورة في مكة المكرمة والاستيطان بها قد خلقت على مر السنين أسرا كبيرة لم تلبث أن أصبحت جزء من المجتمع المكي واكتسبت شهرة عظيمة في مجال القضاء والاشتغال بالعلم . فنحن نسمع عن الطبريين والنويريين والفاسيين وغيرهم ، وجميعهم كانوا من البيوت التي لعبت دورا كبيرا في حياة مكة الدينية والثقافية والعلمية .

---

(١٩١) الجندى ، المصدر السابق .
(١٩٢) نفس المكان .
(١٩٣) الحافظ الذهبي ، العبر ، جـ٣ ، ص ٢٠٦ .
(١٩٤) الفاسي ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٠٨ .
(١٩٥) نفس المكان .



الباب الثالث

العلاقات التجارية

١ ـ التجارة الداخلية والموارد المحلية.

٢ ـ التجارة الخارجية.



الفصل الأول

التجارة الداخلية والموارد المحلية

● العوامل التي ساعدت على ازدهار مكة من الناحية التجارية ● الحاصلات الزراعية والتسويق الزراعي ● المعاملات التجارية ● سوق مكة في مواسم الحج والعمرة ·

العوامل التي ساعدت على ازدهار مكة من الناحية التجارية

شهدت مكة المكرمة ازدهارا تجاريا طوال تاريخها عبر العصور الاسلامية ، وقد ساعدها على هذا الازدهار عدة عوامل نذكر منها :

١ ـ الموقع الجغرافي ، فقد حظيت مكة بموقع جغرافي فريد ، ذلك أن وقوعها على تخوم جبال السراة ، وعلى أطراف تهامة جعلها في بيئة جغرافية ممتازة ، هذا الى أن توفر الماء فيها [١] ـ ولا سيما بعد المشاريع التي أجريت لها في العصور الاسلامية المختلفة ـ ونشاط سوقها التجارى ، وتوفر الميرة فيه جعلها ملتقى طرق القوافل البرية التي تجوب الجزيرة العربية شمالا وجنوبا وشرقا ، حيث يتوفر فيها الى جانب الماء الصالحما تحتاجه تلك القوافل من المؤن والأرزاق اللازمة لمواصلة الرحلة الى الجهات التي تقصدها ، فضلا عن تبادل تلك المتاجر مع تجار مكة [٢] ·

٢ ـ وقوع مكة قريب من منطقة أسواق قديمة كسوق عكاظ ومجنة وذو المجاز وحباشة [٣] وهذه الأسواق تتوسط الحجاز وقريبا من نجد واليمن ، لأن الأسواق عادة تنشأ مراعاة لاحتياج المنطقة التي تحيط بها ، فقد كانت هذه الأسواق ملتقى قوافل التجارة من جميع أنحاء الجزيرة العربية ، فضلا عن أنها كانت منتدى أدبيا لشعرائها وخطبائها [٤] ، وقد استطاعت مكة أن ترث هذه الأسواق بعد اندثارها [٥] ، وأن تقوم بنفس الدور الذي كانت تقوم به تلك الأسواق القديمة حيث يجتمع فيها الناس للحج والتجارة والثقافة [٦] ·

٣ ـ احاطة مكة بمنطقة زراعية خصبة مما وفر لها كثيرا من الحاصلات الزراعية من حبوب وفواكه وخضار [٧] ، هذا فضلا عن ثروتها الحيوانية الكبيرة من ابل وضأن وماعز وبقر

(١) حالوم ، يقظة القومية العربية ، القاهرة (١٩٦٨م) ، ص ٨ ، وأعني بالماء هنا ماء الشرب ، اما المياه اللازمة للزراعة فلا تزال مكة فقيرة منها ·
(٢) السليمان ، علي ، النشاط التجارى ، رسالة دكتوراه ، الرقم ١٣٣٥ ، جامعة القاهرة ، ص ٨٦ ·
(٣) الأفغاني ، سعيد ، أسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، ط٢ ، دمشق (١٩٦٠م) ، ص ٢٥٨ـ٦٠ ·
(٤) السباعي ، تاريخ مكة ، جـ١ ، ص ٤١ ·
(٥) حالوم ، المصدر السابق ، ص ٨ ·
(٦) السليمان ، علي ، المصدر السابق ، ص ٨٦ ·
(٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٤٨ ·

وخيول [٨] ، مما هيأ لها كفاية ذاتية في أسواقها المحلية ، وفائضا أخذ يلقي طريقه الى التصدير .

٤ ـ ومن العوامل التي ساعدت على ازدهار تجارة مكة ـ وهو أهمها ـ وجود الكعبة المشرفة وغيرها من الأماكن المقدسة كمنى وعرفات حيث يجتمع فيها عشرات الآلاف من المسلمين من جميع انحاء المعمورة ، حيث يفدون اليها لتأدية مناسك حجهم وعمرتهم ، وبالتالى فهم يعملون على تنشيط سوقها الذي تجتمع فيه بضائع الشرق والغرب [٩] .

٥ ـ قربها من البحر الأحمر وامتلاكها بعض الموانى التجارية على شاطئه الشرقي كجدة والسرين [١٠] فقد كانت جدة واجهة مكة البحرية ، وعتبتها على البحر [١١] ، وكانت المراكب تأمها من مصر واليمن وغيرها من البقاع فما تكاد تنتهي الى جدة حتى تسير منها المتاجر الى مكة المكرمة [١٢] ، هذا الى جانب تجارتها البرية الواسعة مع بعض المدن في الجزيرة العربية وخارجها مثل عمان واليمامة وعدن وصنعاء ودمشق والبصرة وبغداد والفسطاط والقلزم وعيذاب وغيرها . وبذلك تمكنت مكة من تجارة البر والبحر معا [١٣] .

وهكذا نجد أن مكة سارت في دروب التجارة بين البر والبحر ، جابت قوافلها أرجاء شبه الجزيرة العربية ناقلة متاجر أو جالبة، واستقبلت في أسواقها القوافل من اليمن والشام ، وخرجت بقوافلها الى تلك البلاد ورست بثغورها المراكب من شتى البلاد [١٤] .

الحاصلات الزراعية والتسويق الزراعي

والحديث عن مكة من الناحية الزراعية يوحي بضآلة مواردها فهي تقع بواد غير ذى زرع تحف به جبال صلدة جرداء [١٥] ، وهي قليلة المياه اللازمة للزراعة وبالتالى فهي فقيرة في كثير من المحاصيل الزراعية والأشجار المثمرة [١٦] .

غير أن الحديث عن امارة مكة بحدودها الجغرافية ومخاليفها المحدقة بها يكسبها أهمية بالغة في هذا الميدان، فقد ذكر الادريسي أن « الخارج من مكة في كل جهة تلقاء أودية مياهها جارية وعيون مطردة وآبار عذبة وحوائط كثيرة ومزارع متظمة » [١٧] . وهكذا فان مدينة مكة تقع في وسط اقليم تكثر فيه العيون المتفجرة من الجبال المتضدة بالسيول والأمطار الممتدة من واد الى واد ، وتقع على هذه الأودية قرى كثيرة تحيط بها الحدائق والبساتين كما في الطائف وبطن مر وبطن نخل وعسفان [١٨] ، هذا فضلا عن الأودية الكبيرة الواقعة الى الجنوب منها ولا سيما دوقه

(٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٤٨ .
(٩) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٦٧ .
(١٠) سيأتي تحقيق شامل لمدينة السرين وانها ميناء مكة الثاني .
(١١) ابن ماجد ، احمد ، كتاب الفوائد ، تحقيق ابراهيم الخورى وعزة حسن ، دمشق (١٩٧١م) ، ص ٣٤٤ .
(١٢) القلقشندى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .
(١٣) Heyd, W.. Histoire Du Commerce Lavent Au Moyen Age. Leipzig (1925). I. pp. 24-26.
(١٤) زكي ، نعيم ، طرق التجارة الدولية ، القاهرة (١٩٧٣م) ، ص ١٢٨ .
(١٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٣٢ .
Heyd. Histoire du commerce. I. pp. 24-26.
(١٦) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ورقة ١٠٨ .
(١٧) ابو الفداء ، كتاب تقويم البلدان ، ص ٨١ .
(١٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٤٦ .

وقنونا وبية والأحسبة وحلي [١٩]، وجميعها تشتهر بثروتها الحيوانية وحاصلاتها الزراعية من حبوب وفاكهة وخضار ، وهي تجد طريقها الى سوق مكة التجارى ولا سيمـا فـي مواسم الحج والعمرة الرجبية كما سيأتي ذكره ٠

وتشمل أعمال مكة : الطائف وجدة ورعيلاء البياض [٢٠]، وتبالة وبعض ما حولها من بـلاد السراة ٠ ومن أعمالها في تهامة ضنكان وبيش، وعشم والسريـن والأحسبة ، وحلي [٢١] ونخلـة وذات عرق وعسفان ومر الظهران والجحفة [٢٢]. بل ان بعض المؤرخين يمد حدود مكة الى نجران وعثر [٢٣] .

ومع أن معظم هذه البلدان كانت تابعة لوالي مكة في عصر الولاة [٢٤]، الا أنني سأتناول في هذه الدراسة الاقتصاديـة الأماكن التـي كانت تسيطر عليها مكة سياسيا في هذه الفترة التـي اختصها بهذه الدراسة ، وهي تمتد من الفرع شمالا الى حلي بن يعقوب جنوبا [٢٥]، ومن الطائف شرقا الى جدة غربـا [٢٦] ، ولو أن المدينـة المنورة قد خضعت فترة لأشراف مكة، الا أنها كانت في معظم تاريخها امارة مستقلة يحكمها بنو المهنا من الأشراف الحسينيين [٢٧].

وكانت الطائف من أهم مخاليف مكة الزراعية وهي على مرحلتين منها [٢٨]، أو على مسيرة ثلاثة أيام على الرفق والتؤدة [٢٩]، وقيل بينهما ستون ميلا [٣٠]٠ وهي مدينة متحضرة وهواؤها لطيف [٣١]، وهي شديدة البرد حتى أنه ربما جمد الماء بها لشدة بردها [٣٢]، وهي مصيف أهل مكة ويمتلك أثرياؤها فيها بعض البساتين والقصور [٣٣] فهم ينتجعون اليها في فصل الصيف اذا تأذوا من حر مكة [٣٤].

ويكثر بالطائف الرمان والعنب والليمون وغيرها من الفواكه الحسنة [٣٥] التي تجد طريقها الى سوق مكة التجاري حيث تذكر المصادر أن جميع فواكه مكة من الطائف [٣٦] ٠

---

(١٩) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣١٦ ٠
(٢٠) الأنصارى ، نخبة الدهر ، ص ٢١٥ ٠
(٢١) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ٣١٦ ٠
(٢٢) نفس المكان ٠
(٢٣) نفس المكان ، الأنصارى ، نخبة الدهر ، ص ٢١٥ ٠
(٢٤) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣١٦ ٠ الأنصارى ، نخبة الدهر ، ص ٢١٥ ٠
(٢٥) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٤١٢هـ ٠
(٢٦) صفة الأقاليم الاسلامية (المؤلف مجهول) ، مكتبة احمد الثالث برقم ٣٠١٢ ، (اسطانبول) ورقة ١٢ ٠
(٢٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٩٨ وما بعدها ٠
(٢٨) الحميري ، الروض المعطار ، ورقة ١٠٧ ٠
(٢٩) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٩٩ ٠
(٣٠) الحميرى ، المصدر السابق ، ورقة ١٠٧ ٠
(٣١) القلقشندى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٩ ، الحميري ، المصدر السابق ، ورقة ١٠٧ ٠
(٣٢) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٧٩ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩ ٠
(٣٣) بيرين ، جاكلين ، اكتشاف جزيرة العرب ، نقله الى العربية قدرى قلعجى ، طبع بيروت (١٩٦٣م) ، ص ٢٦٠ ٠
(٣٤) المقدسي ، المصدر السابق ، ص ٩٥ ، ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ١٣٤ ٠
قال النميرى : تشتو بمكة نعمة ، ومصيفها بالطائف (نفس المكان) ٠
(٣٥) الظاهرى ، كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، مخطوط ، مكتبة احمد الثالث برقم ٢٩٩٠ (اسطانبول) ورقة ١١ ٠
(٣٦) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٣٩ ٠ ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ٩٩ ٠

وغير بعيد من الطائف تقع قرية الوهط وهي من أكبر روافد مكة من الفاكهة [٣٧]، ويكثر بها العنب والزبيب حتى قيل أن العنب بها كان يعرش على ألف ألف خشبة [٣٨] وأن كل خشبة تباع بدرهم [٣٩] . وكان العنب من أكثر الفواكه انتشارا في أصقاع كثيرة من المعمورة وهو متعدد الأنواع والأجناس فقد ذكر ابن الفقيه « لو أن رجلا خرج من بيته مسافرا في عنفوان شبيبته وحداثة سنه ، واستقرى البلدان صقعا فصقعا يتتبع الكروم مصرا فمصرا حتى يهرم ، وصغيرا حتى يبدن ، لتعرف أجناسه واحاطة العلم بانواعه ... لأعوزه وغلبه وغره وبهره ، اذ كانت كثرة فنونه ، واختلاف أنواعه لا تدرك » [٤٠]، ومع هذا فقد كان لعنب الطائف شهرة عريضة في أنحاء العالم الاسلامي آنذاك فقد نقلت زراعته الى العراق كما نقل الى كروخ قرب هراة ببلاد أفغانستان وصار يزرع فيها [٤١] .

وكانت قرى بطن نخل تعتمد على سوق مكة في بيع محاصيلها الزراعية ، وهي الى الشرق من مكة فيما بينها وبين الطائف ، وهي قرى مجتمعة ذات عيون وحدائق ومزارع [٤٢]، ذكر القلقشندي أن « غالب فواكه مكة وقطانيها وبقولها منها » [٤٣].

أما بطن مر فيقع الى الشمال من مكة بمسافة ستة عشر ميلا [٤٤]، وهو واد خصيب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة الماء تسقي منها الأراضي الزراعية الواقعة في تلك المنطقة [٤٥]، ويقع على هذا الوادي قرى كثيرة وعيون غزيرة [٤٦]، لعل من أشهرها عين البرقة [٤٧] التي عرفت المنطقة باسمها ، وهي مقر الأمير شكر بن أبي الفتوح أميرمكة مع جيش خاص به [٤٨].

وتكثر ببطن مر مزارع النخيل التي تشغل رقعة واسعة تتصل بوادي نخلة [٤٩] ، ذكر صاحب تقويم البلدان أن الخضار والثمار والميرة تجلب منها الى مكة المكرمة [٥٠] .

وتجاور بطن مر عدة أودية ومناطق زراعية كعسفان والبرزة وكليئة وخليص [٥١] وجميعها تشتهر بزراعة الخضار والحبوب والنخيل [٥٢] ، وهي تعتمد في زراعتها على العيون والأمطار ولعله من الملاحظ ما ذكره القلقشندي من وجود بعض الأنهار بهذه القرى ، فقد ذكر أن قرية عسفان بها أربعة عشر نهرا على كل نهر قرية وخليص بها تسعة أنهر وكلية بها سبعة أنهر [٥٣] وهكذا ، والظاهر أن القلقشندي يريد بلفظ الأنهار تلك الأودية الصغيرة التي تجري بها عند نزول الأمطار سيول ضحلة ثم لا تلبث أن تجف ، ذلك لأن الجزيرة العربية بأسرها ليس فيها أنهار جارية . ومهما يكن من أمر فان هذه القرى كانت تعتمد اعتمادا كليا على سوق مكة في بيع محصولاتها

(٣٧) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٢٢ .
(٣٨) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن (١٣٠٢هـ) ، ص ٢٢ .
(٣٩) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ٢٢ . في ابن الفقيه شرى كل خشبة الف درهم ، ص ٢٢ .
(٤٠) مختصر كتاب البلدان ، ص ١٢٥ .
(٤١) متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٠٥ . الأصطخرى ، مسالك الممالك ، ص ٢٦٦ .
(٤٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٥٨ .
(٤٣) نفس المكان .
(٤٤) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٥٢ . القلقشندى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .
(٤٥) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٦١ .
(٤٦) نفس المكان .
(٤٧) ناصر خسرو ، الرحلة ، ص ١٣٤ .
(٤٨) ناصر خسرو ، الرحلة ، ص ١٣٤ . القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٦٠ .
(٤٩) ابو الفداء ، ص ٩٥ .
(٥٠) نفس المكان . الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٥٢ .
(٥١) القلقشندى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٩-٦٠ .
(٥٢) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٦٣ .
(٥٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٩-٦٠ .

الزراعية ·

أما قرى الفرع وغيرها من مناطق بني سليم فقد اشتهرت بتربية النحل وجني العسل حيث يجلب منها الى مكة المكرمة فيشترى منه المكيون والحجاج على حد سواء[٥٤] ·

وكان لبعض المكيين مزارع بالقرب من مكة المكرمة تروى بمـاء العيون كعـين سليمان[٥٥] وغيرها ، وكانت هذه المزارع تنتج مختلف الحاصلات الزراعية ، وقد عمل المكيون على استقدام عمال من المغاربة من ذوي البصارة بالفلاحة والزراعة[٥٦] فاستطاعوا أن ينهضوا بالزراعة فيها وان يحدثوا بها كثيرا من البساتين والمزارع[٥٧] « فكانوا ـ كما يقول ابن جبير ـ أحد الأسباب فـي خصب هذه الجهات »[٥٨] ·

ومن أشهر هذه المزارع مزرعة حدة ، وهي على الطريق بين جدة ومكة وهي مزرعة واسعـة تداولها بعض أثرياء مكة بالشراء حتى آلت الى يد الشريف الحسن بن ثابت السديدى فغرس بها نخلا كثيرا بلغ مقداره عشرين ألف نخلة[٥٩] ، وقد بقيت في أحفاده حتى سنة ٦٢٢هـ حينما آلت ولاية الحجاز الى الملك الكامل فأخذ نخل الأشراف هذا في جملة ما استحوذ عليه من ممتلكاتهم[٦٠] ·

وكان محمد بن عمر بن علي الحلوى المكي العابدي أحد تجار مكة المعتبرين ، وكان قد ملك عقارا طائلا بخيف بني شديد وغيره[٦١] ، وكان ملكه في الخيف من الماء أربع وثمانون ساعة ، وكان يشترى الساعة بخمسة آلاف درهم ، وملك في البرقة نحو خمسين ساعة ماء[٦٢] ·

والى الجنوب من مكة تقع جبال السراة ، وهي ارض عالية وجبال مشرفة على البحر تمتد من الطائف الى صنعاء[٦٣] · وسراة هي ما استوسق واستطال في الأرض من جبال هذه الجزيرة[٦٤] ، وهي معدن الحبوب والخيرات والتمور والعسل الكثير[٦٥] ، وهي تضم قرى كثيرة تصل الى مائتى قرية[٦٦] · نذكر منها عقدة والنفوع ومهور والشعبين[٦٧] ، وتبالة وبها عيون متدفقة ومزارع ونخل[٦٨] ، هذا فضلا عن بلاد زهران التي كانت تشتهر الى جانب ما سبق بزراعة الزعفران[٦٩] ·

ويجلب السرو الى سوق مكة كثيرا من خيرات هذه البلاد[٧٠] ـ كما سيأتي ـ فاذا دخلوها ملأوها من الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والـذرة والـدخـن واللـوز والـزبيـب

(٥٤) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ١٥ ·
(٥٥) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٩٨ ·
(٥٦) نفس المكان ·
(٥٧) نفس المكان ·
(٥٨) نفس المكان ·
(٥٩) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٤١ ·
(٦٠) نفس المكان · ويضيف ابن المجاور كلمة طنبنا الى الملك الكامل · والواقع ان ولاية الحجاز في هذا التاريخ كانت بيد الملك الأشرف مسعود بن الكامل الأيوبي وان طنبنا لم يأت الا في وقت متأخر في عهد المماليك الذين اسقطوا الدولة الأيوبية بمصر ·
(٦١) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ٢ ، ص ٢٢٧ ·
(٦٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٨ ·
(٦٣) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٣٢ ·
(٦٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٦٤ ·
(٦٥) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٨٦ ·
(٦٦) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ٢٧ ·
(٦٧) نفس المكان ·
(٦٨) الحميري ، الروض المعطار ، ورقة ٧٢ ·
(٦٩) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ٩ ·
(٧٠) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٨٦ ·

وغيرها [٧١] .

وهكذا فان هذا الاقليم كان يزخر بمختلف المحاصيل الزراعية ففيه من الحبوب البر والشعير والذرة والسلت وجميعها تزرع على المطر وربما يزرع بعضها على ماء العيون [٧٢] ، كما يزرع فيها على العيون البطيخ الأخضر والأصفر والقثاء والباذنجان والدباء والملوخيا والفجل والكراث والبصل والثوم وغيرها [٧٣] . كما كان بها من الفواكه الرطب الطيب من البرني والمكتوم [٧٤] ، والعنب والموز والتفاح والسفرجل [٧٥] والليمون وغير ذلك .

أما الثروة الحيوانية فكان بها من المواشي الابل والضأن والماعز والبقر كما كان بها عدد كبير من الخيول الجيدة [٧٦] .

وهكذا نرى أن مكة ومخاليفها كانت ذات خيرات وفيرة ، حتى لقد قيل بأنها كانت في عصر الولاة ترفع الى بغداد كل عام بعد الخراج والمؤن ثمانين ألف دينار ، وقيل ثمانية عشر الف دينار [٧٧] ، وجميع ذلك كان من الزرع والضرع ودخل الأشجار وجني الثمار ومراعي الابل ، ودخل النخيل [٧٨] .

المعاملات التجارية

كانت مكة ولاية تابعة للخلافة الأموية في دمشق أو العباسية في بغداد وكان المكيون يتعاملون في كيلهم ووزنهم وقياسهم بالوحدات التي كانت سائدة في العالم الاسلامي آنذاك . وعندما اتسعت المملكة الاسلامية وترامت أطرافها اخذت كل ولاية تضرب نقودا خاصة بها ، ولكنها تحمل شعارات الخلافة التي تؤيدها ، وفي حدود العيارات السائدة في عاصمة المملكة الاسلامية ، اذ أن الاعتبار كان يقضي بوضع عملة يتوفر لها الوزن الصحيح [٧٩] .

وكانت أول عملة مستقلة سكت في مكة المكرمة ، في عهد قيام عبد الله بن الزبير بحركته المناوئة للخلافة الأموية في دمشق ، فقد أمر بضرب دراهم مدورة [٨٠] ، فكان لذلك أول من ضرب الدراهم المستديرة ، ونقش بأحد الوجهين « محمد رسول الله » وبالآخر «أمر بالوفاء والعدل» [٨١] .

ولما عادت مكة الى رحاب الخلافة الاسلامية بعد فشل حركة ابن الزبير ظلت العملات الأموية ثم العباسية سائدة في مكة حتى فتحت مصر على يد جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ فضرب جوهر الدينار المعزى ، في السنة ذاتها [٨٢] .

وكان الدينار السائد في ذلك الوقت في مكة ومصر وغيرها من الأقطار الاسلامية هو

---

(٧١) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٢٧ .
(٧٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٤٨ .
(٧٣) نفس المكان .
(٧٤) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ٩ .
(٧٥) القلقشندي ، المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .
(٧٦) نفس المكان .
(٧٧) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ٩ . ذكر جعفر ابن قدامة أن ما كان يرفع الى بغداد من الحرمين مبلغ مائة الف دينار (نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ص ٢٤٨-٢٥١) .
(٧٨) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ٩ .
(٧٩) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٩٩ . متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٧٨ .
(٨٠) المقريزي ، شذور العقود ، النجف (١٣٥٦هـ) ، ص ١٦ .
(٨١) نفس المكان . اغاثة الأمة ، ص ٥٣ .
(٨٢) نفس المصدر ، ص ١٦-١٧ .

الدينار الراضي (٨٣) ، والظاهر أن الدينار الجديد لـم يضعف شأن الدينار العباسي في مصر لذلك اتخذت الدولة الفاطمية بعض الاجراءات التي تقوي من شأن الدينار الجديد حيث أقام جوهر يعقوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن لقبض الخراج فامتنعا أن يأخذا الا دينارا معزيا (٨٤) فاهتز لذلك الدينار الراضي وانحط قدره ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار (٨٥) .

وكان لأهل مكة من النقود المحلية المطوقة وهي والعثرية ثلثا المثقال (٨٦) ثـم المحمديـة (٨٧)، ونحن لا نعرف بالضبط كيف جاءت هذه التسمية ، والظاهر أنها نسبة الى محمد بن سليمان الذي ثار بمكة سنة ٣٠١هـ فلعلها أن تكون قد سكت في عهده أو أن تكون قد ضربت في عهد الأمراء الموسويين الذين جاءوا بعده وسميت المحمدية تيمنا باسمه .

كما كان لاهل مكة أيضا « المزبقة » وصرفها أربع وعشرون بدرهم مـن الدراهـم النقية (٨٨) وهي تبطل اعتبارا من يوم السادس من ذي الحجة الى آخر الموسم (٨٩) . والظاهر أن بطلان هـذه العملة في مثل هذا الوقت بالذات كان ذا مغزى اقتصادي بالغ الأهمية ، اذ أن هذه الفترة هي التي توفر لمكة عائدا كبيرا من العملات الصعبة كالعباسيـة والفاطميـة ، وبالتـالي تحول دون تسرب عملتها الى خارج حدودها الاقليمية ، وهو شبيه بما تفعله كثير من الدول ذات العملة الضعيفة في عصرنا الحاضر .

والعملة المزبقة هي عملة مزيفة في غالب الأحيان اذ كان البعض يزيف الدراهم النقية كمـا يفعل المزيفون في العصر الحاضر ، ولكن لما كان الاعتبار بالوزن ـ كما أسلفنـا ـ فلـم يكونوا يبردونهـا بل يضعون عملـة يتوفر لهـا الوزن الصحيح مستعيضين عما ينقصونه من الذهب أو الفضة باستعمال الزئبق والأنتيمون (٩٠) .

وكان سوق مكة في أيام الموسم بمثابة البورصة النقدية التي تتضارب فيها عملات الدولتين العملاقتين آنذاك العباسية والفاطمية ، والظاهر أن الدينار العباسي لم يصمد أمام الدينار العلوي الفاطمي ، ولعل ذلك يعود الى سياسة الفاطميين الرامية الى مقاطعة الدينار العباسي ومنع التعامل به الأمر الذي جعله لا يقوى على منافسة الدينار الفاطمي في سوق مكة بل لعله تجاوز حدود مكة فنافسه في بغداد ذاتها ، فاضطرت حكومة بغداد في سنة ٤٢٧هـ أن تعيد النظر في تقويم العملة العباسية فأمر الخليفة بترك التعامل بالدنانير المصرية المغربية (٩١)، وأمر الشهود ألا يشهدوا في كتاب ابتياع ولا اجارة ولا مداينة تذكر فيها الدنانير المغربيـة فعدل الناس عـن هـذه العملـة الى غيرها (٩٢) .

هذا وقد شهدت مكة في فترات متفرقة من تاريخها ضرب عملات باسم أمرائهـا مـن الأشراف العلويين نذكر من ذلك أن أبا الفتوح الحسن بن جعفر عندما خرج على طاعة الحاكـم بامر اللـه

(٨٣) نفس المصدر ، ص ١٧ . ماجد ، عبد المنعم ، النقود الفاطمية في مصر ، حوليات كلية الآداب (جامعة ابراهيم) ، المجلد الثاني ، (مايو ١٩٥٣م) ، ص ٢٢٦ .
(٨٤) نفس المكان .
(٨٥) نفس المكان .
(٨٦) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٩٩ .
(٨٧) نفس المكان .
(٨٨) نفس المكان .
(٨٩) نفس المكان .
(٩٠) متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٨٧ .
(٩١) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٨ ، ص ٨٨ .
(٩٢) نفس المكان .

الفاطمي في مطلع القرن الخامس الهجري كان قد اشتكى الى الوزير ابن المغربي ـ كما تقدم ـ قلة ما بيده من المال [٩٣] فاشار عليه الوزير بالاستيلاء على ما حوته خزانة الكعبة من أموال وما عليها من أطواق الذهب والفضة [٩٤]، ففعل وضربها دنانير ودراهم وهي كما يقول الفاسي « التي تسمى الفتحية » [٩٥]، وهذه التسمية مختلف فيها اذ يقول ابن الجوزي أنها سميت « الكعبية » [٩٦] نسبة الى أنها سكت من موجودات الكعبة ، ولا شك أن التسمية الأولى هي أقرب الى الصواب ذلك لأن التسمية الثانية يظهر أنها من وضع جهة معادية تشير الى أن أبا الفتوح قد اعتدى على الكعبة وسطا على موجوداتها مما يسيء الى سمعته ، وبالتالي تجعله يخفق في مهمته ·

وعندما فشل مشروع أبي الفتوح وعاد الى مكة من الرملة سنة ٤٠٣هـ [٩٧] وصفح عنه الحاكم أراد أبو الفتوح أن يسترضيه فضرب عمله بمكة على غرار الدينار المصري وكتب عليها اسم الحاكم بامر الله الفاطمي [٩٨]·

وفي سنة ٤٦٢هـ ضاقت يد الشريف محمد بن جعفر أبي هاشم أمير مكة بسبب انقطاع ما كان يأتيه من مصر لظروف الشدة العظمى [٩٩] فاخذ قناديل الكعبة وصفائح الباب والميزاب [١٠٠] وكذلك جميع موجوداتها وضربها دراهم ودنانير [١٠١] ·

ونحن لا نعرف بالضبط هل كانت هذه العملة المكية التي ضربها أبو هاشم على غرار العملة العباسية أو الفاطمية أم أنها كانت مستقلة في قيمتها ووزنها ، ومهما يكن من أمر فقد ظلت العملة المصرية هي السائدة في مكة طوال هذه الفترة ، ولم تتغير الا في عهد الملك المسعود يوسف بن محمد [١٠٢] حيث ضرب في مكة نقودا مستقلة في قيمتها فكان الدينار المكي الجديد أربعة دراهم ، وكل درهم ثلاث جور وكل جائر ثمان فلوس وكل فلس أربع دراس [١٠٣]·

أما وحدة الوزن في مكة فكانت المنّ المعروف في جميع أنحاء العالم الاسلامي [١٠٤]، غير أن المكيين كانوا يسمونه رطلا [١٠٥]، وكان الرطل المكي يساوي مائتي درهم [١٠٦] وهو يختلف في وزنه عن الرطل البغدادي الذي كان سائدا آنذاك خارج حدود بغداد في اليمن وعمان [١٠٧]·

وكانت معظم الحوائج والعطورات في مكة واليمن تباع بالرطل أو المنّ [١٠٨]· الا ان هناك حوائج أخرى يستدعي بيعها أرطالا أخرى ذات وزن يختلف عن الرطل الرسمي ، فكان منّ اللحم

(٩٣) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ١ ، ص ١٧٠ ·
(٩٤) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ١٦٤ ·
(٩٥) شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ١١٩ ·
(٩٦) المنتظم ، جـ٧ ، ص ١٦٤ ·
عن البيطار ، موقف أمراء العرب ، ص ٩٢ ·
(٩٧) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٩٥ ·
(٩٨) نفس المكان ·
(٩٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٨ ، ص ٢٥٦ ·
(١٠٠) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٢٠ ·
(١٠١) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦ ·
(١٠٢) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ١٢ ·
(١٠٣) نفس المكان ·
(١٠٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٩٩ ·
(١٠٥) نفس المكان ، ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ١٢ ·
(١٠٦) المقدسي ، المصدر السابق ، ص ٩٩ ·
(١٠٧) نفس المكان ·
(١٠٨) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ١٢ ·

أربعمائة درهم ، وبه يباع اللحم والشحم والهريسة والمجبنة [١٠٩] ، ومن السمن ثمانمائة درهم . وبه يباع السمن والزيت والخل والشيرج[١١٠]، ولا يزال حتى في عصرنا الحاضر يتم التعامل في بعض مناطق مكة بأرطال خاصة لبيع بعض الحاجيات كرطل المسك والعنبر ورطل الصباغ والبخور ولا زلنا نسمع حتى الآن عن الرطل الحجرى والبندرى والبارقي وغيرها. وكلها تنسب الى أماكن تقع الى الجنوب من مكة المكرمة .

أما وحدة الكيل في مكة المكرمة فكانت الصاع والمد ، وكان المد يزن خمسة أرطال وثلثا . غير انه لم يلبث أن طبق النظام الرباعي بحيث أصبح الصاع يساوي أربعة أمداد ، وكل مد يساوي رطلا [١١١] .

ويباع بالصاع والمد ، الحنطة وسائر الحبوب المجلوبة الى سوق مكة التجارى[١١٢]. غير أن الكيل في الحجاز كان لا يخلو في بعض الأحيان من التطفيف ، ولا سيما عند أرباب السفن فقد جاء عن المقدسي قوله[١١٣]« ولهم بالمراكب صاعان يعطون بأحدهما (وهو الأصغر) جرايات الملاحين ويتعاملون بالكبير » .

أما الأقمشة فكانت تباع بالذراع، والذراع هو اليد[١١٤]في أيام الموسم وأيام الصدقة[١١٥] حتى اذا كان بعد الموسم بمدة شهر كامل زيد في الذراع[١١٦].

ونلاحظ هنا أن المكيين كانوا يتحكمون في الموسم سواء في نقدهم أو سائر معاملاتهم لأن الموسم هو فرصتهم الوحيدة لجني أرباح طائلة ، ولكن يظهر أن البعض منهم قد غالى في استغلال مواسم الحج والعمرة لتلك الغاية ، حتى جعلت واحدا من الرحالة الذين زاروا مكة قريبا من هذه الفترة يقول[١١٧]« وهم (أي أهل مكة) يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة ، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها ينتهبونهم انتهابا ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا . فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤونة الى أن ييسر الله رجوعه الى وطنه » .

هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد كانت الحوائج التي لا تخضع لنظام التعامل الذي كان سائدا في مكة آنذاك يتم بيعها « بالبيعة » فكانت الأدم تباع بالبيعة[١١٨]، ولعل البيعة هذه شبيهة بالكورجة التي لا تزال تباع بها الجلود في وقتنا الحاضر في مكة . سيما وأن الحمل ـ أي حمل الجمل ـ كان يأتي ببيعتين ونصف[١١٩]، وهذه الكمية تقرب من حمل الجمل اليوم .

هذا الى أن نظام المقايضة كان سائدا في مكة في تلك الفترة وهو الذي يعرفه ابن المجاور بأنه

---

(١٠٩) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ١٢ .
(١١٠) نفس المكان .
(١١١) نفس المصدر ، ص ١٣ .
(١١٢) نفس المكان .
(١١٣) احسن التقاسيم ، ص ٩٩ .
(١١٤) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ١٣ .
(١١٥) نفس المكان .
(١١٦) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ١٣ .
(١١٧) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٤ .
(١١٨) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ١٣ .
(١١٩) نفس المكان .

« كج بكج »[١٢٠] وقد كان نظام المقايضة رائجا بين تجار مكة وروادها من السرو فقد جاء عن ابن جبير قوله « ومن العجيب في أمر هؤلاء المائرون أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم ، انما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل فأهل مكة يعدون لهم الأقنعة والملاحف المتان وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ويبايعونهم به ويشارونهم »[١٢١] .

سوق مكة في مواسم الحج والعمرة

ذكر ابن جبير[١٢٢] « أن هذه البلدة المباركة (أي مكة) سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليلية الابراهيمية وذلك أن الله عز وجل يقول حاكيا عن خليله ، صلى الله عليه وسلم (فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)[١٢٣] ، وقال عز وجل (أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء)[١٢٤] ، فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل الى يوم القيامة ، وذلك أن أفئدة الناس تهوى اليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة فالطريق اليها ملتقى الصادر والوارد ... والثمرات تجبى اليها من كل مكان ، فهي أكثر البلاد نعما وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر » .

وكانت سوق مكة مزدهرة طوال أيام السنة ذلك لأنها لا تخلو ـ كما أوضحنا ـ من عدد كبير من المجاورين وطلاب العلم والمعتمرين ، هذا الى جانب وقوعها في منطقة تحيط بها القرى الزراعية التي تكتظ بسكانها من المزارعين ورعاة الماشية فكانوا يرتادون مكة في كل يوم ليبيعوا محصولاتهم الزراعية من حبوب وفواكه وخضار وحيوانات وبالتالي يشترون ما يحتاجون اليه من السلع التي لا تتوفر الا في أسواق المدن .

غير أن سوق مكة يزداد ازدهارا في مواسم الحج والعمرة ، فقد كان لها موسمان أحدهما في أول رجب والثاني موسم الحج[١٢٥] ، ذكر الأدريسي أنه ينفق في هذين الموسمين كل ما جلب اليها[١٢٦] . وكانت مكة تستقبل في هذين الموسمين عشرات الآلاف من الحجاج والتجار الذين يفدون اليها لقضاء فريضة حجهم هذا الى جانب المنافع التجارية التي يحصلون عليها في تلك البقعة الطاهرة .

وكانت مكة مهياة لاستقبال مثل هذا العدد الضخم الذي يعتمد عليه اقتصادها فقد وصفت حينذاك أن بها شوارع وأسواقا وفنادق ودورا كبيرة في أماكن متفرقة[١٢٧] ، وكان لأهلها أيضا أموال صامتة وأموال ماشية ودواب وجمال[١٢٨] ، هذا فضلا عما يتوفر في سوقها من الخيرات الكثيرة المجلوبة اليها من مخاليفها القريبة[١٢٩] .

وكان سوق مكة حول الحرم ومعظمه يمتد على جانبي المسعى من الصفا الى المروة ، فقد وصفه ناصر خسرو ـ وهو شاهد عيان ـ بقوله « وعند الجانب الشرقي للمسجد سوق تمتد من الجنوب

(١٢٠) تاريخ المستبصر ، ص ١٣ .
(١٢١) الرحلة ، ص ١١١ .
(١٢٢) الرحلة ، ص ٩٦ـ٩٧ .
(١٢٣) الآية ٣٧ من سورة ابراهيم .
(١٢٤) الآية ٥٧ من سورة القصص .
(١٢٥) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ورقة ١٠٨ .
(١٢٦) نفس المكان .
(١٢٧) الظاهري ، زبدة كشف الممالك ، تحقيق بولس راويس ، باريس (١٨٨٤م) ، ص ١٢ .
(١٢٨) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ورقة ١٠٨ .
(١٢٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٦٤ .

الى الشمال . وفي أولها ناحية الجنوب جبل أبي قبيس الذي تقع على سفحه الصفا ، ... والمروة في نهايـة السوق ، شمالي الجبل ... ومـا يسمى السعي بين الصفا والمروة هو السعي في هـذه السوق من أولها لآخرها »[١٣٠].

اما في أيام الموسم « فيغدو المسجد الحرام كله سوقا يباع فيه من الدقيق الى العقيق ومـن البر الى الدر الى غير ذلك من السلع »[١٣١] فكان مبيع الدقيق بدار الندوة الى جهة بني شيبة[١٣٢]، وتباع بقية الأشياء حول الحرم في البلاط الآخـذ مـن الغرب الى الشرق وفـي البلاط الآخذ مـن الشمال الى الجنوب[١٣٣].

كما كان يوجد سوق كبير الى الشرق من سوق المسعى ، وكانت تعرف بسوق العطارين وقد وصفها ناصر خسرو « بأنها سوق جميلة البنايات وكلها عطارون »[١٣٤]. كما كان يوجد سوق آخر يجده النازل من جبل المروة ، وهو سوق صغير به عشرون دكانا متقابلة يشغلها جميعهـا حجامون لحلق شعر الرأس[١٣٥].

وهناك سوق آخر يعمر في أيام الموسم ، وبالأخص في أيام التشريق، وهو سوق منى ، وتقع منى على فرسخ من مكة ، وهي جزء من الحرم[١٣٦] طولها ميلان ، وهي تعمر في الموسم وتخلو بقية السنة[١٣٧]. وهي عبارة عن أزقة ضيقة والمسجد في الشارع الأيمن ومسجد الكبش بقرب العقبة وبها آبار ومصانع وقياسير بينهما[١٣٨]، وكان بمنى حوانيت حسنة البنـاء قـد بنيـت بالحجر وخشب الساج[١٣٩]، ومنى في تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق يباع فيها من الجوهر النفيس الى أدنى الخرز الى غير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا لأنها مجتمع أهل الآفاق »[١٤٠].

وكان سوق مكة جديرا باهتمـام الخلفاء بحيث كان يشرف على نظامه وحسبته وال يعين من قبل دار الخلافة ، فقد ذكر الفاسي أن الحسين بن علي بن عبد الله من أولاد عتبة بن أبي لهب أسندت اليه ولاية هذا السوق من زمن المطيع (٣٣٤ـ٣٦٣هـ)[١٤١].

وما دمنا قد أعطينا فكرة عن سوق مكة في تلك الفترة يجدر بنـا أن نتناول السلع التـي كانت تباع في هذا السوق في أيام الموسم ، وهي ما يمكن ادراجها تحت شيئين رئيسيين هما المواد الغذائية ثم السلع الكمالية .

فأما الغذائية فكان سوق مكة يغص بالفواكه والخضروات كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار الى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب الى سائرها[١٤٢]، وكانت جميع الفواكـه متوفرة فـي مكـة حتى فـي الشتاء[١٤٣].

(١٣٠) الرحلة ، ص ١٢١ـ٢٢ .
(١٣١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٦٠ .
(١٣٢) نفس المكان .
(١٣٣) نفس المكان .
(١٣٤) الرحلة ، ص ١٢٣ .
(١٣٥) نفس المصدر ، ص ١٢٢ .
(١٣٦) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٧٦ .
(١٣٧) نفس المكان .
(١٣٨) نفس المكان .
(١٣٩) نفس المكان .
(١٤٠) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٥٧ .
(١٤١) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ١ ، ص ٢٠٤ .
(١٤٢) نفس المصدر ، ص ٩٧ .
(١٤٣) ناصر خسرو ، الرحلة ، ص ١٢٤ .

على أن البطيخ المكي كانت له ميزة فريدة في أكله وشمه ، فقد وصف ابن جبير بطيخ مكة بقوله[١٤٤]« ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل وكل فواكهها عجب ، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة ذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك فيكاد يشغلك عن أكلك اياه حتى اذا ذقته خيل اليك أنه شيب بسكر مذاب أو بجنى النحل اللباب »[١٤٥].

كما كان يباع بسوق مكة أنواع مختلفة من الزبيب الجيد[١٤٦]، ومن العسل وقصب السكر والتمور الجيدة من البرني والمكتوم ، حيث تباع في الموسم تمرا ورطبا[١٤٧].

أما المواد الغذائية الممثلة في المنتوجات الحيوانية فكانت في منتهى الوفرة فهناك اللبن ومشتقاته كالسمن والزبدة والجبن ، وكانت اللحوم متوفرة في سوق مكة وهي في غاية الجودة[١٤٨] ولا سيما لحم الضأن فقد كان لذيذا رغم افراطه في السمن[١٤٩].

أما الحلوى فقد ذكر ابن جبير أنه كان « يصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى (يحاكون بها) جميع الفواكه الرطبة واليابسة . وفي الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة ، ولم يشاهد أحد أكمل منظرا منها لا بمصر ولا بسواها ، قد صورت فيها تصاوير انسانية وفاكهية وجلبت في منصات كأنها العرائس ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة فتلوح كأنها الأزهار حسنا ، فتقيد الأبصار وتستنزل الدرهم والدينار »[١٥٠].

أما الحبوب فكان يباع بمكة الحنطة والشعير والذرة والدخن والسويق وغيرها[١٥١] ومعظم هذه الخيرات كانت تأتي – كما أسلفنا – من بلاد السراة ، وأهلها من القبائل الموالية لمكة مثل بجيلة وغامد وزهران وغيرهم[١٥٢]، وهم يرفدون مكة بمحصولاتهم في موسمين من السنة هما العمرة الرجبية وموسم الحج ، وقليل منهم من يأتي في رمضان[١٥٣].

وهناك تعليلان لتوافد هذه القبائل بأرزاقها الى مكة . الأول ديني ويشير اليه ابن جبير[١٥٤]، فيذكر أنهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجدب ويقع الموتان في مواشيهم وأنعامهم، وبوصولهم بها تخصب بلادهم وتقع البركة في أموالهم . فمتى قرب الوقت ووقعت منهم بعض غفلة في التاهب للخروج اجتمع نساؤهم فأخرجنهم[١٥٥].

والثاني جغرافي يرجعه ناصر خسرو[١٥٦] الى قربهم من مكة وسهولة طريقهم اليها . ومع

(١٤٤) ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .
(١٤٥) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٩٨ .
(١٤٦) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٦٤ .
(١٤٧) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٩ .
(١٤٨) ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ٩٨ ، ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ .
(١٤٩) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ .
(١٥٠) رحلة ابن جبير ، ص ٩٨ .
(١٥١) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(١٥٢) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ .
(١٥٣) ناصر خسرو ، الرحلة ، ص ١٢١ .
(١٥٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١١٦ .
(١٥٥) نفس المكان .
(١٥٦) الرحلة ، ص ١٢١ .

تسليمنا بوجاهة العامل الثاني الا أن هناك عامل ثالث يجب الا نغفله أو يغيب عن بالنا ، وأعنى به العامل الاقتصادي ، ذلك أن السراة بلاد واسعة ذات مزارع وافرة تنتـج أنواعـا شتى مـن المزروعات ، وأن أسواقها المحلية صغيرة لا تستوعب هذا الانتاج الكبير ولا تستطيع أن توفر لهم احتياجاتهم التي يشترونها من سوق مكة ، التي هي المكان الوحيد الأقرب الى السراة[١٥٧] والمؤهل لاستيعاب جميع منتجات السراة التي يقايضون بها ما يحتاجون اليـه مـن الحاجيـات المستوردة كالأقمشة والعباءات والشمل[١٥٨] ، وهذا يفسر توارد سكـان السراة على مكـة ثـلاث مـرات فـي السنة[١٥٩].

أما الكماليات المستوردة فكان يكتظ بها سوق مكة فـي مواسم الحج « ففيـه ـ كمـا يقول ابن جبير[١٦٠] ـ مجتمع الشرق والغرب فيباع في يوم واحد ، فضلا عما تتبعه من الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت ، وسائر الأحجار ، ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور ، والعنبر والعود ، والعقاقير الهندية الى غير ذلك من جلب الهند والحبشة الى الأمتعة العراقية واليمانية ، الى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية الى ما لا ينحصر ولا ينضبط ، مما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافعـة ولعـم جميعها بالمنفعة التجارية »[١٦١].

والخلاصة أن رواج سوق مكة كان متصلا عبر القرون ، وخيراتها التي تأتيها من كل أرجاء المعمورة لا تكاد تنقطع فكان التجار يأتونها من كل مكان حاجين ومنتفعين ، وكـان هؤلاء التجـار يسمون مكة عروق الذهب ويسميها البغاددة مربية الأيتام[١٦٢] .

وقد عرف أهل مكة ـ وهم أصحاب قدم راسخة في التجارة ـ عرفوا كيف يستفيدون من هذه المواسم ، فقامت لذلك تجارة عريضة بمكة أمسك المكيون بزمامها فكانوا يشترون جميع ما يصل اليهم من منتجات قرى مكة ومن السراة ، وكذلك ما يصل اليها من مختلف أنحـاء المعمورة ليبيعوه من جديد على الحجاج والمتارين على حد سواء ، ولهذا يقول المكيون : « حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب والسرو أمنا نكسب منهم القوت »[١٦٣].

ولا يعني هذا أن سوق مكة كتب له الرواج في مختلف السنين لأن مكة ومخاليفها شأنها في ذلك شأن غيرها من البلاد الاسلامية كثيرا ما تتعرض للفتن والمجاعات التى يسببها القحط والحروب فيكسد سوقها تبعا لذلك وتنمحق خيراتها ، ولا يبقي اعتمادها حينذاك الا على ما يردها من ميرة مصر وصدقاتها[١٦٤] .

(١٥٧) تعتبر الطائف من المدن القريبة للسراة ، ولكنها مدينة صغيرة ولا تستطيع أن تستوعب كل منتجات السراة ، او تلبي احتياجاتها من البضائع المستوردة .
(١٥٨) ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ١١١ .
(١٥٩) ناصر خسرو ، المصدر السابق ، ص ١٢١ .
(١٦٠) ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .
(١٦١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٦٧ .
(١٦٢) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٥ .
(١٦٣) نفس المصدر ، ص ٢٦ .
(١٦٤) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣١٧ - الشيرازى ، سيرة المؤيد ، ص ١٥٥ .
كانت مكة تتعرض من وقت لآخر لكثير من الفتن والمجاعات التي تتسبب في كساد سوقها ولمعرفة الكثير عن الفتن والمجاعات في مكة راجع :
- المسبحي ، أخبار مصر ، ورقة ٢٥٣ .
- ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٤٤٠هـ ، ٤٤٧ـ٤٤٨هـ .
- ابن الأثير ، الكامل ، جـ٨ ، ص ٥٠ ، ٧٣ ، ٧٩ .
- ناصر خسرو ، الرحلة ، ص ١١١ـ١٢ .
- المقريزى ، اغاثة الأمة ، ص ٣٤ .

وتضاف عائدات الضرائب والمكوس الى الموارد المحلية لامارة مكة المكرمة ، وهي تشكل مردودا كبيرا يمكن أن يسهم بقدر طيب في انعاش الحالة العامة لسكان البلد المقدس ٠ غير أن هذا الدخل الكبير يذهب الى جيوب حكام مكة المكرمة ٠

وتطلق ضريبة المكس على الجباية أو ما يأخذه العشار ويقال له الماكس ، وفكرة فرض المكوس قديمة وقد أبطل الاسلام المكس بأنواعه[١٦٥]٠ فقد جاء في الحديث « لا يدخل الجنة صاحب مكس »[١٦٦] ثم فرضت الزكاة عوضا عنه ، وهي حق معلوم يؤخذ من أغنياء المسلمين ويرد الى فقرائهم[١٦٧] ٠

وكانت المكوس معروفة بمكة منذ مطلع القرن الرابع الهجرى ، اذ تذكر المصادر ان على بن عيسى قد أبطل المكوس بمكة المكرمة وجباية الخمور بديار بني ربيعة[١٦٨]٠

على أن أقدم اشارة صريحة عن جباية المكوس من الحجاج كانت في سنة ٣٢٧هـ وكان ذلك على يد القرامطة ، اذ تشير المصادر الى أن أبا على عمر بن يحى العلوى كتب الى القرمطى أن يطلق الحاج ويعطيه عن كل حمل خمسة دنانير ، فاذن وحج بالناس « وهي أول سنة أخذ فيها المكس من الحجاج »[١٦٩]٠

ويجبى المكس من الحجاج في مدينة عيذاب ومن لم تجب منه في عيذاب جبيت في جدة فقد جاء عن الادريسى قوله[١٧٠]: وبها يؤخذ المكس من حجاج الاسلام القاصدين من بلاد المغرب مبلغه على كل راس ثمانية دنانير من أي الرتب كان مكسورا أو مسكوكا ولا يعبر أحد من حاج المغرب الى جدة الا أن يظهر مكسة فيجوزه ربايني بحر القلزم، ومن لم يكن عنده مكس غرمه الربابني»٠

ويتضح من هذا النص أن ربان السفينة هو الذي يجمع المكوس من الحجاج أو على الأقل يتأكد من أن جميع الحجاج الذين سيقلهم في سفينته قادرون على دفع المكس والا فانه سيتحمل الغرم عن أولئك الذين يتعذر عليهم دفع ما عليهم من مكوس « فاذا جاز المركب البحر وسهل الله عليه الوصول الى جدة أرسى على بعد ودخل صاحب دواوينهم ثم نزلوا ونزل الناس بجملتهم فيقضى منهم المكوس اللازمة لهم الموجبة عليهم »[١٧١]٠

فاذا تصادف وعثر على رجل لا مكس معه، فاما أن يغرم ربان السفينة لأنه هو الذي جوزه من عيذاب الى جدة[١٧٢]، واما أن يسجن حتى تفوته فريضة الحج[١٧٣]هذا علاوة على ما يتعرض له من وسائل العذاب المختلفة[١٧٤]٠ ذكر ابن المجاور[١٧٥]انهم يؤخذون ويدلون في صهريج من

---

(١٦٥) السليمان ، على ، **العلاقات الحجازية** ، ص ١٦٠ ٠

(١٦٦) ابو داود ، **السنن** ، جـ٣ ، ص ٣٤٩ ٠ أ٠ى٠ ونسنك ، **المعجم المفهرس** ، جـ٦ ، ص ٢٤٦ ٠ التكريتي ، محمد صالح ، الزجاج النحوى في تغليط المؤرخين ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض ، م٢ ، س٢ (١٩٧١/١٩٧٢م) ، ص ٦٩ ٠

(١٦٧) العسقلاني ، الحافظ بن حجر ، **بلوغ المرام من أدلة عمدة الاحكام** ، تحقيق محمد حامد الفقى ، طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ص ١١٨ ٠

(١٦٨) ابن حوقل ، **صورة الأرض** ، ص ١٤٢ ٠ متز ، **الحضارة** ، جـ١ ، ص ٢٢٣ ٠

(١٦٩) ابن تغرى بردى ، **النجوم الزاهرة** ، ص ٢٦٤ ٠

(١٧٠) **نزهة المشتاق** ، ص ١٠٤ ٠

(١٧١) الادريسى ، **نزهة المشتاق** ، ص ١٠٥ ٠

(١٧٢) نفس المكان ٠

(١٧٣) نفس المكان ٠

(١٧٤) المقريزى ، **السلوك** ، جـ١ ، ق١ ، ص ١٦٤ ٠

(١٧٥) **تاريخ المستبصر** ، ص ٤٨ ٠

صهاريج جدة ، وقيل يؤخذون الى جزيرة من الجزر الغربية حيث يعلق أحدهم بحقويه « فاذا حج الناس وقضوا مناسكهم ، وأفاض كل راجعا الى مقصوده فحينئذ يخرجوا المغاربة من الصهاريج والجور ، وقسطوهم على المراكب الراجعة الى مصر والراجعة الى عيذاب والقلزم »(١٧٦).

وهذا المكس الذي أشار اليه الادريسي هو المكس الذي كان يؤخذ من المغاربة(١٧٧) ذلك لان المكس الذي كان مفروضا على جميع الحجاج هو سبعة دنانير(١٧٨)، أما المغاربة فكانوا يدفعون سبعة دنانير كغيرهم من الحجاج ودينارا واحدا كانوا يدفعونـه ديـة للكلب (١٧٩) فأصبح الجميع ثمانيـة دنانير على كل رأس(١٨٠) .

وقد بقي هذا المكس المجحف رسما ثابتا يدفعه المغاربة حتى أبطله صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢هـ ودفع اعانة لشريف مكة عوضا عنه(١٨١)، وقد بلغت هذه الاعانة الفي دينار وألف اردب قمحا سوى اقطاعات بصعيد مصر واليمن وقيل بلغت في مجموعها ثمانية آلاف أردب قمحا تحمل سنويا الى جدة (١٨٢) .

غير أن هذا الاجراء لم يلغ تماما بل كان مرتبطا بورود الاعانة من مصر فـاذا تاخرت هـذه الصلة عاد أمير مكة لأخذ المكوس من الحاج فقد أشار ابن جبير الى أن الحجاج احتجزوا في جدة سنة ٥٧٥هـ ، ولم يسمح لهم بدخول مكة وذلك لتاخر الصلة التي كانت تتلقاهـا امارة مكة مـن صلاح الدين ، ولم يسمح لهم والى جدة بالذهاب الى مكة الا بعد مكاتبة بينه وبـين شريف مكـة انتهت بالسماح لهم بالحج بعد أن يضمنوا بعضهم بعضا ، فاذا لم يرد المال والطعـام ، ومـا جرت العادة بارساله من قبل صلاح الدين والا فسيستوفي ذلك من الحاج (١٨٣) .

هذا ولم يقتصر الحاج المغربي على ما كان يدفعه في تلك الفترة لأمراء مكة الأشراف من مكوس بل كان يدفع ضريبة لخلفاء مصر الفاطميين ، فقد ذكر ابن المجاور أن الفاطميين كانوا « يوزنون المغاربة جزية على كل رأس دينارين وقيراطين »(١٨٤).

أما الحاج العراقي والحاج الشامي فالظاهر أنهم كانوا يقدمون مبلغا مقطوعا من المال عوضا عن المكس ، وكان يتولى أمير الحج جمعه منهم ثم يعطيه لأمير مكة(١٨٥)، هذا عدا الصلات التي كانت تصل الى جيب شريف مكة من الحكومات القائمة ، فاذا لم يصل اليه ما يرضيه من الحجاج تعرضوا لغضبه(١٨٦) .

هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد كان أمير جدة يتمتع ـ كما يظهر ـ بصلاحية اعفاء بعض العلماء والشخصيات البارزة من المكس المفروض على الحجاج القادمين عن طريق ميناء جدة ، فقد

(١٧٦) نفس المكان .
(١٧٧) نزهة المشتاق ، ص ١٠٥ .
(١٧٨) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ٤٨ .
(١٧٩) قيل بان منشا دية الكلب يعود الى ان احد كلاب جده اخذ رغيفا من الحجاج المغاربة فالتاموا عليه وقتلوه ، فهب الجنود لنصرة الكلب وبطشوا بالمغاربة ، فلما راوا الهلاك افروا على انفسهم بدفع دينار من كل واحد منهم كدية للكلب ، فبقيت تلك الدية رسما ثابتا على كل مغربي يصل الى جده . انظر : ابن المجاور ، نفس المصدر ، ص ٤٨ .
(١٨٠) نفس المكان .
(١٨١) دحلان ، خلاصة الكلام ، ص ٢١ .
(١٨٢) الفاسي ، العقد الثمين ، جـ١ ، ص ٣٤٩ ، جـ٣ ، ص ٢٧٤ .
(١٨٣) الرحلة ، ص ٥٤ـ٥٥ .
(١٨٤) تاريخ المستبصر ، ص ٤٩ .
(١٨٥) ابن فهد ، اتحاف الورى ، حوادث سنة ٤٤٦هـ .
(١٨٦) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٥ .

ذكر ناصر خسرو « أنه ذهب الى أمير جدة فاكرم وفادته وأعفاه عما كان يجب عليه من المكس [١٨٧] » .

أما المكوس على التجارة فكانت تجبى بالدرجة الأولى في مينائي مكة المكرمة الرئيسيين وهما جدة والسرين ، فقد كان لهذين الميناءين رسم على جميع البضائع والمراكب الصاعدة والنازلة[١٨٨]، كما كانت تجبى المكوس على البضائع الداخلية في مواقع معينة بالقرب من جدة ومكة[١٨٩].

على أن ميناء جدة كان يشكل الركيزة الأولى في دخل مكة من الضرائب في تلك الفترة فقد ذكر المقدسي : أنه كان « يؤخذ بجدة من كل حمل جمل حنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة ، وعلى سفط ثياب الشطوى ثلاث دنانير، ومن سفط الدبيقي ديناران »[١٩٠].

وهذه المكوس التي كانت تؤخذ على البضائع تعتبر مكوسا معتدلة اذا ما قورنت بتلك التي كانت تؤخذ على الحاج ، كما أن هذه المكوس التي كان يدفعها التجار بميناء جدة من شأنها أن تؤمن لهم الطريق الى مكة المكرمة ، وبالتالى فهي تحقق لهم الحماية والخفارة سواء أقاموا بجدة أو انتقلوا منها الى مكة المكرمة .

أما البضائع والأرزاق التي كانت تصل الى جدة أو مكة من الداخل فكانت تخضع أيضا للمكوس . وكانت هناك أماكن تسمى المراصد ترصد البضائع خارج المدن حتى اذا مرت بها في طريقها الى المدن أخضعتها للضرائب ، فقد ذكر المقدسي : مرصدين أحدهما بالقرين والثاني ببطن مر . وكان يؤخذ على كل حمل جمل في هذين المكانين مبلغ نصف دينار[١٩١] ، وهذه المراصد شبيهة بما كان مستخدما في الحجاز وتهامة حتى عهد قريب ، حيث كانت توضع نقاط عند مداخل المدن الغاية منها جباية الضرائب والرسوم على السلع المحلية التي يجرى تسويقها الى المدن ، وكانت تعرف الى عهد قريب باسم المراسم ، وصاحبها باسم المرسّم .

هذا الى أن هذا المكس لم يلبث أن تضاعف في عهد الأمير محمد بن أبي هاشم أمير مكة ، فقد أصبح يؤخذ على كل حمل جمل يجتاز القرين مبلغ دينار علوية ، والظاهر أنه كان يشتط في أخذها ، فقد ذكر ابن المجاور أن الأمير هاشم كان يوقف في هذا الموضع رتبة خيل يعترضون القوافل في الطرق ، وكان لهم على كل جمل دينار علوية[١٩٢].

وقد كانت بالقرين حصن مربع مبني بالحجر والجص ويقع على أكمة مرتفعة ، وقد بني على دوره ثلاثة عشر برجا صغارا[١٩٣] ، والظاهر أن هذه الأبراج التي كانت تحيط بالحصن كانت لمراقبة القوافل التي تحاول أن تتحاشى المرور على هذا الحصن في طريقها الى مكة أو جدة تفاديا لدفع المكس .

أما القوافل القادمة من الطائف الى مكة المكرمة فقد كان يؤخذ على كل حمل حب مدّ مكى وربع المد[١٩٤]، ويجري على القوافل القادمة من وراء الطائف من ناحية الجنوب ما يجرى على نظيرتها التي كانت تأتي من الطائف فقد كان يؤخذ مد مكى وربع على القوافل القادمة من بجيلة[١٩٥].

---

(١٨٧) الرحلة ، ص ١٢١ .
(١٨٨) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٣ . الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٤ .
(١٨٩) المقدسى ، احسن التقاسيم ، ص ١٠٤ .
(١٩٠) نفس المكان .
(١٩١) نفس المكان .
(١٩٢) تاريخ المستبصر ، ص ٤١ .
(١٩٣) نفس المكان .
(١٩٤) غازى ، افادة الانام ، جـ٢ ، ص ٦٦٣ .
(١٩٥) نفس المكان .

أما في السرين فكان لصاحبها من قبل أمير مكة رسوم معلومة على المراكب الصاعدة والنازلة بالتجارات والمتاع والرقيق من اليمن وغيرها(١٩٦)، فكان يأخذ على كل حمل جمل دينارا وعلى سلة الزعفران دينارا ، وعلى كل رأس من الرقيق مثل ذلك(١٩٧).

وكانت عائدات هذه الرسوم التي تؤخذ من ميناء السرين تذهـب مناصفة بين واليها وبـين شريف مكة « بحيث يظل نصفها الى صاحب تهامة ونصفها الثاني الى صاحب مكة الهاشمي »(١٩٨).

أما عائدات جدة فلم تشر المصادر التي بين أيدينا الى أن واليها كان يأخذ منها شيئا « بل ان امير مكة كان ينفرد باخذ متحصل جدة جميعه لا يشاركه فيه أحد »(١٩٩). وربما كان عامل جدة يأخذ قدرا مخصصا مقابل جباية هذه المكوس ، ونظره في شئون البلـد اذ أن وظيفته كانـت الى جانب جباية المكوس النظر في أعمال جدة(٢٠٠).

وكانت بدعة المكس بدعـة مشينة أثارت سخط كثير من العلماء والحجاج على حد سواء فقد أبطل الوزير علي بن عيسى في مطلع القرن الرابع المكـس الذي كـان يؤخـذ على الحجـاج بمكـة المكرمة(٢٠١).

وعندما فرض القرامطة مكسا على الحجاج العراقيين سنة ٣٢٧هـ كان فيهم أبو علي بن هريرة وهو من أئمة الشافعية ، فلما طالبوه بذلك ثنى رأس راحلته ورجع وقال : ما رجعت شحا ولكن سقط عني الوجوب بطلب هذه الخفارة(٢٠٢)، أو قال بطل الحج .

وفي حين أن ابن جبير صب جام غضبه على أمير مكة ، وطالب بايقاف ما كان يأخذه من الحجاج بالقوة بل وابعاده عن امارة مكة قائلا : « فأحق بلاد الله بـأن يطهرهـا السيف ويغسل أرجاسهـا وأدناسها بالدماء المسفوكة في سبيل هذه البلاد الحجازية لـما هم عليـه مـن حـل عرى الاسلام واستحلال أموال الحجاج ودمائهم »(٢٠٣)، بل لقد ذهب الى أبعد من ذلـك فاحتج بقول مـن يرى اسقاط الحج على أهل الأندلس(٢٠٤)، امام كل هذا نجـد أن الادريسي يلتمس العذر لشريـف مكـة فيقول « وهذا المكس يأخذه صاحب مكة فيربعه في أرزاق أجناده اذ أن منابعه قليلة وجباياته لا تفي بلوازمه ورزق من معه »(٢٠٥). وهذا الرأي للادريسي يمثل الموقف العباسي اذ أن الخلفاء العباسيين كانوا يعلمون أن المكوس تؤخذ على الحجاج بجدة منذ بداية القرن الرابع ، وانما تركوا الحرية في ذلك للأشراف لوقوفهم على حاجة مكة للأموال ولما كانت تعانيه امارتهم من ضعف(٢٠٦).

أما المقريزي فاعتبر أن المكس لا يحل تناوله ولا الأكل منه . وأن الآكل منه فاسق لا تحل شهادته(٢٠٧). ويبدو لي أنه يجب التفريق بين المكوس التي تؤخذ على التجارة ، وتلك التي تؤخذ على الحجاج ، ذلك لأن مكس التجارة كان سائدا حينذاك في جميع أنحاء العالـم الاسلامـي وكان أشراف مكة قد اعتبروا أنفسهم منذ مطلع القرن الرابع الهجري مستقلين بامارتهم في مكة المكرمة وانهـم يتمتعون بجميع المقومات التي تتمتع بهـا الدول المستقلـة ، كفرض الضرائـب والمكوس وجبايـة

(١٩٦) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٠٦ .
(١٩٧) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٣٣ .
(١٩٨) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ورقة ١٠٦ .
(١٩٩) السليمان ، النشاط التجاري ، ص ١٠٤ .
(٢٠٠) الحميري ، الروض المعطار ، ورقة ٨٧ ، الادريسي ، المصدر السابق ، ورقة ١٠٦ .
(٢٠١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٢ .
(٢٠٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ٢٧٢ .
(٢٠٣) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٥ .
(٢٠٤) نفس المكان .
(٢٠٥) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ورقة ١٠٥ .
(٢٠٦) السليمان ، النشاط التجاري ، ص ١٠٤ .
(٢٠٧) السليمان ، العلاقات ، ص ١٦٨ ، المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ، ورقة ٩٧٣ .

الزكاة من رعاياهم الى غير ذلك ٠

أما جباية المكوس من الحجاج فهي ولا شك بدعة مشينة ، وعمل غير مستحسن خاصة وأنها كانت مبالغا فيها سواء من حيث مقدارها وطريقة جمعها، أو ما كان يصاحبها من قسوة واشتطاط، وكان من المفروض أن يستفاد من الحجاج في انعاش الاقتصاد المكي بطرق غير مباشرة ، وذلك عن طريق بناء الفنادق لهم وتأمين وسائل النقل ونحوها ٠

الفصل الثاني

التجارة الخارجية

أ ـ التجارة البحريـة

● تجارة مكة في البحر الأحمر ● الأهمية العالمية لميناء جدة ● تجارة مكة في وثائق الجنيزا ● ميناء السرين

ب ـ تجارة مكة البريـة

● صناعة الجلود وتجارتها

أ ـ التجارة البحريـة

تجارة مكة في البحر الأحمر

يمثل البحر الأحمر ذلك الشريط الضيق الذي يفصل بين آسيا وأفريقيا ، ويقع في أخدود ممتد من جنوبي سوريا الى تنجانيقا بمسافة طولها ١٥٠٠ ميلا [١] ، وهـذه التسميـة (البحر الأحمر) هي اختصار لاسمه القديم ، فقد كان يسمى بحر الملك الأحمر Erythraean ثم اختصر اسمه الى البحر الأحمر [٢] . أما المؤرخون المسلمون فقد أطلقوا عليه تسميات مختلفة [٣] ، لعل من أهمها تسميته ببحر الحجاز [٤] .

وكان السفر في هذا البحر خاضعا لهبوب الرياح الموسميـة الجنوبيـة ولريـاح البحر المتوسط الشمالية وتبعا لذلك فقد كانت الملاحة من الشمال الى الجنوب فقط في فصل الصيف ومن الجنوب الى الشمال في فصل الشتاء [٥] ، فقد ذكر ابن ماجد أن خير أوقات الخروج من باب المندب وعدن هو أول مايو من كل عام [٦] . وذكر ناصر خسرو أنه مكث في ميناء عيذاب ثلاثـة أشهر بسبب عدم اقلاع السفينة انتظارا لهبوب الريـاح الجنوبيـة [٧] . وقـال المسعودى : ان التجار والبحارة المسلمين كانوا على دراية بطبيعة هذا البحر ، وكانت لهم فيه تجارب كثيرة ودلائل

---

(١) القوصي ، عطية ، تجارة مصر في البحر الأحمر ، ص ٧ .
جاء في مروج الذهب للمسعودي ، جـ١ ، ص ١١٠ أن طوله ١٤٠٠ ميلا

(٢) Schoff, The Peripulus of the Erythraean Sea, London (1912), p. 50.

(٣) لمعرفة هذه التسميات انظر : ابن الفقيه ، البلدان ، ص ٧ ، ٦٤ . ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٢٧ . المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٨ . المسعودى ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ ، القلقشندى ، صبح الأعشي ، جـ٣ ، ص ٢٤١ .

(٤) أنظر : أبو شامة ، الروضتين في اخبار الدولتين ، القاهرة ، (١٢٨٧هـ) ، جـ٢ ، ص ٣٥ ، ٣٧ . ابن واصل ، مفرج الكروب ، تحقيق الشيال ، القاهرة (١٩٥٧م) جـ٢ ، ص١٣٠ ، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤ ، ص١٠٩ .

(٥) القوصي ، المصدر السابق ، ص ٩ .

(٦) كتاب الفوائد ، ص ٣١٠ .

(٧) الرحلة ، ص ٧٣ .

وعلامات يرثها الابن عن أبيه قولا وعملا [٨] .

وكانت مخاطر البحر الأحمر تكمن في الشعاب المرجانية والصخور الناتئة التي تملأ سواحله، وكذلك في وجود دوامات مخيفة في أماكن متفرقة منه . هذا الى جانب العواصف التي كانت تجتاحه [٩] والتي كثيرا ما كانت تؤدى الى تصدع السفن واغراقها [١٠].

وقد أدت هذه المخاوف الطبيعية الى وضع المصاحف والأحجبة في السفن تبركا بها ، وكانت تكتب على جدران السفينة بعض العبارات تيمنا بها مثل (بسم الله مجريها ومرساها [١١]) . كما كانت عملية الابحار والاقلاع تخضع في أحيان كثيرة للاستخارة فالاستخارة عند المسلمين كانت تتوقف عليها رحلات كثيرة [١٢].

ولم تكن المخاطر الطبيعية وحدها هي التي تهدد الملاحة في البحر الأحمر بل كانت هناك مخاطر تتهدد التجار والمسافرين من جانب القراصنة الذين ملأوا هذا البحر طوال العصور الوسطى [١٣] . وكانت القرصنة شائعة في تلك العصور . وكانت سلاحا بالنسبة لبعض الحكام المسلمين والمسيحيين على حد سواء يستخدمونه ضد الأعداء فكانوا يشجعون القراصنة ويعطونهم رواتب وامتيازات خاصة اذا ما عملوا لحسابهم [١٤].

وقد كان هؤلاء القراصنة يهددون حرية المسافر ويبيعونه في أسواق الرقيق فيفقد حريته كما يفقد بضاعته والبضاعة المؤتمن عليها ، هذا فضلا عن تعرضه للضرب والتعذيب [١٥]، وقد أورد لنا المؤرخون والجغرافيون العرب روايات كثيرة عن هذه الكوارث والخسائر التي حلت بالسفن والمسافرين عبر هذا البحر [١٦] وكذلك وردت بعض الاشارات عن تلك المخاطر أيضا في وثائق الجنيزة [١٧] .

أما نوعية السفن التي كانت تستخدم للملاحة في هذا البحر فكانت تعرف بالجلاب [١٨]، وقد أورد ابن جبير معلومات قيمة عن كيفية صنع هذه الجلاب وأن المسامير لا تدخل في بنائها [١٩]، وقد علل المسعودى ذلك بالخوف من أن يأكلها الصدأ في مياه البحر [٢٠] ، وقال غيره أن السبب في ذلك هو الخوف من تأثر هذه المسامير بجذب جبال المغناطيس لها [٢١] .

(٨) المصدر السابق ، ص ١١٣ .
(٩) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٥٧ .
(١٠) نفس المكان .
(١١) Goitien, S.D., A. Mediterranean Society, NewYork (1967), I , pp. 323-324.
(١٢) Ibid., p. 346. القوصي ، عطية ، تجارة مصر ، ص ١٢ .
(١٣) القوصي ، نفس المصدر ، ص ١٠ .
(١٤) نفس المكان .
(١٥) Goitien, op. cit, P. 329.
(١٦) ابن عبد الرحيم ، محمد ، تحفة الألباب ، مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس ، رقم ٢١٦٧ ، ورقة ٧٢ .
(١٧) اقرأ عن وثائق الجنيزة : عطية القوصي ، تجارة مصر ، ص ١١ وما بعدها ، ربيع ، حسنين ، بحث مقدم للندوة العالمية الأولى للدراسات تاريخ الجزيرة العربية الذي نظمته كلية الآداب بجامعة الرياض وعنوان البحث . وثائق الجنيزة واهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانىء الحجاز واليمن في العصور الوسطى ، ص ٥ وما بعدها Goitien, S.D., Studies in Islamic History and Institutions, Leiden (1968), pp. 279-282.
(١٨) الرحلة ، ص ٤٧ .
(١٩) نفس المكان .
(٢٠) مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٣٦ . متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ٢ ، ص ٤٢٧ .
(٢١) متز ، نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٤٢٨ .

وقد جرت العادة أن يكون جميع الركاب على ظهر السفينة قبل اقلاعها بيوم واحد . وتسمى الليلة التي تسبق الرحيل ليلة الوداع ، وكانت تلك الليلة تقضى في الدعاء والصلاة [٢٢]. وعندما تكون الريح شديدة يقضى الركاب ليال عديدة على ظهر السفينة قبل الرحيل انتظارا لسكونها [٢٣]. وقد ذكر ابن جبير أن الجلبة التي أقلته من عيذاب في طريقه الى مكة وقفت يوما بأكمله أمام ميناء جدة لا تستطيع الدخول فيه بسبب قوة الريح [٢٤].

وكانت لامارة مكة في الفترة التي ندرسها ميناءان على ساحل البحر الأحمر أحدهما جدة والآخر الى الجنوب منها بمسافة خمس أو ست مراحل وهو ميناء السرين ، الا أن جدة كانت من أعظم الموانيء الحجازية على الاطلاق [٢٥].

وجدة هي الميناء الرسمي لمكة المكرمة ، وتقع الى الغرب منها والمسافة بينهما اربعون ميلا [٢٦]، وهي تستغرق مرحلتين [٢٧] بوسائل النقل المعروفة آنذاك . كما أن جدة مدينة قديمة يذكر بعض المؤرخين أن أول من شيدها هم الفرس [٢٨]، وقد اتخذها ملوكهم مركزا تجاريا [٢٩]، كما يذكر آخرون أن أهل سلمان الفارسي لما سمعوا خبر اسلامه قصدوه واسلموا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكنوا جدة لأنهم كانوا تجارا [٣٠] ثم جعلوا حولها سورا وخندقا وأنها تخربت بعد أن تركوها [٣١].

أما عن قدم هذه المدينة وعن اتخاذها ميناء من قبل التجار الفرس في عهد مجدهم فهذا مما لا نستطيع نفيه يؤيد ذلك ما ذكره ابن جبير أنه شاهد بجدة « آثارا قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة وأثر سورها المحدق بها باق الى اليوم » [٣٢]، ويورد الخضراوى أيضا « أن بجدة رسوما قديمة تدل على قدم اختطاطها » [٣٣]. هذا الى أن نسبة البحر الأحمر الى أحد ملوك الفرس وهو الملك الأحمر Erythraean كما جاء في أسطورة فارسية تنسب البحر الأحمر الى هذا الملك الذي عاش في أيام امبراطورية ميديا [٣٤] تجعلنا نعتقد بأن مدينة جدة كانت مدينة قديمة وانها من بناء التجار الفرس الذين سكنوها قديما وظلت آثارهم باقية على أرضها بعد أن هجروها عندما ضعفت الامبراطورية الفارسية ، وتبعا لذلك انحطت مكانة جدة وتقوضت رقعتها حتى لقد وصفت بأنها كانت قبل الاسلام قرية صغيرة من قرى الحجاز [٣٥].

---

(٢٢) القوصي ، عطية ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٢٣) نفس المكان .

(٢٤) الرحلة ، ص ٥١ .

(٢٥) الهاشمي ، غريب بن عجيب ، سياحتي الى الحجاز ، القاهرة (١٩١٥م) ، ص ٦٩ .

(٢٦) صفة الأقاليم الاسلامية . (المؤلف مجهول) ، ورقة ١٢ .

(٢٧) القلقشندى . صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٥٨ .

(٢٨) العميرى ، الروض المعطار ، ورقة ٨٧ . الخضراوى ، احمد بن محمد ، الجواهر المعدة من فضائل جدة ، مخطوطة بمكتبة النصيف بجدة ، ورقة ٧ . ابن فرج عبد القادر بن احمد ، السلاح والعدة في تاريخ جدة ، مخطوطة مصورة في مكتبتي ، ورقة ٥ .

(٢٩) العميري ، انظر قبله .

(٣٠) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٤٢ .

(٣١) ابن فرج ، المصدر السابق ، ورقة ٦ .

(٣٢) الرحلة ، ص ٥٣ .

(٣٣) الجواهر المعدة ، ورقة ٧ .

(٣٤) Schooff. The Periplus of the Erythraean Sea, p. 50-51.

(٣٥) الهاشمي ، سياحتي الى الحجاز ، ص ٦٩ . اما نسبة هذه المدينة الى سلمان الفارسي واسرته فهذا ما لا اعتقد بصحته . ذلك ان سلمان الفارسي جاء الى المدينة مسترقا وبيع لأحد يهود بني قريظة فيها ولم يسلم في مكة وانما أسلم في المدينة المنورة . وانه بقى في الرق لعجزه عن شراء نفسه حتى أعانه المسلمون على التحرر من الرق ، ولو كان في عصبة قوية من بني جنسه كأولئك الذين يستطيعون تشييد المدن ويعتقدون معتقده لاستطاعوا تحريره من الرق ، ولجاء ذكرهم في احاديث النبي صلى الله عليه وسلم . هذا من جهة ومن جهة

ومهما يكن الأمر فقد اتخذت جدة ثغرا لمكة سنة ٢٦ في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وكان ميناء مكة قبل ذلك هو الشعيبة ، وهو خور عظيم يقع الى الجنوب من جدة مقابل وادي المحرم [٣٦].

ومنذ ذلك التاريخ أخذت جدة في الازدهار فاتسعت رقعتها وازدادت عمارتها الى أن غدت من أعظم ثغور الحجاز [٣٧] ، واصبحت الميناء الرسمي لمكة المكرمة ، لأنها قريبة منها وقريبة أيضا من المناطق الجنوبية بشبه الجزيرة العربية ، ولا سيما ميناء عدن ، وأقرب الى الهند من الموانيء الشمالية في البحر الأحمر [٣٨] . هذا فضلا عن اتساع مينائها عن غيره من موانيء الثغور الحجازية [٣٩] ، وكذلك قربها من عيذاب وقوص اللذين ازدهرا في العصر الفاطمي ، وأسهما بدرجة ملحوظة في التجارة الدولية حينذاك [٤٠] . وهكذا اجتمعت كل هذه العوامل لتجعل ميناء جدة يستقطب تجارة البحر الأحمر لعدة قرون منذ انشائه وحتى نهاية العصور الوسطى [٤١].

وتزدحم جدة بالسكان والمتاجر في أيام الحج لأنه « يلتام اليها من جميع أطراف بلاد العالم ... من مصر والمغرب والهند » [٤٢]. غير ان أعظم المشاكل التي كانت تواجه سكان جدة هي الحصول على الماء حيث لا توجد بها آبار لسقيا السكان والحجاج ، لذلك استعاضوا ببناء صهاريج كثيرة داخل البلد وخارجها [٤٣]، فقد أورد ابن المجاور أسماء كثيرة لتلك الصهاريج [٤٤] التي كانت تملأ بماء المطر فيظل الماء المتجمع بها من العام الى العام [٤٥] وهم « في أكل وشرب وغسل وجد وهرج » [٤٦] أما اذا نفد هذا الماء أو نقص مقداره فانهم يجلبون كفايتهم من القرين وهي على نصف مسافة الطريق ما بين مكة وجدة [٤٧].

ومعظم بيوت جدة مبنية من الحجر البحري والجص [٤٨] الى جانب خشب الساج والأبنوس الجيد ، وهي على أربع طبقات أو خمس ، وفي دورها مراحل للماء ، وفي أعلى منازلها قباب محكمة [٤٩] ، كما توجد بها بعض البيوت المبنية بالأخصاص [٥٠] ، هذا فضلا عن وجود بعض الفنادق

ثانية تصور الرواية انهم جاءوا الى جدة ليكونوا بالقرب منه ، ولو كان كذلك لاقاموا بينبع أو بالجار ، وهما اقرب الى المدينة . لأن سلمان أسلم بها ، ولم يسلم بمكة ، وحتى بعد اسلامه لم نسمع عنه انه كان في عصبة قوية من بني جنسه بل كان وحيدا الأمر الذي جعل كلا من المهاجرين والأنصار يختلفون في طلب ولائه . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم حسم الخلاف عندما قال : « سلمان منا أهل البيت » . وقد بقي سلمان في ضنك وتقشف حتى انتقاله الى الرفيق الأعلى وهو في ولاية المدائن بعد فتح بلاد فارس .
انظر : المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ٣١٤ـ١٥ . الزركلي : الأعلام ، جـ٣ ، ص ١٦٩ـ٧٠ .
Al- Wohaibi. Nor.. Hijaz. p. 91.

---

(٣٦) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٤٢ .
(٣٧) الهاشمي ، سياحتي الى الحجاز ، القاهرة (١٩١٥م) ، ص ٦٩ .
(٣٨) السليمان ، النشاط التجاري ، ص ٩٧ .
(٣٩) السليمان ، العلاقات الحجازية ، ص ١٩٢ .
(٤٠) القوصي ، تجارة مصر ، ص ٩٥ .
(٤١) السليمان ، النشاط الاقتصادي ، ص ٩٧ .
(٤٢) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٥٢ .
(٤٣) نفسه ، ص ٤٣ . ابن جبير ، الرحلة : ص ٥٢ـ٥٣ .
(٤٤) المصدر السابق ، ص ٤٣ـ٤٥ .
(٤٥) نفس المصدر ، ص ٤٥ .
(٤٦) نفس المكان .
(٤٧) نفس المصدر ، ص ٥٢ .
(٤٨) نفس المكان .
(٤٩) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٨٧ .
(٥٠) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٣ .

المبنية بالطين والأحجار(٥١) ، وعدد من الخانات الكبيرة داخـل البلـدة وخارجهـا (٥٢) وتوصف أسواق جدة في هذه الفترة بأنها أسواق جميلة، وأن سكانها «مياسير وذوو أموال واسعة ولهم مواسم قبل وقت الحج مشهورة بالبركة تنفق فيها البضائع المجلوبة والأمتعة ، وليس بعد مكة من مدن الحجاز أكثر من أهلها مالا » (٥٣).

ويحكم جدة والٍ يعينه شريف مكة فهو ينوب عنـه فـي ادارة شئون البلـد والاشراف على تجارتها وجباية الرسوم بها، ويستقبل الشخصيات البارزة أو ذات الطابع الرسمي التي تصل اليها عن طريق البحر ، فقد نزل ابن جبير بدار القائد على صاحب جدة من قبل أمير مكة (٥٤) وذكر ناصر خسرو أن أمير جدة من قبل تاج المعالي بن أبي الفتوح قد أكرم وفادته واعفاه مما كان يجب عليه من المكس(٥٥) مما يدل على أنه كان يتمتع بصلاحيات خولت له من أمير مكة في هذا المقام ·

الأهمية العالمية لميناء جدة

لقد كان لموقع جدة المتوسط من موانيء الحجاز ولقربها من عدن والهند · ثم قربها من مكة المكرمة ، حيث تقوم سوق نشطة في مواسم الحج والاعتمار أكبر الأثر في أن تقوم على تجارة عريضة مع الموانيء العالمية في حوض البحر المتوسط · وعدن ، بل ان تجارة جدة وصلت الى الهند والصين (٥٦)، على أن تجارتها مع موانيء البحر الأحمر ولا سيما المصرية منها وصلت فـي هذه الفترة الى درجة طيبة من النجاح ·

فقد كانت البضائع تجلب من الموانيء الأوروبية المختلفة الى الاسكندرية والفرما ثم منها الى الحجاز (٥٧) ، وكانت الفرما حلقة اتصال بين موانيء البحر المتوسط والبحر الأحمر وهي محطة لتجار أوروبا وسورية (٥٨) ، فقد قال عنها المقدسي « بأنها كانت على ساحل بحر الروم ، وأنها كانت مجمع الطرق » (٥٩) · وكانت البضائع تحمل منها على الجمال الى القلزم ومنها الى الجار وجدة (٦٠) وغيرها من موانيء الشرق ، كما كانت الفرما مسلكا للتجار اليهود الراذانية الذين قال عنهم ابن خرداذبه « أنهم يتكلمون العربية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلية وأنهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون مـن فرنجة فـي البحر العربـي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم وبينهمـا خمسة وعشرون فرسخـا ثـم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجدة ثم يمضون الى السند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني (القرفة) وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ثم يركبون في البحـر العربـي فربمـا عـدلوا بتجـارتهـم الى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها الى ملك الفرنجة فيبيعونها هناك » (٦١) ·

(٥١) نفس المكان ·
(٥٢) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ص ٥٢ ·
(٥٣) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٨٧ · الذويب ، الجغرافيون العرب ، ص ٩ ·
(٥٤) الرحلة ، ص ٥٣ ·
(٥٥) الرحلة ، ص ١٢٠ ·
(٥٦) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ١٥٣ ·
(٥٧) نفس المكان ·
(٥٨) القوصي ، تجارة مصر ، ص ٣٢ ·
(٥٩) احسن التقاسيم ، ص ٩١-٩٢ ·
(٦٠) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ١٥٣ ·
(٦١) نفس المصدر ، ص ١٥٣-٥٤ ·

وهكذا استطاع هؤلاء التجار اليهود (الراذانيــة) السيطرة على تجــارة الشرق عبر البحر الأحمر ، والاستفادة من موانئه في الحجاز ومصر في تصريف تجارتهم ، وذلك بسبب وحدة العالم الاسلامي وعدم وجود أية صعوبة في التنقل في أقطاره [٦٢] .

كما استطاعت جدة أن تجتذب التجارة الأندلسية والأوروبية وتجارة شمال افريقيا فقد جاء في وثائق الجنيزا أن التجار القادمين من المغرب والأندلس اعتادوا بيع متاجرهم من الحرير والنحاس وغير ذلك من منتوجات بلادهم · في المدن الشامية والمصرية ، ولكن اذا حدث ولم يصادف هؤلاء التجار نجاحا أو سوقا تجارية لبضائعهم ، اتجهوا بمتاجرهم الى ميناء جدة حيــث يجدون سوقــا رائجة لتجارتهم [٦٣] ·

وكانت القلزم من أهم الموانيء المصرية ذات الصلة التجارية بموانيء الحجاز ، وهي تقع على الطرف الشمالي للبحر الأحمر وهــي من الموانيء المصرية القديمة ، الا أنها ازدهرت بعد الفتــح الاسلامي وأصبحت ميناء مصر الرئيسي في البحر الأحمر [٦٤] ، وقــد ساعد اعــادة حفر خليج أمير المؤمنين الواصل بين الفسطاط والقلزم الى زيادة أهمية هذا الميناء نظرا لما يقوم به من الوصل بين مصر والحجاز [٦٥] ، وقد تقدم أن التجار الأوروبيين كانوا يفدون الى القلزم من الفرما ثم يبحرون الى جدة للتجارة والتموين ومنها يتجهون الى عدن في طريقهــم الى الهنــد · وذكر اليعقوبــي أن « القلزم مدينة ساحلية على ساحل البحر عظيمة فيها التجار الذيــن يجهزون الميرة مــن مصر الى الحجاز والى اليمن » [٦٦] ، كما ذكر أن سكانه من التجار الأغنياء [٦٧] ، وجاء عن المقدسي أنه كان يرسل من القلزم ما لا يقل عن حمولة ثلاثة آلاف جمل محملة بالبضائع [٦٨] ، وذكر أنها خزانة مصر وفرضة الحجاز ومعونة الحاج [٦٩] ، كما كانت قوافل الغلال وأغلبها من مشتول الطواحين تسافر الى الحجاز عن هذا الطريق » [٧٠] ·

وقد استمرت القلزم في أهميتها التجارية بين مصر والحجــاز حتــى نهايــة القرن الرابع الهجري [٧١] ·

وكانت الفسطاط عاصمة مصر من أهم المدن التجارية آنذاك ، وكان لها نفوذ سياسي شبه

---

(٦٢) Goitein, *Jews and Arabs*, New York (1955), p. 150. A Med. Soc. I, 214.

(٦٣) ربيع : **وثائق الجنيزه** ، ص ١٥ ·

(٦٤) القوصي ، **تجارة مصر** ، ص ٣٧ ·

(٦٥) نفس المكان ·

ويعود حفر هذه القناة الى الفراعنة ثم اخذت تهمل حينا ويعاد حفرها حينا آخر ، وعندمــا فتح المسلمون مصر اهتموا باعادة حفرها ، ويذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب امر بحفر هذه القناة التي عرفت فيما بعد باسم خليج أمير المؤمنين وذلك تسهيلا لحمل الطعام من مصر الى مكة والمدينة · وكــان ذلـك على اثر الشدة التـي أصابت الناس بالحجاز في عام الرمادة ، وقد استغرقت مدة الحفر ستة اشهر ووصلت المؤن في الشهر السابع من بداية الحفر وسار في هذا الخليج أول أسطول من عشرين سفينة تحمل الحبوب الى المدينة ، وكانت حمولة المركب الواحد ثلاثة آلاف اردب · أنظر : ابن دقماق ، **الانتصار** ، جـ١ ، ص ١٣٠ · القلقشندي ، **صبح الأعشى**، جـ٣ ، ص ٢٩٨ ·

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London (1901), p. 20.

ابن عبد الحكم ، **فتوح مصر** ، ص ١٦٤ ، دده ، رسالة المقام ، ورقة ٢٨ ·

(٦٦) **البلدان** ، ص ٣٤٠ ·

(٦٧) نفس المكان ·

(٦٨) **احسن التقاسيم** ، ص ١٩٦ ·

(٦٩) نفس المكان ·

(٧٠) البراوي ، **حالة مصر** ، ص ٢٨٨ ·

(٧١) القوصي ، المصدر السابق ، ص ٣٧ ·

رسمي على مكة في عهد الأخشيديين في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (٧٢)، ومنها كانت ترد المؤن والاعانات الى مكة المكرمة (٧٣) .

وقد تقدم أن الأخشيديين كانوا حريصين في السيطرة على مكـة والخطبة لهـم بها ، وقـد جرهم ذلك الحرص الى الدخول في صراع حربي في مكة مع منافسيهم من الأمراء البويهيين ولا شك أن السمعة الدينية والنفوذ السياسي كانا يقفان وراء تلك الحروب ، الا أن الدكتور عطية القوصي يعطي تفسيرا اقتصاديا لحرص الأخشيديين في السيطرة على مكة فيقول ـ بعد أن يتكلم عن السيطرة الأخشيدية على الحجاز ـ « واذا جاز لنا أن نستنتج في مجال بحثنا ، وهو يهتم في المقام الأول بتجارة مصر الاسلامية ، أنه ليس من المستبعد أن يكون الأخشيديون ، ومن قبلهـم الطولونيون قد سعوا من وراء تحقيق سيادتهم على بلاد الحجاز الى حماية طريق تجارة المرور في البحر الأحمر ، وهذه الحماية يستطيع أن يكفلها لهم أمراء الحجاز اذا هم دانوا لهم بالولاء » (٧٤) .
ومع اعتقادنا بوجهة النظر هذه الا أنها لا ترقـى الى الـرأي السائـد ، وهو أن السيطـرة الأخشيدية على مكة كانت الغاية منها السمعة الدينية في العالم الاسلامي والشهادة لهم بالسلطان الواسع الذي حققوه ، يتضح هذا من مكاتبة محمد بن طغج الاخشيدي للامبراطور البيزنطي والتي يفخر فيها بأن له السيادة على مكـة المكرمة كما سبق الاشارة الى ذلك (٧٥) .

ومهما يكن الأمر فقد انقرضت الدولة الأخشيدية ، واضمحل شأن الفسطاط وحلت محلها القاهرة المعزية في عهد الفاطميين الذين لم يلبثوا أن مـدوا نفوذهـم الأدبـي والسياسي على مكـة المكرمة ، ودخل اقتصادها في مرحلة جديدة سواء فيما يتعلق بالاعانات والصدقات التـي كانـت تصل اليها سنويا مع قافلة الحج المصري ، أو فيما يتعلق بالمتاجرة بين مكة وجدة من جهة والدولة الفاطمية وموانئها الجديدة في عيذاب والقصير وقوص من جهة أخرى ، وكذلك استخدام الخلفاء الفاطميين لميناء جدة كخطوة أولى للتجارة المصرية مع الشرق ، هذا الى جانب استفادتهم من خبرة التجار الحجازيين ، وصلاتهم بعدن والهنـد ، والصين في تامين بعض مـا يحتاجونـه ، فقد ذكر المقريزي « أن المعز أنفذ الى ابن السوادكي فقال « من لك بالحجاز من التجار تكاتبه ، اكتب الى من تراه منهم بأن يكتب الى عدن يحمل ما يقدر عليه من خشب الأبنوس الحسن التلميح التام الطول ، والغليظ مما لا غاية وراءه فكتب الى تاجر بمكة ، وأكد عليه ، فما كان الا نحو شهرين حتى عاد جوابه أنه وجد منه ما ليس له في الدنيا نظير ، وحمله في مركب ، فسر بذلك ، وبكر الى المعز فأخبره الخبر وأنه في القلزم » (٧٦) .

هذا وقد قامت في عهد الفاطميين مراكز جديدة كانت ذات تجارة عريضة مع ميناء جدة ولعل في مقدمة هذه المراكز ميناء عيذاب ، فقد لعب هذا الميناء المواجـه لجدة دورا هاما فـي تجارة بلاد الحجاز واليمن (٧٧) ، وقد كان ميناء عيذاب يستخدم في السفر الى مكة والحجاز قبل العهد الفاطمي ولكن بدرجة محدودة (٧٨) ، غير أنها لم تلبث أن أخذت تجذب المتاجر والحجاج بكثرة في القرن الخامس الهجري (٧٩) ، وقد ساعدها على هذا عدة عوامل من أهمها عمق وغزارة مياهها فضلا عن

---

(٧٢) انظر ، الباب السياسي ، ص ٣٢ ـ ٣٧ من هذا البحث .
(٧٣) القوصي ، تجارة مصر ، ص ٣٨ .
(٧٤) نفس المصدر ، ص ٧٦ .
(٧٥) انظر : ص ٣٢ من هذا البحث .
(٧٦) اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ٢٧٧ .
(٧٧) ربيع ، وثائق الجنيزة ، ص ٢١ .
(٧٨) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٣٥ .
(٧٩) البراوي ، حالة مصر ، ص ٢٨٩ .

خلوها من الشعاب المرجانية [٨٠] التي كان يمتلىء بها البحر الأحمر والتي كانت من أكبر الأخطار التي تعترض الملاحة في هذا البحر [٨١] ، هذا الى جانب قربها من جدة بحيث لا تستغرق المسافة بينهما أكثر من يوم وليلة بالريح الطيبة [٨٢].

وقد بلغ هذا الميناء درجة كبيرة من الازدهار في العصر الفاطمي [٨٣]، وقامت بها تجارة واسعة مع جدة لفترة طويلة بحيث ظلت مسلكا للتجارة والحجاج في ذهابهم وايابهم زيادة على مائتي سنة امتدت منذ منتصف القرن الخامس وحتى منتصف القرن السادس [٨٤]، كما كثر استخدامها في ايام الشدة المستنصرية [٨٥]، وكانت تجبى بها الرسوم على البضائع الواردة من الهند واليمن والحبشة والحجاز [٨٦]، وقد بلغت من الازدهار والاستقرار بحيث كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك توجد ملقاة بها دون أن يعترض لها أحد حتى يأتي صاحبها [٨٧]. كما ساعد قرب عيذاب من جدة الى أن الغلات الآتية من الحبشة وساحل أفريقيا واليمن والهند وما بعدها تصل الى عدن اذ هي نقطة ابتداء البحر الأحمر . ثم تنقل منها الى جدة ، ومن جدة تحمل هذه البضائع الى عيذاب [٨٨]، ومن هنا تتضح أهمية ميناء جدة واسهامها بشكل كبير في التجارة الدولية بين الشرق والغرب .

وفي المقابل فقد كانت عيذاب تصدر الغلال المصرية من زراعية وحيوانية الى ميناء جدة ثم منها الى مكة المكرمة ، فقد كانت جمال البجة المشهورة تنقل من عيذاب الى جدة بواسطة السفن [٨٩] استجابة لاحتياجات امارة مكة حيث تساق اليها مباشرة بمجرد وصولها الى ميناء جدة ، ورغم أن مخاليف مكة تشتهر بتربية الابل وتملك ثروة هائلة منها ، الا أننا نرى أنها تستورد جمال البجة عن طريق عيذاب ، والظاهر أن جمال البجة كانت تصدر الى مكة بقصد الذبح تلبية لحاجة سوقها في أيام موسم الحج .

هذا وقد اشتهرت الى جانب عيذاب مراكز تجارية أخرى في مصر كانت ذات صلات تجارية بالحجاز نذكر منها القصير وقفط وقوص ، وقد عظمت أهمية الأخيرة فصارت ملتقى القوافل من الحبشة والحجاز ، وازدادت الحركة بها من الحجاج والتجار المتجهين الى جدة ومكة بعد أن يفوزوا منها بالصحراء الى عيذاب [٩٠] .

أما الشق الثاني لاسهام ميناء جدة في التجارة الدولية فكان عن طريق ميناء عدن ، وعدن من الموانىء القديمة ولكن بداية ازدهارها كان في عهد الأسرة الزيادية حين تحولت تجارة

(٨٠) القوصي ، تجارة مصر ، ص ١١٨ .
(٨١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٢ .
(٨٢) شوكة ، ابراهيم ، ديار العرب من انس المهج للادريسي ، ص ٦٠ .
(٨٣) البراوي ، حالة مصر ، ص ٢٨٩ .
(٨٤) المقريزي ، الخطط ، جـ٥ ، ص ٢٩٩ .
(٨٥) البراوي ، المصدر السابق ، ص ٢٨٩ .
(٨٦) نفس المكان .
(٨٧) المقريزي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .
(٨٨) البراوي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .
(٨٩) ناصر خسرو ، الرحلة ، ص ١١٩ .
(٩٠) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٠-٤١ .

الشرق من الخليج العربي وعادت ثانية الى البحر الأحمر [٩١] ، ومنذئذ أصبحت عدن محط رحال التجار ، وأهم موانيء العالم بسبب ما كان يرد اليها من المراكب الواصلة من الحجاز والهند والصين والحبشة [٩٢]. على أن تجارتها مع الهند والصين بلغت الذروة حتى لقد وصفت « بأنها دهليز الصين » [٩٣] فقد كانت عدن تستقبل البضائع الهندية والصينية وعن طريقها تتجه الى جدة التي أصبحت كما وصفها الحميري « بأنها محط السفن من الهند وعدن واليمن وعيذاب » [٩٤]. وعن طريق عدن وسيراف وغيرها من الموانيء العربية استطاع التجار العرب أن يترددوا على الموانيء الصينية وخاصة ميناء كانتون [٩٥]، وخانفوا والأخير وصف بأنه مجمع التجار [٩٦]، كما أشار المقدسى الى وجود اتصالات بين الصين وجدة عن طريق البحر [٩٧]. وأورد صاحب تحفة الألباب أنه اجتمع بأبى العباس الحجازى وكان ممن أقام بالصين اربعين سنة ، وكان الناس يتحدثون عنه بالعجائب [٩٨]، وكان ابو العباس الحجازى قد عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى ، وكان ذا صلة بالوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالى ، وقد أهدى اليه أبو العباس من أنواع ذخائر الصين ما لا يعرف له قيمة [٩٩]، وكان قد اتخذ في القاهرة حمامات وخانات ودكاكين مما يدخل عليه قدرا كبيرا من المال [١٠٠].

ونحن لا نعرف بالضبط شيئا عن شخصية أبى العباس ، والظاهر أنه كان واحدا من التجار الحجازيين الذين كانوا على صلة كبيرة بالصين وتجارتها ، أو أنه كان من التجار العرب او المغاربة الذين كانوا يشتغلون في التجارة بين الصين والحجاز فاكتسب لتردده على الحجاز هذه التسمية.

هذا وقد حفظت لنا المصادر العربية بعض أنواع السلع التي تأتى الى جدة عن طريق عدن نذكر منها على سبيل المثال : المسك وجوز الهند والبهار وخشب الصبار والأبنوس والعاج والخزف الصيني [١٠١]، هذا الى جانب الشروب والورق والخدم وغيرها [١٠٢].

تجارة مكة في وثائق الجنيزا

أما وثائق الجنيزا الخاصة بتجارة البحر الأحمر فكان معظمها خطابات أرسلت من عدن وجدة وغيرها من موانيء شبه الجزيرة العربية الى المدن المصرية أو العكس أو رسائل متبادلة بين موانيء البحر الأحمر [١٠٣]، وقد وصلت هذه الوثائق الى مجموعة وثائق الجنيزا حيث أحضرها أصحابها

(٩١) القوصى ، **تجارة مصر** ، ص ١١٤ . كانت التجارة مزدهرة في البحر الأحمر في صدر الاسلام وفي العصر الأموى . وعندما قامت الخلافة العباسية ببغداد عمل العباسيون على تحويل التجارة الى الخليج العربي فأصاب التجارة في البحر الاحمر شيء من الركود، وعندما شبت فتنة الزنج ثم القرامطة فيما بعد كسدت التجارة في الخليج العربي وتحولت الى البحر الأحمر . (نفس المكان) .

(٩٢) الواسعى ، **تاريخ اليمن** ، القاهرة (١٣٤٦هـ) ، ص ٢٢٣ .

(٩٣) ربيع ، **وثائق الجنيزا** ، ص ١٦ . الأنصاري ، **نخبة الدهر** ، ص ٢١٦ .

(٩٤) **الروض المعطار** ، ص ٨٧ .

(٩٥) القوصى ، المرجع السابق ، ص ٤٦ ، عن أبي يزيد السيرافي ، **أخبار الصين والهند** ، نشر رينو، جـ١ ، ص ١٤ .

(٩٦) نفس المكان .

(٩٧) **أحسن التقاسيم** ، ص ٩٧ .

(٩٨) ابن عبد الرحيم ، ورقة ٧١ .

(٩٩) ابن عبد الرحيم ، محمد ، **تحفة الألباب** ، ص ٧٣ .

(١٠٠) نفس المكان .

(١٠١) Heyd, Histoire du Commerce I, p. 379.

(١٠٢) المقدسى ، **أحسن التقاسيم** ، ص ٩٧ .

(١٠٣) ربيع ، **وثائق الجنيزا** ، ص ١٢ .

من عدن أو موانىء الحجاز حفاظا على حقوقهم . وقد أخذت هذه الوثائق طريقها الى حجرة الجنيزة بطريقة أو بأخرى(١٠٤).

هذا وقد احتلت تجارة موانىء الحجاز مكانة هامة في وثائق الجنيزا ذلك أن معظم وثائق الجنيزا ترجع الى العصر الفاطمي ، وقد استطاع الفاطميون السيطرة على تجارة البحر الأحمر ، وبالتالي عملوا على تحويل تجارة الشرق الأقصى من الخليج العربي الى البحر الأحمر سعيا وراء اضعاف الخلافة العباسية من الوجهة الاقتصادية . وبذلك نشط ميناء جدة ـ كما أسلفنا ـ وقام على تجارة عريضة مع مصر وما ورائها من الموانىء الأوروبية والأندلسية والمغربية(١٠٥). هذا الى جانب تجارته مع عدن والهند والصين(١٠٦).

وقد ساعده على ذلك كونه ميناء لمكة المكرمة التي يقام بها أكبر سوق في العالم في مواسم الحج . فقد تناولت وثائق الجنيزا اشتراك التجار وأرباب الحرف والعلماء في القوافل المسافرة لاداء فريضة الحج ، وأن الهدف من الحج الى جانب الفريضة الدينية هو المنفعة التجارية. فقد جاء في رسالة من رسائل الجنيزا يطلب صاحبها من المرسل اليه أن يمده ببعض المتاجر مع شخص اسمه الحاج على الصقلي أو مع ناس آخرين(١٠٧).

كما حفظت وثائق الجنيزا أخبارا كثيرة عن وصول قوافل الحجاج القادمة من مكة المكرمة واشارات لما تحمله من متاجر الشرق ونصائح بعض التجار الى شركائهم بألا يتسرعوا في شراء متاجرهم الى أن يرجع الموسم من مكة(١٠٨). ونستشف من هذه العبارة الأخيرة ما تحدثه التجارة القادمة من الموسم من تغيرات في الأسواق الدولية ، وما تؤدي اليه هذه الكثرة من رخص أثمان البضائع ، كما أنها تفسر من ناحية أخرى دور مكة في النشاط التجاري في عالم العصور الوسطى(١٠٩).

كما كانت وثائق الجنيزا تعطي صورة مفصلة للعلاقات الشخصية في محيط التجارة في موانىء الحجاز فقد كان التاجر وقتذاك « يقوم بالمتاجرة لنفسه أو لنفسه ولغيره في نفس الوقت ، أو قد يكون وكيلا لتاجر أو لعدد من التجار في آن واحد ، لهذا كان لا بد من تحرير عقد مشاركة او عقد قراض او مضاربة بين كل تاجر أو أكثر . وكان لا بد عند حضور التاجر الى بلده أو وصوله الى أحد الموانىء أن يراجع حساباته لمعرفة أرباحه وخسائره ونصيب كل شريك ، ويبعث هذه المعلومات الى شريكه أو شركائه في رسائل ويتلقى منهم مراسلات تفيد رضاهم من عدمه »(١١٠). وهذه العقود من شأنها أن تحفظ الحقوق وتقيم الحساب بين الشركاء ، وتكون مرجعا يحتكم اليه عند السهو والاختلاف الذي كثيرا ما يحدث بين المتشاركين ، فقد حفظت لنا احدى وثائق الجنيزا الخاصة بنقل شحنة من البضائع يتحملها التاجر لا الشريك الذي يمول الصفقة ، غير أن هذا الشرط لم يلبث أن استثني في نهاية العقد ونص على أن يتحمل الطرفان النفقات مناصفة(١١١).

---

(١٠٤) نفس المكان . وحجرة الجنيزا هي المكان التي كان اليهود يخزنون فيها أوراقهم الخاصة من خطابات وعقود وايصالات وخلافه حتى لا تدنس كلمة الله التي قد تكون مكتوبة في هذه الوثائق . انظر : Goitein, Studies in Islamic. p. 279.
ربيع ، المصدر السابق ، ص ٥ .

(١٠٥) ربيع ، **وثائق الجنيزا** ، ص ١٤ .

(١٠٦) المقدسي ، **احسن التقاسيم** ، ص ٩٧ .

(١٠٧) Goitein, A Med. Soc., 1. pp. 55-281.

(١٠٨) ربيع ، المرجع السابق ، ص ١٣ .

(١٠٩) نفس المكان . Goitein, Op. cit. p. 200.

(١١٠) ربيع ، **وثائق الجنيزا** ، ص ١٥ .

(١١١) نفس المكان . Goitein, A Med. Soc., 1. 277.

أما عن تجارة الكارم (١١٢)، فقد أسهم ميناء جدة بنصيب وافر في هذه التجارة ذلك ان تجارة الكارم بدأت منذ العصور الفاطمية (١١٣)، وكانت أول اشارة اليها في المصادر العربية ترجع الى سنة ٤٥٦هـ في عهد الخليفة المستنصر عندما أشار ابن ايبك الدواداري الى تأخر وصول التجار وانقطاع الكارم (١١٤)، كما أشار القلقشندي الى تجارة الكارم فقال : « انه كان للفاطميين اسطول بعيذاب يتلقى الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم ، هناك يعترضون المراكب فيحميهم الأسطولمنهم » (١١٥). وذكر في مكان آخر ان المكوس كانت تؤخذ على واصل التجار الكارمية من البضائع في بحر القلزم من جهة الحجاز واليمن وما ولاها (١١٦).

ومع أن معلومات الباحثين عن طبيعة التجارة الكارمية ونشاتها وتطورها ونظمها لا تزال معلومات ضئيلة : الا أن اشارة الدواداري والقلقشندي تدل دلالة واضحة على أن نشاط الكارميين بدأ منذ العصر الفاطمي ان لم يكن قبل ذلك بقليل (١١٧).

ومهما يكن الأمر فقد احتكر التجار الكارمية تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي وبصورة خاصة تجارة التوابل التي كانت تلقى رواجا في الموانيء الأوروبية (١١٨)، وكانت جدة وغيرها من موانيء الحجاز من الميادين التي راجت فيها تجارة الكارم بحيث كانت الى جانب الموانيء اليمنية من أهم مراكز هذه التجارة في البحر الأحمر ، وكانت هذه التجارة القادمة من الحجاز تخضع للمكوس قبل دخولها الى الموانيء المصرية (١١٩).

هذا وقد شمل نشاط التجار الكارميين جوانب متعددة فقد مارسوا الأعمالالمصرفية والسفارة بين الحكام والسلاطين وكونوا لذلك ثروات طائلة ، وقاموا بكثير من بناء المدارس والمستشفيات والمساجد بمكة المكرمة ، وغيرها من المدن الاسلامية (١٢٠).

وكانت السلع التي يجلبها تجار الكارم الى جدة مما يقبل عليها الخاصة والعامة فمنها التوابل كالفلفل والقرنفل وكذلك البخور ، وغيرها من السلع المجلوبة من اليمن والهند (١٢١) او من وسط افريقيا والسودان الغربي موطن النواة الأولى للتجارة الكارمية (١٢٢) . وقد ترك ارتياد تجارة الكارم

(١١٢) لمعرفة المزيد عن التجارة الكارمية ، والتفسيرات المختلفة لمعنى الكارم ونشأتها ونشاطاتها في العصور الوسطى
(١١٣) أنظر على سبيل المثال :

- صبحي لبيب ، التجارة الكارمية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع (١٩٥٢م) ، ص ٥-٦٣ ، القوصي ، عطيه ، تجارة مصر في البحر الأحمر ، ص ٨٣-٩٥ . اضواء جديدة على تجارة الكارم ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٢ (١٩٧٥م) ، ص ١٧-٣٣ .
- حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة (١٩٦٤م) ، ص ١٦ ، وثائق الجنيزا واهميتها ، ص ١٩-٢٠ .

Goitein, Studies in Islamic, pp. 351-360.
Heyd, Histoire du Commerce, vol. 11, p. 59.
Ashtor, E., Social and Economic History of Near East London (1976). pp. 241-242.

(١١٤) كنز الدرر ، جـ٦ ، ص ٣٨٠ .
(١١٥) صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٥٢٠ .
(١١٦) نفس المصدر ، جـ٤ ، ص ٣٢ .
(١١٧) ربيع ، وثائق الجنيزا ، ص ١٩ .
(١١٨) نفس المكان .
(١١٩) القلقشندي ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٣٢ .
(١٢٠) ربيع ، المرجع السابق ، ص ١٩-٢٠ .
(١٢١) السليمان ، النشاط ، ص ٩٩ .
(١٢٢) عابدين ، عبد المجيد ، بين العرب والحبشة ، طبع دار الفكر العربي ، ص ١٩٩ .

لميناء جدة ، وما جلبوه معهم من مختلف السلع الرائجة أكبر الأثر في دفع ذلك الميناء نحو حركة تجارية قوية أدت الى ارتفاع موارده المالية ارتفاعا عظيما(١٢٣).

هذا وقد ترك مجيء الفاطميين الى مصر وسيطرتهم على الحجاز أثره في مجتمع جدة التجاري ، فقد جلب هؤلاء معهم أعدادا كبيرة من المغاربة الذين لم يلبثوا أن اشتغلوا بالتجارة واستوطنوا في كثير من أنحاء المملكة الفاطمية ، فقد أشارت بعض وثائق الجنيزا أن بعض موانيء الحجازكانت تموج بأعدادكبيرة من التجار المغاربة الذين جاءوا اليها من بعض جهات المغرب مثل برقة وجبل نفوسة والقيروان وطرابلس وتلمسان والمهدية وفاس وجربة ودرعا(١٢٤)، كما أخذ عددهم في التزايد منذ بداية القرن الخامس وأخذوا يسيطرون على التجارة في موانيء الجزيرة العربية ، بل ان المغاربة وصلوا في تجارتهم الى الهند (١٢٥).

ولم يقتصر نشاط هؤلاء المغاربة في امارة مكة على التجارب فحسب ، بل أخذوا يمارسون الزراعة ، فقد ذكر ابن جبير بعد أن تحدث عن انتعاش الزراعة حول مكة وجودة المحاصيل الزراعية بأن هذه المزارع « قد جلب الله اليها من المغاربة ذوي البصارة بالفلاحة والزراعة فأحدثوا فيها بساتين ومزارع ، فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات »(١٢٦).

والظاهر أن المغاربة انتشروا في بقعة عريضة حول مكة سواء للتجارة أو للزراعة وأنهم وصلوا في انتشارهم الى حلي بن يعقوب فقد جاء في رسالة من وثائق الجنيزا كتبها ابن الى أمه يخبرها بوصوله الى قوص ، وأنه سأل عن أولاد عمه فأخبره رجل « أنهم في عافية في بلد يقال له حليثة (١٢٧)» وحليثة ذكر ياقوت أنها حلي بن يعقوب (١٢٨).

ميناء السرين

أما السرين فيمثل الواجهة البحرية الثانية لمكة المكرمة ، وهي تقع الى الجنوب منها بمسافة خمس مراحل(١٢٩)، وهي تابعة لأمير مكة المكرمة (١٣٠).

ولما كانت السرين غير معروفة في الوقت الحاضر فلا بأس من ايراد تحقيق أولي عن مدينة السرين ، وعن موقعها ، وذلك من واقع النصوص التي بين يدي ، ومن تتبعي لتطبيق تلك النصوص على الطبيعة أثناء قيامي بزيارة تلك المنطقة التي ينطبق عليها الوصف .

لقد ذهب الجغرافيون والمؤرخون العرب مذاهب شتى في تحديد موقع السرين ، فذكر بدر الدين العيني « أنها تقع على ساحل البحر بينها وبين مكة أربعة أيام ، وقيل بليدة عند جدة وبالقرب منها قرية يلملم »(١٣١). وقال الحميرى « سرين مدينة عظيمة في طريق مكة من اليمن بمقربة من يلملم »(١٣٢)وقال الادريسي : « بينها وبين حلي خمسة أيام في جهة الشمال »(١٣٣).

(١٢٣) السليمان ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ .
(١٢٤) Goitein, Studies in Islamic, p. 342.
(١٢٥) Arabs and Jews, p. 115.
(١٢٦) الرحلة ، ص ٩٩ .
(١٢٧) ربيع ، وثائق الجنيزا ، ص ٢٢ .
(١٢٨) معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٢٩٧ .
(١٢٩) عمارة ، تاريخ اليمن ، ص ٤٣ .
(١٣٠) الحميري ، الروض المعطار ، ورقة ١٧٣ .
(١٣١) عقد الجمان ، ورقة ٣٤ .
(١٣٢) المصدر السابق ، ورقة ١٧٣ .
(١٣٣) نزهة المشتاق ، ص ١٠٦ .

ومن دراسة هذه النصوص نجد أنها تضع السرين بين مكة وحلي فبعضها يجعلها قريبة من مكة وأنها بالقرب من يلملم وهو الوادي المعروف الذي يحرم منه حجاج اليمن وبعضها يجعلها قريبة من حلي ، وكلها تكاد تجمع على أن السرين تقع في منطقة تمتد من شمال حلي جنوبا الى قرب جدة ويلملم شمالا ·

غير أن البحث العلمي يستدعينا تعيين نقطة أكثر تحديدا لموقع السرين مستعينين بنصوص اخرى ستساعدنا على تقريب الصورة ، فقد ذكر الهمداني أن(١٣٤) « السريـن ساحـل كنانـة » ، ومعروف أن كنانة لا تكاد تتعدى وادي دوقة شمالا ، أما ما تلا ذلك نحو الشمال فهو للأشراف ثم الثعالبة الى جدة · هذا الى أن السرين وصفت بأن سورها في البحر(١٣٥)، ومع هذا فلها مراع ومزارع من الذرة والسمسم(١٣٦) ·

وهذا يعني أن السرين تقع في منطقة يلتقي فيها البحر مع الأرض الرملية التي تتوفر فيهـا المراعي لا السباخ التي تغلب على ساحل تهامة بين جدة وحلي · هذا الى أن ظاهر الوصف يعني أنها قريبة من أحد الأودية المعروفة التي تتوفر فيها زراعة الذرة والسمسم ·

والتقاء الأرض الرملية مع البحر لا يتوفر في المنطقة المعنية بالتحديد الا في مكانين أحدهما الموقع المعروف حاليا بقهوة العبد والثاني شمال وادي دوقة في مقابل قرية عسيلة من ناحية الغرب، غير أن المكان الأول لا ينطبق عليه الوصف لأنه ليس قريبا من واد ينتج الذرة والسمسم ، وأن أقرب الأودية له هو وادي الشاقة الذي يبعد قليلا الى الداخل ، وينتهي الى البحر في سبخة رمادية تمتد مسافة بعيدة الى الداخل ·

وكان علينا قبل أن نرجح الموقع الثاني أن ننظر في النصين التاليين · يقول صاحب كتاب تقويم البلدان « والسرين عن حلي تسعة عشر فرسخا ، وهي في جهـة الشمال عـن حلي »(١٣٧)· ومعروف أن الفرسخ ثلاثة أميال(١٣٨) أي أن المسافة بين السرين وحلي سبعة وخمسـون ميلا ، أمـا النص الثاني فيذكر أن المسافة بين السرين والأحسبة سرى ليلـة(١٣٩)، وهكـذا نرى أن هذيـن النصين ينطبقان تمامـا على الموقع التالي ، لأن المسافات التي وردت فيهما تقرب مـن المسافـة الحقيقية التي نلمسها في وقتنا الحاضر بين السرين وحلي ثم بينها وبين الأحسبة ، هذا الى جانب وقوعها الى الشمال من وادي دوقه وهو من الأودية الخصبة التي تشتهر بزراعة الذرة والسمسم، ولا تزال هذه المنطقة ـ كما علمت من بعض المواطنين ـ تعرف حتى الآن « بالسرير » وربما تكون هذه اللفظة تصحيف للسرين ، وهي عبارة عن تل رملي يقع في طرفه الغربي ميناء طبيعي لا يزال يستعمل حتى الآن من قبل خفر السواحل وبعض صيادي الأسماك ، ونأمل أن يأتي بعدنا مـن

(١٣٤) صفة جزيرة العرب ، ص ٢٥٩ ·

(١٣٥) الحنفي ، ابراهيم بن شجاع ، منازل الحجاز ، مخطوطة مصورة في مكتبتي عن معهد المخطوطات ، جامعة الـدول العربية برقم ٢/٣٤٨٦ ورقة ٥ ·

الجاسر ، حمد ، كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية الجزيرة العربية ، بحث ألقي في الندوة الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، ص ٥ ·

(١٣٦) المرجعان السابقان ·

(١٣٧) عماد الدين ، ص ٩٣ ·

(١٣٨) مصطفى ، ابراهيم ، المعجم الوسيط ، جـ٢ ، ص ٦٨٨ ·

(١٣٩) البكري ، المسالك والممالك ، ورقة ٧٠ ·

يستطيع أن يلقي مزيدا من الأضواء على موقع السرين(١٤٠)، وذلك بالحصول على نصوص جديدة تكشف لنا ما خفي من تاريخ ذلك الميناء الهام ٠

أما في مجال بحثنا وهو يعنى في الدرجة الأولى بالتاريخ الاقتصادى لميناء السرين ، فقد وصفت بأنها مدينة عظيمة(١٤١)، وانها حصن حصين حسن موضعه وأن فيها أسواقا ومسجدا جامعا(١٤٢)، وأن لها سورا في البحر(١٤٣)، كما وصفت بأنها بناية الفرس على ساحل البحر(١٤٤). وهذا ربما يعني أنها كانت ميناء للفرس كميناء جدة منذ زمن طويل وأنها تشبهها من حيث التأسيس والعمران ٠

وتعتبر السرين فرضة السروات التي يصفها المقدسي « بأنها معدن الحبوب والخيرات والتمور والعسل الكثير ٠٠٠ »(١٤٥)، وقد أسهمت السرين كجدة في تجارة مكة فبالاضافة الى خيرات السروات التي كانت تلقى طريقها عبر هذا الميناء الى جدة ثم مكة كانت تجلب الى السرين مختلف الحبوب من عثر وجودة ، وغيرها من مدن اليمن(١٤٦)، وربما كانت تحمل هذه الحبوب على الجمال الى مكة المكرمة ٠

وكانت بمدينة السرين سوق نشط يقوم على تجارة واسعة محلية وخارجية الا أن التعامل فيها شأنها شأن مكة ــ في بعض الأحوال ــ كان يتم بالعملات المزيفة(١٤٧)، وكان للسرين تجارة واسعة مع الحبشة(١٤٨)وكان لصاحبها رسوم يأخذها على المراكب الصاعدة والنازلة وعلى جميع التجارات التي كانت تصل الى مينائها من الحبوب والمتاع والرقيق(١٤٩).

وكان يحكم السرين وال من قبل أمير مكة الهاشمي ، وكان عليه أن يتولى جباية الرسوم على المراكب والتجارات التي تصل الى ميناء السرين بحيث يحتفظ بنصفها لنفسه أما النصف الثاني فهو لصاحب مكة الهاشمي(١٥٠) ٠

ومهما يكن أمر تجارة السرين الخارجية فانها لا ترقى الى أهمية تجارة جدة ، ولذا يمكن وصفها بانها ميناء داخلي لمكة المكرمة يمكن عن طريقه تموين الشقة الجنوبية لامارة مكة بالتجارة

---

(١٤٠) لقد قدر لي ان أعدت مسح الساحل الغربي في صيف العام الذي نوقشت فيه هذه الرسالة ، وقد عثرت على موقع السرين الحقيقي في مكان الى الجنوب الغربي من قرية الوسقة المعروفة في الوقت الحاضر بحوالي أحد عشر كيلو مترا ٠ وهي عبارة عن تل رملي بارز يطفح بكثير من فتات الفخار والخزف ومخلفات المباني من الأحجار البحرية والطوب الأحمر ٠ ويحيط بالموقع من الناحية الجنوبية الغربية بحر عزيز يعتقد بأنه كان موقع الميناء ٠ ويقع الى الشمال من هذا التل مقبرتان بهما عدد من شواهد القبور التي نقشت عليها اسماء أصحابها بخط كوفي جميل ، أغلبها غير مؤرخ ، والشواهد المؤرخة منهما تعود الى القرنين الرابع والخامس الهجريين ٠ كما تم العثور في وقت سابق على مدينة عشم ــ بفتح العين والشين ــ التاريخية التي وردت في المتن على أنها من مخاليف مكة ٠ وهي مدينة مهجورة لا تزال أساسات البناء فيها واضحة تحت ركام المنازل ٠ وهي تقع الى الشرق من المضيلف الحالية بمسافة تسعة عشر كيلو مترا ٠ ويحيط بالمدينة من الجنوب والشرق والشمال ثلاث مقابر بها عدد من النقوش الكوفية الجميلة يرجع المؤرخ منها الى القرون الثالث والرابع والخامس للهجرة ٠ وتشكل السرين وعشم جزء هاما من بحثي لرسالة الدكتوراه التي أعدها بجامعة درهام بانجلترا ٠

(١٤١) الحنفي ، منازل الحجاز ، ورقة ٥ ٠

(١٤٢) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ورقة ١٠٦ ٠

(١٤٣) الجاسر ، كتب المنازل ، ص ٥ ٠

(١٤٤) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٥٣ ٠

(١٤٥) أحسن التقاسيم ، ص ٨٦ ٠

(١٤٦) الحميري ، الروض المعطار ، ورقة ١٧٣ ٠

(١٤٧) الحنفي ، المصدر السابق ، ورقة ٥ ٠

(١٤٨) نفس المكان ٠ الجاسر ، المصدر السابق ، ص ٥ ٠

(١٤٩) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٣٣ ٠

(١٥٠) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٠٦ ٠

والأرزاق

ب ـ تجارة مكة البرية

تحدثنا في موضوع سابق عن اهمية موقع مكة الفريد وأنها تقع على طريق القوافل القادمة من اليمن الى الشام والعراق وبالعكس(١٥١) ، كما تحدثنا عن أهميتهـا كسوق تجاري تتوفر فيهـا جميع السلع المستوردة من الشرق والغرب عن طريق مينائها الفريد جدة ، وكذلك المنتجة محليا من مخاليفها الزراعية المحيطة بها ، وسنتحدث في الصفحات التالية عن تجارتها البرية ، وما كان يحدث في أوان الموسم من تبادل السلع المنتجة والمستوردة مع قوافل الحج ، وكذلك تجارة الجلود التي اشتهرت بها مكة منذ العصر الجاهلي ، وبقيت ميزة لسوقها طوال العصور الاسلامية والوسطى .

كانت مكة قد ارتبطت طوال تاريخها الاسلامي بكثير من المراكز الاسلامية بطرق برية معروفة ارتادتها القوافل محملة بالبضائع التي كانت تلقى رواجا كبيرا في موسم الحج، وبالتالي فقد كانت هذه القوافل تبيع ما تحمله من صنوف التجارة في سوق مكة وتشترى أصنافا أخرى تلقى رواجا في جهاتها التي جاءت منها والتي تفتقر الى هذه الأصناف أو تلك من البضائع المجلوبة الى مكة المكرمة ، ذلك أن مكة بحكم موقعها الديني والتجاري كانت تتوفر فيها جميع السلع العالمية من البر الى الدر(١٥٢) ولذلك قال ابن جبير ـ وهو شاهد عيان لما يصف ـ « فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر الا وهي موجودة فيها مدة الموسم »(١٥٣) .

ولا غرو في ذلك فقد كانت القوافل اليمنية تأتي عبر الطريق الغربي المحاذى لساحل البحر الأحمر محملة بالسلع اليمنية والحبشية والهندية وتعود محملـة بالمنتجـات الشاميـة والعراقيـة والحجازية ثم تعمل على تصديرها عن طريق البحر(١٥٤) .

هذا الى أن اليمن نفسها اشتهرت بتصدير كثير من المنتجات الى مكة المكرمة فمن ذلك ، أن اليمن اشتهرت بمحصولاتها الزراعية في مناطق كثيرة من أراضيها نذكر منهـا الشرجة والحردة وعطنة ، وهي من المناطق المشهورة بانتاج الذرة التي كانت تجلب منها الى امارة مكة المكرمة (١٥٥). كذلك اشتهرت اليمن بالورس واللبان(١٥٦)، والنيل المنسوب الى مدينة زبيد والذي وصف « بأنه لا نظير له »(١٥٧)فقد كانت جميع هذه المنتجات الى جانب ما كان يأتى من عدن من العنبر والشروب

---

(١٥١) ذكرت هذه الطرق ومحطاتها عند حديثي عن طرق الحج واقتصرت على ذكر طرق الحج العراقي والمصري واليمني ، لأن الجهات التي تخرج منها لعبت وقتذاك دورا بارزا في علاقات مكة السياسية، في حين ان الشام كانت تفتقر الى هذا الدور بسبب تبعيتها للخلافة الفاطمية . ولما كانت طرق الحج هذه هي نفس الطرق التي تمر معها قوافل التجارة بين مكة وغيرها من العواصم الاسلامية حينذاك فلا بأس من ذكر الطريق الشامي على سبيـل الاختصار . والطريق الشامي مركزه دمشق ومنها تبدأ رحلة القوافل الى مكة حيث تجتاز عدة محطات نذكر منها الكسوة ، درعا ، بصرى ، الكرك ، معان ، تبوك ، العلا ، هدية ، عيون حمزة ثم المدينة ، ومنها الى مكة يمر بالمحطات التي ذكرناها في طريق الحج المصري . انظر : الجزيرى ، درر الفوائد ، ص ٤٥٣ـ٦٠ . العمرى ، مسالك الأبصار ، ورقة ٣٠٩ـ٣١٢ .

Ankawi, Abdullah. The Organization and Role of the Pilgrimage. pp. 97-99, 216-217.

أنظر : ص ١٥٥ من هذا البحث .

(١٥٢) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٦٠ .

(١٥٣) نفس المصدر ، ص ٩٧ .

(١٥٤) الافغاني ، أسواق العرب ، ص ١٥ـ١٦ .

(١٥٥) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٧٦ .

(١٥٦) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٣٦٠ .

(١٥٧) المقدسي ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .

والدرق والحبش والخدم والبرود والعقيق جميعها من السلع التي يزدهر بها موسم مكة التجاري في أيام الحج[١٥٨].

وكانت عمان الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية للجزيرة العربية قد أسهمت بتجارتها مع مكة المكرمة فقد كان يصلها بمكة طريقان بريان أحدهما شرقي يمر بواحة يبرين فاليمامة ثم مكة[١٥٩]، والثاني غربي يتجه من عمان مخترقا بلاد حضرموت الى عدن ثم يلتقي بالطريق اليمني الذي يتجه الى الحجاز[١٦٠]، وقد لعب هذان الطريقان دورا هاما في تجارة عمان مع مكة المكرمة، فقد كانت تصل الى مكة مع القوافل العمانية كثير من السلع نذكر منها الأدوية والعطورات بأنواعها حتى المسك والزعفران والبقم والساج والسماسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والاسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والضفار والصندل والبلور وغير ذلك[١٦١].

وهكذا نلاحظ أن بعض هذه السلع عمانية أما البعض الآخر فهي من الصين والهند، والمعروف أن عمان كانت لها تجارة واسعة مع هذين القطرين[١٦٢].

وكان بين القوافل العمانية واليمنية قوافل أخرى صغيرة تجلب السلع من جهاتها الى مكة المكرمة. وكان من بين هذه السلع الصبر الذي كان يأتي من سقطرة[١٦٣]، وكذلك الكندر والحوت المجفف، وهو يأتي من المهرة[١٦٤].

هذا وكان الطين من الأطعمة المحببة التي يأكلها المكيون في آخر الطعام[١٦٥]، وأحسنه ما كان يجلب من ناحية كوار وهو أخضر كالسلق وأشرق منه ولا نظير له[١٦٦]. أما الأخضر منه فكان يجلب بكثرة من قوهستان[١٦٧]، وكان يجلب من بيسابور طين يسمى بالنقل[١٦٨]، وكما ذكرت بأن الطين كان من الآكلات المحببة الى أهل مكة رغم أن كثيرا من الفقهاء حرموا أكله[١٦٩].

كما شاع في الحجاز مضغ النابتول فقد ذكر المسعودي في النصف الأول من القرن الرابع انه كان يأتي من الهند ورق النابتول ليمضغ، وأنه في ذلك العصر غلب مضغه على أهل مكة وغيرهم من الحجاز واليمن[١٧٠].

كما كانت ترد الى مكة سلع أخرى من الشام والعراق وغيرها من بلاد المشرق فكان

---

(١٥٨) نفس المصدر، ص ٩٧.
(١٥٩) الهمداني، المصدر السابق، ص ٢٩٥، ٢١١.
(١٦٠) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، ص ٥٧. Al-Wohaibi, Nor. Hijaz, p. 91.
(١٦١) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ٩٧.
(١٦٢) المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ١٢٧.
(١٦٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٧.
(١٦٤) نفس المكان.
(١٦٥) متز، الحضارة الاسلامية، جـ٢، ص ٢٥٤، نقلا من مروج الذهب، جـ٢، ص ٨٤، الطبعة الأوروبية.
(١٦٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٦٠.
(١٦٧) الأصطخري، مسالك الممالك، ص ٢٧٤_٧٥.
(١٦٨) متز، المرجع السابق، ص ٣١٢. لم تسعفنا المصادر التاريخية ومعاجم اللغة العربية بمعلومات مفصلة توضح مدلول الطين، وقد اتضح لنا ان من أنواع هذا الطين، طينا يسمى بالنقل والنقل في مكة يطلق على مجموعة المكسرات، فلعل الطين المشار اليه هو أحد أنواع المكسرات.
(١٦٩) الرازي، ابو محمد عبد الرحمن. علل الحديث. القاهرة (١٣٤٤هـ)، جـ٢، ص ٥.
متز، المرجع السابق، ص ٣١٣.
(١٧٠) متز، العضارة الاسلامية، ص ٢٥٤. والنابتول ايضا لا نعرف منه شيئا ولعله التنبول الذي يمضغه الهنود في العصر الحاضر بمكة المكرمة وانما صحفت كلمة النابتول الى التنبول.

الخراسانيون يشترون جلود البغال الفحولة من رستاق الموصل وسواد اربل ، وكـانوا يجلبونهـا معهم الى الموسم فيبيعونها لأهل مكة كمادة خام حيث يتم دبغها وتصنيعها(١٧١)هناك كما سيأتي ذلك مفصلا ٠

هذا وكانت قد راجت في مكة بعض الحرف المحلية نذكر منها على سبيل المثال الأقـداح المنسوبة الى حلي(١٧٢) ، والأقداح الحلوية تصنع من خشب الأثل وهي من الحرف الدقيقة التي تعتمد على فن النحت دون أن تستعمل فيها المسامير أو الصموغ ، ولا تـزال مكـة حتـى اليوم تستورد الأقداح من حلي بن يعقوب وتستخدمها للمعصوب ، وكلمة المعصوب هذه كانت معروفة في القرن الرابع الهجري(١٧٣) ٠

ومنها أيضا صناعة الحصر ، وهي من الصناعات الهامة التي كانت تلقى رواجا في تلك الفترة، وقد ورد ذكرها في وثائق الجنيزا(١٧٤)، وكان الحصير يستخدم في أغراض منزلية شتى ، وتوجد خامته في منطقة الى الجنوب من مكة وتمتد من حلي شمالا حتى القحمة جنوبا ، ولا تزال هذه المنطقة تعتنى بزراعة الدّوم الذي يمدنا « بالطفي » كما تقوم بصنـاعـة الحصر المختلفـة رغـم التقـدم الحضاري ، وكانت مكة من أهم الأسواق التي تستوعب هذه الحرفة ، فقد جاء في احدى وثائق الجنيزا أنه كان من السلع المطلوبة في مدن الحجاز ، حيث تمدنا هذه الوثيقة بتفصيلات كثيرة عـن صناعة الحصير وصفاته وأسعاره ، وبلغ من أهمية الحصير أنه يدخل في بناء البيوت كما أشار الى ذلك ابن جبير عند حديثه عن مدينة جدة (١٧٥) ٠

صناعة الجلود وتجارتها

تعتبر صناعة الجلود من أهم الصناعات التي راجت في مكة بصورة خاصة وفـي الجزيرة العربية بصورة عامة ، ولا غرو في ذلك فقد كان العرب يستعملون الجلود لحفـظ المـاء والعسل والزيت والسوائل الأخرى ، كما كانوا يضعون التمر في جرابات من الأديم(١٧٦)وكذلـك كانـت تدخل الجلود في بناء بيوتهم وألبستهم(١٧٧)، لذلك بلغ العرب شأوا بعيـدا فـي دباغـة الجلود وتصنيعها ٠

ودباغة الجلود تحتاج الى ثلاثة أمور : الأول أن يكون جو المكان صالحا للدباغة ، والثاني أن تتوفر الحيوانات التي تؤخذ منها الجلود ، والثالـث أن تكون تلـك المدينـة سهلـة الـوصول للتجار (١٧٨) ٠

ولحسن الطالع أن هذه الأمور الثلاثة متوفرة في امارة مكة المكرمة فموقعها مع مخاليفها ولا سيما الطائف مناسبة لدباغة الجلود هذا الى جانب ما أشرنا اليه من توفر الحيوانات في المناطق المحيطة بها وما تتمتع به مـن موقع فريد يجعل التجار من جميع أنحاء العالم الاسلامي يتصلون بها في سهولة ويسر ، وفوق هذا توفر المواد الأساسية التي تدخل في دباغة الجلود مثل الأشجار

(١٧١) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ١٣ ٠
(١٧٢) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٩٨ ٠
(١٧٣) نفس المكان ٠
(١٧٤) Goitein. A Med. Soc.. I. p. 100. ربيع ، وثائق الجنيزا ، ص ٢٥ ٠
(١٧٥) الرحلة ، ص ٥٢ ٠
(١٧٦) ابن سيدة ، المخصص ، جـ٤ ، ص ١٠٠ وما بعدها ٠
(١٧٧) فاروق ، أحمد ، دباغة الجلود ، مجلة العرب ، س ١٠ ، ج٧ ، ٨ ، ص ٥٣٨ ٠
(١٧٨) نفسه ، ص ٥٣٩ ٠

والنباتات التي لا تبعد كثيرا عنها ، لذلك ازدهرت صناعة الجلود في مكة المكرمة ، وفي نواح أخرى من مدن الجزيرة العربية التي تتعامل مع مكة بحيث لم تلبث أن أخذت تصدرها الى أماكن أخرى خارج حدودها كمصر والحبشة وفارس وبلاد ما وراء النهر والهند [١٧٩].

وكانت الحيوانات كالابل والماعز والغنم والبقر تذبح للاستفادة بالدرجة الأولى من لحومها ثم تأتي الحاجة في الدرجة الثانية الى جلودها لاستخدامها في الأغراض التي اشرنا اليها، كما كان يتوفر لمكة مصدر آخر من هذه الخامة حيث كانت تتلقى كميات هائلة من الجلود الخام التي كانت تجلب اليها من العراق وخراسان في مواسم الحج [١٨٠].

ثم تأتي الركيزة الثانية التي تقوم عليها دباغة الجلود وهي المادة التي تضاف للجلد وتجعله في حالة صالحة للاستعمال ، وهذه تستخرج من أنواع خاصة من الأشجار والنباتات وهي لحسن الحظ كثيرة ومتوفرة حول مكة نذكر منها على سبيل المثال الفلقة والغرف والأرطى والعلقى والصرف والظيان والسلم والدهناء [١٨١].

على أن القرظ كان من اهمها على الاطلاق ، وهو يوجد بكثرة حول مكة والطائف وعليه تقوم دباغة الجلود فيهما ، كما أن القرظ ينبت في العقيق قرب المدينة المنورة وكان يجلب منها الى مكة [١٨٢]. ولا يزال القرظ الى اليوم ينبت جنوب مكة على جانبي الطريق المتجه الى اليمن ولا سيما في وادى أدام المار ذكره ، كما يوجد في تهامة السراة وبصورة خاصة في مناطق قلوة والمخواة والعرضية وعليه تقوم دباغة الجلود هناك بنفس الأساليب التي كانت سائدة في مكة آنذاك .

أما الأدوات المستخدمة في دباغة الجلود فلم تسعفنا المصادر الا بالنزر اليسير منها ، ولعل في مقدمتها حجر الطواحين ، وهو الحجر الذي كان يطحن عليه القرظ [١٨٣]. والقرظ كما ذكرنا المادة الرئيسية المستخدمة في دباغة الجلود، كما نسمع عن المحط، وهو أداة خشبية تستخدم لصقل الأديم وتنميقه [١٨٤]، والمجلاة وبها تقشر الأوساخ المتبقية على الاهاب كما نجد الازميل والمنحاز مستخدمة لأغراض شتى [١٨٥]. أما في صناعة الجلود فكانوا يستخدمون الاشفى والمبقر والمسرد والمخصف والمقراض وغيرها [١٨٦].

أما تجارة مكة في الجلود فكانت رائجة منذ العهد القرشي [١٨٧]، وكذلك في صدر الاسلام [١٨٨]. الا أنها وصلت الى مكانة طيبة من الرواج بعد الفتح الاسلامي واتساع المملكة الاسلامية واتجاه المسلمين نحو مكة للحج والتجارة ، فلم يعد التجار المكيون ـ كما كانوا من ذى قبل ـ يحملون منتوجاتهم من الجلود الى اقاصي البلاد لبيعها ، ولكن اصبحت القوافل تأتي من أصقاع شتى الى مكة لشراء ما تحتاجه من هذه السلعة الرائجة ، فقد كانت تدبغ في مكة ـ كما أسلفنا ـ جلود الجمال والأغنام والبقر والغزلان المحلية [١٨٩] ، فضلا عن الجلود الخام التي كانت تأتيها من اربل

(١٧٩) نفس المكان .
(١٨٠) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ١٣ .
(١٨١) فاروق ، أحمد ، دباغة الجلود ، ص ٤٣ـ٤٤ .
(١٨٢) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٣٢ .
(١٨٣) نفسه ، ص ٢٠
(١٨٤) ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٢٤٤ .
(١٨٥) ابن سيدة ، المخصص ، جـ٤ ، ص ١١٥ .
(١٨٦) فاروق ، أحمد ، المرجع السابق ، ص ٥٤٥ .
(١٨٧) نفس المصدر ، ص ٤٧ـ٤٨ .
(١٨٨) نفس المكان .
(١٨٩) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ١٣ .

والموصل وخراسان[١٩٠] حيث تدبغ وتصنع ويعاد تصديرها الى تلك الجهات[١٩١].

ويورد ابن المجاور تعليلا لذلك وهو أن دباغة الجلود لا تصلح الا في الجهات التي يظهر فيها كوكب سهيل، وأنها تتاثر بهذا الكوكب ويكسبها ما توصف به من الحمرة والليونة[١٩٢]، ومعروف أن سهيل كوكب يماني[١٩٣]، بمعنى أنه يظهر في الجهات اليمانية قبل الجهات الشامية ، ويكون متعامدا على بعض تلك الجهات طوال ظهوره ·

ويبدو لى أن هذا الكوكب لا تأثير له في دباغة الجلود ولكن تأثيره في نبات القرظ الذي هو المادة الأساسية لدباغة الجلود ، ذلك لأن كثيرا من النباتات تخضب وتزدهر في هذه الفترة من السنة التي يتصادف فيها ظهور سهيل ، وربما يكون نبات القرظ من تلك النباتات التي تخضر عند طلوع سهيل ، وقد علمت هذا من كثير من المزارعين الذين يهتمون بحساب النجوم لغرض الزراعة في المناطق التي تقع الى الجنوب من مكة المكرمة ·

ومهما يكن الأمر فقد ازدهرت تجارة الجلود في سوق مكة في مواسم الحج ، واخذت تنهال اليها من الأماكن الأخرى المجاورة التي اشتهرت أيضا بصناعاتها الجلدية وشاركت مكة في هذا الميدان ، نذكر منها الطائف التي اشتهرت بالأهب الطائفية ، وباديها الجيد الذي كان يلقى طلبا متزايدا في جهات خوارزم[١٩٤]، وكذلك جدة يبدو أنها كانت تزاول هذه الحرفة ، وهذا الاجتهاد له ما يبرره فقد ذكر ابن المجاور أن أحد أبواب جدة كان يعرف بباب المدبغة[١٩٥]، كما أشار أيضا الى وجود أحجار كبيرة بها تشبه الرحى فلربما تكون هذه الأحجار قد استخدمت لطحن القرظ[١٩٦].

هذا الى جانب ما اشتهرت به بعض أحياء مكة أو قراها القريبة ، فقد ذكر الهمداني أن منى اشتقت من منى الأديم[١٩٧]، وذكر غيره أن المزدوية المرة ، وهي الى الجنوب من مكة[١٩٨] كانت قد اشتهرت بدباغة الجلود التي كانت تصدر الى العراق وخراسان وما وراء النهر وخوارزم[١٩٩].

وكانت الجلود تباع في سوق مكة بالبيعة[٢٠٠]، وقد سبق أن أشرنا الى أن البيعة ربما تكون

---

(١٩٠) نفس المكان ·
(١٩١) نفس المكان ·
(١٩٢) نفسه ، ص ١٤ ·
(١٩٣) قال الشاعر :

ايها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية اذا ما استقلت وسهيل اذا استقل يمان

انظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، جـ٢ ، ص ٥٥٨ ·
ويقصد هنا بالجهات اليمانية والشامية ما كان الى الجنوب والشمال من مكة المكرمة فقد ذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم وقف على الثكا وقال : « هذا يمن وهذا شام » اما كون سهيل يماني فهذا يعني أنه يظهر الى الجنوب من مكة ، او بمعنى اوضح يطلع على الأقاليم الاستوائية والمدارية ، ومن المحتمل ان يكون نبات القرظ من النباتات التي لا تنبت الا في هذه الأقاليم ومن هنا كانت الجلود الخام تحمل الى مكة حيث تتوفر المادة اللازمة لدباغتها كما اشرنا الى ذلك في المتن وليس بسبب تأثير سهيل نفسه : أنظر : ابن ماجد ، كتاب الفوائد ، ص ١٢٧ - المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٥٨ - ابن المجاور ، المستبصر ، ص ٣٩ ·
(١٩٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٦٠ ·
(١٩٥) تاريخ المستبصر ، ص ٢٥ ·
(١٩٦) نفسه ، ص ٤٢ ·
(١٩٧) صفة جزيرة العرب ، ص ٣٢٦ ·
(١٩٨) فاروق ، أحمد ، دباغة الجلود ، ص ٥٤٩ ·
(١٩٩) ابن المجاور ، ص ٤٢ ·
(٢٠٠) نفس المصدر ، ص ١٣ ·

الكورجة التي تباع بها الجلود اليوم ، وكانت الجلود تصنف حسب الجودة أو الحالة التي يكون عليها الجلد أثناء البيع ولهم في ذلك اصطلاحاتهم الخاصة فمنها العوار الذي يكون في وسطه خدش سكين ، والشعراني والمقفع واليابس من الدهن والخفيف ، أما الجيد فهو الثقيل النقي الطاهر عتابى الوجه مشتبك بعضه ببعض[٢٠١].

وهكذا نلاحظ ان سوق مكة في مواسم الحج كانت تغص بالجلود التي كانت تجلب اليها من مخاليفها القريبة ، ومن بعض مناطق الجزيرة الأخرى كاليمن وعمان وهجر وغيرها وجميع هذه الأدم « كان ينزف الى العراق وخراسان وكرمان وما وراء النهر وخوارزم فكان يتفرق في أقاصي الأرض ودانيها ... ولم يؤثر جميع ذلك فيها أثرا »[٢٠٢].

واخيرا نخرج مما تقدم بان اقتصاد مكة شهد في هذه الفترة تكاملا بين منتوجاتها المحلية من زراعية وحيوانية وسلع استهلاكية وبين ما كان يرد اليها من التجارات عبر واجهاتها البرية والبحرية ، فقامت لذلك حركة استيراد وتصدير واسعة النطاق بينها وبين الأقطار التي تتعامل معها ، بل ان التجارة الدولية وجدت رواجا كبيرا في أسواقها ولا سيما في مواسم الحج والعمرة ، فأخذت ترد اليها وتصدر منها بضائع الشرق والغرب ، وليس أدل على ذلك من أن بعض السلع الأجنبية نسبت الى مكة نذكر من ذلك الزمرد المكي[٢٠٣] الذي كان يجلب اليها من بلاد البلهرى بالهند[٢٠٤]، ولكثرة رواجه في سوق مكة وتصديره منها الى اقطار شتى نسب اليها واكتسبت هذه النسبة شهرة عالية ، ولم ينسب الى بلده الأصلي في الهند .

---

(٢٠١) نفس المكان .
(٢٠٢) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ص ٩٧ـ٩٨ .
(٢٠٣) المراكشي ، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية (١٩٥٨م) ، ص ٨٦ .
(٢٠٤) نفس المكان .

مصادر البحث

أولا - المخطوطة.

ثانيا - المطبوعة.

ثالثا - الدوريات.

رابعا - رسائل جامعية وأبحاث علمية.

خامسا - المراجع غير العربية.



أولا – المخطوطة

ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

(١) **مورد اللطافة** ، مخطوطة بمكتبة طوبقابوسراى رقم ٣٠٢٥ (اسطانبول) .

ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي الشيباني (ت٩٤٤هـ/١٥٣٧م)

(٢) **بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد** ، مخطوطة بجامعة الرياض رقم ١٣٥٠ (تاريخ) .

(٣) **قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون** ، مخطوطة بمكتبة المتحف العراقي رقم ١٧٥٠ (بغداد) .

ابن عبد الرحيم ، أبو عبد الله محمد (ت ٥٦٥هـ/١١٧٠م)

(٤) **تحفة الألباب** ، مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٢١٦٧ (باريس) .

ابن عبد الشكور ، عبد الله بن محمد (ت ١٢٥٣هـ/١٨٣٦م)

(٥) **اشراف وامراء مكة** ، مخطوطة بمكتبة الحرم المكي ، رقم ٤٣ (تاريخ) .

ابن عنبه ، أحمد بن علي (ت ٨٢٨هـ/١٤٢٤م)

(٦) **عمدة الطالب في نسب آل أبي طالب** ، مخطوطة بمكتبة الحرم المكي رقم ٤/١٣ (سيرة) .

ابن فرج ، عبد القادر أحمد بن محمد (ت ١٠١٠هـ/١٦٠٢م)

(٧) **السلاح والعدة** ، مخطوطة بمكتبة عربجة ادبيات كتبخانة رقم ١٢٧ (اسطانبول) .

ابن فهد ، محمد بن عمر الهاشمي (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م)

(٨) **اتحاف الورى في اخبار أم القرى** ، مخطوطة بمكتبة الحرم المكي برقم ٢ (تاريخ – دهلوى) .

أبو البقاء ، محمد بهاء الدين بن الضياء المكي (ت ١١٣٠هـ/١٧٠٠م)

(٩) **احوال مكة المشرفة والمسجد الشريف** ، مخطوطة مصورة بجامعة الرياض رقم ٢٢٦ (تاريخ) .

أبو حنيفة ، القاضي النعمان بن محمد بن منصور (ت ٣٦٣هـ/٩٧٤م)

(١٠) **شرح الأخبار الطوال** ، مخطوطة بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن رقم ٢٥٧٣٢ (لندن) .

ادريس ، عماد الدين (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٧م)

(١١) **عيون الأخبار** ، مخطوطة بالمكتبة المحمدية الهمدانية اعتمدت على نصوص منشورة ملاحق في كتاب « **الصليحيون والحركة الفاطمية** » .

الادريسي ، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م)

(١٢) **نزهة المشتاق** ، مخطوطة مصورة بجامعة الرياض رقم ١٩٧ .

الأزدي ، علي بن ظافر (ت ٦١٣هـ/١٢١٦م)

(١٣) **الدول المنقطعة** ، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ (القاهرة) ٠

الاسحاقي ، محمد بن عبد المعطي (ت ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م)

(١٤) **لطائف أخبار الدول** ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ضمن مجموع برقم ٣٣٦٩ (القاهرة) ٠

الأسدي ، أحمد بن محمد (ت ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م)

(١٥) **أخبار الكرام** ، مخطوطة بالمكتبة الظاهرية ، رقم ٤٧٥٩ (دمشق) ٠

(١٦) **اعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام** (المؤلف مجهول) ، مخطوطة بمكتبة الحرم المكي ـ غير مرقمة ـ (تاريخ ـ دهلوي)٠

البسطامي ، عبد الرحمن بن علي (ت ٨٥٨هـ/١٤٥٤م)

(١٧) **كتاب الفوايح المسكية في الفواتح المكية**، محفوظة في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض رقم ٨٦/٢٤٣. البكرى، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م).

(١٨) **الممالك والمسالك** ، مخطوطة بمكتبة نور عثمانية جامعي رقم ٣٠٣٤ (اسطانبول)٠

الجندي ، بهاء الدين محمد بن يوسف (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)

(١٩) **السلوك في طبقات العلماء والملوك** ، مخطوط بمكتبة السيد أحمد زبارة (صنعاء) ٠

الحبشي ، عبد الرحمن بن محمد

(٢٠) **الاعتبار في التواريخ والأخبار** ، مخطوطة بالمكتبة الغربية بجامع صنعاء الكبير رقم ٨١ (صنعاء) ٠

الحميري ، محمد بن محمد (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٥م)

(٢١) **الروض المعطار**، مخطوط بمكتبة عارف حكمت مكتبة الملك عبد العزيز العامة تحت رقم ١١٠. الحنبلى ، مرعى بن يوسف (ت ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م).

(٢٢) **نزهة الناظرين**، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٣٦٩ مجاميع (القاهرة) ٠

الحنفي ، ابراهيم بن شجاع

(٢٣) **منازل الحجاز** ، مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات جامعة الدول العربية رقم ٢/٣٤٨٦ (القاهرة) ٠

الخزرجي ، علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/١٤١٠م)

(٢٤) **العسجد المسبوك**، مخطوط بالمكتبة المحمودية مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالمدينة المنورة. الخضراوى ، أحمد بن محمد (ت ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م).

(٢٥) **الجواهر المعدة من فضائل جدة** ، مخطوطة مصورة مكتبة الملك فهد الوطنية (الرياض) . ددة ، علي بن مصطفى (ت١٠٠٦هـ/ ١٥٩٨م).

(٢٦) **رسالة المقام في بناء المسجد الحرام** ، مخطوطة بمكتبة أوغلو رقم ١٠٧٠ (بورصة) ٠

الرشيدى ، أحمد بن عبد الرزاق (ت ١٠٩٦هـ/١٦٨٥م) ٠

(٢٧) **حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى امارة الحجاج** ، مخطوطة مصورة ، جامعة الرياض رقم (٢٣٤) ٠

سبط ابن الجوزى ، أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)

(٢٨) **مرآة الزمان** ، مخطوطة بمكتبة طوبقابوسراى رقم ٢٦٠٧ (اسطانبول) ٠

الشحرى ، ابن حسان اليمنى

(٢٩) **الوسيط في تاريخ اليمن** ، مخطوط بمكتبة جامعة اكسفورد ، الرقم Ms. Arab. E 210 (اكسفورد) ٠

الصباغ ، محمد بن أحمد المكى (ت ١٣٢١هـ/١٩٠٣م)

(٣٠) **تحصيل المرام** ، مخطوطة مصورة بجامعة الرياض، برقم ٢٣٣(تاريخ) ٠

(٣١) **صفة الاقاليم الاسلامية** ، (المؤلف مجهول) ، مخطوطة بمكتبة أحمد الثالث رقم ٣٠١٢ (اسطانبول) ٠

الطبرى ، عبد القادر بن محمد (ت ١٠٣٣هـ/١٦٢٤م)

(٣٢) **الأرج المسكى** ، مخطوطة مصورة بجامعة الرياض رقم ٢٢٢ (تاريخ) ٠

الطبرى ، محمد بن على الحسينى (ت ١١٧٣هـ/١٧٦٠م)

(٣٣) **اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن** ، مخطوطة بجامعة الرياض برقم ٢٢٤ (تاريخ) ٠

الظاهرى ، غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م)

(٣٤) **كشف الممالك** ، مخطوطة بمكتبة أحمد الثالث برقم ٢٩٩٠ (اسطانبول) ٠

علان ، محمد بن عبد الملك

(٣٥) **مثير شوق الأنام** ، مخطوطة بمكتبة طوبقابوسراى ، رقم ١٢١٢ (اسطانبول) ٠

العمرى ، ابن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)

(٣٦) **مسالك الأبصار** ، مخطوط المكتبة السليمانية رقم ٣٤٣٦ (اسطانبول) ٠

العينى ، بدر الدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)

(٣٧) **عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان** ، مخطوط المكتبة السليمانية رقم ٢٣١٧ (اسطانبول) ٠

غازى ، عبد الله (ت ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م)

(٣٨) **افادة الأنام بذكر اخبار بلد الله الحرام**، مخطوطة بمكتبة المرحوم محمد نصيف (جدة)٠

الفاسى ، تقى الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٩م)

(٣٩) **تحفة الكرام** ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٦٤٦ (القاهرة) ٠

(٤٠) **تحصيل المرام** ، مخطوطة بمكتبة الشيخ عارف حكمت (المدينة) ٠

المسبحي ، محمد بن عبيد الله (ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م)

(٤١) **أخبار مصر وفضائلها** . نسخة مصورة عن مكتبة الأسكوريال رقم ٥٣٤ (أسبانيا) .

النابلسي ، عبد الغني اسماعيل (ت ١١٤٣هـ/١٧٣١م)

(٤٢) **الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام والحجاز** ، مخطوطة بمكتبة طوبقابوسراي رقم ٥٢٤ (اسطانبول) .

النويري ، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م)

(٤٣) **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، مخطوط بالمكتبة السليمانية رقم ٣٥١٤ (اسطانبول) .

ثانيا ـ المطبوعة

ابن الأثير ، أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد .(ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م)

(١) **اللباب في تهذيب الأنساب** ، القاهرة (١٩٥٧م) .

(٢) **الكامل في التاريخ** ، ط(٢) بيروت الجزء الرابع ، القاهرة (١٩٦٧م) .

ابن اياس ، محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م)

(٣) **بدائع الزهور في وقائع الدهور** ، الجزء الرابع ، القاهرة (١٩٦٠م) .

ابن بدران ، عبد القادر بن أحمد (ت ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)

(٤) **تهذيب تاريخ دمشق** ، ط(١) ، مطبعة الترقي بدمشق .

ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

(٥) **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** ، بيروت (١٩٦٠م) .

ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

(٦) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، طبعة دار الكتب المصرية .

ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن جبير الكناني (ت ٦١٤هـ/١٢٠١م)

(٧) **رحلة ابن جبير** ، بيروت (١٩٦٤م) .

ابن الجوزى ، عبد الرحمن بن على بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)

(٨) **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ، حيدر أباد (١٣٥٧ ـ ١٣٥٩هـ) .

(٩) **القرامطة** ، تحقيق محمد الصباغ ، ط(٣) ، بيروت (١٩٧٠م) .

(١٠) **صفوة الصفوة** ، حيدر أباد (١٣٥٥هـ)

ابن حبيب ، أبو جعفر محمد الهاشمي البغدادى (ت ٢٤٥هـ/٨٦٠م)

(١١) **كتاب المحبر** ، منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر ـ بيروت .

ابن حجر ، أحمد بن على العسقلاني (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)

(١٢) **لسان الميزان** ، حيدر أباد (١٣٣٠هـ)

(١٣) **بلوغ المرام من أدلـة الأحكـام** ، تحقيق محمد حامد الفقى، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ٠

ابن حزم ، أبو محمد على بن أحمد (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م)

(١٤) **جمهرة أنساب العرب** ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة (١٩٦٢م) ٠

ابن حنبل ، أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م)

(١٥) **المسند** ، بيروت ٠

ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبى (من رجال القرن الرابع الهجرى)

(١٦) **كتاب صورة الأرض** ، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ٠

ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله بن أحمد (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م)

(١٧) **المسالك والممالك** ، أوروبا (١٨٨٩م) ٠

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

(١٨) **العبر وديوان المبتدأ والخبر** ، بولاق (١٢٨٤هـ) ٠

ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨١م)

(١٩) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، دار الثقافة ـ بيروت ٠

ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م)

(٢٠) **الاشتقاق** ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة (١٩٥٨م) ٠

ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)

(٢١) **الانتصار لواسطة عقد الأمصار** ، الجزء الرابع ، القاهرة (١٣٠٩هـ) ٠

ابن رسته ، أبو على أحمد بن عمر (كان حيا سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م)

(٢٢) **الأعلاق النفيسة** ، طبع ليدن (١٨٩١م) ٠

ابن سعد ، محمد (ت ٢٢٠هـ/٨٣٥م)

(٢٣) **كتاب الطبقات الكبير** ، جـ٥ ، ليدن (١٣٢٢هـ) ٠

ابن سعيد ، على بن موسى المغربي (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٥م)

(٢٤) **المغرب في حلى المغرب** ، جامعة فؤاد الأول ٠

ابن سنان ، ثابت (ت ٣٦٥هـ/٩٧٦م)

(٢٥) **تاريخ أخبار القرامطة** ، بيروت (١٩٧١م) ٠

ابن سيدة : أبو الحسن علي ابن اسماعيل (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م)

(٢٦) **كتاب المخصص** ، بولاق (١٣٢١هـ) ٠

ابن الصيرفي ، أبو القاسم على بن منجب (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م)

(٢٧) **الاشارة الى من نال الوزارة** ، نشر المعهد الفرنسى بالقاهرة (١٩٢٤م) ٠

ابن طباطبا ، محمد بن على المعروف بابن الطقطقا (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م)

(٢٨) **الفخري في الآداب السلطانية** ، بيروت (١٩٦٦م) ·
ابن ظهيرة ، جمال الدين محمد بن جار الله (من رجال القرن التاسع الهجري)

(٢٩) **الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف** ، ط٤ (١٩٧٣م) ·
ابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧هـ/٨٧٠ـ٨٧١م)

(٣٠) **فتوح مصر واخبارها** ، طبعة ليدن (١٩٢٠م) ·
ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م)

(٣١) **العقد الفريد** ، الطبعة الثالثة ، القاهرة (١٩٦٥م) ·
ابن عذاري ، أبو عبد الله محمد المراكشي (من رجال القرن السابع الهجري)

(٣٢) **البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب** ، نشر كولان وليفي بروفنسال ، بيروت ·
ابن الفقيه ، أحمد بن محمد الهمداني (ت ٣٦٥هـ/٩٧٦م)

(٣٣) **كتاب البلدان** ، ليدن (١٣٠٢هـ) ·

ابن القاسم ، يحي بن محمد (ت ١١٠٠هـ/١٦٨٩م)

(٣٤) **غاية الأماني في أخبار القطر اليماني** ، القاهرة (١٩٦٨م) ·
ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)

(٣٥) **الشعر والشعراء** ، دار المعارف ، القاهرة (١٩٦٦م) ·

(٣٦) **المعارف** ، الطبعة الثانية ، بيروت (١٩٧٠م) ·
ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)

(٣٧) **ذيل تاريخ دمشق** ، بيروت (١٩٠٨) ·
ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م)

(٣٨) **البداية والنهاية** ، ج١٠ ، ط(١) ، بيروت (١٩٧٠م) ·
ابن ماجد ، شهاب الدين أحمد (ت ٩٠٤هـ/١٤٩٨م)

(٣٩) **كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد** ، دمشق (١٩٧١م) ·
ابن ماجه ، محمد بن يزيد (ت ٢٧٣هـ/٨٨٧م)

(٤٠) **سنن المصطفى** ، ط(١) ، المطبعة التازية بمصر ·
ابن المجاور ، جمال الدين يوسف بن يعقوب (ت ٦٩٠هـ/١٢٩١م)

(٤١) **تاريخ المستبصر** ، طبعة ليدن (١٩٥١م) ·
ابن المعتز ، محمد بن جعفر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م)

(٤٢) **ديوان ابن المعتز** ، بيروت (١٩٦١م) ·
ابن المعز ، تميم (ت ٣٧٤هـ/٩٨٥م) ·

(٤٣) **ديوان تميم بن المعز** ، القاهرة (١٩٥٧م) ، بيروت (١٩٦٠م) ·
ابن منظور ، محمد بن مكرّم (ت ٧١١هـ/١٣١١م)

(٤٤) **لسان العرب المحيط** ، اعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي ، بيروت ·
ابن منقذ ، أسامة (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)

(٤٥) **المنازل والديار** ، القاهرة (١٩٦٨م) ٠
ابن ميسر ، محمد بن علي بن يوسف (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)
(٤٦) **تاريخ مصر** ، القاهرة (١٩١٩م) ٠
ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧ـ١٢٩٨م) ٠
(٤٧) **مفرج الكروب** ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة (١٩٥٧م) ٠
أبو حنيفة ، النعمان بن محمد بن منصور (ت ٣٦٣هـ/٩٧٤م)
(٤٨) **افتتاح الدعوة وابتداء الدولة** ، تحقيق فرحات الدشراوى ، تونس (١٩٧٥م) ٠
(٤٩) **دعائم الاسلام** ، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضى ، ط٣ ، القاهرة (١٩٦٩م) ٠
(٥٠) **تاويل الدعائم** ، تحقيق محمد حسن الأعظمي ، دار المعارف بمصر ٠
أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ/٨٨٩م)
(٥١) **سنن أبو داود** ، تحقيق عزت عبيد الدعاس ، ط١ ، حمص (١٩٧١م) ٠
أبو سعيد ، حامد غنيم
(٥٢) **العلاقات العربية السياسية في عصر البويهيين** ، ط ١ ، القاهرة (١٩٧١م) ٠
(٥٣) **عصر الدول الاقليمية** ، القاهرة (١٩٧٤م) ٠
أبو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)
(٥٤) **الروضتين في اخبار الدولتين** ، القاهرة (١٢٨٧هـ) ٠
أبو الفداء ، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)
(٥٥) **المختصر في أخبار البشر** ، دار المعرفة ، بيروت ٠
(٥٦) **تقويم البلدان** ، باريس (١٨٤٠م)٠
أبو الفرج ، قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م)
(٥٧) **نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتاب** ، طبعة أوروبا (١٨٨٩م) ٠
أحمد أمين
(٥٨) **ظهر الاسلام** ، بيروت (١٩٦٩م) ٠
الأزرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠هـ/٨٦٥م)
(٥٩) **أخبار مكة** ، ط٢ ، مكة المكرمة (١٩٦٥م) ٠
الأصبهاني ، عماد الدين أبو عبد الله محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)
(٦٠) **خريدة القصر ، قسم شعراء الشام** ، دمشق (١٩٦٤م) ٠
الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م)
(٦١) **مقاتل الطالبيين** ، القاهرة (١٩٤٦) ٠
الأصفهاني ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٩م)
(٦٢) **حلية الأولياء** ، مصر (١٣٥١هـ) ٠
الأعظمي ، محمد حسن
(٦٣) **عبقرية الفاطميين** ، طبع مكتبة الحياة ، بيروت ٠
الأفغاني ، سعيد
(٦٤) **أسواق العرب في الجاهلية والاسلام** ، ط٢ ، دمشق (١٩٦٠م) ٠
أمين ، صالح محمد

(٦٥) **تاريخ اليمن (عصر الولاة)** ، ط١ ، القاهرة (١٩٧٥م) ٠
الأنصاري ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م)
(٦٦) **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر** ، ليبزج (١٩٢٣م) ٠
الأنطاكي ، يحيى بن سعيد (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م)
(٦٧) **تاريخ الأنطاكي** ، بيروت (١٩٠٥ ـ ١٩٠٩م) ٠
الباخرزي ، أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٤٦٧هـ/١٠٧٥م)
(٦٨) **دمية القصر وعصرة أهل العصر** ، الجزء الأول ، القاهرة (١٩٦٨م) ٠
باسلامة ، حسين عبد الله (ت ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م)
(٦٩) **تاريخ الكعبة المعظمة** ، ط٢ ، القاهرة (١٩٦٤م) ٠
(٧٠) **تاريخ عمارة المسجد الحرام** ، ط٢ ، القاهرة (١٩٦٤م) ٠
بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب (ت٩٤٧هـ/١٥٤٠م)
(٧١) **تاريخ ثغر عدن** ، ليدن (١٩٣٦م) ٠
البتنوني ، محمد لبيب (ت ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)
(٧٢) **الرحلة الحجازية** ، ط ٢ ، القاهرة (١٩٢٩م) ٠
البراوي ، راشد
(٧٣) **حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين** ، القاهرة (١٩٤٨م) ٠
البرعي ، عبد الرحيم بن أحمد (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م)
(٧٤) **ديوان البرعي** ، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ٠
البركاتي ، شرف بن عبد المحسن
(٧٥) **الرحلة اليمانية** ، ط ٢ ، بيروت (١٣٨٤هـ) ٠
بروكلمان ، كارل
(٧٦) **تاريخ الشعوب الاسلامية** ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، ط٤ ، بيروت (١٩٦٥م) ٠
البغدادي ، اسماعيل باشا
(٧٧) **هدية العارفين** ، اسطانبول (١٩٥١م) ٠
بهجت ، علي
(٧٨) **حفريات الفسطاط** ، القاهرة (١٩٢٨م) ٠
بيرين ، جاكلين
(٧٩) **اكتشاف جزيرة العرب** ، ترجمة قدري قلعجي ، بيروت (١٩٦٣م) ٠
الثعالبي ، عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٨م)
(٨٠) **يتيمة الدهر** ، ط ٢ ، القاهرة (١٩٥٦م) ٠
الجاسر ، حمد
(٨١) **في شمال غرب الجزيرة** ، ط ١ ، بيروت (١٩٧١م) ٠
الجزري ، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م)
(٨٢) **غاية النهاية في طبقات القراء** ، مجلدان ، القاهرة (١٩٣١ـ١٩٥٢م) ٠
الجزيري ، عبد القادر بن محمد (ت ٩٧٧هـ/١١٩٠م)

(٨٣) **درر الفوائد المنظمة في اخبار الحجاج وطريق مكة المعظمة** . المطبعة السلفية بالقاهرة٠
الجعدي ، عمر بن سمرة (ت ٥٨٦هـ/١١٩٠م)
(٨٤) **طبقات فقهاء اليمن** ، القاهرة (١٩٥٧م) ٠
الجندي ، بهاء الدين محمد بن يوسف (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)
(٨٥) **القرامطة من كتاب السلوك** ، نشر مع تاريخ اليمن لعمارة اليمنى،القاهرة (١٩٥٧م)٠
(٨٦) **السلوك** ، نشر كاى ، ملحق بتاريخ عمارة ، القاهرة (١٩٥٧م) ٠
الجوذرى ، أبو علي منصور (من رجال القرن الرابع الهجرى)
(٨٧) **سيرة الأستاذ جوذر** ، تحقيق محمد كامل حسين ، مطبعة الاعتماد بمصر ٠
الجوهري ، اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ/١٠٠٣م)
(٨٨) **الصحاح** ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار . مصر ٠
حاجي خليفة ، مصطفى عبد الله (ت ١٠٥٨هـ/١٦٥٧م)
(٨٩) **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ، ط ٢ (١٣٨٧هـ) ٠
حاطوم ، نور الدين
(٩٠) **يقظة القومية** ، القاهرة (١٩٦٨م)٠
حسن ، (الدكتور) حسن ابراهيم
(٩١) **تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ، الطبعة السابعة ، القاهرة (١٩٦٤م) ٠
(٩٢) **تاريخ الدولة الفاطمية** . ط٢ ، مطبعة النهضة المصرية (١٩٥٨م) ٠
(٩٣) **المعز لدين الله الفاطمي** ، (بالاشتراك مع طه شرف) ، القاهرة (١٩٤٧م) ٠
الحربي ، ابراهيم بن اسحاق (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م)
(٩٤) **كتاب المناسك وأماكن طرق الحج** ، تحقيق حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة (١٩٦٩م) ٠
حلمي ، محمد
(٩٥) **الخلافة والدولة** ، ط١ ، القاهرة (١٩٥٩م) ٠
الحمادى ، محمد بن مالك اليماني (عاش في أواسط القرن الخامس)
(٩٦) **كشف اسرار الباطنية** ، مطبعة دار الأنوار (١٣٥٧هـ) ٠
الحنبلي ، ابن العماد العكرى عبد الحى بن أحمد (ت ١٠٨٩هـ)
(٩٧) **شذرات الذهب** ، القاهرة (١٣٥٠م) ٠
خسرو ، ناصر (ت ٤٩٨هـ/١١٠٤م)
(٩٨) **سفرنامة** ، نقله الى العربية الدكتور يحيى الخشاب بعنوان **رحلات ناصر خسرو** ، ط٢ ، بيروت (١٩٧٠م) ٠
الخضرى ، الشيخ محمد عفيفى (ت ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م)
(٩٩) **الدولة الأموية** ، ط١ ، القاهرة (١٩٦٩م) ٠
الخطيب البغدادى ، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٢م)
(١٠٠) **تاريخ بغداد** ، ١٤ جزء ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ٠
الخفاجي ، محمد عبد المنعم

(١٠١) **بنو خفاجة وتاريخهم** ، القاهرة (١٩٥٠م) .
الداودي ، أحمد بن علي (ت ٨٢٨هـ/١٤٢٤م)

(١٠٢) **عمدة الطالب**، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (١٣٩٠هـ) .
دحلان ، أحمد بن زيني (ت ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م)

(١٠٣) **خلاصة الكلام** ، المطبعة الخيريـة بمصر (١٣٠٥هـ) .
الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت بعد ٧٣٦هـ/١٣٣٥م)

(١٠٤) **كنز الدرر (الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية)** ، تحقيق صلاح الدين المنجد، جـ٦ ، القاهرة (١٩٦١م) .
الدياربكري ، الشيخ حسين بن محمد (ت ٩٦٦هـ/١٥٥٩م)

(١٠٥) **تاريخ الخميس فـي أحوال أنفس نفيس** ، بيروت .
الدينوري ، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م)

(١٠٦) **الأخبار الطوال** ، ط١ ، القاهرة (١٩٦٠م) .
الذهبي ، الحافظ محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م)

(١٠٧) **دول الاسلام** ، حيدر أباد (١٣٣٧هـ) .

(١٠٨) **العبر في خبر من غبر** ، الكويت (١٩٦١م) .
الرازي ، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد (ت ٣٢٧هـ/٩٣٩م)

(١٠٩) **علل الحديث** ، القاهرة (١٣٤٤هـ) .
رايس ، تامار

(١١٠) **السلاجقة** ، تعريب لطفي الخوري وآخرين ، بغداد (١٩٦٨م) .
ربيع ، حسنين محمد

(١١١) **النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين** ، القاهرة (١٩٦٤م) .
رفعت ، ابراهيم (ت ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م)

(١١٢) **مرآة الحرمين** ، ط١ ، القاهرة (١٩٢٥م) .
الروذراوري ، أبو شجاع محمد بن الحسين (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م)

(١١٣) **ذيل تجارب الأمم** ، القاهرة (١٩١٤م) .
الريان ، خالد

(١١٤) **فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية** ، دمشق (١٩٧٣م) .
زامباور ،

(١١٥) **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي**. نقله الى العربية زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود ، القاهرة (١٩٥١م) .
الزبيدي . محمد بن محمد (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)

(١١٦) **تاج العروس** ، بيروت (١٩٦٦م) .
الزركلي ، خير الدين

(١١٧) **الأعلام** ، ط ٣ ، بيروت (١٩٦٩م) ·

زكي ، نعيم

(١١٨) **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب** ، القاهرة (١٩٧٣م) ·

الزواوي ، محمد صالح

(١١٨أ) **بغية الراغبين** ، ط١ ، المطبعة الخيرية (١٣٣٠هـ) ·

الزيلعي ، جمال الدين عبد الله بن يوسف (ت ٧٦٢هـ/١٣٦٠م)

(١١٩) **نصب الراية** ، ط ٢ ، بيروت (١٣٩٣هـ) ·

السباعي ، أحمد

(١٢٠) **تاريخ مكة** ، ط ٣ ، مكة المكرمة (١٣٨٧هـ) ·

السبتي ، القاسم بن يوسف (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م)

(١٢١) **مستفاد الرحلة والاغتراب** ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، تونس (١٩٧٥م) ·

السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (ت٧٧١هـ/١٣٧٠م)

(١٢٢) **طبقات الشافعية الكبرى** ، ط ١ ·

السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢هـ/١٤٩٧م)

(١٢٣) **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة** ، ط١ ، القاهرة (١٩٥٧م) ·

السرّاج ، جعفر بن أحمد (ت ٥٠٠هـ/١١٠٦م)

(١٢٤) **مصارع العشاق** ، بيروت (١٩٥٨م) ·

سرور ، محمد جمال الدين

(١٢٥) **الحياة السياسية في الدولة العربية** ، ط٣ ، القاهرة (١٩٦٦م) ·

(١٢٦) **النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب** ، ط٢ ، القاهرة (١٩٥٦م) ·

(١٢٧) **الدولة الفاطمية في مصر** ، القاهرة (١٩٧٠م) ·

السلفي ، أحمد بن محمد (ت ٥٧٦هـ/١١٨٠م)

(١٢٨) **اخبار وتراجم اندلسية** ، مستخرجة من معجم السفر ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ·

السلمي ، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين (ت ٤١٢هـ/١٠٢١م)

(١٢٩) **طبقات الصوفية** ، القاهرة (١٩٥٣م) ·

السليمان ، علي بن حسين

(١٣٠) **العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك** ، القاهرة (١٩٧٣م) ·

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)

(١٣١) **تاريخ الخلفاء** ، القاهرة (١٣٥١هـ) ·

(١٣٢) **حسن المحاضرة** ، القاهرة (١٣٢١هـ) ·

الشيرازي ، المؤيد في الدين هبة الله بن موسى (ت ٤٧٠هـ/١٠٧٧م)

(١٣٣) **سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة** ، تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة (١٩٤٩م)٠
الصابي ، أبو الحسن هلال بن المحسن (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م)

(١٣٤) **رسوم دار الخلافة** ، بغداد (١٩٦٤م) ٠
صبحي ، أحمد

(١٣٥) **نظرية الامامة لدى الشيعة** ، دار المعارف بمصر (١٩٦٩م) ٠
صفوت ، أحمد زكي

(١٣٦) **جمهرة رسائل العرب** ، القاهرة (١٩٣٧م) ٠
الصولي ، محمد بن يحي (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م)

(١٣٧) **اخبار الراضي والمتقي** ، نشر ج٠ هيورث٠ دين ، مطبعة الصادق بمصر ٠
الطبري ، محب الدين أحمد بن عبد الله (ت ٦٩٤هـ/١٢٩٥م)

(١٣٨) **القرى لقاصد ام القرى** ، ط ٢ ، القاهرة (١٩٧٠م) ٠
الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م)

(١٣٩) **تاريخ الأمم والملوك** ، طباعة دار القاموس ، بيروت ٠

(١٤٠) **جامع البيان عن تاويل آي القرآن** ، ج ٧ ، دار المعارف بمصر ٠
الطويل ، محمد أمين غالب

(١٤١) **تاريخ العلويين** ، اللاذقية (١٩٢٤م) ٠
الظاهري ، غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م)

(١٤٢) **زبدة كشف الممالك** ، تحقيق بولس راويس ، باريس (١٨٩٤م) ٠
عابدين ، عبد المجيد

(١٤٣) **بين العرب والحبشة** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ٠
آل عبد القادر ، محمد

(١٤٤) **تحفة المستفيد في تاريخ الاحساء** ، ط١ ، الرياض (١٩٦٠م) ٠
العصامي ، عبد الملك بن حسين (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م)

(١٤٥) **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي** ، المطبعة السلفية ، القاهرة ٠
العقيلي ، الشريف علي بن الحسين بن حيدره (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)

(١٤٦) **ديوان الشريف العقيلي** ، تحقيق زكي المحاسني ، القاهرة ٠
العقيلي ، محمد بن أحمد بن عيسى

(١٤٧) **تاريخ الخلاف السليماني** ، الرياض (١٩٥٨م) ٠

(١٤٨) **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (مقاطعة جازان)** ، جـ١ ، الرياض (١٩٦٩م) ٠
علي ، محمد كرد

(١٤٩) **خطط الشام** ، بيروت (١٩٦٩م) ٠
عمارة اليمني ، نجم الدين بن أبي الحسن الحكمي (ت ٥٦٩هـ/١١٧٤م)

(١٥٠) **تاريخ اليمن** . تحقيق حسن سليمان محمود ، القاهرة (١٩٥٧م) ·
العمرى ، ابن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)
(١٥١) **مسالك الابصار في ممالك الأمصار** ، جـ١ ، تحقيق أحمد زكى ، القاهرة (١٩٢٤م)·
(١٥٢) **مسالك الابصار في ممالك الأمصار** ، القسم الخاص باليمن · تحقيق أيمن فؤاد السيد ، دار الاعتصام ، القاهرة ·
غالب ، مصطفى
(١٥٣) **تاريخ الدعوة الاسماعيلية** ، ط ٢ ، بيروت (١٩٦٥م) ·
الفاسى ، تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٩م)
(١٥٤) **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** ، القاهرة (١٩٥٦م) ·
(١٥٥) **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين** ، تحقيق محمد حامد الفقى ، جـ١ ، القاهرة (١٩٥٩م) ·
(١٥٦) **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين** ، تحقيق فؤاد السيد ، جـ٢ ــ ٨ ، القاهرة (١٩٦٠ــ١٩٦٩م) ·
القرشى ، عبد القادر بن محمد (ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م)
(١٥٧) **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ، الهند ·
القرطبى ، عريب بن سعيد (ت ٣٦٦هـ/٩٧٦ــ٩٧٧م)
(١٥٨) **صلة الطبرى** ، المطبعة الحسينية المصرية (١٣٢٣هـ) ·
القشيري ، عبد الكريم بن هوازن (ت ٤٦٥هـ/١٠٧٢م)
(١٥٩) **الرسالة القشيرية** ، ط ٢ ، القاهرة (١٩٥٩م) ·
قطب الدين الحنفى ، محمد بن أحمد (ت ٩٨٨هـ/١٥٨٠م)
(١٦٠) **اعلام العلماء الأعلام** ، ط ١ ، القاهرة (١٩٥٠م) ·
القلقشندى ، أحمد بن على (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
(١٦١) **مآثر الأنافة في معالم الخلافة** ، تحقيق عبد الستار ، الكويت (١٩٦٤م) ·
(١٦٢) **صبح الأعشى في صناعة الانشاء** ، المطابع الأميرية (القاهرة) ·
(١٦٣) **نهاية الأرب في معرفة انساب العرب** ، بغداد (١٩٥٨م) ·
كاشف ، سيدة اسماعيل
(١٦٤) **مصر في عهد الطولونيين والأخشيديين** (بالاشتراك مع حسن أحمد محمود) القاهرة (١٩٦٠م) ·
(١٦٥) **مصر في عهد الأخشيديين** ، القاهرة (١٩٥٠م) ·
الكتبى ، محمد شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)
(١٦٦) **فوات الوفيات** ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ·
كحالة ، محمد رضا

(١٦٧) **معجم المؤلفين** ، نشر مكتبة المثنى ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ·
الكندى ، محمد يوسف (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م)

(١٦٨) **ولاة مصر** ، بيروت (١٩٥٩م) ·
لويس ، برنارد

(١٦٩) **الدعوة الاسماعيلية الجديدة** ، ترجمة سهيل زكار. ط ١ ، بيروت (١٩٧١م)·
لينبول ، ستانلي

(١٧٠) **الدول الاسلامية** ، ترجمة محمد صبحى فرزات ، دمشق (١٩٧٣م) ·
ماجد ، محمد عبد المنعم

(١٧١) **الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه** ، القاهرة (١٩٥٩م) ·

(١٧٢) **السجلات المستنصرية** (تحقيق) القاهرة (١٩٥٤م) ·
الماوردى ، أبو الحسن على بن محمد (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٧م)

(١٧٣) **الأحكام السلطانية** ، ط ٢ ، القاهرة (١٩٦٦م) ·
مبارك ، على باشا (ت ١٣١١هـ/١٨٩٣م)

(١٧٤) **الخطط التوفيقية** . ط ١/القاهرة (١٣٠٥هـ) ·
المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٣٨٥هـ/٩٩٨م)

(١٧٥) **الكامل في اللغة والآداب** (١٣٨٦هـ) ·
محمود ، حسن سليمان

(١٧٦) **تاريخ اليمن السياسي** . ط ١ (١٩٦٩م) ·
المسعودى ، على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)

(١٧٧) **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ط ٤ ، القاهرة (١٩٦٤م) ·

(١٧٨) **التنبيه والاشراف** ، بيروت (١٩٦٨م) ·
مسكويه ، أبو على أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م)

(١٧٩) **تجارب الأمم** ، مصر (١٩١٤م) ·
مصطفى ، ابراهيم وآخرون

(١٨٠) **المعجم الوسيط** ، نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ·
المعرى ، أبو العلاء أحمد بن عبد الله (ت ٤٤٩هـ/١٠٥٦م)

(١٨١) **لزوم ما لا يلزم** ، بيروت (١٩٦١م) ·
المقدسى ، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م)

(١٨٢) **احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، ليدن (١٩٠٦م)
المقريزى ، أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)

(١٨٣) **اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا** ، القاهرة (١٩٦٧م) ·

(١٨٤) **اغاثة الأمة** ، تحقيق مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة (١٩٤٠م) ·

(١٨٥) **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك** ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة (١٩٥٥م) .

(١٨٦) **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** ، طبعة أوروبا .

(١٨٧) **النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم** ، ليدن (١٨٨٨م) .

المناوي ، محمد حمدى

(١٨٨) **الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي** ، القاهرة (١٩٧٠م) .

منتخبات بعنوان :

(١٨٩) **المنتقى في اخبار أم القرى** ، طبع أوروبا ضمن مجموع بعنوان أخبار مكة المشرفة .

مؤلف مراكشي مجهول

(١٩٠) **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشره سعد زغلول عبدالحميد، الاسكندرية (١٩٥٨م) .

النهروالى ، قطب الدين محمد بن أحمد (ت ٩٩٠هـ/١٥٨١م)

(١٩١) **كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام** ، طبعة أوروبا .

الواسعي ، عبد الواسع بن يحى

(١٩٢) **تاريخ اليمن** ، القاهرة (١٣٤٦هـ).

ونسنك ، أ.ي. وآخرون

(١٩٣) **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى** ، ليدن (١٩٦٧م) .

الهاشمي ، غريب بن عجيب

(١٩٤) **سياحتي الى الحجاز** ، القاهرة (١٩١٥م) .

الهجويرى ، على بن عثمان (عاش في القرن الخامس الهجرى)

(١٩٥) **كشف المحجوب** ، نقلته من الفارسية الدكتورة اسعاد عبد الهادى قنديل ، القاهرة (١٩٧٤م) .

الهمداني ، الحسن بن أحمد (ت ٣٣٤هـ/٩٤٦م)

(١٩٦) **الاكليل** ، الجزء ٨ ، نشرة انستاس الكرملي ، بغداد (١٩٣١م) .

(١٩٧) **صفة جزيرة العرب** ، تحقيق محمد الاكوع ، نشر دار اليمامة (١٩٧٤م) .

الهمدانى ، حسين فيض الله

(١٩٨) **في نسب الفاطميين** ، القاهرة (١٩٥٨م) .

(١٩٩) **الصليحيون والحركة الفاطمية** ، القاهرة .

ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)

(٢٠٠) **معجم البلدان** ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت .

(٢٠١) **معجم الأدباء المعروف بارشاد الأريب الى معرفة الأديب** ، تحقيق د.س. مرجليوت، ط١ ، القاهرة (١٩٢٧م) .

اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م)

(٢٠٢) **تاريخ اليعقوبي** ، مطبعة النجف (١٣٥٨هـ) .

(٢٤٠) **كتاب البلدان** ، ليدن (١٨٩١م) .

(٢٠٤) **مشاكلة الناس لزمانهم** ، بيروت (١٩٦٢م) .

ثالثا : الدوريـــات

التكريتي ، محمد صالح

(١) الزجاجي النحوي فـي تخليط المؤرخين ، **مجلة كلية الآداب** ، **جامعة الرياض** ، المجلد الثاني ، السنة الثانية ، (٧١ـ١٩٧٢م) .

الجاسر ، حمد

(٢) أدب الخواص ، لأبي القاسم الحسين بن المغربي ، **مجلة العرب** ، الجزء الأول ، السنة الثامنة ، (رجب ١٣٩٣هـ) .

الدجيلي ، عبد الحميد

(٣) رسائل اسماعيلية قديمة نـادرة ، **مجلة المجمع العراقي** ، الجزء الأول، المجلد الثالث، (١٩٥٤م) .

زيدان ، محمد حسين

(٤) العرب بين الارهاص والمعجزة ، **مجلة الدارة** ، العدد الأول ، السنة الثانية ، (ربيع أول ١٣٩٧هـ) .

الشبل ، عبد الله بن يوسف

(٥) الدولة الأخيضرية ، **مجلة كلية اللغة العربية** ، **جامعـة محمـد بـن سعود** ، العـدد السادس (١٩٧٦م) .

شوكة ، ابراهيم

(٦) ديار العرب من أنس المهج للادريسي ، **مجلة المجمع العراقي** ، المجلد الحادي والعشرون (١٩٧١م) .

صبحي ، لبيب

(٧) التجارة الكارمية ، **المجلة التاريخية المصرية** ، المجلد الرابع (١٩٥٢م) .

العقيلي ، محمد أحمد

(٨) قبيلة بني شعبة ، **مجلة العرب** ، جـ١١ ، ١٢ ، السنة الثامنة (جماديان ١٣٩٤هـ) .

العلي ، صالح أحمد

(٩) طرق المواصلات في الحجاز ، **مجلة العرب** ، الجزء الحادي عشر ، السنـة الثانيـة ، (جمادى الأولى ١٣٨٨هـ) .

عمر ، فاروق

(١٠) الرسائل المتبادلة بين أبي جعفر المنصور ومحمد النفس الزكية ، **مجلة العرب** ، الجزء الأول ، السنة الخامسة (رجب ١٣٩٠هـ) .

عنقاوى ، عبد الله عقيل

(١١) المحمل ، نشأته وآراء المؤرخين فيه ، **مجلة كلية الآداب** ، **جامعة الرياض** ، المجلد الثاني ، السنة الثالثة (١٩٧١م) .

المغربي ، الأستاذ

(١٢) من آثار السيدة زبيدة ، **مجلة الرسالة** ، العدد ٩٩٥ ، السنة العشرون ، (يوليه ١٩٥٢م) .

فاروق ، أحمد

(١٣) دباغة الجلود ، **مجلة العرب** ، الجزء السابع والثامن ، السنة العاشرة ، (محرم وصفر ١٣٩٦هـ) .

القوصي ، عطية

(١٤) أضواء جديدة على تجارة الكارم . **المجلة المصرية التاريخية** ، المجلد الثاني والعشرون (١٩٧٥م) .

ماجد ، عبد المنعم

(١٥) النقود الفاطمية ، **حوليات كلية الآداب** ، **جامعة ابراهيم** ، المجلد الثاني ، (مايو ١٩٥٣م) .

ماهر ، سعاد

(١٦) شارات الخلافة في الفن الاسلامي . **مجلة الدارة** ، العدد الثالث ، السنة الثالثة ، (شوال ١٣٩٧هـ) .

موزل ، الويس

(١٧) طريق الحج العراقى القديم ، **مجلة العرب** ، الجزء الثالث ، السنة السابعة ، (رمضان ١٣٩٢هـ) .

النيسابورى ، أحمد

(١٨) استتار الامام ، نشر ايفانوف ، **مجلة كلية الآداب** ، **جامعة القاهرة** ، الجزء الثاني ، المجلد الرابع ، (ديسمبر ١٩٣٦م) .

اليماني ، أحمد

(١٩) سيرة جعفر ، **مجلة كلية الآداب** ، **جامعة القاهرة** ، الجزء الثاني ، المجلد الرابع ، (ديسمبر ١٩٣٦م) .

رابعا : أبحاث علمية ورسائل جامعية

البيطار ، أمينة

(١) موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجرى . **رسالة ماجستير** ، **جامعة القاهرة** ، رقم ١٠٠٢ .

الجاسر ، حمد

(٢) كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافيــة جزيرة العرب ، بحث قــدم **للنــدوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية** (كلية الآداب ، جامعة الرياض) ·

الذويب ، عبد المجيد

(٣) الجغرافيون العرب ودورهم في التعريف بالجزيرة العربية ، بحث قدم للندوة نفسها·

ربيع ، (الدكتور) حسنين محمد

(٤) وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانــىء الحجــاز واليمــن فــي العصور الوسطى ، بحث قدم للندوة نفسها ·

الراشد ، (الدكتور) سعد عبد العزيز — Al-Rashid, S'aad Abdulaziz

(٥) Acritical Study of the Pilgrim Road between Kufa and Mecca. Ph.D. Thesis. University of Leeds (May, 1977).

السيد ، أيمن فؤاد

(٦) ايضاحات جديدة حول بعض مصادر جنوب الجزيرة العربيــة فــي العصر الفاطمى ، بحث مقدم للندوة السابقة ·

السليمان ، علي بن حسين

(٧) النشاط التجارى فــي الجزيرة العربيه في العصور الوسطــى ، **رسالــة دكتوراه ، جامعة القاهرة** ، رقم ١٣٣٥ ·

عنقاوى ، (الدكتور) عبد الله عقيل — Ankawi, Abdullah A.

(٨) المؤرخ تقي الديــن الفاسى وكتابه شفاء الغرام ، بحث ألقى في الندوة السابقة ·

(٩) The organization and Role of the Pilgrimage during the Mamluk Period. Ph.D. Thesis, University of Cambridge (December, 1968).

القوصي ، عطية

(١٠) تجارة مصر في البحر الأحمر حتى سقوط الدولة العباسيــة ، **رسالــة دكتوراه ، جامعة القاهرة** ، رقم ١١٤٩ ·

المراجع غير العربية

1. **Ankawi, Abdullah, *The Pilgrimage to Mecca in Mamluk Times.* Arabian Studies, R.B. Serjeant and R.L. Bidwell, London (1974).**

2. **Ashtor, E., *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages,* London (1976).**

3. **De Goeje, M.J., *Memoire Sur Les Garmathes Bahrain,* Leiden (1886).**

4. **De, Gaury, Gerald,** *Rulers of Mecca,* (First Published, 1951).

5. **Esin, Emel,** *Mecca the Blessed Madinah the Radiant,* Italy (1976).

6. **Gibon, Edward,** *The History of Decline and Fall of the Roman Empire,* Ed. by B.B. Bury.

7. **Goitein, S.,** *Jews and Arabs,* New York (1955).

8. **Goitein, S.,** *A Mediterranean Society,* New York (1968).

9. **Goitein, S.,** *Studies in Islamic History and Institutions.* Leiden (1968).

10. **Grunebaun, G.E.,** *Muhammadan Festivals,* London (1976).

11. **Hamadani, Abbas,** *Evaluation of Organisational Structure of the Fatimi Da'wah,* Arabian Studies, Ed. by R.B. Serjeant and R.L. Bidwel, London (1976).

12. **Al Hamdani, Hussain,** Letters of Al-Mustansir, *Bulletin School of Oriental Studies,* Part VII. (1934).

13. **Heyd, W.,** *Histoire Du Commerce Du Levant Au Moyen Age,* Leipzig (1925).

14. **Hurgronje, C. Snouk,** *Mekka in the Later Part of the 19th Century,* Leiden (1970).

15. **Ivanov, Vladimir,** *The Rise of the Fatimids,* Oxford (1942).

16. **Lane-Poole, Stanley,** *A History of Egypt in the Middle Ages,* London (1901).

17. **Mansfield, Peter,** *The Arabs,* London (1977).

18. **Metz, Adam,** *Die Renaissance des Islams.*

نقله الى العربية محمد عبد الهادى أبو ريده بعنوان **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى** ٠ط ٤، بيروت (١٩٦٧م) ٠

19. **O'Leary, De Lacy,** A Short History of the Fatimid Khalifate, London (1923).

20. **Rushbrooke, E.G.N.,** *Western Arabia and the Red Sea,* Oxford, June (1946).

21. **Schoff, A.M.,** *The Periplus of the Erythraean Sea,* London (1912).

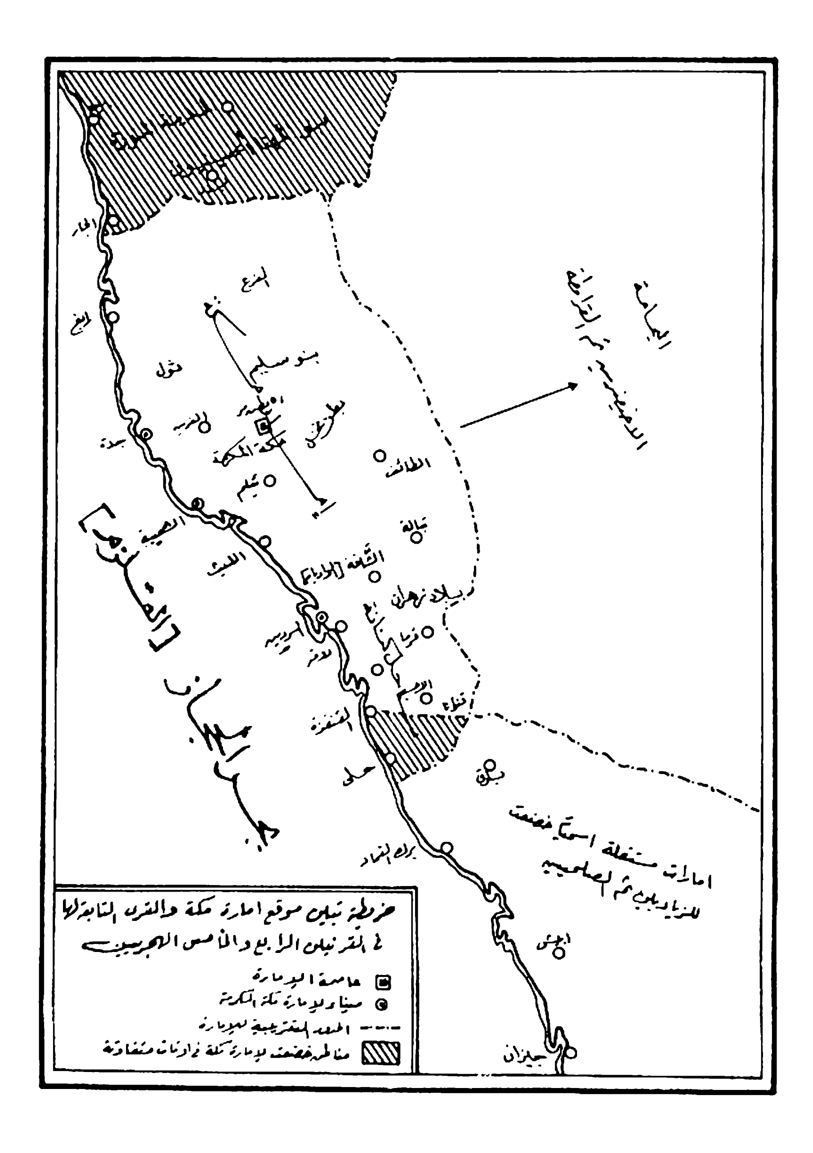
22. **Al-Wohaibi, Abdullah,** *The Northern Hijaz in the Writings of the Arab Geographers* 800-1150, Beirut (1978).

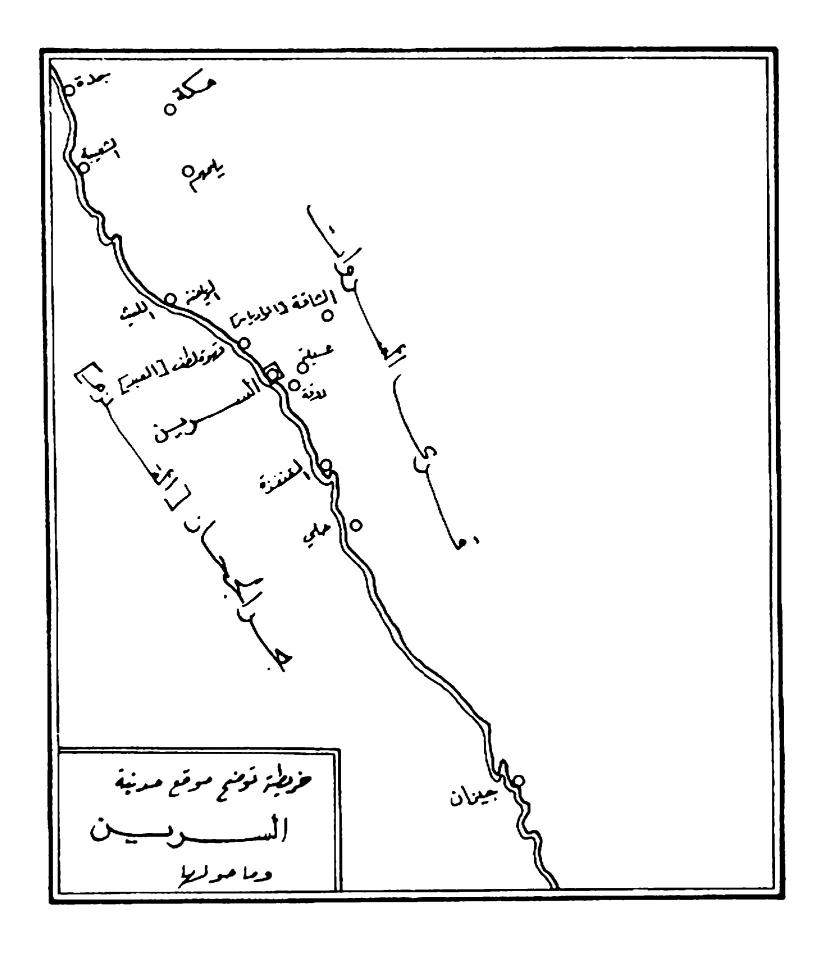


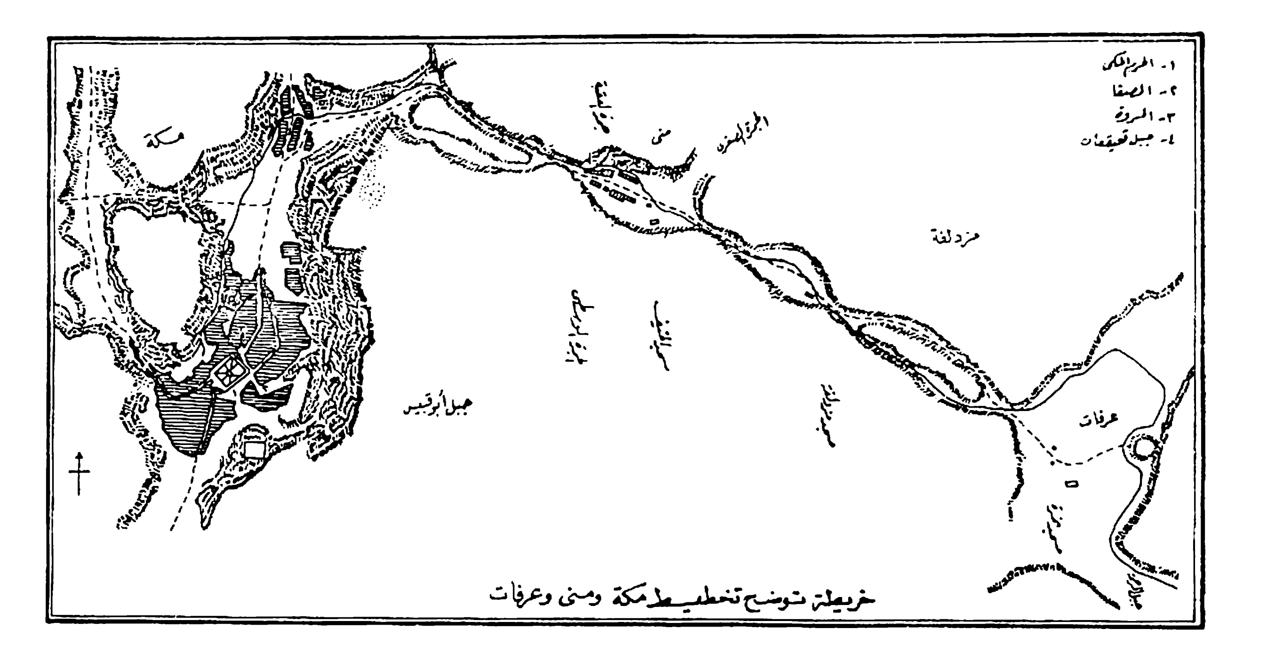


الخرائط والصور

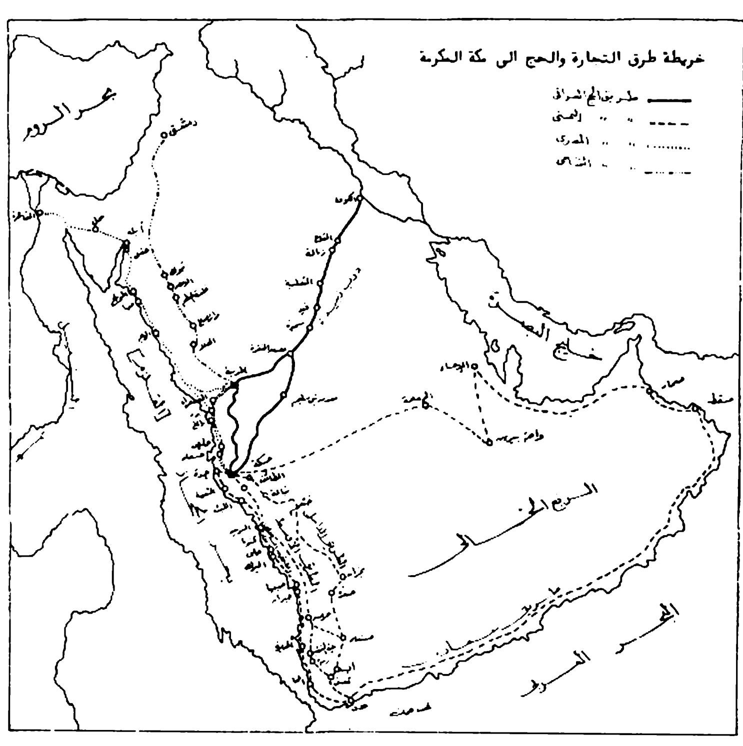



الجار
ينبع
بنو سليم
مكة المكرمة
جدة
الطائف
تبالة
السرين
حلي
امارات مستقلة اسمياً خضعت
للزياديين ثم الصليحيين
جيزان
خريطة تبين موقع امارة مكة والقرى التابعة لها
في القرنين الرابع والخامس الهجريين
عاصمة الإمارة
ميناء لإمارة مكة المكرمة
الحدود التقريبية للإمارة
مناطق خضعت لإمارة مكة في أزمان متفاوتة

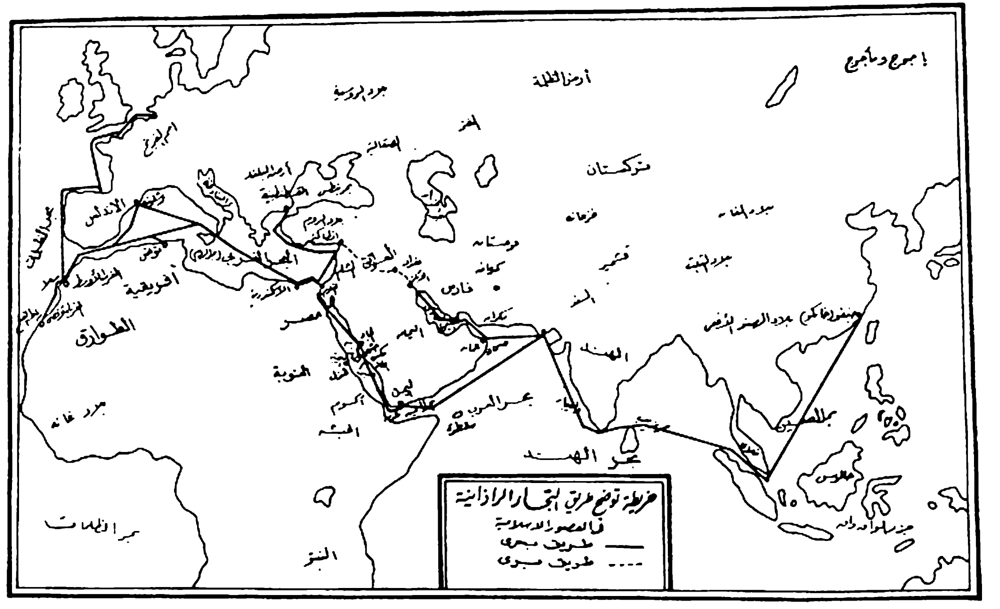

جدة
مكة
الشعيبة
يلملم
الليث
السرين
دوقة
القنفذة
حلي
جيزان
خريطة توضح موقع مدينة
السرين
وما حولها



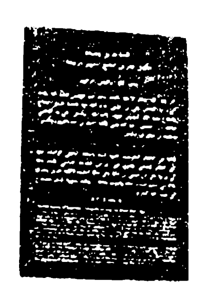
خريطة توضح تخطيط مكة ومنى وعرفات



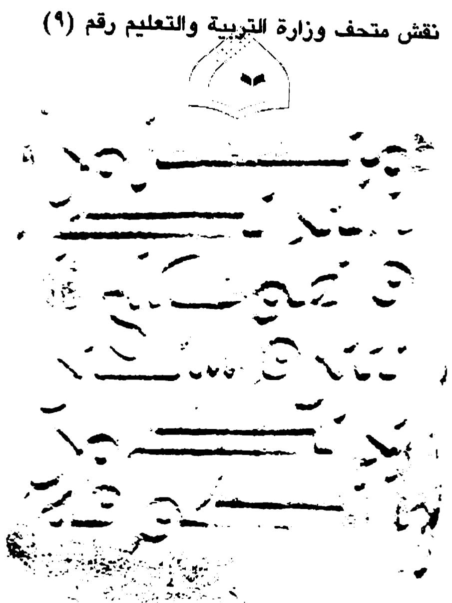
• اعتمدت في هذه الخريطة على دراساتي النظرية في الكتب العربية وعلى الخرائط التي وردت في رسالتي الدكتورين عبدالله عقيل عنقاوي ، سعد عبدالعزيز الراشد .



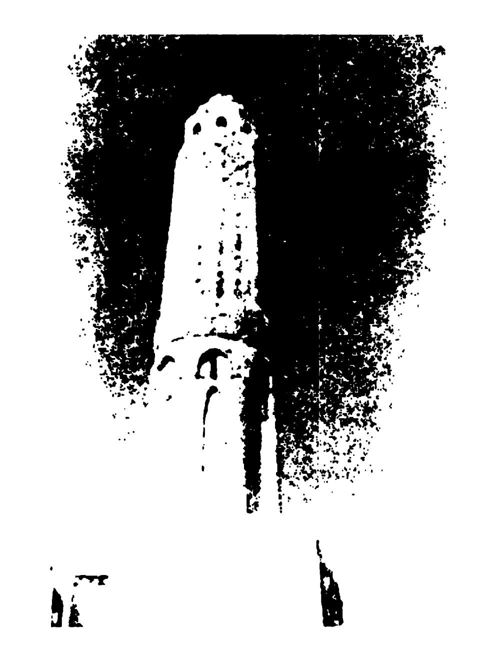
مسالك التجار الرازانية كما وردت في المسالك والممالك لابن خرداذبة

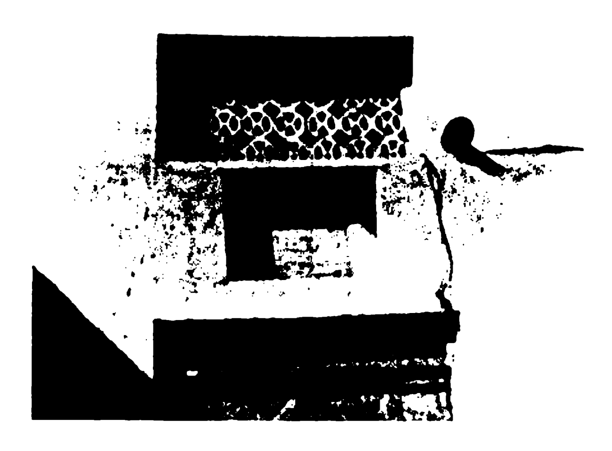
نقش متحف وزارة التربية والتعليم رقم (٩)



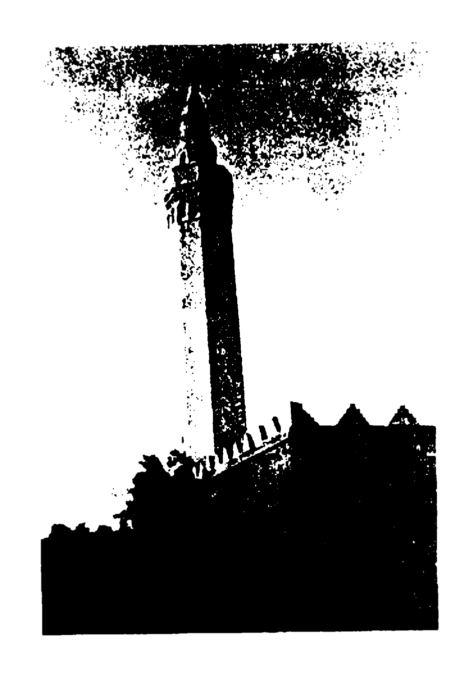
نقش متحف وزارة التربية والتعليم رقم ٢٨٥٥



مئذنة لأحد الجوامع في زبيد



واجهة جامع الأشاعر في زبيد



جامع الجند ويقع على الطريق الداخلي للحجاج

الفهارس



أولا : فهرس الاشخاص والقبائل والأمم والأسر

أ

* الحسن بن محمد السديدي

ن

و

هـ

ي

ثانيا: فهرس الأماكن و نحوها

ك

م

ن





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

شهدت مكة قيام الدعوة المحمدية ، فمضى الرسول الكريم يدعو قومه الى عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأوثان وسواها من دعاوى الجاهلية ومخلفاتها ، غير أن عشيرته قريشا ـ فيما عدا نفر يسير منهم ـ ناصبوه العداء وأجمعوا أمرهم على مناوأة الدعوة الجديدة والقضاء عليها • فأخذ الرسول يتلمس جانب القبائل العربية لمناصرته وتأييده ، فتم ذلك على يد الأنصار •

هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة ، وفي رحاب المدينة وبين أنصاره الجدد من الأوس والخزرج استقر الرسول الكريم وصحابته من المهاجرين حيث قامت أول دولة اسلامية في التاريخ استطاعت في غضون سنوات قليلة أن تهزم كبرياء قريش وأن تفتح مكة المكرمة ، ثم لم تلبث الأنحاء الأخرى في الجزيرة العربية أن استجابت لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانضوت تحت راية الاسلام وآمنت برسالة السماء •

وبعد فتح مكة حفظ الرسول صلى الله عليه وسلم للمدينة نصرتها وتأييدها فاتخذها عاصمة للدولة الجديدة ، ولكنه في المقابل لم يقلل من مكانة مكة ذات التاريخ العريق ، فقد عمل على تطهير كعبتها من الأصنام بعد أن أصبحت قبلة للمسلمين في جميع مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يرد الرسول الكريم على معاملة القرشيين بمثلها بل حفظ لهم مكانتهم ومجدهم ، هذا الى أن الدين الجديد لم ينتقص شيئا من مكانة مكة الدينية بل لقد ازدادت أهميتها حيث أصبح الحج ركنا من أركان الاسلام الخمسة وفرضا على جميع المسلمين في مختلف بقاع الأرض ، كما قام الرسول بنفسه بتطبيق المبادىء السماوية لهذه الفريضة الدينية على نحو يغاير الطريقة الجاهلية ويتفق مع المبادىء الأخلاقية التي جاء بها الدين الحنيف ، ثم أقفل باب الهجرة الى المدينة المنورة حتى تحتفظ مكة برجالها وحيويتها ، كما رويت عنه صلى الله عليه وسلم آثار كثيرة تشيد بفضائل مكة وتحث على الاستيطان فيها •

لم يلبث الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك مليا حتى انتقل الى الرفيق الأعلى بعد حياة حافلة بالكفاح ضد الجاهلية والوثنية فسارع صحابته من المهاجرين والأنصار الى اختيار خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يتولى قيادة الجماعة الاسلامية ويتمم مكارم الأخلاق التي جاء بها الدين الحنيف ، ويأخذ على عاتقه نشر العقيدة الاسلامية في جميع أنحاء المعمورة • فكان اختيار أبي بكر ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين ، وتولت المدينة المنورة وصنوتها مكة ورجالاتهما من الأنصار وصناديد قريش قيادة الجحافل العربية والاسلامية التي تمكنت من